الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل

الزمخشري

العلامة جار الله أبو القاسم محمود بن عمر الزمخشرى المولود في رجب عام 467 هـ / 1074م والمتوفي ليلة عرفة عام 538 هـ/ 1143م

المجلد الثاني عشر

الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل

المجلد الثاني عشر

تتمة سورة الشورى

ما كان يدرى ما القرآن قبل نزوله عليه ، فما معنى قوله وَلَا الْإِيمانُ والأنبياء لا يجوز عليهم إذا عقلوا وتمكنوا من النظر والاستدلال أن يخطئهم الإيمان باللّه وتوحيده ، ويجب أن يكونوا معصومين من ارتكاب الكبائر ومن الصغائر التي فيها تنفير قبل المبعث وبعده ، فكيف لا يعصمون من الكفر؟ قلت : الإيمان اسم يتناول أشياء : بعضها الطريق إليه العقل ، وبعضها الطريق إليه السمع ، فعنى به ما الطريق إليه السمع دون العقل ، وذاك ما كان له فيه علم حتى كسبه بالوحي. ألا ترى أنه قد فسر الإيمان في قوله تعالى وَما كانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمانَكُمْ بالصلاة ، لأنها بعض ما يتناوله الإيمان مَنْ نَشاءُ مِنْ عِبادِنا من له لطف ومن لا لطف له ، فلا هداية تجدى عليه صِراطِ اللَّهِ بدل. وقرئ : لتهدي ، أى : يهديك اللّه. وقرئ : لتدعو.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ حم عسق كان ممن تصلى عليه الملائكة ويستغفرون له ويسترحمون له» «1».

سورة الزخرف

مكية. وقال مقاتل : إلا قوله وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا وهي تسع وثمانون آية [نزلت بعد الشورى]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الزخرف (43) : الآيات 1 إلى 4]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) وَالْكِتابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (3) وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتابِ لَدَيْنا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ (4)
أقسم بالكتاب المبين وهو القرآن وجعل قوله إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا جوابا للقسم «2»

(1). أخرجه الثعلبي وابن مردويه باسنادهما إلى أبى بن كعب.
(2). قال محمود : «أقسم بالكتاب المبين وجعل قوله إِنَّا جَعَلْناهُ قُرْآناً عَرَبِيًّا جوابا للقسم ... الخ» قال أحمد : تنبيه حسن جدا. ووجه التناسب فيه أنه أقسم بالقرآن ، وإنما يقسم بعظيم ، ثم جعل المقسم عليه تعظيم القرآن بأنه قرآن عربى مرجو به أن يعقل به العالمون ، أى : يتعقلوا آيات الله تعالى فكان جواب القسم مصححا للقسم ، وكذلك أقسم أبو تمام بالثنايا ، وإنما يقسم الشعراء بمثل هذا الاشعار بأنه في غاية الحسن ، ثم جعل المقسم عليه كونها في نهاية الحسن ، لا أنها هي أغريض ، وهو من أحسن تشبيهات الثايا ، فجعل المقسم عليه مصححا للقسم والله أعلم.

وهو من الأيمان الحسنة البديعة ، لتناسب القسم والمقسم عليه ، وكونهما من واد واحد. ونظيره قول أبى تمام :
وثناياك إنّها إغريض «1»
الْمُبِينِ البين للذين أنزل عليهم ، لأنه بلغتهم وأساليبهم. وقيل : الواضح للمتدبرين.
وقيل الْمُبِينِ الذي أبان طرق الهدى من طرق الضلالة ، وأبان ما تحتاج إليه الأمة في أبواب الديانة جَعَلْناهُ بمعنى صيرناه معدّى إلى مفعولين. أو بمعنى خلقناه معدّى إلى واحد ، كقوله تعالى وَجَعَلَ الظُّلُماتِ وَالنُّورَ.
وقُرْآناً عَرَبِيًّا حال. ولعلّ : مستعار لمعنى الإرادة «2» ، لتلاحظ «3» معناها ومعنى الترجي «4» ، أى : خلقناه عربيا غير عجمى : إرادة أن تعقله العرب ، ولئلا يقولوا لولا فصلت آياته ، وقرئ : أمّ الكتاب بالكسر وهو اللوح ، كقوله تعالى بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ سمى بأم الكتاب ، لأنه الأصل الذي أثبتت فيه الكتب منه تنقل وتستنسخ. على رفيع الشأن في الكتبَ ، لكونه معجزا من بينها حَكِيمٌ ذو حكمة بالغة ، أى : منزلته عندنا منزلة كتاب هما صفتاه ، وهو مثبت في أم الكتاب هكذا.

[سورة الزخرف (43) : آية 5]

أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً أَنْ كُنْتُمْ قَوْماً مُسْرِفِينَ (5)

(1) وثناياك إنها إغريض ولآل نوار أرض وميض
وأقاح منور في بطاح هزه في الصباح روض أريض
لأبى تمام. والاغريض : البرد. والطلع والنوار : كرمان نور الشجر ، واحده نوارة. والوميض : شديد البريق واللمعان. والأقاح : نور أبيض طيب الرائحة. والأريض : طيب الأرض ، فيكون نضرا بهيجا : أقسم بثناياها أى : مقدم أسنانها ، إنها : أى ثناياها إغريض. فالقسم وجوابه متعلقان بشيء واحد ، وشبههما بالبرد وبنوار الأرض الشبيه باللآلئ ، فاضافتها إليه للتشبيه. ووميض : نعت مقطوع للنوار. أو تابع للاغريض ، لكن الأول أجزل ، وشبهه بالأقاح الذي نور في البطاح ، لأنه أنضر وأزهى. وهزه في الصباح من صفة الأقاح «و خص الصباح ليكون على الزهر بقية من الندى ، فيكون في غاية النضرة والزهو. وفيه إيماء لتشبيه قوام محبوبته بأغصان الروض في التمايل وظهور الزهور في أعلى كل منهما ، ولك أن تجعل «وميض» صفة للآلئ ، وإن كانت جمعا ، لأن فعيل بمعنى فاعل قد يعامل معاملته فعيل بمعنى مفعول ، فيطلق على الواحد والمتعدد مذكرا ومؤنثا. ويروى بدل الشطر الثاني : ولآل توم ورق وميض. والتوم : واحده تومة «و هي حبة تعمل من الفضة كالدرة ، ولا إشكال في إعرابه.
(2). قال محمود : «و لعل مستعار لمعنى الارادة» «فسره بالارادة» قال أحمد : قد بينا فساد ذلك غير ما مرة.
(3). قوله «لتلاحظ معناها» لعله : ليلاحظ. (ع)
(4). قوله «و معنى الترجي» لعله : أو معنى. (ع)

أَفَنَضْرِبُ عَنْكُمُ الذِّكْرَ صَفْحاً بمعنى : أفننحى عنكم الذكر ونذوده عنكم على سبيل المجاز ، من قولهم : ضرب الغرائب عن الحوض. ومنه قول الحجاج : ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل. وقال طرفة :

أضرب عنك الهموم طارقها ضربك بالسّيف قونس الفرس «1»

والفاء للعطف على محذوف ، تقديره : أنهملكم فنضرب عنكم الذكر ، إنكارا لأن يكون الأمر على خلاف ما قدّم من إنزاله الكتاب. وخلقه قرآنا عربيا ، ليعقلوه ويعملوا بمواجبه. وصفحا على وجهين. إما مصدر من صفح عنه: إذا أعرض ، منتصب على أنه مفعول له ، على معنى : أفنعزل عنكم إنزال القرآن وإلزام الحجة به إعراضا عنكم. وإمّا بمعنى الجانب من قولهم : نظر إليه بصفح وجهه وصفح وجهه ، على معنى : أفننحيه عنكم جانبا ، فينتصب على الظرف كما تقول : ضعه جانبا ، وامش جانبا. وتعضده قراءة من قرأ : صفحا بالضم. وفي هذه القراءة وجه آخر : وهو أن يكون تخفيف صفح جمع صفوح ، وينتصب على الحال ، أى : صافحين معرضين أَنْ كُنْتُمْ أى : لأن كنتم. وقرئ : إن كنتم ، وإذ كنتم. فإن قلت : كيف استقام معنى إن الشرطية ، وقد كانوا مسرفين على البتّ؟ قلت : هو من الشرط الذي ذكرت أنه يصدر عن المدل «2» بصحة الأمر ، المتحقق لثبوته ، كما يقول الأجير : إن كنت عملت لك فوفني حقي ، وهو عالم بذلك ، ولكنه يخيل في كلامه أن تفريطك في الخروج عن الحق : فعل من له شك في الاستحقاق ، مع وضوحه استجهالا له.

[سورة الزخرف (43) : الآيات 6 إلى 8]

وَكَمْ أَرْسَلْنا مِنْ نَبِيٍّ فِي الْأَوَّلِينَ (6) وَما يَأْتِيهِمْ مِنْ نَبِيٍّ إِلاَّ كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (7) فَأَهْلَكْنا أَشَدَّ مِنْهُمْ بَطْشاً وَمَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ (8)

وَما يَأْتِيهِمْ حكاية حال ماضية مستمرة ، أى : كانوا على ذلك. وهذه تسلية لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن استهزاء قومه. الضمير في أَشَدَّ مِنْهُمْ للقوم المسرفين ، لأنه صرف الخطاب عنهم إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يخبره عنهم وَمَضى مَثَلُ الْأَوَّلِينَ أى سلف في القرآن في غير موضع منه ذكر قصتهم وحالهم العجيبة التي حقها أن تسير مسير المثل ، وهذا وعد لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ووعيد لهم.

(1). تقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء صفحة 87 فراجعه إن شئت اه مصححه.
(2). قوله «عن المدل» أى : المواثق. أفاده الصحاح. (ع).

[سورة الزخرف (43) : الآيات 9 إلى 11]

وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ (9) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَجَعَلَ لَكُمْ فِيها سُبُلاً لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (10) وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ تُخْرَجُونَ (11)

فإن قلت : قوله لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ وما سرد من الأوصاف عقيبه إن كان من قولهم «1» ، فما تصنع بقوله فَأَنْشَرْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ تُخْرَجُونَ وإن كان من قول اللّه ، فما وجهه؟ قلت : هو من قول اللّه لا من قولهم. ومعنى قوله لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ الذي من صفته كيت وكيت ، لينسبنّ خلقها إلى الذي هذه أوصافه وليسندنه إليه. بِقَدَرٍ بمقدار يسلم معه البلاد والعباد ، ولم يكن طوفانا.

[سورة الزخرف (43) : الآيات 12 إلى 14]

وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْواجَ كُلَّها وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعامِ ما تَرْكَبُونَ (12) لِتَسْتَوُوا عَلى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُوا نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا وَما كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ (13) وَإِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ (14)
والْأَزْواجَ الأصناف ما تَرْكَبُونَ أى تركبونه. فإن قلت : يقال : ركبوا الأنعام وركبوا في الفلك «2». وقد ذكر الجنسين فكيف قال ما تركبونه؟ قلت : غلب المتعدّى بغير واسطة ،

(1). قال محمود : «فان قلت : قوله لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ وما سرد من الأوصاف عقبه إن كان من قولهم ... الخ» قال أحمد : الذي يظهر أن الكلام مجزأ ، فبعضه من قولهم ، وبعضه من قول اللّه تعالى ، فالذي هو من قولهم خَلَقَهُنَّ ، وما بعده من قول اللّه عز وجل ، وأصل الكلام أنهم قالوا : خلقهن اللّه ويدل عليه قوله في الآية الأخرى وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ثم لما قالوا : خلقهن اللّه وصف اللّه تعالى ذاته بهذه الصفات ، ولما سبق الكلام كله سياقه وأخذه ، حذف الموصوف من كلامهم ، وأقيمت الصفات المذكورة في كلام اللّه تعالى مقامه كأنه كلام واحد. ونظير هذا أن تقول للرجل : من أكرمك من القوم؟ فيقول أكرمنى زيد ، فتقول أنت واصفا للمذكور : الكريم الجواد الذي من صفته كذا وكذا ، ثم لما وقع الانتقال من كلامهم إلى كلام اللّه عز وجل ، جرى كلامه عز وجل على ما عرف من الافتنان في البلاغة ، فجاء أوله على لفظ الغيبة وآخره على الانتقال منها ، إلى التكلم في قوله فَأَنْشَرْنا كل ذلك افتنان في أفنان البلاغة. ومن هذا النمط قوله تعالى حكاية عن موسى قالَ عِلْمُها عِنْدَ رَبِّي فِي كِتابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسى الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وَسَلَكَ لَكُمْ فِيها سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَخْرَجْنا بِهِ أَزْواجاً مِنْ نَباتٍ شَتَّى فجاء أول الكلام حكاية عن موسى ، إلى قوله وَلا يَنْسى ثم وقع الانتقال من كلام موسى إلى كلام اللّه تعالى ، فوصف ذاته أوصافا متصلة بكلام موسى ، حتى

(2). قال محمود : «يقال ركبت الدابة وركبت في الفلك ... الخ» قال أحمد : لم يحرر العبارة في هذا الموضع فان قوله «غلب المتعدي بغير واسطة على المتعدي بنفسه» يوهم أن بين الفعلين تباينا وليس كذلك ، فان المتعدي إلى الأنعام هو عين الفعل المتعدي إلى السفن غاية ما ، ثم إن العرب خصته باعتبار بعض مفاعيله بالواسطة ، وباعتبار بعضها بالتعدي بنفسه ، والاختلاف بالتعدي والقصور. أو باختلاف آلات التعدي.
وباختلاف أعداد المفاعيل لا يوجب الاختلاف في المعنى ، فمن ثم يعدون الفعل الواحد مرة بنفسه ومرة بواسطة ، مثل : سكرت وأخواته ، ويعدون الأفعال المترادفة بآلات مختلفة ، مثل دعوت وصليت ، فإنك تقول : صلى النبي على آل أبى أوفى ، ولو قلت : دعا على آل أبى أوفى : لأفهم عكس المقصود ، ولكن دعا لآل أبى أوفى ، ويعدون بعضها إلى مفعولين ، ومرادفه إلى مفعول واحد ، كعلم وعرف ، فلا يترتب على الاختلاف بالتعدي.
والقصور : الاختلاف في المعنى ، فالذي يحرر من هذا : أن ركب باعتبار القبيلين معناه واحد ، وإن خص أحدهما باقتران الواسطة والآخر بسقوطها ، فالصواب أحد الأمرين : إما تقدير المتعلقين على ما هما عليه لو انفردا ، فيكون التقدير ما تركبونه وتركبون فيه ، والأقرب تعليله باعتبار التعدي بنفسه ، ويكون هذا من تغليب أحد اعتباري الفعل على الآخر ، وهو أسهل من التغليب في قوله تعالى فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ على أحد التأويلين فيه : فان التباين ثم ثابت بين الفعلين من حيث المعنى ، أعنى : أجمع على الأمر وجمع الشركاء ، ولكن لما تقاربا : غلب أحدهما على الآخر ، ثم جعل المغلب هو المتعدي بنفسه ، والله أعلم.

لقوّته على المتعدّى بواسطة ، فقيل : تركبونه عَلى ظُهُورِهِ على ظهور ما تركبون وهو الفلك والأنعام. ومعنى ذكر نعمة اللّه عليهم : أن يذكروها في قلوبهم معترفين بها مستعظمين لها ، ثم يحمدوا عليها بألسنتهم ، وهو ما يروى عن النبي صلى اللّه عليه وسلم : أنه كان إذا وضع رجله في الركاب قال : «بسم اللّه» فإذا استوى على الدابة قال : «الحمد للّه على كل حال ، سبحان الذي سخر لنا هذا ... إلى قوله ... لمنقلبون» وكبر ثلاثا وهلل ثلاثا «1». وقالوا : إذا ركب «2» في السفينة قال : بِسْمِ اللَّهِ مَجْراها وَمُرْساها إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ وعن الحسن بن على رضى اللّه عنهما أنه رأى رجلا يركب دابة فقال : سبحان الذي سخر لنا هذا. فقال : أبهذا أمرتم؟ فقال : وبم أمرنا؟ قال : أن تذكروا نعمة «3» ربكم : كان قد أغفل التحميد فنبهه عليه. وهذا من حسن مراعاتهم لآداب اللّه ومحافظتهم على دقيقها وجليلها. جعلنا اللّه من المقتدين بهم ، والسائرين بسيرتهم ، فما أحسن بالعاقل النظر في لطائف الصناعات ، فكيف بالنظر في لطائف الديانات؟ مُقْرِنِينَ مطيقين. يقال : أقرن الشيء ، إذا أطاقه. قال ابن هرمة :

(1). أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم من حديث على. وأسنده الثعلبي باللفظ المذكور هنا. ولمسلم من طريق على الأرزى عن ابن عمر «أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان إذا استوى على بعيره خارجا إلى سفر كبر ثلاثا ثم قال : سُبْحانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنا هذا الآية.
(2). لم أجده من فعله صلى اللّه عليه وسلم. وفي الطبراني من حديث الضحاك عن ابن عباس رفعه «أمان لأمتى من الغرق إذا ركبوا في الفلك أن يقولوا : بسم اللّه ، وما قدروا اللّه حق قدره - الآية بسم اللّه مجريها ومرساها» ورواه في الدعاء من حديث الحسن بن على رضى اللّه عنهما.
(3). أخرجه الطبري والطبراني في الدعاء من طريق مجلس عن حسين بن على فذكره.

وأقرنت ما حمّلتنى ولقلّما يطاق احتمال الصّد يا دعد والهجر «1» وحقيقة «أقرنه» : وجده قرينته وما يقرن به، لأنّ الصعب لا يكون قرينة للضعيف. ألا ترى إلى قولهم في الضعيف : لا يقرن به الصعبة. وقرئ : مقرنين ، والمعنى واحد. فإن قلت : كيف اتصل بذلك قوله وَإِنَّا إِلى رَبِّنا لَمُنْقَلِبُونَ؟ قلت : كم من راكب دابة عثرت به أو شمست أو تقحمت «2» أو طاح من ظهرها فهلك ، وكم من راكبين في سفينة انكسرت بهم فغرقوا، فلما كان الركوب مباشرة أمر مخطر ، واتصالا بسبب من أسباب التلف : كان من حق الراكب وقد اتصل بسبب من أسباب التلف أن لا ينسى عند اتصاله به يومه ، وأنه هالك لا محالة فمنقلب إلى اللّه غير منفلت من قضائه ، ولا يدع ذكر ذلك بقلبه ولسانه حتى يكون مستعد اللقاء اللّه بإصلاحه من نفسه ، والحذر من أن يكون ركوبه ذلك من أسباب موته في علم اللّه وهو غافل عنه ، ويستعيذ باللّه من مقام من يقول لقرنائه : تعالوا نتنزه على الخيل أو في بعض الزوارق ، فيركبون حاملين مع أنفسهم أوانى الخمر والمعازف ، فلا يزالون يسقون حتى تميل طلاهم «3» وهم على ظهور الدواب ، أو في بطون السفن وهي تجرى بهم ، لا يذكرون إلا الشيطان ، ولا يمتثلون إلا أوامره. وقد بلغني أنّ بعض السلاطين ركب وهو يشرب من بلد إلى بلد بينهما مسيرة شهر ، فلم يصح إلا بعد ما اطمأنت به الدار ، فلم يشعر بمسيره ولا أحس به ، فكم بين فعل أولئك الراكبين وبين ما أمره اللّه به في هذه الآية. وقيل : يذكرون عند الركوب ركوب الجنازة.

[سورة الزخرف (43) : الآيات 15 إلى 18]

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً إِنَّ الْإِنْسانَ لَكَفُورٌ مُبِينٌ (15) أَمِ اتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَناتٍ وَأَصْفاكُمْ بِالْبَنِينَ (16) وَإِذا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلاً ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ (17) أَوَ مَنْ يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ وَهُوَ فِي الْخِصامِ غَيْرُ مُبِينٍ (18)

(1). لابن هرمة «و أقرنت الشيء : إذا وجدته قرينا لك لا يزيد عنك ، ثم استعمل في الاطاقة توسعا. ولقلما اللام للقسم. وقل : فعل. وما : كافة ، ركبت معه فصار المراد منه النفي ولا فاعل له ، وشبه المعقول من الصد والهجر بالمحسوس على طريق الكناية والحمل تخييل. يقول : أطقت ما حملتني إياه من صدك عنى وهجرك لي، والحال أنه لا يطاق احتمالهما. وفي الاعتراض بندائها : نوع استعطاف. [.....]

(2). قوله «أو شمست أو تقحمت» في الصحاح : شمس الفرس شموسا وشماسا : منع ظهره. وفيه «القحمة» بالضم : المهلكة. وقحم الطريق : مصاعبه اه ، فتقحم الدابة براكبها : خوضها به في قحمته. (ع)

(3). قوله «حتى تميل طلاهم» في الصحاح «الطلى» الأعناق. قال الأصمعي : واحدتها طلية. وقال أبو عمرو والفراء : واحدتها طلاة. (ع)

وَجَعَلُوا لَهُ مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً متصل بقوله وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ أى : ولئن سألتهم عن خالق السماوات والأرض ليعترفن به ، وقد جعلوا له مع ذلك الاعتراف من عباده جزاء فوصفوه بصفات المخلوقين. ومعنى مِنْ عِبادِهِ جُزْءاً أن قالوا الملائكة بنات اللّه ، فجعلوهم جزءا له وبعضا منه ، كما يكون الولد بضعة من والده وجزءا له. ومن بدع التفاسير : تفسير الجزء بالإناث ، وادعاء أنّ الجزء في لغة العرب : اسم للإناث ، وما هو إلا كذب على العرب، ووضع مستحدث منحول ، ولم يقنعهم ذلك حتى اشتقوا منه : أجزأت المرأة ، ثم صنعوا بيتا وبيتا :

إن أجزأت حرّة يوما فلا عجب «1»

زوجتها من بنات الأوس مجزئة «2»

وقرئ : جزؤا ، بضمتين لَكَفُورٌ مُبِينٌ لجحود للنعمة ظاهر جحوده ، لأنّ نسبة الولد إليه كفر ، والكفر أصلالكفران كله أَمِ اتَّخَذَ بل اتخذ ، والهمزة للإنكار ، تجهيلا لهم وتعجيبا من شأنهم ، حيث لم يرضوا بأن جعلوا للّه من عباده جزءا ، حتى جعلوا ذلك الجزء شر الجزأين : وهو الإناث دون الذكور ، على أنهم أنفر خلق اللّه عن الإناث وأمقتهم لهنّ ، ولقد بلغ بهم المقت إلى أن وأدوهنّ ، كأنه قيل : هبوا أنّ إضافة اتخاذ الولد إليه جائزة فرضا وتمثيلا ، أما تستحيون من الشطط في القسمة؟ ومن ادعائكم «3» أنه آثركم على نفسه بخير الجزأين وأعلاهما وترك له شرهما وأدناهما؟

(1) إن أجزأت حرة يوما فلا عجب قد تجزئ الحرة المذكار أحيانا

قيل : «الجزؤ» اسم للأنثى ، واشتقوا منه : أجزأت المرأة ، إذا ولدت جزءا : أى أنثى. وأنكره الزمخشري وقال إنه اصطناع لا لغة. والمعنى : إن ولدت امرأة حرة أنثى في بعض الأحيان فلا عجب ، فان الحرة التي تلد الذكور كثيرا قد تلد أنثى في بعض الأوقات. وقيل : حرة الأولى اسم امرأة ، والثانية صفة.

(2) زوجتها من بنات الأوس مجزئة للعوسج اللدن في أبيانها زجل

قيل : «المجزئة» التي تلد البنات. والجزؤ : البنت. وأنكره الزمخشري وقال : إنه مصنوع لا لغة. والعوسج : ضرب من الشوك. والمراد به : عود المغزل المتخذ منه. واللدن : اللين. والزجل : صوت دوران المغزل.

ونحوه : وزوجتها ، مبنى للمجهول. وروى : «نكحتها من بنات الأوس» هو أبو قبيلة سميت باسمه ، تلد تلك المرأة البنات. وجعل العوسج لدنا ، لأنه أكثر دويا ورنينا في دورانه.

(3). قال محمود : «كأنه قيل : هبوا أن إضافة الولد إليه جائزة فرضا وتمثيلا ، أما تستحيون من الشطط في القسمة؟ ومن ادعاء أنه آثركم على نفسه ... الخ» قال أحمد : نحن معاشر أهل السنة نقول : إن كل شيء بمشيئة اللّه تعالى ، حتى الضلالة والهدى : اتباعا لدليل العقل ، وتصديقا لنص النقل في أمثال قوله تعالى يُضِلُّ مَنْ يَشاءُ وَيَهْدِي مَنْ يَشاءُ وآية الزخرف هذه لا تزيد هذا المعتقد الصحيح إلا تمهيدا ، ولا تفيده إلا تصويبا وتسديدا ، فنقول : إذا قال الكافر : لو شاء اللّه ما كفرت ، فهذه كلمة حق أراد بها باطلا. أما كونها كلمة حق فلما مهدناه.

وأما كونه أراد بها باطلا ، فمراد الكافر بذلك أن يكون له الحجة على اللّه ، توهما أنه يلزم من مشيئة اللّه تعالى لضلالة من ضل : أن لا يعاقبه على ذلك ، لأنه إنما فعل مقتضى مشيئته كما توهم القدرية إخوان الوثنية ذلك ، فأشركوا بربهم ، واعتقدوا أن الضلالة وقعت بمشيئة الخلق على خلاف مشيئة الخالق ، فالذين أشركوا بالملائكة أرفع منهم درجة ، لأن هؤلاء أشركوا أنفسهم الدنية في ملك ربهم المتوحد بالربانية جل وعلا ، فإذا وضح ما قلناه فإنما رد اللّه عليهم مقالتهم هذه ، لأنهم توهموا أنها حجة على اللّه ، فدحض اللّه حجتهم، وأكذب أمنيتهم ، وبين أن مقالتهم صادرة عن ظن كاذب وتخرص محض ، فقال : ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ، وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ وقد أفصحت أخت هذه الآية مع هذه الآية عن هذا التقدير ، وذلك قوله تعالى في سورة الأنعام سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذاقُوا بَأْسَنا قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنا إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ فبين تعالى أن الحامل لهؤلاء على التكذيب بالرسل والاشراك باللّه :

اغترارهم بأن لهم الحجة على اللّه بقولهم لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا فشبه تعالى حالهم في الاعتماد على هذا الخيال بحال أوائلهم ، ثم بين أنه معتقد نشأ عن ظن خلب وخيال مكذب ، فقال إِنْ تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنْتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ثم لما أبطل أن يكون لهم في مقالتهم حجة على اللّه : أثبت تعالى الحجة له عليهم بقوله فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبالِغَةُ ثم أوضح أن الرد عليهم ليس إلا في احتجاجهم على اللّه بذلك ، لا لأن المقالة في نفسها كذب فقال فَلَوْ شاءَ لَهَداكُمْ أَجْمَعِينَ وهو معنى قولهم لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا من حيث أن لو مقتضاها امتناع الهداية لامتناع المشيئة ، فدلت الآية الأخيرة على أن اللّه تعالى لم يشأ هدايتهم ، بل شاء ضلالتهم. ولو شاء هدايتهم لما ضلوا ، فهذا هو الدين القويم والصراط المستقيم ، والنور اللائح والمنهج الواضح. والذي يدحض به حجة هؤلاء مع اعتقاد أن اللّه تعالى شاء وقوع الضلالة منهم : هو أنه تعالى جعل للعبد تأتيا وتيسرا للهداية وغيرها من الأفعال الكسبية. حتى صارت الأفعال الصادرة منه مناط التكليف ،

أما أهل الحق فمنحهم الله من هدايته قسطا ، وأرشدهم إلى الطريق الوسطى ، فانتهجوا سبل السلام ، وساروا ورائد التوفيق لهم إمام ، مستضيئين بأنوار العقول المرشدة إلى أن جميع الكائنات بقدرة الله تعالى ومشيئته ، ولم يغب عن أفهامهم أن يكون بعض الأفعال للعبد مقدورة ، لما وجدوه من التفرقة بين الاختيارية والقسرية بالضرورة ، لكنها قدرة تقارن بلا تأثير ، وتميز بين الضروري والاختياري في التصوير ، فهذا هو التحقيق ، والله ولى التوفيق.

وتنكير بَناتٍ وتعريف بِالْبَنِينَ وتقديمهنّ في الذكر عليهم لما ذكرت في قوله تعالى يَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ إِناثاً وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ. بِما ضَرَبَ لِلرَّحْمنِ مَثَلًا بالجنس الذي جعله له مثلا ، أى : شبها لأنه إذا جعل الملائكة جزءا لله وبعضا منه ، فقد جعله من جنسه ومماثلا له ، لأن الولد لا يكون إلا من جنس الوالد ، يعنى : أنهم نسبوا إليه هذا الجنس. ومن حالهم أن أحدهم إذا قيل له : قد ولدت لك بنت اغتم واربدّ وجهه «1» غيظا وتأسفا وهو مملوء من الكرب. وعن بعض العرب : أن امرأته وضعت أنثى ، فهجر البيت الذي فيه المرأة ، فقالت :

(1). قوله «و أريد وجهه غيظا» تغير إلى الغبرة من الغضب. أفاده الصحاح. (ع)

ما لأبى حمزة لا يأتينا يظل في البيت الّذى يلينا

غضبان أن لا نلد البنينا ليس لنا من أمرنا ماشينا

وإنّما نأخذ ما أعطينا «1» والظلول بمعنى الصيرورة ، كما يستعمل أكثر الأفعال الناقصة بمعناها. وقرئ : مسودّ ومسوادّ ، على أن في ظَلَّ ضمير المبشر ، ووَجْهُهُ مُسْوَدًّا جملة واقعة موقع الخبر ، ثم قال : أو يجعل للرحمن من الولد من هذه الصفة المذمومة صفته. وهو أنه يُنَشَّؤُا فِي الْحِلْيَةِ أى يتربى في الزبنة والنعمة ، وهو إذا احتاج إلى مجاثاة الخصوم «2» ومجاراة الرجال : كان غير مبين ، ليس عنده بيان ، ولا يأتى ببرهان يحتج به من يخاصمه ، «3» وذلك لضعف عقول النساء ونقصانهنّ عن فطرة الرجال ، يقال : قلما تكلمت امرأة فأرادت أن تتكلم بحجتها إلا تكلمت بالحجة عليها.

وفيه. أنه جعل النشء في الزينة والنعومة من المعايب والمذام ، وأنه من صفة ربات الحجال ، فعلى الرجل أن يجتنب ذلك ويأنف منه ، ويربأ بنفسه عنه ، ويعيش كما قال عمر رضى الله عنه : اخشوشنوا واخشوشبوا وتمعددوا «4». وإن أراد أن يزين نفسه زينها من باطن بلباس التقوى ، وقرئ : ينشأ ، وينشأ ، ويناشأ. ونظير المناشأة بمعنى الإنشاء : المغالاة بمعنى الإغلاء.

[سورة الزخرف (43) : آية 19]

وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبادُ الرَّحْمنِ إِناثاً أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ وَيُسْئَلُونَ (19)

(1) ما لأبى حمزة لا يأتينا يظن في البيت الذي يلينا
غضبان أن لا تلد البنينا ليس لنا من أمرنا ماشينا
وإنما نأخذ ما أعطينا حكمة ربى ذى الجلال فينا
لامرأة ولدت أنثى ، فهجر زوجها بيتها والاستفهام إنكارى. ويظل : استئناف ، أى يصير دائما في البيت الذي يقرب منا ، ولا يأوى إلى بيتنا. وغضبان : أى هو غضبان ، فهو على تقدير الاستفهام. ويحتمل أنه إخبار ، أى : هو غضبان من عدم ولادتنا البنين ، ثم ترضته واستعطفته بقولها : ليس لنا من أمرنا ما نشاء ، فخفف همزة شئنا القافية ، ولا نأخذ إلا ما أعطانا الله إياه ، لأن الأمر كله لله ، تلك حكمته فينا معاشر الخلق.
(2). قوله «إلى مجاثاة الخصوم» مفاعلة من «جثا يجثو» إذا برك على ركبتيه. أفاده الصحاح. (ع)
(3). قوله «يحتج به من يخاصمه» لعله : على من يخاصمه. أو لعله : يحج به من يخاصمه ، أى : يغلبه في الحجاج (ع)
(4). أخرجه أبو عبيد في الغريب : حدثنا أبو بكر بن عياش عن عاصم بن أبى العدس الأسدى عن عمر رضى الله عنه أنه قال. ذكر هذا وزاد : واجعلوا الرأس رأسين - الحديث» موقوفا. ورواه ابن حبان من طريق أبى عثمان.
قال : أتانا كتاب عمر فذكر قصة فيها هذا.

قد جمعوا في كفرة ثلاث كفرات. وذلك أنهم نسبوا إلى الله الولد ، ونسبوا إليه أخس النوعين وجعلوه من الملائكة الذين هم أكرم عباد الله على الله ، «1» فاستخفوا بهم واحتقروهم.

وقرئ : عباد الرحمن ، وعبيد الرحمن ، وعبد الرحمن ، وهو مثل لزلفاهم واختصاصهم. وإناثا ، وأنثا : جمع الجمع. ومعنى جعلوا : سموا وقالوا إنهم إناث. وقرئ : أشهدوا وأشهدوا ، بهمزتين مفتوحة ومضمومة. وآ أشهدوا بألف بينهما ، وهذا تهكم بهم ، بمعنى أنهم يقولون ذلك من غير أن يستند قولهم إلى علم ، فإن اللّه لم يضطرهم إلى علم ذلك ، ولا تطرّقوا إليه باستدلال ، ولا أحاطوا به عن خبر يوجب العلم ، فلم يبق إلا أن يشاهدوا خلقهم ، فأخبروا عن هذه المشاهدة سَتُكْتَبُ شَهادَتُهُمْ التي شهدوا بها على الملائكة من أنوثتهم وَيُسْئَلُونَ وهذا وعيد.

وقرئ : سيكتب ، وسنكتب : بالياء والنون. وشهادتهم ، وشهاداتهم. ويساءلون ، على : يفاعلون.

[سورة الزخرف (43) : آية 20]

وَقالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَخْرُصُونَ (20)

وَقالُوا لَوْ شاءَ الرَّحْمنُ ما عَبَدْناهُمْ هما كفرتان أيضا مضمومتان إلى الكفرات الثلاث ، وهما : عبادتهم الملائكة من دون اللّه ، وزعمهم أن عبادتهم بمشيئة اللّه ، كما يقول إخوانهم المجبرة «2». فإن قلت : ما أنكرت على من يقول : قالوا ذلك على وجه الاستهزاء ، ولو قالوه جادين لكانوا مؤمنين؟ قلت : لا دليل على أنهم قالوه مستهزئين ، وادعاء ما لا دليل عليه باطل ، على أن اللّه تعالى قد حكى عنه ذلك على سبيل الذم والشهادة بالكفر: أنهم جعلوا له من عباده جزءا ، وأنه اتخذ بنات وأصفاهم بالبنين ، وأنهم جعلوا الملائكة المكرمين إناثا ، وأنهم عبدوهم وقالوا : لو شاء الرحمن ما عبدناهم ، فلو كانوا ناطقين بها على طريق الهزء : لكان النطق بالمحكيات «3» - قبل هذا المحكي الذي هو إيمان عنده لوجدّوا في النطق به - مدحا لهم ، من قبل أنها كلمات كفر نطقوا بها على طريق الهزء ، فبقى أن يكونوا جادين ، وتشترك كلها في أنها كلمات كفر ، فإن قالوا : نجعل هذا الأخير وحده مقولا على وجه الهزء دون ما قبله ، فما بهم إلا تعويج كتاب اللّه الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ،

(1). قوله «هم أكرم عباد اللّه على اللّه» هذا عند المعتزلة. أما أهل السنة فبعض البشر أكرم عندهم من الملك. (ع)
(2). قوله «المجبرة» يريد أهل السنة ، حيث قالوا : إنه تعالى يريد الشر كالخير ، لأنه لا يقع في ملكه إلا ما يريد ، لكن هذا لا يستلزم الجبر ولا ينافي اختيار العبد ، لما له في أفعاله من الكسب وإن كانت مخلوقة له تعالى في الحقيقة ، بل الجبر إنما يكون لو كان العبد لا دخل له في أفعاله أصلا ، كالريشة في الهواء ، كما قالت المجبرة الحقيقية.
وإنما ذم اللّه تلك المقالة من الكفار لأنهم قالوها استهزاء وعنادا ، لا إقرارا واعتقادا. والدليل على ذلك إجماع سلف الأمة على أنه ما شاء اللّه كان وما لم يشأ لم يكن. (ع)
(3). قوله : «لكان النطق بالمحكيات ... الخ» ممنوع ، وكذا ما بعده ، والمعتزلة قالوا : لا يريد الشر بناء على أن الارادة هي الأمر، وهو ممنوع ، وعفا اللّه عن صاحب الكتاب في بذأة لسانه على أهل السنة ، وجعلهم إخوان الكفار. (ع)

لتسوية مذهبهم الباطل. ولو كانت هذه كلمة حق نطقوا بها هزءا لم يكن لقوله تعالى ما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ معنى ، لأنّ من قال لا إله إلا اللّه على طريق الهزء : كان الواجب أن ينكر عليه استهزاؤه ولا يكذب ، لأنه لا يجوز تكذيب الناطق بالحق جادّا كان أو هازئا. فإن قلت : ما قولك فيمن يفسر ما لهم - بقولهم : «1» إن الملائكة بنات اللّه - من علم إن هم إلا يخرصون في ذلك القول لا في تعليق عبادتهم بمشيئة اللّه؟ قلت : تمحل مبطل وتحريف مكابر. ونحوه قوله تعالى سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شاءَ اللَّهُ ما أَشْرَكْنا وَلا آباؤُنا وَلا حَرَّمْنا مِنْ شَيْءٍ كَذلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ.

[سورة الزخرف (43) : الآيات 21 إلى 22]

أَمْ آتَيْناهُمْ كِتاباً مِنْ قَبْلِهِ فَهُمْ بِهِ مُسْتَمْسِكُونَ (21) بَلْ قالُوا إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُهْتَدُونَ(22)

الضمير في مِنْ قَبْلِهِ للقرآن أو الرسول. والمعنى : أنهم ألصقوا عبادة غير اللّه بمشيئة اللّه : قولا قالوه غير مستند إلى علم ، ثم قال : أم آتيناهم كتابا قبل هذا الكتاب نسبنا فيه الكفر والقبائح إلينا ، فحصل لهم علم بذلك من جهة الوحى ، فاستمسكوا بذلك الكتاب واحتجوا به.

بل لا حجة لهم يستمسكون بها إلا قولهم إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ على دين. وقرئ : على إمة ، بالكسر ، وكلتاهما من الأمّ وهو القصد ، فالأمة : الطريقة التي تؤم ، أى : تقصد ، كالرحلة للمرحول إليه. والأمة : الخالة

[سورة الزخرف (43) : آية 23]

وَكَذلِكَ ما أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قالَ مُتْرَفُوها إِنَّا وَجَدْنا آباءَنا عَلى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلى آثارِهِمْ مُقْتَدُونَ(23)

مُتْرَفُوها الذين أترفتهم النعمة ، أى أبطرتهم فلا يحبون إلا الشهوات والملاهي ، ويعافون مشاق الدين وتكاليفه.

[سورة الزخرف (43) : الآيات 24 إلى 25]

قالَ أَوَ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آباءَكُمْ قالُوا إِنَّا بِما أُرْسِلْتُمْ بِهِ كافِرُونَ (24) فَانْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَانْظُرْ كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ (25)

قرئ : قل ، وقال ، وجئتكم ، وجئناكم ، يعني ، أتتبعون آباءكم ولو جئتكم بدين أهدى من دين آبائكم؟

(1). قوله «ما قولك فيمن يفسر ما لهم بقولهم» لعله : «يفسر ما لهم بذلك بقوله ما لهم بقولهم ... الخ» (ع) [.....]

قالوا : إنا ثابتون على دين آبائنا لا ننفك عنه ، وإن جئتنا بما هو أهدى وأهدى.

[سورة الزخرف (43) : الآيات 26 إلى 28]

وَإِذْ قالَ إِبْراهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ (26) إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ (27) وَجَعَلَها كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (28)

قرئ : براء ، بفتح الباء وضمها. وبريء ، فبرىء وبراء ، نحو كريم وكرام ، «1» وبراء : مصدر كظماء ، ولذلك استوى فيه الواحد والاثنان والجماعة ، والمذكر والمؤنث. يقال : نحن البراء منك ، والخلاء منك الَّذِي فَطَرَنِي فيه غير وجه : أن يكون منصوبا على أنه استثناء منقطع ، كأنه قال : لكن الذي فطرني فإنه سيهدين ، وأن يكون مجرورا بدلا من المجرور بمن ، كأنه قال : إننى براء مما تعبدون إلا من الذي فطرني. فإن قلت : كيف تجعله بدلا وليس من جنس ما يعبدون من وجهين ، أحدهما : أن ذات اللّه مخالفة لجميع الذوات ، فكانت مخالفة لذوات ما يعبدون.

والثاني ، أن اللّه تعالى غير معبود بينهم والأوثان معبودة؟ قلت : قالوا : كانوا يعبدون اللّه مع أوثانهم ، وأن تكون إِلَّا صفة بمعنى غير ، على أن «ما» في ما تعبدون موصوفة ، تقديره : إننى براء من آلهة تعبدونها غير الذي فطرني ، فهو نظير قوله تعالى لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتا. فإن قلت : ما معنى قوله سَيَهْدِينِ على التسويف؟ قلت : قال مرة فَهُوَ يَهْدِينِ ومرّة فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ فاجمع بينهما وقدّر ، كأنه قال. فهو يهدين وسيهدين ، فيدلان على استمرار الهداية في الحال والاستقبال وَجَعَلَها وجعل إبراهيم صلوات اللّه عليه كلمة التوحيد التي تكلم بها وهي قوله إِنَّنِي بَراءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي كَلِمَةً باقِيَةً فِي عَقِبِهِ في ذريته ، فلا يزال فيهم من يوحد اللّه ويدعو إلى توحيده ، لعل من أشرك منهم يرجع بدعاء من وحد منهم. ونحوه وَوَصَّى بِها إِبْراهِيمُ بَنِيهِ وقيل : وجعلها اللّه. وقرئ : كلمة على التخفيف وفي عقبه كذلك ، وفي عاقبه ، أى : فيمن عقبه ، أى : خلفه.

[سورة الزخرف (43) : آية 29]

بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ (29)

بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ يعنى : أهل مكة ، وهم من عقب إبراهيم بالمدّ في العمر والنعمة ، فاغتروا بالمهلة ، وشغلوا بالتنعم واتباع الشهوات وطاعة الشيطان عن كلمة التوحيد حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ وهو القرآن وَرَسُولٌ مُبِينٌ الرسالة واضحها بما معه من الآيات البينة ، فكذبوا به وسموه ساحرا وما جاء به سحرا ولم يوجد منهم ما رجاه إبراهيم.

(1). قوله «نحو كريم وكرام» في الصحاح. الكرام - بالضم - : مثل الكريم. (ع)

فقال : بل متعتهم بما متعتهم به من طول العمر والسعة في الرزق ، حتى شغلهم ذلك عن كلمة التوحيد. وأراد بذلك الإطناب في تعييرهم ، لأنه إذا متعهم بزيادة النعم وجب عليهم أن يجعلوا ذلك سببا في زيادة الشكر والثبات على التوحيد والإيمان ، لا أن يشركوا به ويجعلوا له أندادا ، فمثاله أن يشكو الرجل إساءة من أحسن إليه ، ثم يقبل على نفسه فيقول. أنت السبب في ذلك بمعروفك وإحسانك ، وغرضه بهذا الكلام توبيخ المسيء لا تقبيح فعله.

[سورة الزخرف (43) : الآيات 30 إلى 31]

وَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ قالُوا هذا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كافِرُونَ (30) وَقالُوا لَوْلا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ (31)

فإن قلت : قد جعل مجيء الحق والرسول غاية التمتيع ، ثم أردفه «1» قوله وَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ قالُوا هذا سِحْرٌ فما طريقة هذا النظم ومؤداه؟ قلت : المراد بالتمتيع ما هو سبب له ، وهو اشتغالهم بالاستمتاع عن التوحيد ومقتضياته ، فقال : بل اشتغلوا عن التوحيد حتى جاءهم الحق ورسول مبين ، فخيل بهذه الغاية أنهم تنبهوا عندها عن غفلتهم لاقتضائها التنبه ، ثم ابتدأ قصتهم عند مجيء الحق فقال : ولما جاءهم الحق جاءوا بما هو شر من غفلتهم التي كانوا عليها : وهو أن ضموا إلى شركهم معاندة الحق ، ومكابرة الرسول ، ومعاداته ، والاستخفاف بكتاب اللّه وشرائعه ، والإصرار على أفعال الكفرة والاحتكام على حكمة اللّه في تخير محمد من أهل زمانه بقولهم لَوْلا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ وهي الغاية في تشويه صورة أمرهم. قرئ على رجل ، بسكون الجيم من القريتين : من إحدى القريتين ، كقوله تعالى يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ أى من أحدهما. والقريتان : مكة والطائف. وقيل : من رجلي القريتين ، وهما : الوليد بن المغيرة المخزومي وحبيب بن عمرو بن عمير الثقفي ، عن ابن عباس.

وعن مجاهد : عتبة بن ربيعة وكنانة بن عبد ياليل. وعن قتادة : الوليد بن المغيرة وعروة بن مسعود الثقفي ،

(1). قال محمود : «فان قلت : قد جعل مجيء الحق والرسول غاية التمتيع ، ثم أردفه ... الخ» قال أحمد :
كلام نفيس لا مزيد عليه ، إلا أن قوله : «خيل بهذه الغاية أنهم تنبهوا عندها» إطلاق ينبغي اجتنابه ، واللّه أعلم وما أحسن مجيء الغاية على هذا النحو مجيء الاضراب في بعض التارات ، فكما جاءت الغاية هنا - وليس المراد بها أن الفعل المذكور قبلها منقطع عندها على ما هو المفهوم منها ، بل المراد استمراره وزيادته ، فكأن تلك الحالة النافعة انتهت بوجود ما هو أكمل منها - كذلك الاضراب في مثل قوله تعالى بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الْآخِرَةِ بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ مِنْها بَلْ هُمْ مِنْها عَمُونَ وهذه الاضرابات ليست على معنى أن الثاني منها رد للأول ، بل ثانيها آكد من أولها ، وجاء الاضراب مع التوافق والزيادة للاشعار بأن الثاني لما زاد على الأول صار باعتبار زيادته ونقصان الأول كأنهما شيئان متنافيان يضرب عن أولهما ويثبت آخرهما ، ومثله كثير وباللّه التوفيق.

وكان الوليد يقول : لو كان حقا ما يقول محمد لنزل هذا القرآن علىّ أو على أبى مسعود الثقفي ، وأبو مسعود : كنية عروة بن مسعود ما زالوا ينكرون أن يبعث اللّه بشرا رسولا ، فلما علموا بتكرير اللّه الحجج أن الرسل لم يكونوا إلا رجالا من أهل القرى ، جاءوا بالإنكار من وجه آخر ، وهو تحكمهم أن يكون أحد هذين ، وقولهم : هذا القرآن ذكر له على وجه الاستهانة به ، وأرادوا بعظم الرجل : رياسته وتقدّمه في الدنيا ، وعزب عن عقولهم أن العظيم من كان عند اللّه عظيما.

[سورة الزخرف (43) : آية 32]

أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ نَحْنُ قَسَمْنا بَيْنَهُمْ مَعِيشَتَهُمْ فِي الْحَياةِ الدُّنْيا وَرَفَعْنا بَعْضَهُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجاتٍ لِيَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضاً سُخْرِيًّا وَرَحْمَتُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (32)

أَهُمْ يَقْسِمُونَ رَحْمَتَ رَبِّكَ هذه الهمزة للإنكار المستقل بالتجهيل والتعجيب من اعتراضهم وتحكمهم ، وأن يكونوا هم المدبرين لأمر النبوّة والتخير لها من يصلح لها ويقوم بها ، والمتولين لقسمة رحمة اللّه التي لا يتولاها إلا هو بباهر قدرته وبالغ حكمته ، ثم ضرب لهم مثلا فأعلم أنهم عاجزون عن تدبير خويصة أمرهم وما يصلحهم في

(1). قال محمود : «فان قلت : معيشتهم ما يعيشون به من المنافع ... الخ» قال أحمد : قد تقدم أن الرزق عند أهل السنة يطلق على ما يقوم الله به حال العبد حلالا كان أو حراما ، وهذه الآية معضدة ، والزمخشري بنى على أصله وقد تقدم.

ولكن شرط عليه وكلفه أن يسلك في تناولها الطريق التي شرعها ، فإذا سلكها فقد تناول قسمته من المعيشة حلالا ، وسماها رزق الله ، وإذا لم يسلكها تناولها حراما ، وليس له أن يسميها رزق الله «1» ، فالله تعالى قاسم المعايش والمنافع ، ولكن العباد هم الذين يكسبونها صفة الحرمة بسوء تناولهم ، وهو عدولهم فيه عما شرعه الله إلى ما لم يشرعه.

[سورة الزخرف (43) : الآيات 33 إلى 35]

وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً لَجَعَلْنا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفاً مِنْ فِضَّةٍ وَمَعارِجَ عَلَيْها يَظْهَرُونَ (33) وَلِبُيُوتِهِمْ أَبْواباً وَسُرُراً عَلَيْها يَتَّكِؤُنَ (34) وَزُخْرُفاً وَإِنْ كُلُّ ذلِكَ لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ الدُّنْيا وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ(35)

لِبُيُوتِهِمْ بدل اشتمال من قوله لِمَنْ يَكْفُرُ ويجوز أن يكونا بمنزلة اللامين في قولك : وهبت له ثوبا لقميصه. وقرئ: سقفا ، بفتح السين وسكون القاف. وبضمها وسكون القاف وبضمها : جمع سقف ، كرهن ورهن ورهن. وعن الفراء : جمع سقيفة وسقفا بفتحتين ، كأنه لغة في سقف وسقوفا ، ومعارج ومعاريج. والمعارج : جمع معرج ، أو اسم جمع لمعراج : وهي المصاعد إلى العلالي عَلَيْها يَظْهَرُونَ أى على المعارج ، يظهرون السطوح يعلونها ، فما اسطاعوا أن يظهروه. وسررا ، بفتح الراء لاستثقال الضمتين مع حرفى التضعيف لَمَّا مَتاعُ الْحَياةِ اللام هي الفارقة بين إن المخففة والنافية. وقرئ بكسر اللام ، أى : الذي هو متاع الحياة ، كقوله تعالى مَثَلًا ما بَعُوضَةً ولما بالتشديد بمعنى إلا ، وإن نافية. وقرئ : إلا. وقرئ : وما كل ذلك إلا. لما قال خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ فقلل أمر الدنيا وصغرها : أردفه ما يقرّر قلة الدنيا عنده من قوله وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً واحِدَةً أى : ولولا كراهة أن يجتمعوا على الكفر ويطبقوا عليه ، لجعلنا لحقارة زهرة الحياة الدنيا «2» عندنا للكفار سقوفا ومصاعد وأبوابا وسررا كلها من فضة وزخرف ،

(1). قوله «و ليس له أن يسميها رزق الله» هذا على مذهب المعتزلة. وأما عند أهل السنة فالرزق ما ينتفع به ولو حراما. والمصنف يريد أن الله لا ييسر الحرام ، لأنه لا يفعل القبيح عند المعتزلة. ومذهب أهل السنة أن فاعل الكائنات كلها هو الله تعالى. (ع)
(2). قال محمود : «معناه لولا كراهية أن يجتمعوا على الكفر لجعلنا للكفرة سقوفا من فضة أى لوسعنا عليهم الدنيا لحقارتها عندنا» قال أحمد : «لولا» هنا أخت «لولا» في قوله وَلَوْلا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِما قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ... الآية تلك أن تصحح الكلام بتقدير كراهة ذلك بأن لا تقدر محذوفا كما قدمته ، فيكون وجه الكلام هاهنا أن إجماعهم على الكفر مانع من بسط الدنيا. وهذا هو معنى لولا المطرد أن ما بعدها أبدا مانع من جوابها ، ولكن قد يكون المانع موجودا تحقيقا فيمتنع الجواب بلا إشكال ، كقوله تعالى فَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لَكُنْتُمْ مِنَ الْخاسِرِينَ وهو الأكثر. وقد يكون وجوده تقديرا معه وعلى ذلك الآية ، أى : لو وجد بسط الدنيا للكافر مقدرا ، لوجد مانعه عندنا وهو الاجتماع على الكفر مقدرا معه ، وكل ما أدى وجوده إلى وجود مانعه لا يوجد.

وجعلنا لهم زخرفا ، أى : زينة من كل شيء. والزخرف : الزينة والذهب.

ويجوز أن يكون الأصل : سقفا من فضة وزخرف ، يعنى : بعضها من فضة وبعضها من ذهب ، فنصب عطفا على محل مِنْ فِضَّةٍ وفي معناه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : «لو وزنت الدنيا عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء» «1» فإن قلت : فحين لم يوسع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدّى إليها التوسعة عليهم من إطباق الناس على الكفر لحبهم الدنيا وتهالكهم عليها ، فهلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الإسلام؟ قلت : التوسعة عليهم مفسدة أيضا لما تؤدى إليه من الدخول في الإسلام لأجل الدنيا ، والدخول في

[سورة الزخرف (43) : الآيات 36 إلى 39]

وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ (36) وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُهْتَدُونَ (37) حَتَّى إِذا جاءَنا قالَ يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ الْقَرِينُ (38) وَلَنْ يَنْفَعَكُمُ الْيَوْمَ إِذْ ظَلَمْتُمْ أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ (39)

قرئ : ومن يعش ، بضم الشين وفتحها. والفرق بينهما أنه إذا حصلت الآفة في بصره قيل : عشى. وإذا نظر نظر العشى ولا آفة به قيل عشا. ونظيره : عرج ، لمن به الآفة «3».

(1). فيه عبد الحميد بن سليمان وتابعه زكريا بن منظور. وقال الترمذي : وفي الباب عن أبى هريرة ، وحديثه عند البزار من حديث صالح مولى التوأمة عنه. ولفظه «ما أعطي كافرا منها شيئا» ورواه البيهقي في الشعب في الحادي والسبعين من رواية أبى معشر عن المقبري عنه وفي الباب عن ابن عباس. أخرجه أبو نعيم في الحلية. وفيه الحسن ابن عمارة وهو ضعيف جدا. وأخرجه القضاعي في مسند الشهاب من رواية مالك عن نافع عن ابن عمر ، بلفظ المصنف قال ابن طاهر : فيه على بن محمد بن أحمد بن أبى عوف عن أبى مصعب عنه ، لا أصل له من حديث ملك

(2). قال محمود : «فحين لم يوسع على الكافرين للفتنة التي كان يؤدى إليها التوسعة من الاطباق على الكفر» فهلا وسع على المسلمين ليطبق الناس على الايمان؟ وأجاب بأن التوسعة عليهم مفسدة أيضا لما يؤدى إليه من الدخول في الإسلام لأجل الدنيا ، وذلك من دين المنافقين» قال أحمد : سؤال وجواب مبنيان على قاعدتين فاسدتين. إحداهما :

تعليل أفعال الله تعالى ، والأخرى : أن الله تعالى أراد الإسلام من الخلق أجمعين. أما الأولى فقد أخرس الله السائل عنه بقوله لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْئَلُونَ وأما الثانية فقد كفى الله المؤمنين الجواب عنه فيه بقوله وَلَوْ شاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً.

(3). قال محمود : «يقال عشى بصره بكسر الشين إذا أصابته الآفة ...» قال أحمد : في هذه الآية نكتتان بديعتان ، إحداهما : الدلالة على أن النكرة الواقعة في سياق الشرط تفيد العموم ، وهي مسألة اضطرب فيها الأصوليون وإمام الحرمين من القائلين بافادتها العموم ، حتى استدرك على الأئمة إطلاقهم القول بأن النكرة في سياق الإثبات تخص ، وقال : إن الشرط يعم ، والنكرة في سياقه تعم. وقد رد عليه الفقيه أبو الحسن على الأنبارى شارح كتابه ردا عنيفا. وفي هذه الآية للإمام ومن قال بقوله كفاية ، وذلك أن الشيطان ذكر فيها منكرا في سياق شرط ، ونحن نعلم أنه إنما أراد عموم الشياطين لا واحدا لوجهين ، أحدهما : أنه قد ثبت أن لكل أحد شيطانا ، فكيف بالعاشى عن ذكر الله ، والآخر : يؤخذ من الآية : وهو أنه أعاد عليه الضمير مجموعا في قوله وَإِنَّهُمْ فانه عائد إلى الشيطان قولا واحدا «و لولا إفادته عموم الشمول لما جاز عود ضمير الجمع عليه بلا إشكال ، فهذه نكتة تجد عند إسماعها لمخالفي هذا الرأى سكتة. والنكتة الثانية : أن في هذه الآية ردا على من زعم أن العود على معنى من يمنع من العود على لفظها بعد ذلك. واحتج المانع لذلك بأنه إجمال بعد تفسير ، وهو خلاف المعهود من الفصاحة.

وقد نقض الكندي هذا بقوله تعالى وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صالِحاً يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها أَبَداً قَدْ أَحْسَنَ اللَّهُ لَهُ رِزْقاً ونقض غيره بقوله وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِ ... الآية وكان جدي رحمه الله قد استخرج من هذه الآية بعض ذلك ، لأنه أعاد على اللفظ في قوله : يَعْشُ ولَهُ مرتين ، ثم على المعنى في قوله لَيَصُدُّونَهُمْ ثم على اللفظ بقوله حَتَّى إِذا جاءَنا وقد قدمت أن الذي منع ذلك قد يكون اقتصر بمنعه على مجيء ذلك في جملة واحدة وأما إذا تعددت الجمل واستقلت كل بنفسها فقد لا يمنع ذلك حتى رددت على الزمخشري في قوله تعالى لا يَمْلِكُونَ الشَّفاعَةَ إِلَّا مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمنِ عَهْداً فان الجملة واحدة ، فانظره في موضعه.

وعرج ، لمن مشى مشية العرجان من غير عرج. قال الحطيئة :

متى تأته تعشو إلى ضوء ناره «1»

أى : تنظر إليها نظر العشىّ لما يضعف بصرك من عظم الوقود واتساع الضوء. وهو بين في قوله حاتم : أعشو إذا ما جارتى برزت حتّى يوارى جارتى الخدر «2»

(1) كسوب ومتلاف إذا ما سألته تهلل واهتز اهتزاز المهند
وذاك امرؤ إن يعطك اليوم نائلا بكفيه لم يمنعك من نائل الغد
متى تأته تعشو إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خير موقد
للحطيئة ، يقول : هو كثير الكسب وكثير الإتلاف ، وبينهما طباق التضاد : إذا سألته أجابك بسرعة وطلاقة وجه وهو المراد بقوله : تهلل واهتز كاهتزاز السيف المطلق من حديد الهند ، إذا أعطاك اليوم عطاء بكفيه معا كناية عن كثرة العطاء ، وسألته في غد أعطاك أيضا. وعشى يعشى كرضى يرضى : إذا كان ببصره آفة. وعشى يعشو : إذا تعاشى بغير آفة. والمعنى : منى تأته على هيئة الأعشى - مجاز عن إظهار الفاقة - تجده أكرم الناس ، عبر عنه بذلك على طريق الكناية.

(2) ناري ونار الجار واحدة وإليه قبلي تنزل القدر
ما ضرني جار أجاوره ألا يكون لبابه ستر
أعشو إذا ما جارتى برزت حتى يوارى جارتى الخدر
لحاتم الطائي : وعشى يعشى كرضى يرضى : صار لا يبصر ليلا ، وعشا يعشو كدعا يدعو : إذا نظر كنظر الأعشى.

يقول : إن ناري هي نار جارى ، وتنزل قدرى إليه ليأكل منها قبلي أو ناري ونار جارى واحدة في الزمن والقوة ومع ذلك تنزل قدره إليه قبلي ليأكلها سريعا خوف اطلاع أحد عليه. لكن يبعد هذا أن المقام ليس لذم الجار بل للمدح. ثم هذا كناية عن شدة كرمه على غيره، ثم وصف نفسه بالعفة بقوله : ما ضرني جار من جيراني بمسبة ولا غيرها من أن لا يكون لبابه حجاب يستر أهله ، فانى أتغافل وأغض بصرى إذا خرجت جارتى ، حتى يسترها بينها. وأتى بالظاهر موضع المضمر ليفيد أنه ينبغي مراعاة حق الجوار. والاحتمال الأول أقعد ، لأن معناه أنه يبره ويعف عن محارمه. وأما الثاني ففيه ذم جاره ، وهو لا يلائم بعده.

وقرئ : يعشو ، على أنّ من موصولة غير مضمنة معنى الشرط. وحق هذا القارئ أن يرفع نقيض. ومعنى القراءة بالفتح : ومن يعم عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمنِ وهو القرآن ، كقوله تعالى صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ وأما القراءة بالضم فمعناها: ومن يتعام عن ذكره ، أى : يعرف أنه الحق وهو يتجاهل ويتغابى ، كقوله تعالى وَجَحَدُوا بِها وَاسْتَيْقَنَتْها أَنْفُسُهُمْ. نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً نخذله «1» ونخل بينه وبين الشياطين ، كقوله تعالى وَقَيَّضْنا لَهُمْ قُرَناءَ ، أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّياطِينَ عَلَى الْكافِرِينَ وقرئ : يقيض ، أى : يقيض له الرحمن ويقيض له الشيطان. فإن قلت : لم جمع ضمير من وضمير الشيطان في قوله وَإِنَّهُمْ لَيَصُدُّونَهُمْ؟ قلت : لأنّ مَنْ مبهم في جنس العاشى ، وقد قيض له شيطان مبهم في جنسه ، فلما جاز أن يتناولا لإبهامهما غير واحدين : جاز أن يرجع الضمير إليهما مجموعا حَتَّى إِذا جاءَنا العاشى. وقرئ : جاءانا ، على أنّ الفعل له ولشيطانه. قالَ لشيطانه يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ بُعْدَ الْمَشْرِقَيْنِ يريد المشرق والمغرب ، فغلب. كما قيل : العمران والقمران. فإن قلت : فما بعد المشرقين؟ قلت : تباعدهما ، والأصل : بعد المشرق من المغرب ، والمغرب من المشرق. فلما غلب وجمع المفترقين بالتثنية : أضاف البعد إليهما أَنَّكُمْ في محل الرفع على الفاعلية ، يعنى : ولن ينفعكم كونكم مشتركين في العذاب كما ينفع الواقعين في الأمر الصعب اشتراكهم فيه ، لتعاونهم في تحمل أعبائه وتقسمهم لشدّته وعنائه ، وذلك أنّ كل واحد منكم به من العذاب ما لا تبلغه طاقته ، ولك أن تجعل الفعل للتمني في قوله يا لَيْتَ بَيْنِي وَبَيْنَكَ على معنى : ولن ينفعكم اليوم ما أنتم فيه من تمنى مباعدة القرين.

وقوله أَنَّكُمْ فِي الْعَذابِ مُشْتَرِكُونَ تعليل ، أى : لن ينفعكم تمنيكم ، لأنّ حقكم أن تشتركوا أنتم وقرناؤكم في العذاب كما كنتم مشتركين في سببه وهو الكفر. وتقوّيه قراءة من قرأ : إنكم بالكسر. وقيل : إذا رأى الممنوّ بشدّة «2» من منى بمثلها : روّحه ذلك ونفس بعض كربه ، وهو التأسى الذي ذكرته الخنساء :

(1). قوله «نقيض له شيطانا : نخذله» تأويله بذلك مبنى على أنه تعالى لا يفعل القبيح ، وهو مذهب المعتزلة. وعند أهل السنة أنه فاعل الكائنات كلها ، فالآيات على ظاهرها (ع)
(2). قوله «إذا رأى الممنو بشدة» أى المبتلى. ومنى : أى ابتلى. أفاده الصحاح (ع)

أعزى النّفس عنه بالتّأسى «1»

فهؤلاء لا يؤسيهم اشتراكهم ولا يروّحهم ، لعظم ما هم فيه. فإن قلت : ما معنى قوله تعالى إِذْ ظَلَمْتُمْ؟ قلت : معناه : إذ صح ظلمكم وتبين ولم يبق لكم ولا لأحد شبهة في أنكم كنتم ظالمين ، وذلك يوم القيامة. وإذ : بدل من اليوم. ونظيره : إذا ما انتسبنا لم تلدني لئيمة «2»

أى : تبين أنى ولد كريمة.

[سورة الزخرف (43) : آية 40]

أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ أَوْ تَهْدِي الْعُمْيَ وَمَنْ كانَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ (40)

كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يجد ويجتهد ويكدّ روحه في دعاء قومه ، وهم لا يزيدون على دعائه إلا تصميما على الكفر وتماديا في الغىّ ، فأنكر عليه بقوله أَفَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ إنكار تعجيب من أن يكون هو الذي يقدر على هدايتهم ، وأراد أنه لا يقدر على ذلك منهم إلا هو وحده على سبيل الإلجاء والقسر ، كقوله تعالى إِنَّ اللَّهَ يُسْمِعُ مَنْ يَشاءُ وَما أَنْتَ بِمُسْمِعٍ مَنْ فِي الْقُبُورِ

[سورة الزخرف (43) : الآيات 41 إلى 43]

فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ (41) أَوْ نُرِيَنَّكَ الَّذِي وَعَدْناهُمْ فَإِنَّا عَلَيْهِمْ مُقْتَدِرُونَ (42) فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلى صِراطٍ مُسْتَقِيمٍ (43)

(1) يذكرني طلوع الشمس صخرا وأذكره بكل غروب شمس
ولو لا كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخى ولكن أعزى النفس عنه بالتأسى
للخنساء ترثى أخاها. وإسناد التذكير الطلوع : مجاز عقلى ، لأنه سبب في تذكيرها إياه ، وكذلك الغروب حيث كان ذهابه عند الأول وإيابه عند الثاني عادة. أو لأنه يذهب في الأول للغارات ، ويجلس في الثاني مع الضيفان. أو لأن طلوعها يشبه طلعته ، وغروبها : يشبه موته. وفيه نوع من البديع يسمى التنكيت : وهو الإتيان بلفظ يسد غيره مسده ، لولا نكتة فيه ترجح اختصاصه بالذكر : لكان اختصاصه خطأ ، كما في اختصاص الوقتين هنا. أفاده السيوطي في شرح عقود الجمان. وفيه أيضا نوع آخر يسمى الادماج : وهو أن يضمن كلام سيق لمعنى معنى آخر ، كما ضمن الكلام المسوق هنا لمعنى الرثاء معنى المدح بالشجاعة والكرم. أو بحسن الطلعة. والباء في «بكل» سببيه.
ويحتمل أن الاسناد للأول من باب الاسناد للزمان ، فتكون الباء في الثاني بمعنى «في» أو «مع» وذكر الشمس ثانيا في آخر المصراع الثاني من باب رد العجز على الصدر. وأعزى النفس : أسليها وأصبرها عنه بالتأسى ، أى :
الاقتداء بغيري من أهل المصائب وفي اقتدائها بالباكين من الرجال : إشعار بتجلدها وعظم شأنها مثلهم. وروى «على أمواتهم» بدل : «على إخوانهم» ، و«أسلى» بدل «أعزى».
(2). مر شرح هذا الشاهد بالجزء الثالث صفحة 40 فراجعه إن شئت اه مصححه. [.....]

«ما» في قوله فَإِمَّا نَذْهَبَنَّ بِكَ بمنزلة لام القسم : في أنها إذا دخلت دخلت معها النون المؤكدة ، والمعنى : فإن قبضناك قبل أن ننصرك عليهم ونشفى صدور المؤمنين منهم فَإِنَّا مِنْهُمْ مُنْتَقِمُونَ أشد الانتقام في الآخرة ، كقوله تعالى : أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنا يُرْجَعُونَ وإن أردنا أن ننجز في حياتك ما وعدناهم من العذاب النازل بهم وهو يوم بدر، فهم تحت ملكتنا وقدرتنا لا يفوتوننا : وصفهم بشدة الشكيمة في الكفر والضلال ثم أتبعه شدة الوعيد بعذاب الدنيا والآخرة.

وقرئ : نرينك ، بالنون الخفيفة. وقرئ : بالذي أوحى إليك ، على البناء للفاعل ، وهو اللّه عز وجل والمعنى : وسواء عجلنا لك الظفر والغلبة أو أخرنا إلى اليوم الآخر. فكن مستمسكا بماأوحينا إليك وبالعمل به فإنه الصراط المستقيم الذي لا يحيد عنه إلا ضال شقى ، وزد كل يوم صلابة في المحاماة على دين اللّه ، ولا يخرجك الضجر بأمرهم إلى شيء من اللين والرخاوة في أمرك ، ولكن كما يفعل الثابت «1» الذي لا ينشطه تعجيل ظفر ، ولا يثبطه تأخيره.

[سورة الزخرف (43) : الآيات 44 إلى 45]

وَإِنَّهُ لَذِكْرٌ لَكَ وَلِقَوْمِكَ وَسَوْفَ تُسْئَلُونَ (44) وَسْئَلْ مَنْ أَرْسَلْنا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رُسُلِنا أَجَعَلْنا مِنْ دُونِ الرَّحْمنِ آلِهَةً يُعْبَدُونَ (45)

وَإِنَّهُ وإنّ الذي أوحى إليك لَذِكْرٌ لشرف لَكَ وَلِقَوْمِكَ ، وَلسوف تُسْئَلُونَ عنه يوم القيامة ، وعن قيامكم بحقه ، وعن تعظيمكم له ، وشكركم على أن رزقتموه وخصصتم به من بين العالمين ، ليس المراد بسؤال الرسل حقيقة السؤال لإحالته ، ولكنه مجاز عن النظر في أديانهم والفحص عن مللهم ، هل جاءت عبادة الأوثان قط في ملة من ملل الأنبياء؟ وكفاه نظرا وفحصا «2» : نظره في كتاب اللّه المعجز المصدّق لما بين يديه ، وإخبار اللّه فيه بأنهم يعبدون من دون اللّه ما لم ينزل به سلطانا. وهذه الآية في نفسها كافية لا حاجة إلى غيرها ، والسؤال الواقع مجازا عن النظر ، حيث لا يصح السؤال على الحقيقة : كثير منه مساءلة الشعراء الديار والرسوم والأطلال. وقول من قال : سل الأرض من شق أنهارك وغرس أشجارك وجنى ثمارك؟ فإنها إن لم تجبك حوارا «3» أجابتك اعتبارا. وقيل له : إن النبي صلى اللّه عليه وسلم جمع له الأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس فأمّهم. وقيل له : سلهم ، فلم يشكك ولم يسأل. وقيل : معناه سل أمم من أرسلنا وهم أهل الكتابين : التوراة والإنجيل. وعن الفراء : هم إنما يخبرونه عن كتب الرسل ، فإذا سألهم فكأنه سأل الأنبياء.

(1). قوله «و لكن كما يفعل الثابت» لعله : وكن. أو لعله : ولكن كن. (ع)
(2). قال محمود : «سؤال الرسل مجاز عن الفحص في شرائعهم والنظر في مللهم ... الخ» قال أحمد : ويشهد لارادة سؤال الأمم فَسْئَلِ الَّذِينَ يَقْرَؤُنَ الْكِتابَ مِنْ قَبْلِكَ واللّه أعلم.
(3). قوله «تجبك حوارا» أى مخاطبة بالنطق. في الصحاح : استحاره ، أى : استنطقه. (ع)

[سورة الزخرف (43) : الآيات 46 إلى 47]

وَلَقَدْ أَرْسَلْنا مُوسى بِآياتِنا إِلى فِرْعَوْنَ وَمَلائِهِ فَقالَ إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ (46) فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ (47)

ما أجابوه به عند قوله : إِنِّي رَسُولُ رَبِّ الْعالَمِينَ محذوف ، دل عليه قوله : فَلَمَّا جاءَهُمْ بِآياتِنا وهو مطالبتهم إياه بإحضار البينة على دعواه وإبراز الآية إِذا هُمْ مِنْها يَضْحَكُونَ أى يسخرون منها ويهزءون بها ويسمونها سحرا، وإذا للمفاجأة. فإن قلت : كيف جاز أن يجاب لما بإذا المفاجأة؟ قلت : لأنّ فعل المفاجأة معها مقدّر. وهو عامل النصب «1» في محلها ، كأنه قيل : فلما جاءهم بآياتنا فاجئوا وقت ضحكهم.

[سورة الزخرف (43) : آية 48]

وَما نُرِيهِمْ مِنْ آيَةٍ إِلاَّ هِيَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِها وَأَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (48)

فإن قلت : إذا جاءتهم آية واحدة من جملة التسع فما أختها التي فضلت عليها في الكبر من بقية الآيات؟ قلت : أختها التي هي آية مثلها. وهذه صفة كل واحدة منها فكان المعنى على أنها أكبر من بقية الآيات على سبيل التفصيل والاستقراء واحدة بعد واحدة ، كما تقول : هو أفضل رجل رأيته ، تريد : تفضيله على أمة الرجال الذين رأيتهم إذا قروتهم رجلا رجلا «2» ، فإن قلت : هو كلام متناقض ، لأنّ معناه : ما من آية من التسع إلا هي أكبر من كل واحدة منها ، فتكون واحدة منها فاضلة ومفضولة في حالة واحدة. قلت : الغرض بهذا الكلام أنهنّ موصوفات بالكبر ، لا يكدن يتفاوتن فيه ، وكذلك العادة في الأشياء التي تتلاقى في الفضل وتتفاوت منازلها فيه التفاوت اليسير أن تختلف آراء الناس في تفضيلها ، فيفضل بعضهم هذا وبعضهم ذاك ، فعلى ذلك بنى الناس كلامهم فقالوا : رأيت رجالا بعضهم أفضل من بعض ، وربما اختلفت آراء الرجل الواحد فيها ، فتارة يفضل هذا وتارة يفضل ذاك.

(1). قال محمود : «جازت فيه إجابة لما بإذا التي المفاجأة لأن فعل المفاجأة مقدر معها وهو العامل فيها النصب ... الخ» قال أحمد : الظاهر في تسويغ هذا الإطلاق - والله أعلم : أن كل واحدة من هذه الآي إذا أفردتها بالفكر استغرقت عظمتها الفكر وبهرته ، حتى يجزم أنها النهاية ، وأن كل آية دونها. فإذا نقل الفكرة إلى أختها استوعبت أيضا فكره بعظمها ، وذهل عن الأولى فجزم بأن هذه النهاية ، وأن كل آية دونها. والحاصل أنه لا يقدر الفكر على أن يجمع بين آيتين منهما ، ليتحقق عنده الفاضلة من المفضولة ، بل مهما أفرده بالكفر جزم بأنه النهاية. وعلى هذا التقدير يجرى جميع ما يرد من أمثاله ، والله أعلم.
(2). قوله «إذا قروتهم رجلا رجلا» أى تتبعتهم. (ع)

ومنه بيت الحماسة : من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم مثل النجوم الّتى يسرى بها السّارى «1»

وقد فاضلت الأنمارية بين الكملة من بنيها ، ثم قالت : لما أبصرت مراتبهم متدانية قليلة التفاوت.

ثكلتهم «2» إن كنت أعلم أيهم أفضل ، هم كالحلقة المفرّغة لا يدرى أين طرفاها لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ إرادة أن يرجعوا عن الكفر إلى الإيمان «3». فإن قلت لو أراد رجوعهم لكان. قلت : إرادته فعل غيره ليس إلا أن يأمره به «4» ويطلب منه إيجاده ، فإن كان ذلك على سبيل القسر وجد ،

(1) هينون لينون أيسار ذوو كرم سواس مكرمة أبناء أيسار
إن يسئلوا الخير يعطوه وإن جهدوا فالجهد يخرج منهم طيب أخبار
وإن تودتهم لانوا وإن شهموا كشفت أذمار شرّ غير أشرار
لا ينطقون عن الفحشا وإن نطقوا ولا يمارون من مارى بإكثار
من تلق منهم تقل لاقيت سيدهم مثل النجوم التي يسرى بها الساري
لعبيد بن الأبرص. وقيل للعرندس. وهينون لينون : جمع هين ولين : تخفيف هين ولين بالتشديد ، على فيعل.
وأيسار : جمع يسر ، كقطب وأقطاب ، وهو في الأصل ضد العسر ، سمى به الرجل مبالغة ، أو جمع يسرة كقصبة ، وهي في الأصل : الخط في باطن الكف ، أطلقت على الرجل إشعارا بالكرم. وسواس : جمع سائس ، بمعنى مالك متصرف بالمصلحة ، وبمعنى الولي المصلح ، وجهده الطعام : إذا اشتاق إليه واشتهاه. وجهد الرجل فهو مجهود :
أصابه القحوط والمشقة. وقوله «فالجهد يخرج منهم» جواب الشرط. ويحتمل أنه استئناف مفرغ على ما قبله.
وإن جهدوا : جوابه دل عليه ما قبله. والشهامة : الخشونة ، وشهمت الفرس حركته ليسرع. وأذمار شر : أى شجعان حرب : جمع ذمر ككبد ، من ذمر الرجل : عبس وغضب. وذمر الأسد زأر بصوته ، أى : إن حملتهم على الحرب أظهرت منهم شجعان حرب غير أشرار. وضمن النطق معنى الاخبار ، فعداه بعن. ويجوز أنها بمعنى الباء.
والمماراة : الجدال. وبإكثار : متعلق بمارى ، أو بيمارون. من تلقه منهم تقل فيه : لاقيت أشرفهم لتساويهم في الشرف ، فهم مثل النجوم في التساوي في الشرف والاهتداء والاستضاءة بكل ، فكما أن النجم يهتدى به المسافر ، كذلك هم يهتدى بهم المختبط الطالب للمعروف أو المتحير في أمر معضل. ويروى بدل «و إن جهدوا ... الخ» :
... وإن خبروا في الجهد أدرك منهم طيب أخبار
أى : إن اختبروا علم كرمهم وحسن سيرتهم.
(2). قوله «ثكلتهم» الثكل : فقدان المرأة ولدها. (ع)

(3). قال محمود : «معناه إرادة أن يرجعوا عن الكفر إلى الايمان ... الخ» قال أحمد : تقدم في غير موضع أن «لعل» حيثما وردت في سياق كلام الله تعالى فالمراد صرف الرجاء إلى المخلوقين ، أى : ليكونوا بحيث يرجى منهم ذلك ، هذا هو الحق. وعليه تأول سيبويه ما ورد. وأما الزمخشري فيحمل «لعل» على الارادة ، لأنه.
لا يتحاشى مع اعتقاد أن الله يريد شيئا ويريد العبد خلافه ، فيقع مراد العبد ولا يقع مراد الرب - تعالى الله عما يقول الظالمون علوا كبيرا - فما أشنعها زلة وأبشعها خلة. ولقد أساء الأدب في هذا الموضع ، حتى إنه لولا تعين الرد عليه لما جرى القلم ينقل ما هذى به وما اهتدى. وقد جرى على سنن أوائله في جعل حقيقة الأمر هو الارادة وأضاف إلى ذلك اعتقاد أن العبد يوجد فعله ويخلقه ، وأن مراد العبد يقع ، ومراد الرب لا يقع ، فهذه ظلمات ثلاث بعضها فوق بعض ، نعوذ بالله من هذه الغواية : رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا.
(4). قوله «ليس إلا أن يأمره به» هذا مذهب المعتزلة. أما مذهب أهل السنة : فإرادته غير الأمر ، سواء كانت لفعل نفسه أو لفعل غيره ، ولا يلزم تأويل الآية بالارادة ، لجواز أن يكون معناها : ليكون حالهم عند الأخذ بالعذاب حال من يرجي رجوعهم. (ع)

وإلا دار بين أن يوجد وبين أن لا يوجد على حسب اختيار المكلف ، وإنما لم يكن الرجوع لأنّ الإرادة لم تكن قسرا ولم يختاروه. والمراد بالعذاب : السنون ، والطوفان ، والجراد ، وغير ذلك.

[سورة الزخرف (43) : الآيات 49 إلى 50]
وَقالُوا يا أَيُّهَا السَّاحِرُ ادْعُ لَنا رَبَّكَ بِما عَهِدَ عِنْدَكَ إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ (49) فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ(50)

وقرئ : يا أيه الساحر ، بضم الهاء ، وقد سبق وجهه. فإن قلت : كيف سموه بالساحر مع قولهم إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ؟ قلت : قولهم إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ : وعد منوي إخلافه ، وعهد معزوم على نكثه ، معلق بشرط أن يدعو لهم وينكشف عنهم العذاب. ألا ترى إلى قوله تعالى فَلَمَّا كَشَفْنا عَنْهُمُ الْعَذابَ إِذا هُمْ يَنْكُثُونَ فما كانت تسميتهم إياه بالساحر بمنافية لقولهم : إِنَّنا لَمُهْتَدُونَ وقيل : كانوا يقولون للعالم الماهر ساحر لاستعظامهم على السحر : بِما عَهِدَ عِنْدَكَ بعهده عندك : من أن دعوتك مستجابة. أو بعهده عندك وهو النبوّة. أو بما عهد عندك فوفيت به وهو الإيمان والطاعة. أو بما عهد عندك من كشف العذاب عمن اهتدى.

[سورة الزخرف (43) : الآيات 51 إلى 53]

وَنادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قالَ يا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهذِهِ الْأَنْهارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلا تُبْصِرُونَ (51) أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلا يَكادُ يُبِينُ (52) فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِنْ ذَهَبٍ أَوْ جاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ (53)

وَنادى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ جعلهم محلا لندائه وموقعا له. والمعنى : أنه أمر بالنداء في مجامعهم وأما كنهم من نادى فيها بذلك ، فأسند النداء إليه ، كقولك : قطع الأمير اللص ، إذا أمر بقطعه. ويجوز أن يكون عنده عظماء القبط ، فيرفع صوته بذلك فيما بينهم ، ثم ينشر عنه في جموع القبط ، فكأنه نودي به بينهم فقال أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهذِهِ الْأَنْهارُ يعنى أنهار النيل ومعظمهما أربعة : نهر الملك ، ونهر طولون ، ونهر دمياط ، ونهر تنيس: قيل : كانت تجرى تحت قصره. وقيل : تحت سريره لارتفاعه. وقيل : بين يدي في جناني وبساتيني. ويجوز أن تكون الواو عاطفة للأنهار على ملك مصر. وتجرى : نصب على الحال منها ، وأن تكون الواو للحال ، واسم الإشارة مبتدأ ، والأنهار صفة لاسم الإشارة ، وتجرى خبر للمبتدإ وليت شعري كيف ارتقت إلى دعوة الربوبية همة من تعظم بملك مصر ، وعجب الناس من مدى عظمته ، وأمر فنودي بها في أسواق مصر وأزقتها ، لئلا تخفى تلك الأبهة «1» والجلالة على صغير ولا كبير وحتى يتربع في صدور الدهماء مقدار عزته وملكوته. وعن الرشيد : أنه لما قرأها قال : لأولينها أخس عبيدي ، فولاها الخصيب ، وكان على وضوئه. وعن عبد الله بن طاهر أنه وليها ، فخرج إليها فلما شارفها ووقع عليها بصره قال : أهى القرية التي افتخر بها فرعون حتى قال : أليس لي ملك مصر ، والله لهى أقل عندي من أن أدخلها ، فثنى عنانه أَمْ أَنَا خَيْرٌ أم هذه متصلة ، لأنّ المعنى : أفلا تبصرون أم تبصرون ، إلا أنه وضع قوله أَنَا خَيْرٌ موضع : تبصرون ، لأنهم إذا قالوا له : أنت خير ، فهم عنده بصراء ، وهذا من إنزال السبب منزلة المسبب. ويجوز أن تكون منقطعة على : بل أأنا خير ، والهمزة للتقرير ، وذلك أنه قسم تعديد أسباب الفضل والتقدّم عليهم من ملك مصر وجرى الأنهار تحته ، ونادى بذلك وملأ به مسامعهم ، ثم قال : أنا خير كأنه يقول : أثبت عندكم واستقر أنى أنا خير وهذه حالى مِنْ هذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ أى ضعيف حقير. وقرئ : أما أنا خير وَلا يَكادُ يُبِينُ الكلام لما به من الرتة «2» ، يريد : أنه ليس معه من العدد وآلات الملك والسياسة ما يعتضد به ، وهو في نفسه مخل بما ينعت به الرجال من اللسن والفصاحة ، وكانت الأنبياء كلهم أبيناء «3» بلغاء. وأراد بإلقاء الأسورة عليه : إلقاء مقاليد الملك إليه ، لأنهم كانوا إذا أرادوا تسويد الرجل سوّروه بسوار وطوّقوه بطوق من ذهب مُقْتَرِنِينَ إما مقترنين به من قولك : قرنته فاقترن «4» به ، وإما من : اقترنوا ، بمعنى تقارنوا ، لما وصف نفسه بالملك والعزة ووازن بينه وبين موسى

[سورة الزخرف (43) : آية 54]

فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطاعُوهُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (54)

(1). قوله «تلك الأبهة» كسكرة ، كذا بهامش الصحاح. وفي الصحاح : «دهماء الناس» : جماعتهم. (ع)
(2). قوله «لما به من الرتة» بالضم : العجمة في الكلام ، كذا في الصحاح. (ع)
(3). قوله «و كانت الأنبياء كلهم أبيناء» في الصحاح : بان الشيء بيانا : اتضح ، فهو بين ، والجمع أبيناء ، مثل هين وأهيناء. (ع)
(4). قوله «قرنته فاقترن به» لعله قرنته به فاقترن (ع)

فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فاستفزهم. وحقيقته : حملهم على أن يخفوا له ولما أراد منهم ، وكذلك : استفز ، من قولهم للخفيف : فز.

[سورة الزخرف (43) : الآيات 55 إلى 56]

فَلَمَّا آسَفُونا انْتَقَمْنا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْناهُمْ أَجْمَعِينَ (55) فَجَعَلْناهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ (56)

آسَفُونا منقول من أسف أسفا إذا اشتد غضبه. ومنه الحديث في موت الفجأة : رحمة للمؤمن وأخذة أسف للكافر «1». ومعناه : أنهم أفرطوا في المعاصي وعدوا طورهم ، فاستوجبوا أن نعجل لهم عذابنا وانتقامنا ، وأن لا نحلم عنهم. وقرئ : سلفا جمع سالف ، كخادم وخدم.

وسلفا - بضمتين - جمع سليف ، أى : فريق قد سلف. وسلفا : جمع سلفة ، أى : ثلة قد سلفت.

ومعناه : فجعلناهم قدوة للآخرين من الكفار ، يقتدون بهم في استحقاق مثل عقابهم ونزوله بهم ، لإتيانهم بمثل أفعالهم ، وحديثا عجيب الشأن سائرا مسير المثل ، يحدثون به ويقال لهم : مثلكم مثل قوم فرعون.

[سورة الزخرف (43) : الآيات 57 إلى 59]

وَلَمَّا ضُرِبَ ابْنُ مَرْيَمَ مَثَلاً إِذا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ (57) وَقالُوا أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ ما ضَرَبُوهُ لَكَ إِلاَّ جَدَلاً بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ (58) إِنْ هُوَ إِلاَّ عَبْدٌ أَنْعَمْنا عَلَيْهِ وَجَعَلْناهُ مَثَلاً لِبَنِي إِسْرائِيلَ (59)

لما قرأ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على قريش إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ امتعضوا «2» من ذلك امتعاضا شديدا ، فقال عبد اللّه بن الزبعرى : يا محمد ، أخاصة لنا ولآلهتنا أم لجميع الأمم؟ فقال عليه السلام : هو لكم ولآلهتكم ولجميع الأمم ، فقال : خصمتك ورب الكعبة ، ألست تزعم أنّ عيسى ابن مريم نبىّ وتثني عليه خيرا وعلى أمه ، وقد علمت أنّ النصارى يعبدونهما. وعزير يعبد. والملائكة يعبدون ، فإن كان هؤلاء في النار فقد رضينا أن نكون نحن وآلهتنا معهم ، ففرحوا وضحكوا ، وسكت النبي صلى اللّه عليه وسلم ، فأنزل اللّه تعالى إِنَّ الَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُمْ مِنَّا الْحُسْنى ونزلت هذه الآية «3». والمعنى : ولما ضرب عبد اللّه بن الزبعرى عيسى ابن مريم مثلا ،

(1). تقدم في طه. [.....]
(2). قوله «امتعضوا من ذلك» غضبوا منه وشق عليهم ، كذا في الصحاح. (ع)
(3). تقدم في أواخر الأنبياء.

وجادل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بعبادة النصارى إياه إِذا قَوْمُكَ قريش من هذا المثل يَصِدُّونَ ترتفع لهم جلبة وضجيج «1» فرحا وجزلا وضحكا بما سمعوا منه من إسكات رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بجدله ، كما يرتفع لغط القوم ولجبهم إذا تعيوا بحجة ثم فتحت عليهم. وأمّا من قرأ : يصدّون - بالضم - فمن الصدود ، أى : من أجل هذا المثل يصدّون عن الحق ويعرضون عنه. وقيل : من الصديد وهو الجلبة ، وأنهما لغتان نحو:

نحن أهدى من النصارى ، لأنهم عبدوا آدميا ونحن نعبد الملائكة ، فنزلت. وقوله أَآلِهَتُنا خَيْرٌ أَمْ هُوَ على هذا القول : تفضيل لآلهتهم على عيسى ، لأنّ المراد بهم الملائكة وما ضربوه لك إلا جدلا. معناه : وما قالوا هذا القول ، يعنى : ء آلهتنا خير أم هو. إلا للجدال ، وقرئ : أآلهتنا خير ، بإثبات همزة الاستفهام وبإسقاطها ، لدلالة أم العديلة عليها. وفي حرف ابن مسعود : خير أم هذا. ويجوز أن يكون جدلا حالا ، أى : جدلين. وقيل : لما نزلت إِنَّ مَثَلَ عِيسى عِنْدَ اللَّهِ قالوا : ما يريد محمد بهذا إلا أن نعبده وأنه يستأهل أن يعبد وإن كان بشرا ، كما عبدت النصارى المسيح وهو بشر. ومعنى يَصِدُّونَ يضجون ويضجرون. والضمير في أَمْ هُوَ لمحمد صلى اللّه عليه وسلم ، وغرضهم بالموازنة بينه وبين آلهتهم : السخرية به والاستهزاء.

ويجوز أن يقولوا - لما أنكر عليهم قولهم : الملائكة بنات اللّه وعبدوهم - ما قلنا بدعا من القول ،

(1). قوله «ترتفع لهم جلبة وضجيج» أى صياح وكذا اللجب. أفاده الصحاح. (ع)
(2). قوله «و خبث دخلته» بالضم : باطن أمره. أفاده الصحاح ، (ع)
(3). قوله «على طريقة المحك» أى : اللجاج ، كما في الصحاح. (ع)

ولا فعلنا نكرا من الفعل ، فإنّ النصارى جعلوا المسيح ابن اللّه وعبدوه ، ونحن أشف «1» منهم قولا وفعلا ، فإنا نسبنا إليه الملائكة وهم نسبوا إليه الأناسى ، فقيل لهم : مذهب النصارى شرك باللّه ، ومذهبكم شرك مثله ، وما تنصلكم مما أنتم عليه بما أوردتموه إلا قياس باطل بباطل ، وما عيسى إِلَّا عَبْدٌ كسائر العبيد أَنْعَمْنا عَلَيْهِ حيث جعلناه آية : بأن خلقناه من غير سبب ، كما خلقنا آدم وشرفناه بالنبوّة وصيرناه عبرة عجيبة كالمثل السائر لبنى إسرائيل.

[سورة الزخرف (43) : آية 60]

وَلَوْ نَشاءُ لَجَعَلْنا مِنْكُمْ مَلائِكَةً فِي الْأَرْضِ يَخْلُفُونَ (60)

وَلَوْ نَشاءُ لقدرتنا على عجائب الأمور وبدائع الفطر لَجَعَلْنا مِنْكُمْ لولدنا منكم يا رجال مَلائِكَةً يخلفونكم في الأرض كما يخلفكم أولادكم ، كما ولدنا عيسى من أنثى من غير فحل ، لتعرفوا تميزنا بالقدرة الباهرة ، ولتعلموا أن الملائكة أجسام لا تتولد إلا من أجسام ، وذات القديم متعالية عن ذلك.

[سورة الزخرف (43) : آية 61]

وَإِنَّهُ لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ فَلا تَمْتَرُنَّ بِها وَاتَّبِعُونِ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (61)

وَإِنَّهُ وإن عيسى عليه السلام لَعِلْمٌ لِلسَّاعَةِ أى شرط من أشراطها تعلم به ، فسمى الشرط علما لحصول العلم به. وقرأ ابن عباس : لعلم ، وهو العلامة. وقرئ : للعلم. وقرأ : أبىّ : لذكر ، على تسمية ما يذكر به ذكرا ، كما سمى ما يعلم به علما. وفي الحديث : أن عيسى عليه الصلاة والسلام ينزل على ثنية بالأرض المقدّسة : يقال لها أفيق وعليه ممصرتان ، وشعر رأسه دهين ، وبيده حربة ، وبها يقتل الدجال ، فيأتى بيت المقدس والناس في صلاة الصبح والإمام يؤم بهم ، فيتأخر الإمام فيقدمه عيسى ويصلى خلفه على شريعة محمد عليه الصلاة والسلام ، ثم يقتل الخنازير ويكسر الصليب ، ويخرب البيع والكنائس ، ويقتل النصارى إلا من آمن «2» به.

وعن الحسن : أن الضمير للقرآن ، وأن القرآن به تعلم الساعة ، لأن فيه الإعلان بها فَلا تَمْتَرُنَّ بِها من المرية وهي الشك وَاتَّبِعُونِ واتبعوا هداي وشرعي. أو رسولي. وقيل : هذا أمر لرسول اللّه أن يقوله هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ أى هذا الذي أدعوكم إليه. أو هذا القرآن إن جعل الضمير في وَإِنَّهُ للقرآن.

(1). قوله «و نحن أشف منهم» أى : أرق. أفاده الصحاح. (ع)
(2). أخرجه الثعلبي بغير سند. وهو موجود في أحاديث متفرقة. فقوله «ثنية أفيق» عند الحاكم من حديث عثمان بن أبى العاص. وقوله «و عليه ممصرتان» عند أحمد والحاكم من حديث أبى هريرة. وقوله والناس في صلاة الصبح ، عند ابن ماجة من حديث أبى أسامة. وقوله «فيقتل الخنزير ويكسر الصليب» في الصحيح من حديث أبى هريرة.

[سورة الزخرف (43) : آية 62]

وَلا يَصُدَّنَّكُمُ الشَّيْطانُ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ (62)

عَدُوٌّ مُبِينٌ قد بانت عداوته لكم «1» : إذ أخرج أباكم من الجنة ونزع عنه لباس النور.

[سورة الزخرف (43) : الآيات 63 إلى 65]

وَلَمَّا جاءَ عِيسى بِالْبَيِّناتِ قالَ قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ (63) إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هذا صِراطٌ مُسْتَقِيمٌ (64) فَاخْتَلَفَ الْأَحْزابُ مِنْ بَيْنِهِمْ فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْ عَذابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ (65)

بِالْبَيِّناتِ المعجزات. أو بآيات الإنجيل والشرائع البينات الواضحات بِالْحِكْمَةِ يعنى الإنجيل والشرائع. فإن قلت : هلا بين لهم كل الذي يختلفون فيه ولكن بعضه؟ قلت : كانوا يختلفون في الديانات وما يتعلق بالتكليف وفيما سوى ذلك مما لم يتعبدوا بمعرفته والسؤال عنه ، وإنما بعث ليبين لهم ما اختلفوا فيه مما يعنيهم من أمر دينهم الْأَحْزابُ الفرق المتحزبة بعد عيسى وقيل : اليهود والنصارى فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا وعيد للأحزاب. فإن قلت : مِنْ بَيْنِهِمْ إلى من يرجع الضمير فيه؟ قلت : إلى الذين خاطبهم عيسى في قوله قَدْ جِئْتُكُمْ بِالْحِكْمَةِ وهم قومه المبعوث إليهم.

[سورة الزخرف (43) : الآيات 66 إلى 73]

هَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (66) الْأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ (67) يا عِبادِ لا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ (68) الَّذِينَ آمَنُوا بِآياتِنا وَكانُوا مُسْلِمِينَ (69) ادْخُلُوا الْجَنَّةَ أَنْتُمْ وَأَزْواجُكُمْ تُحْبَرُونَ (70) يُطافُ عَلَيْهِمْ بِصِحافٍ مِنْ ذَهَبٍ وَأَكْوابٍ وَفِيها ما تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ وَأَنْتُمْ فِيها خالِدُونَ (71) وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوها بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (72) لَكُمْ فِيها فاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِنْها تَأْكُلُونَ(73)

(1). قوله «قد بانت عداوته لكم» في الصحاح «بان الشيء بيانا» : اتضح فهو بين ، كذلك أيان فهو مبين. (ع)

أَنْ تَأْتِيَهُمْ بدل من الساعة. والمعنى : هل ينظرون إلا إتيان الساعة. فإن قلت : أما أدى قوله بَغْتَةً مؤدّى قوله وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ فيستغنى عنه؟ قلت : لا ، لأنّ معنى قوله تعالى وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ : وهم غافلون لاشتغالهم بأمور دنياهم ، كقوله تعالى تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ويجوز أن تأتيهم بغتة وهم فطنون يَوْمَئِذٍ منصوب بعدوّ ، أى: تنقطع في ذلك اليوم كل خلة بين المتخالين في غير ذات اللّه ، وتنقلب عداوة ومقتا ، إلا خلة المتصادقين في اللّه ، فإنها الخلة الباقية المزدادة قوّة إذا رأوا ثواب التحاب في اللّه تعالى والتباغض في اللّه. وقيل إِلَّا الْمُتَّقِينَ إلا المجتنبين أخلاء السوء. وقيل : نزلت في أبىّ بن خلف وعقبة ابن أبى معيط يا عِبادِ حكاية لما ينادى به المتقون المتحابون في اللّه يومئذ ، والَّذِينَ آمَنُوا منصوب المحل صفة لعبادي ، لأنه منادى مضاف ، أى : الذين صدّقوا بِآياتِنا وَكانُوا مُسْلِمِينَ مخلصين وجوههم لنا ، جاعلين أنفسهم سالمة لطاعتنا. وقيل : إذا بعث اللّه الناس فزع كل أحد ، فينادى مناد : يا عبادي فيرجوها الناس كلهم ، ثم يتبعها الذين آمنوا فييأس الناس منها غير المسلمين.

وقرئ : يا عباد تُحْبَرُونَ تسرون سرورا يظهر حباره - أى : أثره - على وجوهكم ، كقوله تعالى تَعْرِفُ فِي وُجُوهِهِمْ نَضْرَةَ النَّعِيمِ وقال الزجاج : تكرمون إكراما يبالغ فيه. والحبرة : المبالغة فيما وصف بجميل. والكوب:

وَتِلْكَ إشارة إلى الجنة المذكورة. وهي مبتدأ ، والْجَنَّةُ خبر. والَّتِي أُورِثْتُمُوها صفة الجنة. أو الجنة صفة للمبتدإ الذي هو اسم الإشارة. والتي أورثتموها : خبر المبتدإ. أو التي أورثتموها : صفة ، وبِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ الخبر ، والباء تتعلق بمحذوف كما في الظروف التي تقع أخبار. وفي الوجه الأول تتعلق بأورثتموها. وشبهت في بقائها على أهلها بالميراث الباقي على الورثة. وقرئ : ورّثتموها مِنْها تَأْكُلُونَ من للتبعيض ، أى : لا تأكلون إلا بعضها ، وأعقابها باقية في شجرها ، فهي مزينة بالثمار أبدا موقرة بها ، لا ترى شجرة عريانة من ثمرها كما في الدنيا. وعن النبي صلى الله عليه وسلم «لا ينزع رجل في الجنة من ثمرها «1» إلا نبت مكانها مثلاها «2».»

[سورة الزخرف (43) : الآيات 74 إلى 78]

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي عَذابِ جَهَنَّمَ خالِدُونَ (74) لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ وَهُمْ فِيهِ مُبْلِسُونَ (75) وَما ظَلَمْناهُمْ وَلكِنْ كانُوا هُمُ الظَّالِمِينَ (76) وَنادَوْا يا مالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ قالَ إِنَّكُمْ ماكِثُونَ (77) لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَرَكُمْ لِلْحَقِّ كارِهُونَ (78)

(1). قوله «من ثمرها إلا نبت مكانها» في الخازن : ورد في الحديث «أنه لا ينزع أحد في الجنة من ثمرها ثمرة إلا نبت مكانها مثلاها». (ع)
(2). أخرجه البزار عن ثوبان. وقد تقدم في البقرة.

لا يُفَتَّرُ عَنْهُمْ لا يخفف ولا ينقص ، من قولهم : فترت عنه الحمى إذا سكنت عنه قليلا ونقص حرّها. والمبلس : اليائس الساكت سكوت يأس من فرج. وعن الضحاك : يجعل المجرم في تابوت من نار ثم يردم عليه فيبقى فيه خالدا : لا يرى ولا يرى هُمْ فصل عند البصريين ، عماد عند الكوفيين. وقرئ : وهم فيها ، أى : في النار «1» وقرأ على وابن مسعود رضى الله عنهما : يا مال ، بحذف الكاف للترخيم ، كقول القائل : والحق يا مال غير ما تصف «2»

وقيل لابن عباس : إن ابن مسعود قرأ : ونادوا يا مال ، فقال : ما أشغل أهل النار عن الترخيم «3».

وعن بعضهم : حسن الترخيم أنهم يقتطعون بعض الاسم لضعفهم وعظم ما هم فيه. وقرأ أبو السرار الغنوي : يا مال ، بالرفع كما يقال : يا حار «4» لِيَقْضِ عَلَيْنا رَبُّكَ من قضى عليه إذا أمانه فَوَكَزَهُ مُوسى فَقَضى عَلَيْهِ والمعنى : سل ربك أن يقضى علينا. فإن قلت : كيف قال وَنادَوْا يا مالِكُ بعد ما وصفهم بالإبلاس؟ قلت : تلك أزمنة متطاولة وأحقاب ممتدة ، فتختلف بهم الأحوال فيسكتون أوقاتا لغلبة اليأس عليهم ، وعلمهم أنه لا فرج لهم، ويغوّثون «5» أوقاتا لشدّة ما بهم ماكِثُونَ لابثون. وفيه استهزاء. والمراد : خالدون. عن ابن عباس رضى الله عنهما : إنما يجيبهم بعد ألف سنة «6».

(1). قوله «و قرئ وَهُمْ فِيهِ أى في النار» لعل تأخير الكلام على هذه القراءة عن الكلام على الضمير السابق من تصرف الناسخ. لأنه مخالف لترتيب التلاوة. (ع)
(2) يحيى رفات العظام بالية والحق يا مال غير ما تصف
أى : يحيى الله المتفتت من العظام حال كونها بالية ، يقال : رفته رفتا ، إذا فتته. والرفات : اسم منه كالفتات ، قال : والحق غير ما تذكره يا مالك ، فرخمه بحذف الكاف ، كأنه كان أخبره بموت أحد ثم ظهرت حياته.
(3). لم أجده بإسناد. وفي البخاري عن يعلى بن أمية «أنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم يقرؤها كذلك».
(4). قوله «كما يقال يا حار» في نداء حارث. (ع) [.....]
(5). قوله «و يغوثون» في الصحاح «غوث الرجل» : قال وا غوثاه. (ع)
(6). أخرجه الحاكم من رواية سفيان عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس في قوله وَنادَوْا يا مالِكُ قال : مكث عنهم ألف سنة ثم يقول : إنكم ماكثون ، وروى الترمذي من رواية قطبة بن عبد العزيز عن الأعمش عن سمرة بن عطية عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبى الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم» يلقى على أهل النار الجوع فيعدل ما هم فيه من العذاب فيستغيثون. فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغنى من جوع - الحديث : وفيه قال الأعمش بين أن ينزل عليهم وإجابة مالك ألف عام» وقال الترمذي : قطبة ثقة.
وبعض أهل الحديث كان يرفع هذا. وهذا أخرجه الطيراني والبيهقي في الشعب ورواه الطبري من رواية شريك عن الأعمش موقوف ولم يفصل الكلام الأخير. ثم رواه من طريق قطبة مرفوعا ، ولم يفعل أيضا.

وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم «يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب ، فيقولون : ادعوا مالكا ، فيدعون يا مالك ليقض علينا ربك «1»». لَقَدْ جِئْناكُمْ بِالْحَقِّ كلام اللّه عز وجل : بدليل قراءة من قرأ : لقد جئتكم. ويجب أن يكون في قال ضمير اللّه عز وجلّ. لما سألوا مالكا أن يسأل اللّه تعالى القضاء عليهم : أجابهم اللّه بذلك كارِهُونَ لا تقبلونه وتنفرون منه وتشمئزون منه ، لأنّ مع الباطل الدعة ، ومع الحق التعب.

[سورة الزخرف (43) : الآيات 79 إلى 80]

أَمْ أَبْرَمُوا أَمْراً فَإِنَّا مُبْرِمُونَ (79) أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْواهُمْ بَلى وَرُسُلُنا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ (80)

أَمْ أبرم مشركو مكة أَمْراً من كيدهم ومكرهم برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فَإِنَّا مُبْرِمُونَ كيدنا كما أبرموا كيدهم ، كقوله تعالى أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ؟

وكانوا يتنادون فيتناجون في أمر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. فإن قلت : ما المراد بالسر والنجوى؟ قلت : السر ما حدث به الرجل نفسه أو غيره في مكان خال. والنجوى : ما تكلموا به فيما بينهم بَلى نسمعهما ونطلع عليهما وَرُسُلُنا يريد الحفظة عندهم يَكْتُبُونَ ذلك.

وعن يحيى بن معاذ الرازي : من ستر من الناس ذنوبه وأبداها للذي لا يخفى عليه شيء في السماوات فقد جعله أهون الناظرين إليه ، وهو من علامات النفاق.

[سورة الزخرف (43) : الآيات 81 إلى 82]

قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ فَأَنَا أَوَّلُ الْعابِدِينَ (81) سُبْحانَ رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ (82) قُلْ إِنْ كانَ لِلرَّحْمنِ وَلَدٌ وصح ذلك وثبت ببرهان صحيح توردونه وحجة واضحة تدلون بها فَأَنَا أَوَّلُ من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته والانقياد له : «2» كما يعظم الرجل ولد الملك لتعظيم أبيه ،

(1). هو في الحديث الذي قبله.
(2). قال محمود : «معناه إن صح وثبت برهان قاطع ، فأنا أول من يعظم ذلك الولد وأسبقكم إلى طاعته والانقياد له ... الخ» قال أحمد : لقد اجترأ عظيما وافتحم مهلكة في تمثيله ذلك بقول من سماه عدليا : إن كان اللّه خالقا للكفر في القلوب ومعذبا عليه فأنا أول القائلين إنه شيطان وليس باله ، فليقم عليه ذلك بقول القائل : قد ثبت قطعا عقلا وشرعا أنه تعالى خالق لذلك في القلوب كما خلق الايمان ، وفاء بمقتضى دليل العقل الدال على أن لا خالق إلا اللّه ، وتصديقا بمضمون قوله تعالى هَلْ مِنْ خالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ وقوله اللَّهُ خالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وإذا ثبتت هذه المقدمة عقلا ونقلا : لزمه فرك أذنه وغل عنقه ، إذ يلحد في اللّه إلحادا لم يسقه إليه أحد من عباده الكفرة، ولا تجرأ عليه مارد من مردة الفجرة. ومن خالف في كفر القدرية فقد وافق على كفر من تجرأ فقال هذه المقالة واقتحم هذه الضلالة بلا محالة ، فانه قد صرح بكلمة الكفر على أقبح وجوهها وأشنع أنحائها : واللّه المسئول أن يعصمنا وهو حسبنا ونعم الوكيل.

وهذا كلام وارد على سبيل الفرض والتمثيل لغرض ، وهو المبالغة في نفى الولد والإطناب فيه ، وأن لا يترك الناطق به شبهة إلا مضمحلة مع الترجمة عن نفسه بثبات القدم في باب التوحيد ، وذلك أنه علق العبادة بكينونة الولد وهي محال في نفسها ، فكان المعلق بها محالا مثلها ، فهو في صورة إثبات الكينونة والعبادة ، وفي معنى نفيهما على أبلغ الوجوه وأقواها. ونظيره أن يقول العدلى للمجبر «1». إن كان اللّه تعالى خالقا للكفر في القلوب ومعذبا عليه عذابا سرمدا ، فأنا أول من يقول : هو شيطان وليس بإله ، فمعنى هذا الكلام وما وضع له أسلوبه ونظمه نفى أن يكون اللّه تعالى خالقا للكفر ، وتنزيهه عن ذلك وتقديسه ، ولكن على طريق المبالغة فيه من الوجه الذي ذكرنا ، مع الدلالة على سماجة المذهب وضلالة الذاهب إليه ، والشهادة القاطعة بإحالته والإفصاح عن نفسه بالبراءة منه ، وغاية النفار والاشمئزاز من ارتكابه. ونحو هذه الطريقة قول سعيد بن جبير رحمه اللّه للحجاج حين قال له - : أما واللّه «2» لأبدلنك بالدنيا نارا تلظى - : لو عرفت أن ذلك إليك ما عبدت إلها غيرك. وقد تمحل الناس بما أخرجوه به من هذا الأسلوب الشريف المليء بالنكت والفوائد المستقل بإثبات التوحيد على أبلغ وجوهه ، فقيل : إن كان للرحمن ولد في زعمكم ، فأنا أول العابدين الموحدين للّه ، المكذبين قولكم بإضافة الولد إليه. وقيل : إن كان للرحمن ولد في زعمكم فأنا أول الآنفين من أن يكون له ولد من عبد يعبد : إذا اشتد أنفه فهو عبد وعابد. وقرأ بعضهم : العبدين. وقيل : هي إن النافية ، أى : ما كان للرحمن ولد ، فأنا أول من قال بذلك وعبد ووحد ، وروى أنّ النضر بن عبد الدار بن قصى قال : إن الملائكة بنات اللّه فنزلت ، فقال النضر : ألا ترون أنه قد صدقنى. فقال له الوليد بن المغيرة : ما صدقك ولكن قال : ما كان للرحمن ولد فأنا أول الموحدين من أهل مكة : أن لا ولد له. وقرئ : ولد ، بضم الواو. ثم نزه ذاته موصوفة بربوبية السماوات والأرض والعرش عن اتخاذ الولد ، ليدل على أنه من صفة الأجسام.

(1). قوله «و نظيره أن يقول العدلى للمجبر» يريد : أحد المعتزلة لأحد أهل السنة ، وفي هذا التنظير من سوء الأدب في حقه تعالى ما لا يخفى. (ع)
(2). قوله «قال له : أما والله» في الصحاح : «أما» مخفف تحقيق للكلام الذي يتلوه اه. ولعل حذف الألف لغة ، فليحرر. (ع)

ولو كان جسما لم يقدر على خلق هذا العالم وتدبير أمره.

[سورة الزخرف (43) : آية 83]

فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا وَيَلْعَبُوا حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي يُوعَدُونَ (83)

فَذَرْهُمْ يَخُوضُوا في باطلهم وَيَلْعَبُوا في دنياهم حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ وهذا دليل على أنّ ما يقولونه من باب الجهل والخوض واللعب ، وإعلام لرسول الله صلى الله عليه وسلم أنهم من المطبوع على قلوبهم الذين لا يرجعون البتة ، وإن ركب في دعوتهم كل صعب وذلول ، وخذلان لهم وتخلية بينهم وبين الشيطان ، كقوله تبارك تعالى اعْمَلُوا ما شِئْتُمْ وإيعاد بالشقاء في العاقبة.

[سورة الزخرف (43) : الآيات 84 إلى 85]

وَهُوَ الَّذِي فِي السَّماءِ إِلهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلهٌ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (84) وَتَبارَكَ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما وَعِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (85)

ضمن اسمه تعالى معنى وصف ، فلذلك علق به الظرف في قوله فِي السَّماءِ وَفِي الْأَرْضِ «1» كما تقول ، هو حاتم في طيّ حاتم في تغلب ، على تضمين معنى الجواد الذي شهر به ، كأنك قلت : هو جواد في طى جواد في تغلب. وقرئ : وهو الذي في السماء الله وفي الأرض الله. ومثله قوله تعالى وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّماواتِ وَفِي الْأَرْضِ كأنه ضمن معنى المعبود أو المالك أو نحو ذلك.

والراجع إلى الموصول محذوف لطول الكلام ، كقولهم : ما أنا بالذي قائل لك شيئا ، وزاده طولا أنّ المعطوف داخل في حيز الصلة. ويحتمل أن يكون فِي السَّماءِ صلة الذي وإله خبر مبتدإ محذوف ، على أنّ الجملة بيان للصلة. وأنّ كونه في السماء على سبيل الإلهية والربوبية ، لا على معنى الاستقرار. وفيه نفى الآلهة التي كانت تعبد في الأرض تُرْجَعُونَ قرئ بضم التاء وفتحها. ويرجعون ، بياء مضمومة. وقرئ : تحشرون ، بالتاء.

[سورة الزخرف (43) : الآيات 86 إلى 87]

وَلا يَمْلِكُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ الشَّفاعَةَ إِلاَّ مَنْ شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (86) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ (87)

(1). قال محمود : «ضمن اسمه عز وجل معنى وصف ، فعلق به الظرف ، وهو قوله فِي السَّماءِ ... الخ» قال أحمد : ومما سهل حذف الراجع مضافا إلى الطول الذي ذكره : وقوع الموصول خبرا عن مضمر لو ظهر الراجع لكان كالتكرار المستكره ، إذ كان أصل الكلام : وهو الذي هو في السماء إله. ولا ينكر أن الكلام مع المحذوف الراجع أخف وأسهل ، وأن الراجع إنما حذف على فلة حذف مثله لأمر متأكد ، فانه لم يرد في الكتاب العزيز إلا في قوله تَماماً عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ ومع أى في موضعين على رأى.

ولا يملك آلهتهم الذين يدعون من دون الله الشفاعة ، كما زعموا أنهم شفعاؤهم عند الله ، ولكن من شَهِدَ بِالْحَقِّ وهو توحيد الله ، وهو يعلم ما يشهد به عن بصيرة وإيقان وإخلاص : هو الذي يملك الشفاعة ، وهو استثناء منقطع. ويجوز أن يكون متصلا ، لأنّ في جملة الذين يدعون من دون الله : الملائكة ، وقرئ : تدعون بالتاء. وتدّعون ، بالتاء وتشديد الدال.

[سورة الزخرف (43) : الآيات 88 إلى 89]

وَقِيلِهِ يا رَبِّ إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ (88) فَاصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلامٌ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ (89)

وَقِيلِهِ قرئ بالحركات الثلاث ، وذكر في النصب عن الأخفش أنه حمله على : أم يحسبون أنا لا نسمع سرهم ونجواهم وقيله : وعنه : وقال قيله. وعطفه الزجاج على محل الساعة ، كما تقول : عجبت من ضرب زيد وعمرا ، وحمل الجرّ على لفظ الساعة ، والرفع على الابتداء ، والخبر ما بعده : وجوّز عطفه على علم الساعة على تقدير حذف المضاف. معناه : عنده علم الساعة وعلم قيله. والذي قالوه ليس بقوى في المعنى مع وقوع الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بما لا يحسن اعتراضا ، ومع تنافر النظم. وأقوى من ذلك وأوجه : أن يكون الجرّ والنصب على إضمار حرف القسم وحذفه ، والرفع على قولهم : أيمن اللّه ، وأمانة اللّه ، ويمين اللّه ، ولعمرك : ويكون قوله إِنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ لا يُؤْمِنُونَ جواب القسم ، كأنه قيل : وأقسم بقيله يا رب. أو وقيله يا رب قسمي إنّ هؤلاء قوم لا يؤمنون فَاصْفَحْ عَنْهُمْ فأعرض عن دعوتهم يائسا عن إيمانهم ، وودعهم وتاركهم ، وَقُلْ لهم سَلامٌ أى تسلم منكم ومتاركة فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ وعيد من اللّه لهم وتسلية لرسوله صلى اللّه عليه وسلم. والضمير في وَقِيلِهِ لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وإقسام اللّه بقيله رفع منه وتعظيم لدعائه والتجائه إليه.

عن النبي صلى اللّه عليه وسلم «من قرأ سورة الزخرف كان ممن يقال له يوم القيامة يا عبادي لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون. ادخلوا الجنة بغير حساب» «1»

(1). أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبى بن كعب رضى اللّه عنه.

سورة الدخان

مكية ، إلا قوله إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلًا ... الآية وهي سبع وخمسون آية. وقيل تسع وخمسون [نزلت بعد سورة الزخرف]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الدخان (44) : الآيات 1 إلى 8]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) وَالْكِتابِ الْمُبِينِ (2) إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ (3) فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ (4) أَمْراً مِنْ عِنْدِنا إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ (5) رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (6) رَبِّ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَما بَيْنَهُما إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ (7) لا إِلهَ إِلاَّ هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبائِكُمُ الْأَوَّلِينَ (8)

الواو في وَالْكِتابِ واو القسم ، إن جعلت حم تعديدا للحروف أو اسما للسورة ، مرفوعا على خبر الابتداء المحذوف وواو العطف إن كانت حم مقسما بها. وقوله إِنَّا أَنْزَلْناهُ جواب القسم ، والكتاب المبين القرآن. والليلة المباركة : ليلة القدر. وقيل : ليلة النصف من شعبان ، ولها أربعة أسماء : الليلة المباركة ، وليلة البراءة ، وليلة الصكّ ، وليلة الرحمة وقيل : بينها وبين ليلة القدر أربعون ليلة. وقيل في تسميتها : ليلة البراءة. والصكّ : أن البندار إذا استوفى الخراج من أهله كتب لهم البراءة ، كذلك اللّه عز وجل يكتب لعباده المؤمنين البراءة في هذه الليلة.

وقيل : هي مختصة بخمس خصال : تفريق كل أمر حكيم وفضيلة العبادة فيها : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من صلى في هذه الليلة مائة ركعة أرسل اللّه إليه مائة ملك : ثلاثون يبشرونه بالجنة ، وثلاثون يؤمنون من عذاب النار ، وثلاثون يدفعون عنه آفات الدنيا. وعشرة يدفعون عنه مكايد الشيطان «1»». ونزول الرحمة: قال عليه الصلاة والسلام :

(1). ذكره صاحب الفردوس من حديث ابن عمر هكذا وأخرجه أبو الفتح سليم بن أيوب في الترغيب له من رواية جعفر بن محمد عن أبيه عن على موقوفا. وأخرجه ابن الأخضر من رواية جعفر المدائني عن أبى يحيى العتابى حدثني بضعة وثلاثون من أصحاب النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال - فذكره
(2). قوله «يرحم أمتى في هذه الليلة» لعله : من أمتى. (ع)

«إنّ اللّه يرحم أمّتى «2» في هذه الليلة بعدد شعر أغنام بنى كلب «1»» وحصول المغفرة : قال عليه الصلاة والسلام : «إنّ اللّه تعالى يغفر لجميع المسلمين في تلك الليلة إلا لكاهن أو ساحر أو مشاحن أو مدمن خمر أو عاق للوالدين ، أو مصرّ على الزنا» «2» وما أعطى فيها رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من تمام الشفاعة ، وذلك أنه سأل ليلة الثالث عشر من شعبان في أمّته ، فأعطى الثلث منها ، ثم سأل ليلة الرابع عشر فأعطى الثلثين ، ثم سأل ليلة الخامس عشر فأعطى الجميع ، إلا من شرد عن اللّه شراد البعير. ومن عادة اللّه في هذه الليلة : أن يزيد فيها ماء زمزم زيادة ظاهرة ، والقول الأكثر : أنّ المراد بالليلة المباركة : ليلة القدر ، لقوله تعالى إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ ولمطابقة قوله : فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ لقوله : تَنَزَّلُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ فِيها بِإِذْنِ رَبِّهِمْ مِنْ كُلِّ أَمْرٍ وقوله تعالى شَهْرُ رَمَضانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ وليلة القدر في أكثر الأقاويل في شهر رمضان. فإن قلت : ما معنى إنزال القرآن في هذه الليلة؟ قلت : قالوا أنزل جملة واحدة من السماء السابعة إلى السماء الدنيا ، وأمر السفرة الكرام بانتساخه في ليلة القدر وكان جبريل عليه السلام ينزله على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم نجوما نجوما. فإن قلت : إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ ما موقع هاتين الجملتين؟ قلت : هما جملتان مستأنفتان ملفوفتان «3». فسر بهما جواب القسم الذي هو قوله تعالى إِنَّا أَنْزَلْناهُ فِي لَيْلَةٍ مُبارَكَةٍ كأنه قيل : أنزلناه ، لأن من شأننا الإنذار والتحذير من العقاب ، وكان إنزالنا إياه في هذه الليلة خصوصا ، لأنّ إنزال القرآن من الأمور الحكيمة ، وهذه الليلة مفرق كل أمر حكيم. والمباركة : الكثيرة الخير لما يتيح «4» اللّه فيها من الأمور التي يتعلق بها منافع العباد في دينهم ودنياهم ، ولو لم يوجد فيها إلا إنزال القرآن وحده لكفى به بركة. ومعنى يُفْرَقُ يفصل ويكتب كل أمر حكيم من أرزاق العباد وآجالهم ، وجميع أمورهم منها إلى الأخرى القابلة.

(1). أخرجه الترمذي وابن ماجة من حديث عائشة مرفوعا «إن اللّه ينزل ليلة النصف من شعبان إلى سماء الدنيا.

فيغفر لأكثر من عدد شعر غنم كلب. قال الترمذي : لا نعرفه إلا من حديث الحجاج؟ وسمعت محمدا يضعفه. وقال : ابن يحيى لم يسمع من عروة ، والحجاج لم يسمع من يحيى ، وفي الباب عن أنس عن عائشة في الدعوات البيهقي. وفي روايته مجاهيل. ومن وجه آخر عن عائشة في الافراد للدارقطني. وفيه عطاء بن عجلان. وهو متروك.
(2). لم أجد ، هكذا. وفي ابن حبان من حديث معاذ بن جبل وقال يطلع إلى خلقه ليلة النصف من شعبان فيغفر لجميع خلقه إلا لمشرك أو مشاحن» وفي ابن ماجة من حديث أبى موسى كذلك. والبزار من حديث أبى بكر وفي إسناده ضعف والبزار أيضا من حديث عوف بن مالك. وفيه ابن لهيعة. ومن حديث أبى هريرة وفيه من لا يعرف. ورواه البيهقي في الشعب من حديث أبى سعيد عن عائشة. وفيها لا ينظر الله فيها إلى مشرك ولا إلى مشاحن ولا إلى قاطع رحم ولا إلى عاق ولا إلى مدمن خمر وفي رواية أنس عن عائشة التي ذكرناها في التي قبلها «المدمن والعاق والمصر على الزنا وزادوا : ولا مصور ولا قتار.
(3). قوله «ملفوفتان» لعله من اللف والنشر المقرر في البيان ، وبيانه ما بعده. (ع)
(4). قوله «لما يتيح الله فيها» أى يقدر. (ع) [.....]

وقيل : يبدأ في استنساخ ذلك من اللوح المحفوظ في ليلة البراءة ، ويقع الفراغ في ليلة القدر ، فتدفع نسخة الأرزاق إلى ميكائيل ، ونسخه الحروب إلى جبريل ، وكذلك الزلازل والصواعق والخسف ، ونسخة الأعمال إلى إسماعيل صاحب سماء الدنيا وهو ملك عظيم ونسخة المصائب إلى ملك الموت. وعن بعضهم : يعطى كل عامل بركات أعماله ، فيلقى على ألسنة الخلق مدحه ، وعلى قلوبهم هيبته. وقرئ : يُفْرَقُ بالتشديد. ويُفْرَقُ كل على بنائه للفاعل ونصب كل ، والفارق : الله عزّ وجلّ ، وقرأ زيد بن على رضى الله عنه : نفرق ، بالنون ، كل أمر حكيم : كل شأن ذى حكمة ، أى : مفعول على ما تقتضيه الحكمة ، وهو من الإسناد المجازى ، لأنّ الحكيم صفة صاحب الأمر على الحقيقة ، ووصف الأمر به مجاز أَمْراً مِنْ عِنْدِنا نصب على الاختصاص. جعل كل أمر جزلا فخما بأن وصفه بالحكيم ، ثم زاده جزالة وكسبه فخامة بأن قال : أعنى بهذا الأمر أمرا حاصلا من عندنا ، كائنا من لدنا ، وكما اقتضاء علمنا وتدبيرنا.

ويجوز أن يراد به الأمر الذي هو ضد النهى ، ثم إما أن يوضع موضع فرقانا الذي هو مصدر يفرق ، لأنّ معنى الأمر والفرقان واحد ، من حيث أنه إذا حكم بالشيء وكتبه فقد أمر به وأوجبه. أو يكون حالا من أحد الضميرين في أنزلناه : إما من ضمير الفاعل ، أى : أنزلناه آمرين أمرا. أو من ضمير المفعول أى أنزلناه في حال كونه أمرا من عندنا بما يجب أن يفعل فإن قلت : إِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ بم يتعلق؟ قلت : يجوز أن يكون بدلا من قوله إِنَّا كُنَّا مُنْذِرِينَ ورَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ مفعولا له ، على معنى : إنا أنزلنا القرآن ، لأنّ من شأننا إرسال الرسل بالكتب إلى عبادنا لأجل الرحمة عليهم ، وأن يكون تعليلا ليفرق. أو لقوله أَمْراً مِنْ عِنْدِنا ورحمة: مفعولا به ، وقد وصف الرحمة بالإرسال كما وصفها به في قوله تعالى وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ أى يفصل في هذه الليلة كل أمر. أو تصدر الأوامر من عندنا ، لأنّ من عادتنا أن نرسل رحمتنا. وفصل كل أمر من قسمة الأرزاق وغيرها من باب الرحمة ، وكذلك الأوامر الصادرة من جهته عز وعلا ، لأنّ الغرض في تكليف العباد تعريضهم للمنافع. والأصل : إنا كنا مرسلين رحمة منا ، فوضع الظاهر موضع الضمير إيذانا بأنّ الربوبية تقتضي الرحمة على المربوبين ، وفي قراءة زيد بن على : أمر من عندنا ، على : هو أمر ، وهي تنصر انتصابه على الاختصاص. وقرأ الحسن : رحمة من ربك. على : تلك رحمة ، وهي تنصر انتصابها بأنها مفعول له إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ وما بعده تحقيق لربوبيته ، وأنها لا تحق إلا لمن هذه أوصافه. وقرئ : رب السماوات ... ربكم ورب آبائكم ، بالجر بدلا من ربك. فإن قلت : ما معنى الشرط الذي هو قوله إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ؟ قلت : كانوا يقرون بأن للسماوات والأرض ربا وخالقا ، فقيل لهم : إنّ إرسال الرسل وإنزال الكتب رحمة من الرب ، ثم قيل : إن هذا الرب هو السميع العليم الذي أنتم مقرون به ومعترفون بأنه رب السماوات والأرض وما بينهما إن كان إقراركم عن علم وإيقان ، كما تقول : إنّ هذا إنعام زيد الذي تسامع الناس بكرمه واشتهر وإسخاؤه إن بلغك حديثه وحدثت بقصته.

[سورة الدخان (44) : الآيات 9 إلى 12]

بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ (9) فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ بِدُخانٍ مُبِينٍ (10) يَغْشَى النَّاسَ هذا عَذابٌ أَلِيمٌ (11) رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ (12)

ثم ردّ أن يكونوا موقنين بقوله بَلْ هُمْ فِي شَكٍّ يَلْعَبُونَ وأن إقرارهم غير صادر عن علم وتيقن ، ولا عن جدّ وحقيقة : بل قول مخلوط بهزء ولعب يَوْمَ تَأْتِي السَّماءُ مفعول به مرتقب. يقال : رقبته وارتقبته. نحو : نظرته وانتظرته. واختلف في الدخان ، فعن على بن أبى طالب رضى الله عنه وبه أخذ الحسن : أنه دخان يأتى من السماء قبل يوم القيامة يدخل في أسماع الكفرة ، حتى يكون رأس الواحد منهم كالرأس الحنيذ «1» ، ويعترى المؤمن منه كهيئة الزكام ، وتكون الأرض كلها كبيت أو قد فيه ليس فيه خصاص «2». وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم «أوّل الآيات : الدخان ، ونزول عيسى ابن مريم ، ونار تخرج من قعر عدن أبين «3» تسوق

أما المؤمن فيصيبه كهيئة الزكمّة ، وأما الكافر فهو كالسكران يخرج من منخريه وأذنيه ودبره» وعن ابن مسعود رضى اللّه عنه : خمس قد مضت : الروم ، والدخان ، والقمر ، والبطشة.

واللزام. ويروى أنه قيل لابن مسعود : إن قاصا عند أبواب كندة يقول : إنه دخان يأتى يوم القيامة فيأخذ بأنفاس الخلق ، فقال : من علم علما فليقل به ، ومن لم يعلم فليقل : اللّه أعلم ، فإن من علم الرجل أن يقول لشيء لا يعلمه : اللّه أعلم ، ثم قال : ألا وسأحدّثكم أنّ قريشا لما استعصت على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم دعا عليهم فقال : «اللهم اشدد وطأتك على مضر ، «5»

(1). قوله «كالرأس الحنيذ» أى المشوى ، كما في الصحاح. (ع)
(2). قوله «ليس فيه خصاص» أى : فرج. أفاده الصحاح. (ع)
(3). قوله «أبين» في الصحاح : «أبين» : اسم رجل نسب إليه عدن. (ع)
(4). هذا أولى. وفي إسناده رواه ابن الجراح وهو متروك. وقد اعترف بأنه لم يسمع هذا الحديث.
(5). متفق عليه دون قوله «حتى أكلوا الجيف والعلهز» وقد رواه النسائي والحاكم والطبراني من حديث ابن عباس قال «جاء أبو سفيان إلى النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال : أنشدك اللّه والرحم لقد أكلنا العلهز يعنى الوبر والدم فأنزل اللّه وَلَقَدْ أَخَذْناهُمْ بِالْعَذابِ - الآية.

واجعلها عليهم سنين كسنى يوسف» فأصابهم الجهد حتى أكلوا الجيف «1» والعلهز ، وكان الرجل يرى بين السماء والأرض الدخان ، وكان يحدّث الرجل «2» فيسمع كلامه ولا يراه من الدخان ، فمشى إليه أبو سفيان ونفر معه وناشدوه اللّه والرحم وواعدوه إن دعا لهم وكشف عنهم أن يؤمنوا ، فلما كشف عنهم رجعوا إلى شركهم بِدُخانٍ مُبِينٍ ظاهر حاله لا يشك أحد في أنه دخان يَغْشَى النَّاسَ يشملهم ويلبسهم ، وهو في محل الجر صفة لدخان.

وهذا عَذابٌ إلى قوله مُؤْمِنُونَ منصوب المحل بفعل مضمر ، وهو : يقولون. ويقولون : منصوب على الحال ، أى : قائلين ذلك. إِنَّا مُؤْمِنُونَ موعدة بالإيمان إن كشف عنهم العذاب.

[سورة الدخان (44) : الآيات 13 إلى 16]

أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى وَقَدْ جاءَهُمْ رَسُولٌ مُبِينٌ (13) ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقالُوا مُعَلَّمٌ مَجْنُونٌ (14) إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عائِدُونَ (15) يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى إِنَّا مُنْتَقِمُونَ (16)

أَنَّى لَهُمُ الذِّكْرى كيف يذكرون ويتعظون ويفون بما وعدوه من الإيمان عند كشف العذاب وَقَدْ جاءَهُمْ ما هو أعظم وأدخل في وجوب الادّكار من كشف الدخان ، وهو ما ظهر على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من الآيات البينات من الكتاب المعجز وغيره من المعجزات ، فلم يذكروا وتولوا عنه ، وبهتوه «3» بأن عداسا غلاما أعجميا لبعض ثقيف هو الذي علمه ، ونسبوه إلى الجنون ، ثم قال إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلًا إِنَّكُمْ عائِدُونَ أى ريثما نكشف عنكم العذاب تعودون إلى شرككم لا تلبثون غب الكشف على ما أنتم عليه من التضرع والابتهال. فإن قلت : كيف يستقيم على قول من جعل الدخان قبل يوم القيامة قوله إِنَّا كاشِفُوا الْعَذابِ قَلِيلًا؟ قلت : إذا أتت السماء بالدخان تضور «4» المعذبون به من الكفار والمنافقين وغوّثوا وقالوا رَبَّنَا اكْشِفْ عَنَّا الْعَذابَ إِنَّا مُؤْمِنُونَ منيبون ، فيكشفه اللّه عنهم بعد أربعين يوما ، فريثما يكشفه عنهم يرتدون لا يتمهلون ، ثم قال : يَوْمَ نَبْطِشُ الْبَطْشَةَ الْكُبْرى يريد يوم القيامة ،

(1). قوله «حتى أكلوا الجيف والعلهز» في الصحاح «العلهز» - بالكسر - : طعام كانوا يتخذونه من الدم ووبر البعير في زمن المجاعة. (ع)
(2). قوله «و كان يحدث الرجل فيسمع» لعله : يحدث الرجل الرجل ، ويمكن أن يجعل الفاعل ضميرا يعود على الرجل السابق. (ع)
(3). قوله وتولوا عنه وبهتوه» رموه بما ليس فيه والتغويث قولها : وا غوثاه ، كما في الصحاح أيضا. (ع)
(4). قوله «تضور المعذبون به» التضور : الصياح والتلوي عند الألم. أفاده الصحاح. (ع)

كقوله تعالى فَإِذا جاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرى . إِنَّا مُنْتَقِمُونَ أى ننتقم منهم في ذلك اليوم. فإن قلت : بم انتصب يوم نبطش؟ قلت : بما دل عليه إِنَّا مُنْتَقِمُونَ وهو ننتقم.

ولا يصح أن ينتصب بمنتقمون ، لأن «إن» تحجب عن ذلك. وقرئ : نبطش ، بضم الطاء.

وقرأ الحسن : نبطش بضم النون ، كأنه يحمل الملائكة على أن يبطشوا بهم البطشة الكبرى.

أو يجعل البطشة الكبرى باطشة بهم. وقيل الْبَطْشَةَ الْكُبْرى : يوم بدر.

[سورة الدخان (44) : الآيات 17 إلى 21]

وَلَقَدْ فَتَنَّا قَبْلَهُمْ قَوْمَ فِرْعَوْنَ وَجاءَهُمْ رَسُولٌ كَرِيمٌ (17) أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ عِبادَ اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ (18) وَأَنْ لا تَعْلُوا عَلَى اللَّهِ إِنِّي آتِيكُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (19) وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَنْ تَرْجُمُونِ (20) وَإِنْ لَمْ تُؤْمِنُوا لِي فَاعْتَزِلُونِ (21)

وقرئ : ولقد فتنا ، بالتشديد للتأكيد. أو لوقوعه على القوم. ومعنى الفتنة : أنه أمهلهم ووسع عليهم في الرزق ، فكان ذلك سببا في ارتكابهم المعاصي واقترافهم الاثام. أو ابتلاهم بإرسال موسى إليهم ليؤمنوا ، فاختاروا الكفر على الإيمان. أو سلبهم ملكهم وأغرقهم كَرِيمٌ على اللّه وعلى عباده المؤمنين. أو كريم في نفسه ، لأنّ اللّه لم يبعث نبيا إلا من سراة قومه وكرامهم أَنْ أَدُّوا إِلَيَّ هي أن المفسرة ، لأن مجيء الرسول من بعث إليهم متضمن لمعنى القول لأنه لا يجيئهم إلا مبشرا ونذيرا وداعيا إلى اللّه. أو المخففة من الثقيلة ومعناه : وجاءهم بأن الشأن والحديث أدّوا إليّ وَعِبادُ الرَّحْمنِ مفعول به وهم بنو إسرائيل ، يقول : أدوهم إليّ وأرسلوهم معى ، كقوله تعالى فَأَرْسِلْ مَعَنا بَنِي إِسْرائِيلَ وَلا تُعَذِّبْهُمْ ويجوز أن يكون نداء لهم على : أدوا إليّ يا عباد اللّه ما هو واجب لي عليكم من الإيمان لي وقبول دعوتي واتباع سبيلي ، وعلل ذلك بأنه رَسُولٌ أَمِينٌ غير ظنين قد ائتمنه اللّه على وحيه ورسالته وَأَنْ لا تَعْلُوا أن هذه مثل الأولى في وجهيها ، أى : لا تستكبروا عَلَى اللَّهِ بالاستهانة برسوله ووحيه. أو لا تستكبروا على نبىّ اللّه بِسُلْطانٍ مُبِينٍ بحجة واضحة أَنْ تَرْجُمُونِ أن تقتلون. وقرئ : عت ، بالإدغام. ومعناه أنه عائذ بربه متكل على أنه يعصمه منهم ومن كيدهم ، فهو غير مبال بما كانوا يتوعدونه به من الرجم والقتل فَاعْتَزِلُونِ يريد : إن لم تؤمنوا لي فلا موالاة بيني وبين من لا يؤمنوا ، فتنحوا عنى واقطعوا أسباب الوصلة عنى ، أى : فخلوني كفافا لا لي ولا علىّ ، ولا تتعرضوا لي بشركم وأذاكم ، فليس جزاء من دعاكم إلى ما فيه فلاحكم ذلك.

[سورة الدخان (44) : الآيات 22 إلى 24]

فَدَعا رَبَّهُ أَنَّ هؤُلاءِ قَوْمٌ مُجْرِمُونَ (22) فَأَسْرِ بِعِبادِي لَيْلاً إِنَّكُمْ مُتَّبَعُونَ (23) وَاتْرُكِ الْبَحْرَ رَهْواً إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ (24)

أَنَّ هؤُلاءِ بأن هؤلاء ، أى : دعا ربه بذلك. قيل : كان دعاؤه : اللهم عجل لهم ما يستحقونه بإجرامهم : وقيل هو قوله رَبَّنا لا تَجْعَلْنا فِتْنَةً لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ وإنما ذكر اللّه تعالى السبب الذي استوجبوا به الهلاك ، وهو كونهم مجرمين. وقرئ : إنّ هؤلاء ، بالكسر على إضمار القول ، أى : فدعا ربه فقال : إن هؤلاء فَأَسْرِ قرئ بقطع الهمزة من أسرى ، ووصلها من سرى.

وفيه وجهان : إضمار القول بعد الفاء ، فقال : أسر بعبادي. وأن يكون جواب شرط محذوف ، كأنه قيل : قال إن كان الأمر كما تقول فأسر بِعِبادِي يعنى : فأسر ببني إسرائيل ، فقد دبر اللّه أن تتقدموا ويتبعكم فرعون وجنوده ، فينجى المتقدمين ويغرق التابعين. الرهو فيه وجهان ، أحدهما : أنه الساكن. قال الأعشى : يمشين رهوا فلا الأعجاز خاذلة ولا الصدور على الأعجاز تتّكل «1» أى مشيا ساكنا على هينة. أراد موسى لما جاوز البحر أن يضربه بعصاه فينطبق ، كما ضربه فانفلق ، فأمر بأن يتركه ساكنا على هيئته ، قارّا على حاله : من انتصاب الماء ، وكون الطريق يبسا لا يضربه بعصاه ولا يغير منه شيئا ليدخله القبط ، فإذا حصلوا فيه أطبقه اللّه عليهم. والثاني :

(1) يمشين رهوا فلا الأعجاز خاذلة ولا الصدور على الأعجاز تتكل
فهن معترضات والحصى رمض والريح ساكنة والظل معتدل
يتبعن سامية العينين تحسبها مجنونة أو ترى ما لا ترى الإبل
تهدى لنا كلما كانت علاوتنا ريح الخزامى جرى فيها الندى الخضل
للقطافى ، يصف إبلا يمشين مشيا رهوا على هينة وسكينة ، فلا أعجازها خادلة أى تاركة لصدورها متكلة عليها بحيث تضعف من ورائها ، ولا صدورها تتكل على أعجازها بأن تضعف من قدامها ، فأطلق الخذلان والاتكال وأراد لازمهما ، وهو الضعف : مجازا

أن الرهو الفجوة الواسعة. وعن بعض العرب : أنه رأى جملا فالجا «1» فقال : سبحان اللّه ، رهو بين سنامين، أى : اتركه مفتوحا على حاله منفرجا إِنَّهُمْ جُنْدٌ مُغْرَقُونَ وقرئ بالفتح ، بمعنى : لأنهم.

[سورة الدخان (44) : الآيات 25 إلى 27]

كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (25) وَزُرُوعٍ وَمَقامٍ كَرِيمٍ (26) وَنَعْمَةٍ كانُوا فِيها فاكِهِينَ (27)

والمقام الكريم : ما كان لهم من المجالس والمنازل الحسنة. وقيل : المنابر. والنعمة - بالفتح - من التنعم ، وبالكسر - من الإنعام. وقرئ : فاكهين وفكهين.

[سورة الدخان (44) : الآيات 28 إلى 29]

كَذلِكَ وَأَوْرَثْناها قَوْماً آخَرِينَ (28) فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ وَما كانُوا مُنْظَرِينَ (29)

كَذلِكَ الكاف منصوبة على معنى : مثل ذلك الإخراج أخرجناهم منها وَأَوْرَثْناها أو في موضع الرفع على الأمر كذلك قَوْماً آخَرِينَ ليسوا منهم في شيء من قرابة ولا دين ولا ولاء ، وهم بنو إسرائيل : كانوا متسخرين مستعبدين في أيديهم ، فأهلكهم اللّه على أيديهم ، وأورثهم ملكهم وديارهم. إذا مات رجل خطير قالت العرب في تعظيم مهلكه : بكت عليه السماء والأرض ، وبكته الريح ، وأظلمت له الشمس. وفي حديث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «ما من مؤمن مات في غربة غابت فيها بواكيه إلا بكت عليه السماء والأرض» «2» وقال جرير: تبكى عليك نجوم اللّيل والقمرا «3»

(1). قوله «أنه رأى جملا فالجا» في الصحاح «الفالج» الضخم ذو السنامين. (ع)
(2). أخرجه البيهقي في الشعب في السبعين منه والطبري والثعلبي من حديث شريح بن عبيد الحضرمي عن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال «إن الإسلام بدأ غريبا ، وسيعود غريبا إلا غربة على مؤمن. ما مات مؤمن في غربة غائب عنه فيها بواكيه - الحديث»
(3) نعى النعاة أمير المؤمنين لنا يا خير من حج بيت اللّه واعتمرا
حملت أمرا عظيما فاصطبرت له وقمت فيه بأمر اللّه يا عمرا
الشمس طالعة ليست بكاسفة تبكى عليك نجوم الليل والقمرا
لجرير ، يرثى عمر بن عبد العزيز. والنعي : النداء بالموت. وقوله «يا خير» حكاية قول النعاة ، أى : قائلين يا خير ، ويحتمل أنه من كلام الشاعر ، ففيه التفات. والأمر العظيم : الخلافة ومشاقها : شبهها بالمحسوس على طريق المكنية.
والتحصيل : تخييل. وأمر اللّه : شرعه ، أو اكتفى به عن ذكر النهى لدلالته عليه. وعمرا : منادى مندوب ، وألف الندبة منعت ضمة وجلبت فتحة. واستعمال «يا» في الندبة مع أن الأصل فيها «وا» لعدم اللبس في النداء بعد ذكر النعي. ويقال : كسفت الشمس كسوفا ، وكسفها اللّه كسفا ، وبكى على زيد وبكاء ، وباكاء فبكاه ، أى غلبه في البكاء ، كفاخره ففخره إذا غلبه في الفخر ، فكسف ، وبكى : متعديان ولازمان ، وطالعة : خبر الشمس.
وليست بكاسفة : خبر ثان. وتبكى عليك : حال أو خبر ثالث. ونجوم الليل : مفعول كاسفة ، أى : لم تكسف الشمس نجوم الليل لانطماسها وقلة ضوئها من كثرة بكائها ، فلا تقدر على منع الكواكب من الظهور. ويحتمل أن نجوم الليل مفعول تبكى. أى : تغلب نجوم الليل في البكاء عليك. وقيل : روايته هكذا وهم ، والرواية : الشمس كاسفة ليست بطالعة : أى لا تطلع أبدا من حينئذ ، فالأوجه أن نجوم الليل مفعول تبكى. وقيل : ظرف له ، أى :
مدة نجوم ... الخ. وقيل «نجوم» مرفوع على الفاعلية ، والقمر : مفعول معه ، ثم إن المراد بهذا حزن جميع المخلوقات عليه ، لا سيما الناس العقلاء.

وقالت الخارجية : أيا شجر الخابور مالك مورقا كأنّك لم تجزع على ابن طريف «1»

وذلك على سبيل التمثيل والتخييل مبالغة في وجوب الجزع والبكاء عليه ، وكذلك ما يروى عن ابن عباس رضى اللّه عنهما : من بكاء مصلى المؤمن ، وآثاره في الأرض ، ومصاعد عمله ، ومهابط رزقه في السماء : تمثيل ، ونفى ذلك عنهم في قوله تعالى فَما بَكَتْ عَلَيْهِمُ السَّماءُ وَالْأَرْضُ فيه تهكم بهم وبحالهم المنافية لحال من

(1) أيا شجر الخابور مالك مورقا كأنك لم تجزع على ابن طريف
فتى لا يحب الزاد إلا من التقى ولا المال إلا من قنا وسيوف
حليف الندى ما عاش يرضى به الندى فان مات لم يرض الندى بحليف
فقد ناء فقدان الربيع وليتنا فديناه من ساداتنا بألوف
لليلى بنت طريف ترثى أخاها الوليد. وأيا : حرف نداء. والخابور : موضع كثير الشجر ، نزلت شجرة منزلة العاقل ، فنادته واستفهمته عن سبب إخراجه الورق ، من باب تجاهل العارف ساقت المعلوم مساق المجهول ، واستفهمت عنه لفرط ما بها من الجزع تيقنت أن كل الأشياء جزعت عليه حتى الشجر ، فخاطبته بقولها : كأنك لم تجزع على أخى ، وذكرته بكنيته تعظيما لقدره وتنويها بذكره. ومورقا : حال من كاف الخطاب ، ثم قالت : هو فتى لا يحب أن يتزود إلا من التقى ، ولا يحب المال إلا من الغنائم بالحرب ، فقولها «إلا من قنا وسيوف» : كناية عن ذلك. والقناة :
الرماح ، واحده : قناة. حليف الندى : أى ملازم له تلازم المتحالفين على الاجتماع ، فهو استعارة مصرحة ، ثم قالت : يرضى به أى بصحبته الندى : مدة حياته وإن طالت. وهذا ترشيح للاستعارة. وقولها : فان مات «إن» فيه بمعنى إذ ، فهي لمجرد الربط لا للشك ، كما ذهب إليه الكوفيون في نحو قوله تعالى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ وهذا على أنه كان قد مات كما هو ظاهر قولها فقدناه. ويحتمل أنه كان في مرض الموت ، أى : شارفنا فقده مجازا ، كأنه قد حصل. وشبهته بالربيع في ضمن تشبيه فقدانه فقدان الربيع يجامع عموم نفع كل : مدحته بالتقوى والشجاعة والكرم وعموم النفع والسيادة ، وتنكير ألوف للتكثير ، ويروى : دهمائنا ، بدل سادتنا. والدهماء : السواد العظيم. وظاهر التمني يدل أيضا على أنه كان قد مات ، إلا أن يكون المعنى : ليتنا فديناه مما أصابه فأمرضه.
وتكرير «حليف» من باب رد العجز على الصدر [.....]

[سورة الدخان (44) : الآيات 30 إلى 31]

وَلَقَدْ نَجَّيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ مِنَ الْعَذابِ الْمُهِينِ (30) مِنْ فِرْعَوْنَ إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ (31)

مِنْ فِرْعَوْنَ بدل من العذاب المهين ، كأنه في نفسه كان عذابا مهينا ، لإفراطه في تعذيبهم وإهانتهم. ويجوز أن يكون المعنى : من العذاب المهين واقعا من جهة فرعون. وقرئ من عذاب المهين. ووجهه أن يكون تقدير قوله مِنْ فِرْعَوْنَ : من عذاب فرعون ، حتى يكون المهين هو فرعون. وفي قراءة ابن عباس : من فرعون ، لما وصف عذاب فرعون بالشدة والفظاعة قال : من فرعون ، على معنى : هل تعرفونه من هو في عتوّه وشيطنته، ثم عرف حاله في ذلك بقوله إِنَّهُ كانَ عالِياً مِنَ الْمُسْرِفِينَ أى كبيرا رفيع الطبقة ، ومن بينهم فائقا لهم ، بليغا في إسرافه.

أو عاليا متكبرا ، كقوله تعالى إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الْأَرْضِ. ومِنَ الْمُسْرِفِينَ خبر ثان ، كأنه قيل : إنه كان متكبرا مسرفا.

[سورة الدخان (44) : الآيات 32 إلى 34]

وَلَقَدِ اخْتَرْناهُمْ عَلى عِلْمٍ عَلَى الْعالَمِينَ (32) وَآتَيْناهُمْ مِنَ الْآياتِ ما فِيهِ بَلؤُا مُبِينٌ (33) إِنَّ هؤُلاءِ لَيَقُولُونَ (34)
الضمير في اخْتَرْناهُمْ لبنى إسرائيل. وعَلى عِلْمٍ في موضع الحال ، أى : عالمين بمكان الخيرة ، وبأنهم أحقاء بأن يختاروا. ويجوز أن يكون المعنى : مع علمٍ منا بأنهم يزيغون ويفرط منهم الفرطات في بعض الأحوال عَلَى الْعالَمِينَ على عالمى زمانهم. وقيل : على الناس جميعا لكثرة الأنبياء منهم مِنَ الْآياتِ من نحو فلق البحر وتظليل الغمام وإنزال المنّ والسلوى ، وغير ذلك من الآيات العظام التي لم يظهر الله في غيرهم مثلها بَلؤُا مُبِينٌ نعمة ظاهرة ، لأن الله تعالى يبلو بالنعمة كما يبلو بالمصيبة. أو اختبار ظاهر لننظر كيف تعملون ، كقوله تعالى وَفِي ذلِكُمْ بَلاءٌ مِنْ رَبِّكُمْ عَظِيمٌ.

[سورة الدخان (44) : الآيات 34 إلى 36]

إِنَّ هؤُلاءِ لَيَقُولُونَ (34) إِنْ هِيَ إِلاَّ مَوْتَتُنَا الْأُولى وَما نَحْنُ بِمُنْشَرِينَ (35) فَأْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (36)

هؤُلاءِ إشارة إلى كفار قريش فإن قلت : كان الكلام واقعا في الحياة الثانية «1» لا في الموت «2» ، فهلا قيل: إن هي إلا حياتنا الأولى وما نحن بمنشرين؟ كما قيل : إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين؟ وما معنى قوله إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى ؟ وما معنى ذكر الأولى؟

كأنهم وعدوا موتة أخرى حتى نفوها وجحدوها وأثبتوا الأولى؟ قلت : معناه - والله الموفق للصواب - : أنه قيل لهم : إنكم تموتون موتة تتعقبها حياة ، كما تقدّمتكم موتة قد تعقبتها حياة ، وذلك قوله عزّ وجل وَكُنْتُمْ أَمْواتاً فَأَحْياكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ فقالوا إِنْ هِيَ إِلَّا مَوْتَتُنَا الْأُولى يريدون : ما الموتة التي من شأنها أن يتعقبها حياة إلا الموتة الأولى دون الموتة الثانية ، وما هذه الصفة التي تصفون بها الموتة من تعقب الحياة لها إلا للموتة الأولى خاصة ، فلا فرق إذا بين هذا وبين قوله إِنْ هِيَ إِلَّا حَياتُنَا الدُّنْيا في المعنى. يقال : أنشر الله الموتى ونشرهم : إذا بعثهم فَأْتُوا بِآبائِنا خطاب للذين كانوا يعدونهم النشور : من رسول الله صلى الله عليه وسلم والمؤمنين ، أى : إن صدقتم فيما تقولون فعجلوا لنا إحياء من مات من آبائنا بسؤالكم ربكم ذلك حتى يكون دليلا على أنّ ما تعدونه من قيام الساعة وبعث الموتى حق ، وقيل كانوا يطلبون اليهم أن يدعوا الله وينشر لهم قصىّ بن كلاب ليشاوروه ، فإنه كان كبيرهم ومشاورهم في النوازل ومعاظم الشئون.

[سورة الدخان (44) : آية 37]

أَهُمْ خَيْرٌ أَمْ قَوْمُ تُبَّعٍ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ أَهْلَكْناهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا مُجْرِمِينَ (37)

هو تبع الحميري : كان مؤمنا وقومه كافرين ، ولذلك ذمّ الله قومه ولم يذمّه ، وهو الذي سار بالجيوش وحير الحيرة وبنى سمرقند. وقيل : هدمها وكان إذا كتب قال : بسم الله الذي ملك برّا وبحرا. وعنى النبي صلى الله عليه وسلم «لا تسبوا تبعا فإنه كان قد أسلم» «3»

(1). قوله «واقعا في الحياة الثانية» أى التي ينكرونها. (ع)
(2). قال محمود : «فان قلت : كان الكلام معهم واقعا في الحياة الثانية لا في الموت ... الخ» قال أحمد :
وأظهر من ذلك أنهم لما وعدوا بعد الحياة الدنيا حالتين أخريين : الأولى منهما الموت ، والأخرى حياة البعث :
أثبتوا الحالة الأولى وهي الموت ، ونفوا ما بعدها ، وسموها أولى مع أنهم اعتقدوا أن لا شيء بعدها ، لأنهم نزلوا جحدهم على الإثبات فجعلوها أولى على ما ذكرت لهم ، وهذا أولى من حمل الموتة الأولى على السابقة على الحياة الدنيا لوجهين ، أحدهما : أن الاقتصار عليها لا يعتقدونه ، لأنهم يثبتون الموت الذي يعقب حياة الدنيا ، وحمل الحصر المباشر للموت في كلامهم على صفة لم تذكر لا على نفس الموت المشاهد لهم : فيه عدول عن الظاهر بلا حاجة. الثاني :
أن الموت السابق على الحياة الدنيا لا يعبر عنه بالموتة ، فان الموتة فعلة فيها إشعار بالتجدد والطريان. والموت السابق على الحياة الدنيا أمر مستصحب لم تتقدمه حياة طرأ عليها هذا ، مع أن في بقية السورة قوله تعالى لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى وإنما عنى ب الْمَوْتَةَ الْأُولى هنا : الموت المتعقب للحياة الدنيا فقط ، ففيه إرشاد لما ذكرته ، والله أعلم.
(3). أخرجه أحمد والطبراني والطبري وابن أبى حاتم من حديث سهل بن سعد وفيه ابن لهيعة عن عمرو بن جابر. وهما ضعيفان. وروى حبيب عن مالك عن أبى حازم عن سهل مثله قال الدارقطني : تفرد به حبيب وهو متروك. وله شاهد من حديث ابن عباس أخرجه الطبراني في معجمه وابن مردويه قال محمد بن زكريا. عن أبى حذيفة عن سفيان.

وعنه عليه الصلاة والسلام «ما أدرى أكان تبع نبيا أو غير «1» نبى» وعن ابن عباس رضى الله عنهما : كان نبيا.

وقيل : نظر إلى قبرين بناحية حمير قال : هذا قبر رضوى وقبر حبى بنت تبع لا تشركان بالله شيئا. وقيل : هو الذي كسا البيت. وقيل لملوك اليمن : التبابعة ، لأنهم يتبعون ، كما قيل : الأقيال ، لأنهم يتقيلون «2». وسمى الظل «تبعا» لأنه يتبع الشمس. فإن قلت : ما معنى قوله تعالى أَهُمْ خَيْرٌ ولا خير في الفريقين؟ قلت : معناه أهم خير في القوّة والمنعة ، كقوله تعالى أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولئِكُمْ بعد ذكر آل فرعون. وفي تفسير ابن عباس رضى الله عنهما : أهم أشدّ أم قوم تبع.

[سورة الدخان (44) : الآيات 38 إلى 42]

وَما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما لاعِبِينَ (38) ما خَلَقْناهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ (39) إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقاتُهُمْ أَجْمَعِينَ (40) يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (41) إِلاَّ مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ (42)

وَما بَيْنَهُما وما بين الجنسين. وقرأ عبيد بن عمير : وما بينهن. وقرأ : ميقاتهم بالنصب على أنه اسم إن ، ويوم الفصل : خبرها ، أى : إنّ ميعاد حسابهم وجزائهم في يوم الفصل لا يُغْنِي مَوْلًى أىّ مولى كان من قرابة أو غيرها عَنْ مَوْلًى عن أى مولى كان شَيْئاً من إغناء ، أى : قليلا منه وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ الضمير للموالي ، لأنهم في المعنى كثير ، لتناول اللفظ على الإبهام والشياع كل مولى إِلَّا مَنْ رَحِمَ اللَّهُ في محل الرفع على البدل من

[سورة الدخان (44) : الآيات 43 إلى 47]

إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ (43) طَعامُ الْأَثِيمِ (44) كَالْمُهْلِ يَغْلِي فِي الْبُطُونِ (45) كَغَلْيِ الْحَمِيمِ (46) خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ (47)

(1). أخرجه الثعلبي من طريق عبد الرزاق عن معمر عن ابن أبى ذئب عن المقبري عن أبى هريرة بهذا.
والمعروف بهذا الاسناد «ما أدرى العيني هو أم لا ، وما أدرى أعزير نبى أم لا» أخرجه أبو داود. وكذا الحاكم لكن قال : ذو القرنين بدل «عزير» قال الدارقطني تفرد به عبد الرزاق وغيره أرسله.
(2). قوله «لأنهم يتقيلون» في الصحاح : تقيل شرب نصف النهار ، وتقيل فلان أباه : تبعه. (ع)

قرئ : إنّ شجرت الزقوم ، بكسر الشين ، وفيها ثلاث لغات : شجرة ، بفتح الشين وكسرها وشيرة ، بالياء. وروى أنه لما نزل أَذلِكَ خَيْرٌ نُزُلًا أَمْ شَجَرَةُ الزَّقُّومِ قال ابن الزبعرى : إنّ أهل اليمن يدعون أكل الزبد والتمر : التزقم ، فدعا أبو جهل بتمر وزبد فقال : تزقموا فإنّ هذا هو الذي يخوّفكم به محمد ، فنزل إِنَّ شَجَرَةَ الزَّقُّومِ طَعامُ الْأَثِيمِ وهو الفاجر الكثير الآثام. وعن أبى الدرداء أنه كان يقرئ رجلا فكان يقول طعام اليثيم ، فقال : قل طعام الفاجر «1» يا هذا.

وبهذا يستدل على أنّ إبدال كلمة مكان كلمة جائز إذا كانت مؤدية معناها. ومنه أجاز أبو حنيفة القراءة بالفارسية على شريطة ، وهي : أن يؤدى القارئ المعاني على كمالها من غير أن يخرم منها شيئا. قالوا : وهذه الشريطة تشهد أنها إجازة كلا إجازة ، لأنّ في كلام العرب خصوصا في القرآن الذي هو معجز بفصاحته وغرابة نظمه وأساليبه من لطائف المعاني والأغراض ما لا يستقل بإدائه لسان من فارسية وغيرها ، وما كان أبو حنيفة رحمه الله يحسن الفارسية ، فلم يكن ذلك منه عن تحقق وتبصر وروى على بن الجعد عن أبى يوسف عن أبى حنيفة مثل قول صاحبيه في إنكار القراءة بالفارسية كَالْمُهْلِ قرئ بضم الميم وفتحها ، وهو دردى «2» الزيت. ويدل عليه قوله تعالى يَوْمَ تَكُونُ السَّماءُ كَالْمُهْلِ مع قوله فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ وقيل : هو ذائب الفضة والنحاس ، والكاف رفع خبر بعد خبر ، وكذلك يَغْلِي وقرئ بالتاء للشجرة ، وبالياء للطعام. والْحَمِيمِ الماء الحار الذي انتهى غليانه : يقال للزبانية خُذُوهُ فَاعْتِلُوهُ فقودوه بعنف وغلظة ، وهو أن يؤخذ بتلبيب «3» الرجل فيجر إلى حبس أو قتل. ومنه : العتلّ وهو الغليظ الجافي. وقرئ بكسر التاء وضمها إِلى سَواءِ الْجَحِيمِ إلى وسطها ومعظمها. فإن قلت : هلا قيل : صبوا فوق رأسه من الحميم ، كقوله تعالى يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُسِهِمُ الْحَمِيمُ لأنّ الحميم هو المصبوب لا عذابه؟ قلت : إذا صب عليه الحميم فقد صب عليه عذابه وشدّته ، إلا أن صب العذاب طريقة الاستعارة ، كقوله :

(1). قال محمود : «نقل أن أبا الدرداء أقرأها رجلا فلم يقم النطق بالأثيم وجعل يقول طعام اليثيم ... الخ» قال أحمد : لا دليل فيه لذلك. وقول أبى الدرداء محمول على إيضاح المعنى ليكون وضوح المعنى عند المتعلم عونا على أن يأتى بالقراءة كما أنزلت. على هذا حمله القاضي أبو بكر في كتاب الانتصار ، وهو الوجه ، والله أعلم.
(2). قوله «و هو دردى الزيت» لعله : ردى الزيت كعبارة النسفي. (ع)
(3). قوله «و هو أن يؤخذ بتلبيب الرجل» الذي في الصحاح : لبهت الرجل تلبيبا ، إذا جمعت ثيابه عند صدره ونحره في الخصومة، ثم جررته اه ويجوز أنه أراد بتلبيب الرجل : ثيابه من عند صدره ونحره. (ع)

صبّت عليه صروف الدّهر من صبب «1»

وكقوله تعالى أَفْرِغْ عَلَيْنا صَبْراً فذكر العذاب معلقا به الصب ، مستعارا له ، ليكون أهول وأهيب يقال ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ على سبيل الهزؤ والتهكم بمن كان يتعزز ويتكرم على قومه.

وروى أنّ أبا جهل قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم : ما بين جبليها أعز ولا أكرم منى ، فو الله ما تستطيع أنت ولا ربك أن تفعلا بى شيئا. وقرئ : إنك ، بمعنى : لأنك. وعن الحسن ابن على رضى الله عنهما أنه قرأ به على المنبر إِنَّ هذا العذاب. أو إن هذا الأمر هو ما كُنْتُمْ بِهِ تَمْتَرُونَ أى تشكون. أو تتمارون وتتلاجون.

[سورة الدخان (44) : الآيات 51 إلى 57]

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقامٍ أَمِينٍ (51) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (52) يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقابِلِينَ (53) كَذلِكَ وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (54) يَدْعُونَ فِيها بِكُلِّ فاكِهَةٍ آمِنِينَ (55) لا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلاَّ الْمَوْتَةَ الْأُولى وَوَقاهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (56) فَضْلاً مِنْ رَبِّكَ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (57)

قرئ : في مقام ، بالفتح : وهو موضع القيام ، والمراد المكان ، وهو من الخاص الذي وقع مستعملا في معنى العموم. وبالضم : وهو موضع الإقامة. وأَمِينٍ من قولك : أمن الرجل أمانة فهو أمين. وهو ضد الخائن ، فوصف به المكان استعارة ، لأنّ المكان المخيف كأنما يخون صاحبه بما يلقى فيه من المكاره. قيل : السندس : ما رق من الديباج. والإستبرق : ما غلظ منه وهو تعريب استبر. فإن قلت : كيف ساغ أن يقع في القرآن العربي المبين لفظ أعجمى؟ قلت : إذا عرب خرج من أن يكون عجميا ، لأن معنى التعريب أن يجعل عربيا بالتصرف فيه ، وتغييره عن منهاجه ، وإجرائه على أوجه الإعراب كَذلِكَ الكاف مرفوعة على : الأمر كذلك. أو منصوب على : مثل ذلك أثبناهم وَزَوَّجْناهُمْ وقرأ عكرمة : بحور عين ، على الإضافة : والمعنى : بالحور من العين ، لأن العين إما أن تكون حورا أو غير حور ،

(1) كم امرئ كان في خفض وفي دعة صبت عليه صروف الدهر من صبب
الصبب : مكان الصباب الماء وانحداره. يقول : كثير من الناس كان في لين عيش وفي راحة ، توالت عليه حوادث الدهر كأنها سيل منحدر من صبب ، فاستعار الصب لنزول الحوادث بالشخص على طريق التصريح ، والصب ترشيح أو شبه الحوادث بالسيل على سبيل المكنية. والصبب : تخييل. والصب : ترشيح. والصروف : جمع صرف ، كحروف جمع حرف : مكاره الزمن ومصائبه.

فهؤلاء من الحور العين «1» لا من شهلهن مثلا. وفي قراءة عبد اللّه : بعيس عين : والعيساء : البيضاء تعلوها حمرة وقرأ عبيد بن عمير : لا يذاقون فيها الموت. وقرأ عبد اللّه : لا يذوقون فيها طعم الموت. فإن قلت : كيف استثنيت الموتة الأولى - المذوقة قبل دخول الجنة - من الموت المنفي ذوقه فيها؟ قلت : أريد أن يقال : لا يذوقون فيها الموت البتة ، فوضع قوله إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولى موضع ذلك لأن الموتة الماضية محال ذوقها في المستقبل ، فهو من باب التعليق بالمحال ، كأنه قيل : إن كانت الموتة الأولى يستقيم ذوقها في المستقبل فإنهم يذوقونها «2». وقرئ ووقاهم بالتشديد فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ عطاء من ربك وثوابا ، يعنى : كل ما أعطى المتقين من نعيم الجنة والنجاة من النار. وقرئ : فضل ، أى. ذلك فضل.

[سورة الدخان (44) : الآيات 58 إلى 59]

فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ (58) فَارْتَقِبْ إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ (59)

فَإِنَّما يَسَّرْناهُ بِلِسانِكَ فذلكة للسورة. ومعناها : ذكرهم بالكتاب المبين فَإِنَّما يَسَّرْناهُ أى : سهلناه ، حيث أنزلناه عربيا بلسانك بلغتك إرادة أن يفهمه قومك فيتذكروا فَارْتَقِبْ فانتظر ما يحل بهم إِنَّهُمْ مُرْتَقِبُونَ ما يحل بك متربصون الدوائر.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة حم الدخان في ليلة أصبح يستغفر له سبعون ألف ملك» «3» وعنه عليه السلام : » من قرأ حم التي يذكر فيها الدخان في ليلة جمعة أصبح مغفورا له» «4».

(1). قوله «من الحور العين» لعله : من حور العين. (ع)
(2). قال محمود : «إنما استثنيت الموتة الأولى المذوقة قبل دخول الجنة من الموت المنفي ذوقه فيها ... الخ» قال أحمد : هذا الذي ذكره مبنى على أن الموتة بدل ، على طريقة بنى تميم المجوز فيها البدل من غير الجنس. وأما على طريقة الحجازيين ، فانتصبت الموتة استثناء منقطعا. وسر اللغة التميمية : بناء النفي المراد على وجه لا يبقى للسامع مطمعا في الإثبات ، فيقولون : ما فيها أحد إلا حمار ، على معنى : إن كان الحمار من الأحدين ففيها أحد ، فيعلقون الثبوت على أمر محال حتما بالنفي. وعليه حمل الزمخشري قُلْ لا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ أى إن كان اللّه ممن في السماوات والأرض ، ففي السماوات والأرض من يعلم الغيب، فإذا نفر السامع من ثبوت الأول تعدت النفرة إلى ثبوت الثاني ، فجزمت بالنفي ، واللّه أعلم.
(3). أخرجه الترمذي أيضا وابن عدى والشعبي والبيهقي في الشعب من رواية عمر بن خثعم عن يحيى بن أبى كثير عن أبى سلمة عن أبى هريرة ، وقال : غريب ، وعمر بضعف. قال محمد : إنه منكر الحديث. قلت : وهو بمعنى الذي قبله.
(4). أخرجه الترمذي وأبو يعلى وابن السنى في اليوم والليلة» والبيهقي في الشعب وقال تفرد به أبو المقدام.
وهو ضعيف. وعن الحسن عن أبى هريرة وقال الترمذي : أبو المقدام ضعيف والحسن لم يسمع من أبى هريرة.

سورة الجاثية

مكية [إلا آية 14 فمدنية] وآياتها 37 وقيل 36 آية [نزلت بعد الدخان]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الجاثية (45) : الآيات 1 إلى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) إِنَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ لَآياتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ (3) وَفِي خَلْقِكُمْ وَما يَبُثُّ مِنْ دابَّةٍ آياتٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (4) وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِها وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ آياتٌ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (5) تِلْكَ آياتُ اللَّهِ نَتْلُوها عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللَّهِ وَآياتِهِ يُؤْمِنُونَ (6)

حم إن جعلتها اسما مبتدأ مخبرا عنه ب تَنْزِيلُ الْكِتابِ لم يكن بدّ من حذف مضاف ، تقديره : تنزيل حم تنزيل الكتاب. ومِنَ اللَّهِ صلة للتنزيل ، وإن جعلتها تعديدا للحروف كان تَنْزِيلُ الْكِتابِ مبتدأ ، والظرف خبرا إِنَّ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يجوز أن يكون على ظاهره ، وأن يكون المعنى ، إنّ في خلق السماوات لقوله وَفِي خَلْقِكُمْ فإن قلت : علام عطف وَما يَبُثُّ أعلى الخلق المضاف؟ أم على الضمير المضاف إليه؟ قلت : بل على المضاف، لأنّ المضاف إليه ضمير متصل مجرور يقبح العطف عليه : استقبحوا أن يقال : مررت بك وزيد ، وهذا أبوك وعمرو ، وكذلك إن أكدوه كرهوا أن يقولوا : مررت بك أنت وزيد. قرئ : آيات لقوم يوقنون ، بالنصب والرفع، على قولك : إنّ زيدا في الدار وعمرا في السوق. أو عمرو في السوق. وأمّا قوله آياتٌ لِقَوْمٍ «1» يَعْقِلُونَ فمن العطف على عاملين ، سواء نصبت أو رفعت ، فالعاملان إذا نصبت هما : إن ، وفى : أقيمت الواو مقامهما ، فعملت «2» الجر في اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ ،

(1). قوله «و أما قوله : آيات لقوم» أى مع قوله وَاخْتِلافِ. (ع) [.....]
(2). قوله «فعملت» أى : الواو. (ع)

والنصب في آياتٌ. وإذا رفعت فالعاملان : الابتداء وفي : عملت الرفع في آياتٌ ، والجر في وَاخْتِلافِ وقرأ ابن مسعود : وفي اختلاف الليل والنهار. فإن قلت : العطف على عاملين على مذهب الأخفش سديد لا مقام فيه. وقد أباه سيبويه ، فما وجه تخريج الآية عنده؟

قلت : فيه وجهان عنده. أحدهما : أن يكون على إضمار في. والذي حسنه تقدّم ذكره في الآيتين قبلها. ويعضده قراءة ابن مسعود. والثاني : أن ينتصب آيات على الاختصاص بعد انقضاء المجرور معطوفا على ما قبله أو على التكرير ، ورفعها بإضمار هي : وقرئ : واختلاف الليل والنهار بالرفع. وقرئ : آية. وكذلك وما يبث من دابة آية. وقرئ وتصريف الريح. والمعنى : إنّ المنصفين من العباد إذا نظروا في السماوات والأرض النظر الصحيح ، علموا أنها مصنوعة ، وأنه لا بدّ لها من صانع ، فآمنوا باللّه وأقرّوا ، فإذا نظروا في خلق أنفسهم وتنقلها من حال إلى حال وهيئة إلى هيئة ، وفي خلق ما على ظهر الأرض من صنوف الحيوان : ازدادوا إيمانا ، وأيقنوا وانتفى عنهم اللبس ، فإذا نظروا في سائر الحوادث التي تتجدّد في كل وقت كاختلاف الليل والنهار ونزول الأمطار وحياة الأرض بها بعد موتها وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ جنوبا وشمالا وقبولا ودبورا : عقلوا واستحكم علمهم وخلص يقينهم ، وسمى المطر رزقا ، لأنه سبب الرزق تِلْكَ إشارة إلى الآيات المتقدّمة ، أى : تلك الآيات آيات اللّه. ونَتْلُوها في محل الحال ، أى : متلوة عَلَيْكَ بِالْحَقِّ والعامل ما دل عليه تلك من معنى الإشارة. ونحوه : هذا بَعْلِي شَيْخاً وقرئ : يتلوها ، بالياء بَعْدَ اللَّهِ وَآياتِهِ أى بعد آيات اللّه كقولهم : أعجبنى زيد وكرمه ، يريدون : أعجبنى كرم زيد. ويجوز أن يراد : بعد حديث اللّه ، وهو كتابه وقرآنه ، كقوله تعالى ، اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ. وقرئ يُؤْمِنُونَ بالتاء والياء.

[سورة الجاثية (45) : الآيات 7 إلى 10]

وَيْلٌ لِكُلِّ أَفَّاكٍ أَثِيمٍ (7) يَسْمَعُ آياتِ اللَّهِ تُتْلى عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً كَأَنْ لَمْ يَسْمَعْها فَبَشِّرْهُ بِعَذابٍ أَلِيمٍ (8) وَإِذا عَلِمَ مِنْ آياتِنا شَيْئاً اتَّخَذَها هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ (9) مِنْ وَرائِهِمْ جَهَنَّمُ وَلا يُغْنِي عَنْهُمْ ما كَسَبُوا شَيْئاً وَلا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ أَوْلِياءَ وَلَهُمْ عَذابٌ عَظِيمٌ (10)

الأفاك : الكذاب ، والأثيم : المتبالغ في اقتراف الآثام يُصِرُّ يقبل على كفره ويقيم عليه. وأصله من إصرار الحمار على العانة «1» وهو أن ينحى عليها صارّا أذنيه مُسْتَكْبِراً عن الإيمان بالآيات والإذعان لما ينطق به من الحق ، مزدريا لها معجبا بما عنده. قيل : نزلت في النضر بن الحرث وما كان يشترى من أحاديث الأعاجم، ويشغل الناس بها عن استماع القرآن.

والآية عامّة في كل ما كان مضارّا لدين اللّه. فإن قلت : ما معنى ثم في قوله ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِراً؟

قلت : كمعناه في قول القائل : يرى غمرات الموت ثمّ يزورها «2»

وذلك أنّ غمرات الموت حقيقة ، بأن ينجو رائيها بنفسه ويطلب الفرار عنها. وأمّا زيارتها والإقدام على مزاولتها. فأمر مستبعد ، فمعنى ثم : الإيذان بأن فعل المقدّم عليها بعد ما رآها وعاينها ، شيء يستبعد في العادات والطباع ، وكذلك آيات اللّه الواضحة الناطقة بالحق ، من تليت عليه وسمعها : كان مستبعدا في العقول إصراره على الضلالة عندها واستكباره عن الإيمان بها كَأَنْ مخففة ، والأصل كأنه لم يسمعها : والضمير ضمير الشأن ، كما في قوله : كأن ظبية تعطو إلى ناضر السّلم «3»

ومحل الجملة النصب على الحال. أى : يصير مثل غير السامع وَإِذا بلغه شيء من آياتنا وعلم أنه منها اتَّخَذَها أي اتخذ الآيات هُزُواً ولم يقل : اتخذه ، للإشعار بأنه إذا أحس بشيء من الكلام أنه من جملة الآيات التي أنزلها اللّه تعالى على محمد صلى اللّه عليه وسلم : خاض في الاستهزاء بجميع الآيات. ولم يقتصر على الاستهزاء بما بلغه ، ويحتمل :

(1). قوله «من إصرار الحمار على العانة» جماعة حمر الوحش كما في الصحاح. وفيه أيضا : ضر الفرس أذنيه : ضمها إلى رأسه ، فإذا لم يوقعوا قالوا : أصر الفرس ، بالألف. (ع)
(2). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثالث صفحة 515 فراجعه إن شئت اه مصححه.
(3) فيوما توافينا بوجه مقسم كأن ظبية تعطو إلى وارق السلم
ويوما تريد مالنا مع مالها فان لم ننلها لم تنمنا ولم تتم
الباعث بن صريم اليشكري يذكر حال امرأته. ويوما : ظرف مقدم. ويروى : ويوم ، أى : ورب يوم تقابلنا فيه ولا حاجة لتقدير الرابط على نصب اليوم. وقسم قساما وقسامة ، كجمل جمالا. وظرف ظرافة. والمقسم : المحسن. وكأن : مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير المرأة ، أو ضمير الشأن. وظبية : بالرفع على الأول خبر. وعلى الثاني : مبتدأ ، وهو مع خبره خبر كان. وتعطو : صفة على الأول ، وهو الخبر على الثاني. ويروى : ظبية ، بالنصب ، فهو الاسم وإن كان عملها مخففة قليلا. ويروى : مجرورا بالكاف ، وإن : زائدة بين الجار والمجرور :
وتعطو : تأخذ وتتناول ، ماثلة إلى وارق السلم. ومن النوادر : أورق فهو وارق. وأينع فهو يانع. والقياس : مورق ، أى : كثير الورق. ويروى : ناضر ، بدل : وارق. والسلم : شجر العضاء ، هذا شأنها في يوم. وفي يوم آخر تؤذينا فتريد مالنا منضما إلى مالها ، فان نعطها لم تتركنا ننام من كثرة كلامها وإيذائها ، ولم تنم هي أيضا.
واليوم هنا : مطلق الزمن.

وإذا علم من آياتنا شيئا يمكن أن يتشبث به المعاند ويجد له محملا يتسلق به على الطعن والغميزة : افترصه واتخذ آيات اللّه هزوا ، وذلك نحو افتراص ابن الزبعرى قوله عز وجل إِنَّكُمْ وَما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ومغالطته رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وقوله : خصمتك. ويجوز أن يرجع الضمير إلى شيء ، لأنه في معنى الآية كقول أبى العتاهية : نفسي بشيء من الدنيا معلّقة الله والقائم المهدي يكفيها «1»

حيث أراد عتبة. وقرئ : علم أُولئِكَ إشارة إلى كل أفاك أثيم ، لشموله الأفاكين. والوراء اسم للجهة التي يواريها الشخص من خلف أو قدام. قال : أليس ورائي أن تراخت منيّتى أدب مع الولدان أزحف كالنّسر «2» ومنه قوله عز وجل مِنْ وَرائِهِمْ أى من قدّامهم ما كَسَبُوا من الأموال في رحلهم ومتاجرهم وَلا مَا اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ من الأوثان.

[سورة الجاثية (45) : آية 11]

هذا هُدىً وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لَهُمْ عَذابٌ مِنْ رِجْزٍ أَلِيمٌ (11)

هذا إشارة إلى القرآن ، يدل عليه قوله تعالى وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآياتِ رَبِّهِمْ لأنّ آيات ربهم هي القرآن ، أى هذا القرآن كامل في الهداية ، كما تقول : زيد رجل ، تريد كامل في الرجولية.

وأيما رجل. والرجز : أشد العذاب. وقرئ بجر أليم ورفعه.

---

(1) نفسي بشيء من الدنيا معلقة الله والقائم المهدى يكفيها
إنى لأيأس منها ثم يطمعنى فيها احتقارك للدنيا وما فيها
لأبى العتاهية. وكنى بالشيء عن جارية من حظايا المهدى اسمها عتبة ، ولذلك أعاد عليه الضمير مؤنثا. وقوله «من الدنيا» معناه : أنه لا يريد من الدنيا غيره. والقائم : أى بأمر الشرع. ويكفيها ، أى : يكفيني تلك الحاجة.
أو يكفى نفسي ما تريد ، والله : بقطع الهمزة ، لأن أول المصراع محل ابتداء في الجملة ، إنى لأيأس أى أقطع طمعي منها ، ثم أطمع فيها ثانيا بسبب احتقارك للدنيا وما فيها. وهو مدح بنهاية الكرم. وروى أنه كتب ذلك في ثوب ، وأدرجه في برنية وأهداها المهدى ، فهم بدفعها إليه فقالت : أتدفعني إلى رجل متكسب بالتعشق ، فأمر بملء البرنية مالا ودفعها إليه ، فقال للخزان : إنما أمر لي بدنانير ، فقال له : نعطيك دراهم ونراجعه. واختلفوا في ذلك سنة ، فقالت : لو كان عاشقا لما فرق بينهما.
(2). لعبيد ، والهمزة للتقرير. ووراءي هنا بمعنى : أمامى ، وهو في الأصل : الجهة التي يواريها الشخص ، لكن يكثر في الجهة التي خلفه ، وتوسع فيه حتى استعمل في كل غيب. ومنه : المستقبل. وتراخت : تباعدت وتأخرت. وأدب : أمشى بهينة وتؤدة. وأن المصدرية مقدرة قبله ، لأنه اسم ليس ، وإن كان لفظه مرفوعا.
وأزحف : يحتمل أنه بدل ، وأنه حال. وكالنسر : حال. أو معناه : كزحف النسر في الأرض ، مع كونه أبيض وفيه نوع احتراس ، لأنه يتوهم من قوله «مع الولدان» نقص عقله ، فدل على أن المراد الضعف كالولدان.
والشيب كالنسر ، لأنه أبيض ، مع كونه رئيس الطيور وكلها تخشاه.

[سورة الجاثية (45) : الآيات 12 إلى 13]

اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (12) وَسَخَّرَ لَكُمْ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذلِكَ لَآياتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (13)

وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ بالتجارة أو بالغوص على اللؤلؤ والمرجان واستخراج اللحم الطري وغير ذلك من منافع البحر. فإن قلت : ما معنى مِنْهُ في قوله جَمِيعاً مِنْهُ وما موقعها من الإعراب ، قلت : هي واقعة موقع الحال ، والمعنى : أنه سخر هذه الأشياء كائنة منه وحاصلة من عنده ، يعنى : أنه مكوّنها وموجدها بقدرته وحكمته ، ثم مسخرها لخلقه. ويجوز أن يكون خبر مبتدإ محذوف ، تقديره : هي جميعا منه ، وأن يكون وَسَخَّرَ لَكُمْ تأكيدا لقوله تعالى سَخَّرَ لَكُمْ ثم ابتدئ قوله : ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ وأن يكون ما فِي الْأَرْضِ مبتدأ ، ومِنْهُ خبره. وقرأ ابن عباس رضى الله عنهما : منة ، وقرأ سلمة بن محارب : منه ، على أن يكون منه فاعل سخر على الإسناد المجازى. أو على أنه خبر مبتدإ محذوف ، أى : ذلك.

أو هو منه.

[سورة الجاثية (45) : الآيات 14 إلى 15]

قُلْ لِلَّذِينَ آمَنُوا يَغْفِرُوا لِلَّذِينَ لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لِيَجْزِيَ قَوْماً بِما كانُوا يَكْسِبُونَ (14) مَنْ عَمِلَ صالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَساءَ فَعَلَيْها ثُمَّ إِلى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ (15)

حذف المقول لأنّ الجواب دال عليه. والمعنى : قل لهم اغفروا يغفروا لا يَرْجُونَ أَيَّامَ اللَّهِ لا يتوقعون وقائع الله بأعدائه ، من قولهم لوقائع العرب : أيام العرب. وقيل : لا يأملون الأوقات التي وقتها الله لثواب المؤمنين ووعدهم الفوز فيها. قيل : نزلت قبل آية القتال ، ثم نسخ حكمها. وقيل : نزولها في عمر رضى الله عنه - وقد شتمه رجل من غفار فهمّ أن يبطش به.

وعن سعيد بن المسيب : كنا بين يدي عمر بن الخطاب رضى الله عنه فقرأ قارئ هذه الآية ، فقال عمر : ليجزي عمر بما صنع لِيَجْزِيَ تعليل الأمر بالمغفرة ، أى : إنما أمروا بأن يغفروا لما أراده الله من توفيتهم جزاء مغفرتهم يوم القيامة. فإن قلت : قوله قَوْماً ما وجه تنكيره وإنما أراد الذين آمنوا وهم معارف؟ قلت : هو مدح

(1). قوله «أيما قوم وقوما مخصوصين» لعله : أو قوما. (ع)

وعلى ما كانوا يجرعونهم من الغصص بِما كانُوا يَكْسِبُونَ من الثواب العظيم بكظم الغيظ واحتمال المكروه ومعنى قوله عمر : ليجزي عمر بما صنع : ليجزي بصبره واحتماله. وقوله لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عند نزول الآية : والذي بعثك بالحق لا ترى الغضب في وجهى. وقرئ : ليجزي قوما ، أى : اللّه عز وجل. وليجزي قوم. وليجزي قوما ، على معنى : وليجزي الجزاء قوما.

[سورة الجاثية (45) : الآيات 16 إلى 17]

وَلَقَدْ آتَيْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْناهُمْ مِنَ الطَّيِّباتِ وَفَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ (16) وَآتَيْناهُمْ بَيِّناتٍ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلاَّ مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْياً بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيامَةِ فِيما كانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ (17)

الْكِتابَ التوراة وَالْحُكْمَ الحكمة والفقه. أو فصل الخصومات بين الناس ، لأنّ الملك كان فيهم والنبوّة مِنَ الطَّيِّباتِ مما أحل اللّه لهم وأطاب من الأرزاق وَفَضَّلْناهُمْ عَلَى الْعالَمِينَ حيث لم نؤت غيرهم مثل ما آتيناهم بَيِّناتٍ آيات ومعجزات مِنَ الْأَمْرِ من أمر الدين ، فما وقع بينهم الخلاف في الدين إِلَّا مِنْ بَعْدِ ما جاءَهُمُ ما هو موجب لزوال الخلاف وهو العلم. وإنما اختلفوا لبغى حدث بينهم ، أو لعداوة وحسد.

[سورة الجاثية (45) : الآيات 18 إلى 19]

ثُمَّ جَعَلْناكَ عَلى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْها وَلا تَتَّبِعْ أَهْواءَ الَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ (18) إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وَإِنَّ الظَّالِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِياءُ بَعْضٍ وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُتَّقِينَ (19)

عَلى شَرِيعَةٍ على طريقة ومنهاج مِنَ الْأَمْرِ من أمر الدين ، فاتبع شريعتك الثابتة بالدلائل والحجج ، ولا تتبع ما لا حجة عليه من أهواء الجهال. ودينهم المبنى على هوى وبدعة ، وهم رؤساء قريش حين قالوا. ارجع إلى دين آبائك. ولا توالهم ، إنما يوالى الظالمين من هو ظالم مثلهم ، وأما المتقون : فوليهم اللّه وهم موالوه. وما أبين الفصل بين الولايتين.

[سورة الجاثية (45) : آية 20]

هذا بَصائِرُ لِلنَّاسِ وَهُدىً وَرَحْمَةٌ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ (20)

هذا القرآن بَصائِرُ لِلنَّاسِ جعل ما فيه من معالم الدين والشرائع بمنزلة البصائر في القلوب. كما جعل روحا وحياة وهو هدى من الضلالة ، ورحمة من العذاب لمن آمن وأيقن.

وقرئ : هذه بصائر ، أى : هذه الآيات.

[سورة الجاثية (45) : آية 21]

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ اجْتَرَحُوا السَّيِّئاتِ أَنْ نَجْعَلَهُمْ كَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ ساءَ ما يَحْكُمُونَ (21)

أَمْ منقطعة. ومعنى الهمزة فيها إنكار الحسبان. والاجتراح : الاكتساب. ومنه الجوارح وفلان جارحة أهله ، أى: كاسبهم أَنْ نَجْعَلَهُمْ أن نصيرهم. وهو من جعل المتعدي إلى مفعولين فأوّلهما الضمير ، والثاني : الكاف ، والجملة التي هي سَواءً مَحْياهُمْ وَمَماتُهُمْ بدل من الكاف ، لأنّ الجملة تقع مفعولا ثانيا ، فكانت في حكم المفرد. ألا تراك لو قلت : أن نجعلهم سواء محياهم ومماتهم : كان سديدا ، كما تقول : ظننت زبدا أبوه منطلق. ومن قرأ سَواءً بالنصب : أجرى سواء مجرى مستويا ، وارتفع محياهم ومماتهم على الفاعلية ، وكان مفردا غير جملة.

وعن الفضيل : أنه بلغها فجعل يردّدها ويبكى ويقول : يا فضيل ، ليت شعري من أى الفريقين أنت.

[سورة الجاثية (45) : آية 22]

وَخَلَقَ اللَّهُ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَلِتُجْزى كُلُّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (22)

وَلِتُجْزى معطوف على بالحق ، لأنّ فيه معنى التعليل. أو على معلل محذوف تقديره : خلق اللّه السماوات والأرض ، ليدل به على قدرته ولتجزى كل نفس.

[سورة الجاثية (45) : آية 23]

أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلهَهُ هَواهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلى بَصَرِهِ غِشاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلا تَذَكَّرُونَ (23)

أى : هو مطواع لهوى النفس يتبع ما تدعوه إليه ، فكأنه يعبده كما يعبد الرجل إلهه.

وقرئ : آلهة هواه ، لأنه كان يستحسن الحجر فيعبده ، فإذا رأى ما هو أحسن رفضه إليه ، فكأنه اتخذ هواه آلهة شتى : يعبد كل وقت واحدا منها وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلى عِلْمٍ وتركه عن الهداية «1» واللطف وخذله على علم ، عالما بأنّ ذلك لا يجدى عليه ، وأنه ممن لا لطف له.

أو مع علمه بوجوه الهداية وإحاطته بأنواع الألطاف المحصلة والمقرّبة «2» فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ إضلال اللَّهُ وقرئ : غشاوة ، بالحركات الثلاث. وغشوة ، بالكسر والفتح.

وقرئ : تتذكرون

[سورة الجاثية (45) : آية 24]

وَقالُوا ما هِيَ إِلاَّ حَياتُنَا الدُّنْيا نَمُوتُ وَنَحْيا وَما يُهْلِكُنا إِلاَّ الدَّهْرُ وَما لَهُمْ بِذلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ (24)

نَمُوتُ وَنَحْيا نموت نحن ويحيا أولادنا. أو يموت بعض ويحيا بعض. أو نكون مواتا نطفا في الأصلاب ، ونحيا بعد ذلك. أو يصيبنا الأمران : الموت والحياة ، يريدون : الحياة في الدنيا والموت بعدها ، وليس وراء ذلك حياة. وقرئ : نحيا ، بضم النون. وقرئ : إلا دهر يمرّ ، وما يقولون ذلك عن علم ، ولكن عن ظنّ وتخمين : كانوا يزعمون أنّ مرور الأيام والليالي هو المؤثر في هلاك الأنفس ، وينكرون ملك الموت وقبضه الأرواح بأمر اللّه، وكانوا يضيفون كل حادثة تحدث إلى الدهر والزمان ، وترى أشعارهم ناطقة بشكوى الزمان.

ومنه قوله عليه السلام : «لا تسبوا الدهر ، فإنّ اللّه هو الدهر» «3» أى : فإنّ اللّه هو الآتي بالحوادث لا الدهر.

[سورة الجاثية (45) : الآيات 25 إلى 26]

وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ ما كانَ حُجَّتَهُمْ إِلاَّ أَنْ قالُوا ائْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (25) قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ لا رَيْبَ فِيهِ وَلكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ (26)

وقرئ : حجتهم بالنصب والرفع ، على تقديم خبر كان وتأخيره. فإن قلت : لم سمى قولهم حجة وليس بحجة؟ قلت : لأنهم أدلوا به كما يدلى المحتج بحجته وساقوه مساقها ، فسميت حجة

(1). قوله «و تركه عن الهداية» تأويل الآية بذلك لتوافق مذهب المعتزلة : أنه لا يريد الشر ولا يفعله.
وعند أهل السنة : لا يقع في ملكه إلا ما يريد ، والله خالق كل شيء ، فالاضلال : خلقه الضلال في القلب. (ع)
(2). قوله «المحصلة والمقربة» يعنى. للهداية. (ع)
(3). متفق عليه من حديث أبى هريرة ، واللفظ لمسلم.

على سبيل التهكم. أو لأنه في حسبانهم وتقديرهم حجة. أو لأنه في أسلوب قوله : تحيّة بينهم ضرب وجيع «1» كأنه قيل : ما كان حجتهم إلا ما ليس بحجة. والمراد : نفى أن تكون لهم حجة البتة. فإن قلت : كيف وقع قوله قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ جوابا لقولهم ائْتُوا بِآبائِنا إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ؟ قلت : لما أنكروا البعث وكذبوا الرسل ، وحسبوا أنّ ما قالوه قول مبكت. ألزموا ما هو مقرّون به : من أنّ الله عز وجل هو الذي يحييهم ثم يميتهم ، وضم إلى إلزام ذلك إلزام ما هو واجب الإقرار به إن أنصفوا وأصغوا إلى داعى الحق ، وهو جمعهم إلى يوم القيامة ، ومن كان قادرا على ذلك كان قادرا على الإتيان بآبائهم ، وكان أهون شيء عليه.

[سورة الجاثية (45) : الآيات 27 إلى 31]

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَخْسَرُ الْمُبْطِلُونَ (27) وَتَرى كُلَّ أُمَّةٍ جاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعى إِلى كِتابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (28) هذا كِتابُنا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (29) فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ (30) وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنْتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ (31)

عامل النصب في يَوْمَ تَقُومُ يخسر ، ويَوْمَئِذٍ بدل من يَوْمَ تَقُومُ جاثِيَةً باركة مستوفزة على الركب. وقرئ : جاذية. والجذوّ : أشد استيفازا من الجثوّ ، لأن الجاذى هو الذي يجلس على أطراف أصابعه : وعن ابن عباس رضى الله عنهما : جاثية مجتمعة. وعن قتادة : جماعات من الجثوة ، وهي الجماعة ، وجمعها : جثى. وفي الحديث «2» «من جثى جهنم» «3» وقرئ

(1). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 60 فراجعه إن شئت اه مصححه.
(2). هذا طرف من حديث الحرث بن الحرث الأشعرى ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من دعا بدعوى الجاملية فانه من جثى جهنم ... الحديث» أخرجه الترمذي والنسائي وابن حبان والحاكم ، وأحمد وأبو يعلى «تنبيه» احتج به المصنف على أن جثى جمع جثوة : وهي الجماعة. وفي البخاري من حديث ابن عمر رضى الله عنهما رفعه «إن الناس يصيرون يوم القيامة جثا ، كل أمة تتبع نبيها.
(3). قوله «من جثى جهنم» في الصحاح «الجثوة» مثلثه : الحجارة المجموعة. وجثى الحرم ، بالضم وبالكسر : ما اجتمع فيه من حجارة الجمار. (ع)

كُلَّ أُمَّةٍ على الابتداء : وكل أمة : على الإبدال من كل أمة إِلى كِتابِهَا إلى صحائف أعمالها ، فاكتفى باسم الجنس، كقوله تعالى وَوُضِعَ الْكِتابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ.

الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ محمول على القول. فإن قلت : كيف أضيف الكتاب إليهم وإلى الله عزّ وجل؟ قلت : الإضافة تكون للملابسة ، وقد لا بسهم ولا بسه ، أما ملابسته إياهم ، فلأن أعمالهم مثبتة فيه. وأما ملابسته إياه ، فلأنه مالكه ، والآمر ملائكته أن يكتبوا فيه أعمال عباده يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ يشهد عليكم بما عملتم بِالْحَقِّ من غير زيادة ولا نقصان إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ الملائكة ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ أى نستكتبهم أعمالكم فِي رَحْمَتِهِ في جنته. وجواب أما محذوف تقديره : وأما الذين كفروا فيقال لهم أَفَلَمْ تَكُنْ آياتِي تُتْلى عَلَيْكُمْ والمعنى ألم يأتكم رسلي فلم تكن آياتي تتلى عليكم ، فحذف المعطوف عليه.

[سورة الجاثية (45) : الآيات 32 إلى 33]

وَإِذا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيها قُلْتُمْ ما نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلاَّ ظَنًّا وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ (32) وَبَدا لَهُمْ سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (33)

وقرئ : والساعة ، بالنصب عطفا على الوعد ، وبالرفع عطفا على محل إن واسمها مَا السَّاعَةُ أىّ شيء الساعة؟ فإن قلت : ما معنى إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا؟ قلت : أصله نظن ظنا.

ومعناه : إثبات الظن فحسب ، فأدخل حرفا النفي والاستثناء ، ليفاد إثبات الظن مع نفى ما سواه وزيد نفى ما سوى الظن توكيدا بقوله وَما نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ..... سَيِّئاتُ ما عَمِلُوا أى قبائح أعمالهم. أو عقوبات أعمالهم السيئات ، كقوله تعالى وَجَزاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُها.

[سورة الجاثية (45) : الآيات 34 إلى 35]

وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْساكُمْ كَما نَسِيتُمْ لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا وَمَأْواكُمُ النَّارُ وَما لَكُمْ مِنْ ناصِرِينَ (34) ذلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آياتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَياةُ الدُّنْيا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْها وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (35)

نَنْساكُمْ نترككم في العذاب كما تركتم عدة لِقاءَ يَوْمِكُمْ هذا وهي الطاعة ، أو نجعلكم بمنزلة الشيء المنسى غير المبالى به ، كما لم تبالوا أنتم بلقاء يومكم ولم تخطروه ببال ، كالشيء الذي يطرح نسيا منسيا. فإن قلت : فما معنى إضافة اللقاء إلى اليوم؟ قلت : كمعنى إضافة المكر في قوله تعالى بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ أى نسيتم لقاء اللّه في يومكم هذا ولقاء جزائه. وقرئ : لا يخرجون ، يفتح الياء وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ولا يطلب منهم أن يعتبوا ربهم أى يرضوه.

[سورة الجاثية (45) : الآيات 36 إلى 37]

فَلِلَّهِ الْحَمْدُ رَبِّ السَّماواتِ وَرَبِّ الْأَرْضِ رَبِّ الْعالَمِينَ (36) وَلَهُ الْكِبْرِياءُ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (37)

فَلِلَّهِ الْحَمْدُ فاحمدوا اللّه لذي هو ربكم ورب كل شيء من السماوات والأرض والعالمين ، فان مثل هذه الربوبية العامة يوجب الحمد والثناء على كل مربوب ، وكبروه فقد ظهرت آثار كبريائه وعظمته فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وحق مثله أن يكبر ويعظم.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ حم الجاثية ستر اللّه عورته وسكن روعته يوم الحساب» «1».

سورة الأحقاف

مكية [إلا الآيات 10 و15 و35 فمدنية] وآياتها 34 وقيل 35 آية [نزلت بعد الجاثية]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

حم (1) تَنْزِيلُ الْكِتابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ (2) ما خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما إِلاَّ بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا مُعْرِضُونَ (3)

إِلَّا بِالْحَقِّ إلا خلقا ملتبسا بالحكمة والغرض الصحيح وَبتقدير أَجَلٍ مُسَمًّى ينتهى إليه وهو يوم القيامة وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنْذِرُوا من هول ذلك اليوم الذي لا بد لكل خلق من انتهائه إليه مُعْرِضُونَ لا يؤمنون به ولا يهتمون بالاستعداد له. ويجوز أن تكون ما مصدرية ، أى : عن إنذارهم ذلك اليوم.

[سورة الأحقاف (46) : آية 4]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ ما تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي ما ذا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّماواتِ ائْتُونِي بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (4)

(1). أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبى بن كعب. [.....]

بِكِتابٍ مِنْ قَبْلِ هذا أى من قبل هذا الكتاب وهو القرآن ، يعنى : أنّ هذا الكتاب ناطق بالتوحيد وإبطال الشرك. وما من كتاب أنزل من قبله من كتب اللّه إلا وهو ناطق بمثل ذلك ، فأتوا بكتاب واحد منزل من قبله شاهد بصحة ما أنتم عليه من عبادة غير اللّه أَوْ أَثارَةٍ مِنْ عِلْمٍ أو بقية من علم بقيت عليكم من علوم الأوّلين ، من قولهم: سمنت الناقة على أثارة من شحم ، أى : على بقيّة شحم كانت بها من شحم ذاهب. وقرئ : أثرة ، أى : من شيء أوثرتم به وخصصتم من علم لا إحاطة به لغيركم. وقرئ : أثرة بالحركات الثلاث في الهمزة مع سكون الثاء ، فالإثرة بالكسر بمعنى الأثرة. وأما الأثرة فالمرّة من مصدر : أثر الحديث إذا رواه. وأما الأثرة بالضم فاسم ما يؤثر ، كالخطبة :

[سورة الأحقاف (46) : آية 5]

اسم ما يخطب به وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلى يَوْمِ الْقِيامَةِ وَهُمْ عَنْ دُعائِهِمْ غافِلُونَ(5)

وَمَنْ أَضَلُّ معنى الاستفهام فيه إنكار أن يكون في الضلال كلهم أبلغ ضلالا من عبدة الأصنام ، «1» حيث يتركون دعاء السميع المجيب القادر على تحصيل كلّ بغية ومرام ، ويدعون من دونه جمادا لا يستجيب لهم ولا قدرة به على استجابة أحد منهم ما دامت الدنيا وإلى أن تقوم القيامة ، وإذا قامت القيامة وحشر الناس : كانوا لهم أعداء ، وكانوا عليهم ضدا ، فليسوا في الدارين إلا على نكد ومضرّة ، لا تتولاهم في الدنيا بالاستجابة ، وفي الآخرة تعاديهم وتجحد عبادتهم. وإنما قيل مَنْ وهُمْ لأنه أسند إليهم ما يسند إلى أولى العلم من الاستجابة والغفلة، ولأنهم كانوا يصفونهم بالتمييز جهلا وغباوة.

(1). قال محمود : «استفهام معناه إنكار أن يكون في الضلال كلهم أبلغ ضلالا من عبدة الأصنام ... الخ» قال أحمد : وفي قوله إلى يوم القيامة : نكتة حسنة ، وذلك أنه جعل يوم القيامة غاية لعدم الاستجابة ، ومن شأن الغاية انتهاء المغيا عندها ، لكن عدم الاستجابة مستمر بعد هذه الغاية ، لأنهم في القيامة أيضا لا يستجيبون لهم ، فالوجه واللّه أعلم : أنها من الغايات المشعرة بأن ما بعدها وإن وافق ما قبلها إلا أنه أزيد منه زيادة بينة تلحقه بالثاني ، حتى كأن الحالتين وإن كانتا نوعا واحدا لتفاوت ما بينهما كالشيء وضده ، وذلك أن الحالة الأولى التي جعلت غايتها القيامة لا تزيد على عدم الاستجابة ، والحالة الثانية التي في القيامة زادت على عدم الاستجابة بالعداوة بالكفر بعبادتهم إياهم ، فهو من وادى ما تقدم آنفا في سورة الزخرف في قوله بَلْ مَتَّعْتُ هؤُلاءِ وَآباءَهُمْ حَتَّى جاءَهُمُ الْحَقُّ وَرَسُولٌ مُبِينٌ وَلَمَّا جاءَهُمُ الْحَقُّ قالُوا هذا سِحْرٌ وَإِنَّا بِهِ كافِرُونَ.

ويجوز أن يريد : كلّ معبود من دون اللّه من الجن والإنس والأوثان ، فغلب غير الأوثان عليها. وقرئ : ما لا يستجيب. وقرئ : يدعو غير اللّه من لا يستجيب ، ووصفهم بترك الاستجابة والغفلة طريقه طريق التهكم بها وبعبدتها. ونحوه قوله تعالى إِنْ تَدْعُوهُمْ لا يَسْمَعُوا دُعاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجابُوا لَكُمْ وَيَوْمَ الْقِيامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ.

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 6 إلى 7]

وَإِذا حُشِرَ النَّاسُ كانُوا لَهُمْ أَعْداءً وَكانُوا بِعِبادَتِهِمْ كافِرِينَ (6) وَإِذا تُتْلى عَلَيْهِمْ آياتُنا بَيِّناتٍ قالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ هذا سِحْرٌ مُبِينٌ (7)

بَيِّناتٍ جمع بينة : وهي الحجة والشاهد. أو واضحات مبينات. واللام في لِلْحَقِّ مثلها في قوله وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً أى لأجل الحق ولأجل الذين آمنوا «1». والمراد بالحق : الآيات ، وبالذين كفروا : المتلو عليهم ، فوضع الظاهران موضع الضميرين ، للتسجيل عليهم بالكفر ، وللمتلوّ بالحق لَمَّا جاءَهُمْ أى : بادوه بالجحود ساعة أتاهم ، وأوّل ما سمعوه من غير إجالة فكر ولا إعادة نظر. ومن عنادهم وظلمهم : أنهم سموه سحرا مبينا ظاهرا أمره في البطلان لا شبهة فيه.

[سورة الأحقاف (46) : آية 8]

أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِما تُفِيضُونَ فِيهِ كَفى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ (8)

أَمْ يَقُولُونَ افْتَراهُ إضراب عن ذكر تسميتهم الآيات سحرا إلى ذكر قولهم : إن محمدا افتراه. ومعنى الهمزة في أم: الإنكار والتعجيب ، كأنه قيل : دع هذا واسمع قولهم المستنكر المقضى منه العجب ، وذلك أن محمدا كان لا يقدر عليه حتى يقوله ويفتريه على اللّه ، ولو قدر عليه دون أمّة العرب لكانت قدرته عليه معجزة لخرقها العادة، وإذا كانت معجزة كانت تصديقا من اللّه له ، والحكيم لا يصدّق الكاذب فلا يكون مفتريا. والضمير للحق ، والمراد به الآيات قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ على سبيل الفرض عاجلني اللّه تعالى لا محالة بعقوبة الافتراء عليه.

(1). قال محمود : «اللام في قوله تعالى للحق نحو اللام في قوله وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ أى لأجل الحق ولأجل الذين آمنوا ... الخ» قال أحمد : هذا الاضراب في بابه مثل الغاية التي قدمتها آنفا في بابها فانه انتقال إلى موافق ، لكنه أزيد من الأول ، فنزل بزيادته عليه مع ما تقدمه مما ينقص عنه منزلة المتنافيين ، كالنفى والإثبات اللذين يضرب عن أحدهما للآخر ، وذلك أن نسبتهم للآيات إلى أنها مفتريات أشد وأبعد من نسبتها إلى أنها سحر ، فأضرب عن ذلك الأول إلى ذكر ما هو أغرب منه.

فلا تقدرون على كفه عن معاجلتى ولا تطيقون دفع شيء من عقابه عنى ، فكيف أفتريه وأتعرّض لعقابه.

يقال : فلان لا يملك إذا غضب ، ولا يملك عنانه إذا صمم ، ومثله فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ ، وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً ومنه قوله عليه السلام «لا أملك لكم من اللّه شيئا» «1» ثم قال هُوَ أَعْلَمُ بِما تُفِيضُونَ فِيهِ أى تندفعون فيه من القدح في وحى اللّه تعالى ، والطعن في آياته ، وتسميته سحرا تارة وفرية أخرى كَفى بِهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ يشهد لي بالصدق والبلاغ ، ويشهد عليكم بالكذب والجحود. ومعنى ذكر العلم والشهادة وعيد بجزاء إفاضتهم وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ موعدة بالغفران والرحمة إن رجعوا عن الكفر وتابوا وآمنوا ، وإشعار بحلم اللّه عنهم مع عظم ما ارتكبوا. فإن قلت : فما معنى إسناد الفعل إليهم «2» في قوله تعالى فلا تملكون لي؟ قلت : كان فيما أتاهم به النصيحة لهم والإشفاق عليهم من سوء العاقبة وإرادة الخير بهم ، فكأنه قال لهم : إن افتريته وأنا أريد بذلك التنصح لكم وصدكم عن عبادة الآلهة إلى عبادة اللّه ، فما تغنون عنى أيها المنصوحون إن أخذنى اللّه بعقوبة الافتراء عليه.

[سورة الأحقاف (46) : آية 9]

قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ وَما أَدْرِي ما يُفْعَلُ بِي وَلا بِكُمْ إِنْ أَتَّبِعُ إِلاَّ ما يُوحى إِلَيَّ وَما أَنَا إِلاَّ نَذِيرٌ مُبِينٌ (9)

البدع ، بمعنى : البديع ، كالخف بمعنى الخفيف. وقرئ : بدعا ، بفتح الدال ، أى : ذا بدع

(1). متفق عليه من حديث أبى هريرة رضى اللّه عنه ، ولما نزلت وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ دعا النبي صلى اللّه عليه وسلم قريشا فاجتمعوا. فعم وخص. فقال : يا بنى كعب بن لؤي يا بنى مرة بن كعب : يا بنى عبد شمس يا بنى عبد مناف ، يا بنى هاشم ، يا بنى عبد المطلب ، إنى لا أملك لكم من اللّه شيئا - الحديث»

(2). قال محمود : فان قلت : ما معنى إسناد الفعل إليهم ... الخ» قال أحمد : فيه نظر من قبيل أن الكلام جرى فرضا وتقديرا. ومتى فرض الافتراء لا يتصور على تقديره نصح ، فان النصح عبارة عن الدعاء إلى ما فيه نفع ، ولا ينفع المكلف في عمل ظاهر أو باطن إلا أن يكون مأمورا به من اللّه تعالى ، ولا سبيل إلى الاطلاع على ذلك إلا من الوحي الحق لا غير ، فإذا لا يتصور نصح مع الافتراء، وإنما يتم هذا الذي قرره على قاعدة المعتزلة القائلين بأن العقل طريق يوصل إلى معرفة حكم اللّه تعالى ، لأنه إذا أمر بطاعة من الطاعات كالتوحيد مثلا وقال : إن اللّه حتم عليكم وجوب التوحيد ، وأنا رسول اللّه إليكم. ولم يكن متعوقا : فانه محق في الأمر بالتوحيد ، لأن العقل دل على وجوبه عندهم ، وإن كان مفتريا في دعوى كونه رسولا من اللّه عز وجل. وهذه قاعدة قد أفسدتها الأدلة القاطعة ، فيحتمل في إجراء الآية على مذهب أهل السنة : أن يكون إسناد الفعل لهم على معنى التنبيه بالشيء على مقابله بطريق المفهوم ، فالمعنى إذا إن كنت مفتريا فالعقوبة واقعة بى لا تدفعونها عنى ، فمفهومه ، وإن كنت محقا وأنتم مفترون فالعقوبة واقعة بكم لا أقدر على دفعها عنكم. ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَعَلَيَّ إِجْرامِي وَأَنَا بَرِيءٌ مِمَّا تُجْرِمُونَ وأمثاله كثيرة واللّه أعلم.

ويجوز أن يكون صفة على فعل ، كقولهم : دين قيم ، ولحم زيم «1» : كانوا يقترحون عليه الآيات ويسألونه عما لم يوح به إليه من الغيوب ، فقيل له : قُلْ ما كُنْتُ بِدْعاً مِنَ الرُّسُلِ فآتيكم بكل ما تقترحونه ، وأخبركم بكل ما تسألون عنه من المغيبات ، فإنّ الرسل لم يكونوا يأتون إلا بما آتاهم اللّه من آياته ، ولا يخبرون إلا بما أوحى إليهم. ولقد أجاب موسى صلوات اللّه عليه عن قول فرعون : فما بال القرون الأولى؟ بقوله : علمها عند ربى وَما أَدْرِي لأنه لا علم لي بالغيب - ما يفعل اللّه بى وبكم فيما يستقبل من الزمان من أفعاله ، ويقذر لي ولكم من قضاياه إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا ما يُوحى إِلَيَّ وعن الحسن : وما أدرى ما يصير إليه أمرى وأمركم في الدنيا ، ومن الغالب منا والمغلوب. وعن الكلبي : قال له أصحابه - وقد ضجروا من أذى المشركين - : حتى متى نكون على هذا؟ فقال : ما أدرى ما يفعل بى ولا بكم ، أأترك بمكة أم أومر بالخروج إلى أرض قد رفعت لي ورأيتها - يعنى في منامه - ذات نخيل وشجر؟ وعن ابن عباس : ما يفعل بى ولا بكم في الآخرة ، وقال : هي منسوخة بقوله لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ ويجوز أن يكون نفيا للدراية المفصلة «2». وقرئ : ما يفعل ، بفتح الياء ، أى : يفعل اللّه عز وجل. فإن قلت : إنّ يُفْعَلُ مثبت غير منفي ، فكان وجه الكلام : ما يفعل بى وبكم. قلت : أجل، ولكن النفي في ما أدرى لما كان مشتملا عليه لتناوله ما وما في حيزه : صح ذلك وحسن.

ألا ترى إلى قوله أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ كيف دخلت الياء في حيز أنّ وذلك لتناول النفي إياها مع ما في حيزها. وما في ما يُفْعَلُ يجوز أن تكون موصولة منصوبة ، وأن تكون استفهامية مرفوعة. وقرئ : يوحى ، أى اللّه عز وجل.

[سورة الأحقاف (46) : آية 10]

قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ وَشَهِدَ شاهِدٌ مِنْ بَنِي إِسْرائِيلَ عَلى مِثْلِهِ فَآمَنَ وَاسْتَكْبَرْتُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (10)

(1). قوله «و لحم زيم» في الصحاح «اللحم الزيم» المتفرق ليس بمجتمع في مكان فيبدن. وفيه أيضا : بدن الرجل يبدن ، إذا ضخم وسمن. (ع)

(2). قال محمود : «أجود ما ذكر فيه حمله على الدراية المفصلة ، يريد بذلك أن تفصيل ما يصير إليه من خير ويصيرون إليه من شر ... الخ» قال أحمد : «بنى على أن المجرور معطوف على مثله ، وأنهما جميعا في صلة موصول واحد ، ولو قيل : إن المجرور الثاني من صلة موصول محذوف معطوف على مثله ، حتى يكون التقدير : وما أدرى ما يفعل بى ولا ما يفعل بكم : لكانت لا واقعة بمكانة غير مفتقرة إلى تأويل ، وحذف الموصول المعطوف وتفاصيله كثيرة. ومنه

فمن يهجو رسول اللّه منكم ويمدحه وينصره سواء

يريد حسان رضى اللّه عنه : فمن يهجو رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ومن يمدحه سواء.

جواب الشرط محذوف تقديره : إن كان القرآن من عند اللّه وكفرتم به ألستم ظالمين.

ويدل على هذا المحذوف قوله تعالى إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ والشاهد من بنى إسرائيل : عبد اللّه بن سلام، لما قدم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم المدينة نظر إلى وجهه ، فعلم أنه ليس بوجه كذاب. وتأمله فتحقق أنه هو النبي المنتظر وقال له : إنى سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبىّ : ما أوّل أشراط الساعة؟ وما أوّل طعام يأكله أهل الجنة؟ وما بال الولد ينزع إلى أبيه أو إلى أمّه؟ فقال عليه الصلاة والسلام «1». أمّا أوّل أشراط الساعة فنار تحشرهم من المشرق إلى المغرب. وأمّا أوّل طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد حوت. وأما الولد فإذا سبق ماء الرجل نزعه ، وإن سبق ماء المرأة نزعته. فقال : أشهد أنك رسول اللّه حقا ، ثم قال : يا رسول اللّه ، إن

(1). أخرجه البخاري من رواية حميد عن أنس ، وأتم منه».
(2). قوله «بهتوني» أى : رموني بما ليس فىّ. (ع)
(3). متفق عليه.
(4). عند البخاري وشك في إدراجها. وروى الطبري من رواية محمد بن يوسف بن عبد اللّه بن سلام قال قال عبد اللّه بن سلام «فىّ نزلت هذه الآية. ثم روى عن الشعبي أنه أنكر ذلك لكون السورة مكية. كذا أخرجه ابن أبى شيبة عن الشعبي.
(5). قال محمود : «إن قلت : أخبرنى عن نظم هذا الكلام لأقف عليه من جهة النظم ... الخ» قال أحمد :
إنما لم يوجه المعطوف إلى جهة واحدة ، لأن التفصيل قد يكون عطف مجموع مفردات على مجموع مفردات كل منهما والآية من هذا النمط ، ومثلها قوله تعالى وَما يَسْتَوِي الْأَعْمى وَالْبَصِيرُ وَلَا الظُّلُماتُ وَلَا النُّورُ وقوله إِنَّ الْمُسْلِمِينَ وَالْمُسْلِماتِ وَالْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ الآية ، وقد تقدم تقرير ذلك في الآيتين فجدد به عهدا.

كما عطفته ثُمَّ في قوله تعالى قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُمْ بِهِ وكذلك الواو الآخرة عاطفة لاستكبرتم على شهد شاهد ، وأما الواو في وَشَهِدَ شاهِدٌ فقد عطفت جملة قوله. شهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله فآمن واستكبرتم : على جملة قوله كانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَكَفَرْتُمْ بِهِ ونظيره قولك : إن أحسنت إليك وأسأت ، وأقبلت عليك وأعرضت عنى ، لم نتفق في أنك أخذت ضميمتين فعطفتهما على مثليهما ، والمعنى : قل أخبرونى إن اجتمع كون القرآن من عند اللّه مع كفركم به ، واجتمع شهادة أعلم بنى إسرائيل على نزول مثله وإيمانه به ، مع استكباركم عنه وعن الإيمان به ، ألستم أضل الناس وأظلمهم؟ وقد جعل الإيمان في قوله فَآمَنَ مسببا عن الشهادة على مثله ، لأنه لما علم أنّ مثله أنزل على موسى صلوات اللّه عليه ، وأنه من جنس الوحى وليس من كلام البشر ، وأنصف من نفسه فشهد عليه واعترف كان الإيمان نتيجة ذلك.

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 11 إلى 14]

وَقالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا لَوْ كانَ خَيْراً ما سَبَقُونا إِلَيْهِ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ فَسَيَقُولُونَ هذا إِفْكٌ قَدِيمٌ (11) وَمِنْ قَبْلِهِ كِتابُ مُوسى إِماماً وَرَحْمَةً وَهذا كِتابٌ مُصَدِّقٌ لِساناً عَرَبِيًّا لِيُنْذِرَ الَّذِينَ ظَلَمُوا وَبُشْرى لِلْمُحْسِنِينَ (12) إِنَّ الَّذِينَ قالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقامُوا فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (13) أُولئِكَ أَصْحابُ الْجَنَّةِ خالِدِينَ فِيها جَزاءً بِما كانُوا يَعْمَلُونَ (14)

لِلَّذِينَ آمَنُوا لأجلهم وهو كلام كفار مكة ، قالوا : عامّة من يتبع محمدا السقاط ، يعنون الفقراء مثل عمار وصهيب وابن مسعود ، فلو كان ما جاء به خيرا ما سبقنا إليه هؤلاء. وقيل : لما أسلمت جهينة ومزينة وأسلم وغفار : قالت بنو عامر وغطفان وأسد وأشجع : لو كان خيرا ما سبقنا إليه رعاء البهم. وقيل : إن أمة لعمر أسلمت ، فكان عمر يضر بها حتى يفتر ثم يقول لولا أنى فترت لزدتك ضربا ، وكان كفار قريش يقولون : لو كان ما يدعو إليه محمد حقا ما سبقتنا إليه فلانة. وقيل : كان اليهود يقولونه عند إسلام عبد اللّه بن سلام وأصحابه. فإن قلت : لا بدّ من عامل في الظرف «1» في قوله وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا بِهِ ومن متعلق لقوله فَسَيَقُولُونَ وغير مستقيم أن يكون فَسَيَقُولُونَ هو العامل في الظرف ،

(1). قال محمود : «لا بد من عامل الظرف وغير مستقيم أن يعمل فيه ... الخ» قال أحمد : إن لم يكن مانع من عمل فسيقولون في الظرف ألا تنافى دلالتى المضي والاستقبال ، فهذا غير مانع ، فان الاستقبال هاهنا إنما خرج مخرج الاشعار بدوام ما وقع ومضى ، لأن القوم قد حرموا الهداية وقالوا : هذا إفك قديم ، وأساطير الأولين وغير ذلك ، فمعنى الآية إذا : وقالوا إذ لم يهتدوا به هذا إفك قديم وداموا على ذلك وأصروا عليه ، فعبر عن وقوعه ثم دوامه بصيغة الاستقبال ، كما قال إبراهيم إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ وقد كانت الهداية واقعة وماضية ولكن أخبر عن وقوعها ، ثم دوامها فعبر بصيغة الاستقبال ، وهذا طريق الجمع بين قوله سَيَهْدِينِ وقوله في الأخرى فَهُوَ يَهْدِينِ ولولا دخول الفاء على الفعل لكان هذا الذي ذكرته هو الوجه ، ولكن الفاء المسببة دلت بدخولها على محذوف

والله أعلم.

لتدافع دلالتى المضي والاستقبال ، فما وجه هذا الكلام؟ قلت : العامل في إذ محذوف ، لدلالة الكلام عليه ، كما حذف من قوله فَلَمَّا ذَهَبُوا بِهِ وقولهم : حينئذ الآن ، وتقديره : وإذ لم يهتدوا به ظهر عنادهم ، فسيقولون هذا إفك قديم ، فهذا المضمر صحّ به الكلام ، حيث انتصب به الظرف وكان قوله فَسَيَقُولُونَ مسببا عنه كما صحّ بإضمار أنّ قوله حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ لمصادفة حَتَّى مجرورها ، والمضارع ناصبه. وقولهم إِفْكٌ قَدِيمٌ كقولهم : أساطير الأوّلين كِتابُ مُوسى مبتدأ ومن قبله ظرف واقع خبرا مقدما عليه ، وهو ناصب إِماماً على الحال ، كقولك : في الدار زيد قائما.

وقرئ : ومن قبله كتاب موسى ، على : وآتينا الذين قبله التوراة. ومعنى إِماماً : قدوة يؤتم به في دين الله وشرائعه ، كما يؤتم بالإمام وَرَحْمَةً لمن آمن به وعمل بما فيه وَهذا القرآن كِتابٌ مُصَدِّقٌ لكتاب موسى. أو لما بين يديه وتقدّمه من جميع الكتب. وقرئ : مصدق لما بين يديه. ولِساناً عَرَبِيًّا حال من ضمير الكتاب في مصدق، والعامل فيه مُصَدِّقٌ ويجوز أن ينتصب حالا عن كتاب «1» لتخصصه بالصفة ، ويعمل فيه معنى الإشارة. وجوّز أن يكون مفعولا لمصدق ، أى : يصدق ذا لسان عربى وهو الرسول. وقرئ : لينذر بالياء والتاء ، ولينذر : من نذر ينذر إذا حذر وَبُشْرى في محل النصب معطوف على محل لينذر ، لأنه مفعول له.

(1). أجاز محمود في نصبه أن يكون حالا عن كتاب لتخصصه بالصفة ... الخ. قال أحمد : وجهان حسنان أعززهما بثالث : وهو النصب على الاختصاص ، وهذه الوجوه في قوله تعالى فِيها يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ أَمْراً مِنْ عِنْدِنا ، والله أعلم.

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 15 إلى 16]

وَوَصَّيْنَا الْإِنْسانَ بِوالِدَيْهِ إِحْساناً حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ثَلاثُونَ شَهْراً حَتَّى إِذا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلى والِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صالِحاً تَرْضاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ (15) أُولئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ ما عَمِلُوا وَنَتَجاوَزُ عَنْ سَيِّئاتِهِمْ فِي أَصْحابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كانُوا يُوعَدُونَ (16)

قرئ : حسنا ، بضم الحاء وسكون السين. وبضمهما. وبفتحهما. وإحسانا. وكرها ، بالفتح والضم ، وهما لغتان في معنى المشقة ، كالفقر والفقر. وانتصابه على الحال : أى : ذات كره.

أو على أنه صفة للمصدر ، أى : حملا ذا كره وَحَمْلُهُ وَفِصالُهُ ومدّة حمله وفصاله ثَلاثُونَ شَهْراً وهذا دليل على أن أقل الحمل ستة أشهر ، لأن مدّة الرضاع إذا كانت حولين لقوله عز وجل حَوْلَيْنِ كامِلَيْنِ لِمَنْ أَرادَ أَنْ يُتِمَّ الرَّضاعَةَ بقيت للحمل ستة أشهر. وقرئ : وفصله.

والفصل والفصال : كالفطم والفطام ، بناء ومعنى. فإن قلت : المراد بيان مدّة الرضاع لا الفطام ، فكيف عبر عنه بالفصال؟ قلت : لما كان الرضاع يليه الفصال ويلابسه لأنه ينتهى به ويتم : سمى فصالا ، كما سمى المدّة بالأمد من قال : كل حى مستكمل مدّة العمر ومود إذا انتهى أمده «1»

وفيه فائدة وهي الدلالة على الرضاع التام المنتهى بالفصال ووقته. وقرئ : حتى إذا استوى وبلغ أشدّه. وبلوغ الأشد : أن يكتهل ويستوفى السنّ التي تستحكم فيها قوّته وعقله وتمييزه ، وذلك إذا أناف على الثلاثين وناطح الأربعين. وعن قتادة : ثلاث وثلاثون سنة ، ووجهه أن يكون ذلك أوّل الأشد ، وغايته الأربعين. وقيل : لم يبعث نبىّ قط إلا بعد أربعين سنة.

والمراد بالنعمة التي استوزع الشكر عليها : نعمة التوحيد والإسلام ، وجمع بين شكرى النعمة عليه وعلى والديه ، لأن النعمة عليهما نعمة عليه. وقيل في العمل المرضى : هو الصلوات الخمس.

فإن قلت : ما معنى فِي في قوله وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي؟ قلت : معناه : أن يجعل ذرّيته موقعا للصلاح «2» ومظنة له كأنه قال : هب لي الصلاح في ذرّيتى وأوقعه فيهم ونحوه : يجرح في عراقيبها نصلى «3»مِنَ الْمُسْلِمِينَ من المخلصين. وقرئ : يتقبل ، ويتجاوز ، بفتح الياء ، والضمير فيهما لله عز وجل.

(1). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 277 فراجعه إن شئت اه مصححه. [.....]
(2). قال محمود : «فان قلت : ما معنى في هاهنا ، وأجاب بأن المراد جعل ذريته ... الخ» قال أحمد : ومثله قوله تعالى إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبى عدولا عن قوله : إلا مودة القربى. أو المودة للقربى ، والله أعلم.
(3). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة 578 فراجعه إن شئت اه مصححه.

وقرئا بالنون. فإن قلت : ما معنى قوله فِي أَصْحابِ الْجَنَّةِ؟ قلت : هو نحو قولك : أكرمنى الأمير في ناس من أصحابه ، تريد : أكرمنى في جملة من أكرم منهم ، ونظمنى في عدادهم ، ومحله النصب على الحال ، على معنى : كائنين في أصحاب الجنة ومعدودين فيهم وَعْدَ الصِّدْقِ مصدر مؤكد ، لأن قوله : يتقبل ، ويتجاوز : وعد من الله لهم بالتقبل والتجاوز. وقيل : نزلت في أبى بكر رضى الله عنه وفي أبيه أبى قحافة وأمّه أم الخير وفي أولاده ، واستجابة دعائه فيهم. وقيل : لم يكن أحد من الصحابة من المهاجرين منهم والأنصار أسلم هو ووالداه وبنوه وبناته غير أبى بكر.

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 17 إلى 18]

وَالَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما أَتَعِدانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُما يَسْتَغِيثانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ ما هذا إِلاَّ أَساطِيرُ الْأَوَّلِينَ (17) أُولئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّهُمْ كانُوا خاسِرِينَ (18)

وَالَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ مبتدأ خبره : أولئك الذين حق عليهم القول. والمراد بالذي قال : الجنس القائل ذلك القول ، ولذلك وقع الخبر مجموعا. وعن الحسن : هو في الكافر العاق لوالديه المكذب بالبعث. وعن قتادة : هو نعت عبد سوء عاق لوالديه فاجر لربه. وقيل : نزلت في عبد الرحمن بن أبى بكر «1» قبل إسلامه وقد دعاه أبوه أبو بكر وأمّه أمّ رومان إلى الإسلام ، فأفف بهما وقال : ابعثوا لي جدعان بن عمرو وعثمان بن عمرو ، وهما من أجداده حتى أسألهما عما يقول محمد ،

(1). قال محمود : «زعم بعضهم أن المعنى بالآية عبد الرحمن بن أبى بكر ... الخ» قال أحمد : ونحن نختار أن المراد الجنس لا عبد الرحمن بن أبى بكر ، ولكنا لا نختار الرد على قائل ذلك بهذا الوجه ، فان له أن يقول : أراد عبد الرحمن وأمته ، ومثل ذلك قول الله تعالى حكاية عن العزيز يخاطب زليخا إِنَّهُ مِنْ كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ فخاطبها وخاطب أمتها ، والمقصودة هي ، وقد عاد إلى خطابها خصوصا بقوله وَاسْتَغْفِرِي لِذَنْبِكِ إِنَّكِ كُنْتِ مِنَ الْخاطِئِينَ ولكن وجه الرد على من زعم أن المراد عبد الرحمن : ما ذكره الزمخشري ثانيا فقال قالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ هم المخلدون في النار في علم الله تعالى ، وعبد الرحمن كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم. ونقل أن معاوية كتب إلى مروان بأن يبايع الناس ليزيد فقال عبد الرحمن : لقد جئتم بها هرقلية أتبايعون لأبنائكم فقال مروان أيها الناس : إن هذا هو الذي قال الله فيه وَالَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ ... الآية فسمعت عائشة فغضبت وقالت : والله ما هو به ، ولو شئت أن أسميه لسميته ، ولكن الله لعن أباك وأنت في صلبه فأنت فضض من لعنة الله» قال أحمد : وفي هذه الآية رد على من زعم أن المفرد الجنسي لا يعمم ، لأنه لا يعامل معاملة الجمع لا في الصفة ولا في الخبر ، فلا يجوز أن تقول : الدينار الصفر خير من الدرهم البيض ، وهذا مردود بأن خبر الذي الواقع جنسا جاء على نعت خبر المجموع كما رأيت ، والله أعلم.

ويشهدوا لبطلانه أن المراد بالذي قال : جنس القائلين ذلك ، وأنّ قوله الذين حق عليهم القول : هم أصحاب النار، وعبد الرحمن كان من أفاضل المسلمين وسرواتهم. وعن عائشة رضى الله عنها إنكار نزولها فيه ، وحين كتب معاوية إلى مروان بأن يبايع الناس ليزيد قال عبد الرحمن : لقد جئتم بها هرقلية : تبايعون لأبنائكم ، فقال مروان : يا أيها الناس ، هو الذي قال الله فيه وَالَّذِي قالَ لِوالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُما فسمعت عائشة فغضبت وقالت : والله ما هو به ، ولو شئت أن أسميه لسميته «1» ولكن الله لعن أباك وأنت في صلبه ، فأنت فضض من لعنة الله «2». وقرئ : أف ، بالكسر والفتح بغير تنوين ، وبالحركات الثلاث مع التنوين ، وهو صوت إذا صوت به الإنسان علم أنه متضجر ، كما إذا قال : حس ، علم منه أنه متوجع ، واللام للبيان ، معناه : هذا التأفيف لكما خاصة ، ولأجلكما دون غير كما. وقرئ : أتعداننني : بنونين. وأ تعداني : بأحدهما. وأ تعداني : بالإدغام. وقد قرأ بعضهم : أتعداننني بفتح النون ، كأنه استثقل اجتماع النونين والكسرتين والياء ، ففتح الأولى تحريا للتخفيف ، كما تحراه من أدغم ومن أطرح أحدهما أَنْ أُخْرَجَ أن ابعث وأخرج من الأرض. وقرئ : أخرج وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي يعنى : ولم يبعث منهم أحد يَسْتَغِيثانِ اللَّهَ يقولان : الغياث بالله منك ومن قولك ، وهو استعظام لقوله وَيْلَكَ دعاء عليه بالثبور : والمراد به الحث والتحريض على الإيمان لا حقيقة الهلاك فِي أُمَمٍ نحو قوله فِي أَصْحابِ الْجَنَّةِ وقرئ : أن ، بالفتح ، على معنى : آمن بأن وعد الله حق.

[سورة الأحقاف (46) : آية 19]

وَلِكُلٍّ دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (19)

وَلِكُلٍّ من الجنسين المذكورين دَرَجاتٌ مِمَّا عَمِلُوا أى منازل ومراتب من جزاء ما عملوا من الخير والشر ، ومن أجل ما عملوا منهما «3». فإن قلت : كيف قيل : درجات ، وقد جاء : الجنة درجات والنار دركات؟ قلت : يجوز أن يقال ذلك على وجه التغليب ، لاشتمال كل على الفريقين وَلِيُوَفِّيَهُمْ وقرئ : بالنون تعليل معلله محذوف لدلالة الكلام عليه ، كأنه قيل : وليوفيهم أعمالهم ولا يظلمهم حقوقهم : قدر جزاءهم على مقادير أعمالهم ، فجعل الثواب درجات والعقاب دركات.

(1). أخرجه النسائي ، واللفظ له وابن أبى خيثمة والحاكم وابن مردويه من رواية محمد بن زياد - وقال «لما بايع معاوية لابنه قال مروان : سنة أبى بكر وعمر. فقال عبد الرحمن بن أبى بكر : سنة هر قل وقيصر قال مروان :
هذا الذي أنزل - فذكر الآية فبلغ ذلك عائشة فقالت : كذب واللّه. ما هو به. فذكره. ولكن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لعن أبا مروان ومروان في صلبه إلى آخره. ولفظ ابن أبى خيثمة «إن معاوية كتب إلى مروان بن الحكم أن يبايع الناس ليزيد بن معاوية. فقال عبد الرحمن لقد جئتم بها هر قلية - إلى آخر لفظ المصنف.
قلت : أصله في البخاري من رواية يوسف بن ماهك عن عائشة دون ما في آخره.
(2). قوله «فأنت فضض من لعنة اللّه» في الصحاح كل شيء تفرق فهو فضض. وفي الحديث : أنت فضض من لعنة اللّه ، يعنى : ما انفض من نطفة الرجل وتردد في صلبه. (ع)
(3). قوله «و من أجل ما عملوا منهما» لعله : أو من أجل. (ع)

[سورة الأحقاف (46) : آية 20]

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ فِي حَياتِكُمُ الدُّنْيا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِها فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذابَ الْهُونِ بِما كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِما كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (20)

ناصب الظرف هو القول المضمر قبل أَذْهَبْتُمْ وعرضهم على النار : تعذيبهم بها ، من قولهم : عرض بنو فلان على السيف «1» إذا قتلوا به. ومنه قوله تعالى النَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْها ويجوز أن يراد : عرض النار عليهم من قولهم : عرضت الناقة على الحوض ، يريدون : عرض الحوض عليها فقلبوا. ويدل عليه تفسير ابن عباس رضى اللّه عنه : يجاء بهم إليها فيكشف لهم عنها أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ أى : ما كتب لكم حظ من الطيبات إلا ما قد أصبتموه في دنياكم ، وقد ذهبتم به وأخذتموه ، فلم يبق لكم بعد استيفاء حظكم شيء منها. وعن عمر رضى اللّه عنه : لو شئت لدعوت بصلائق وصناب «2» وكراكر وأسنمة ، ولكنى رأيت اللّه تعالى نعى على قوم طيباتهم فقال : أذهبتم طيباتكم في حياتكم الدنيا «3». وعنه : لو شئت لكنت أطيبكم طعاما وأحسنكم لباسا ، ولكنى أستبقى طيباتى : «4» وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه دخل على أهل الصفة وهم يرقعون ثيابهم بالأدم ما يجدون لها رقاعا ، فقال : أأنتم اليوم خير أم يوم يغدو أحدكم في حلة ويروح في أخرى ،

(1). قال محمود : «عرضهم على النار إما من قولهم عرض بنو فلان على السيف ... الخ» قال أحمد : وإن كان قولهم : عرضت الناقة على الحوض مقلوبا ، فليس قوله : يعرض الذين كفروا على النار مقلوبا ، لأن الملجئ ثم إلى اعتقاد القلب أن الحوض جماد لا إدراك له ، والناقة هي المدركة ، فهي التي يعرض عليها الحوض حقيقة. وأما النار فقد وردت النصوص بأنها حينئذ مدكرة إدراك الحيوانات بل إدراك أولى العلم ، فالأمر في الآية على ظاهره ، كقولك : عرضت الأسرى على الأمير ، واللّه أعلم.
(2). قوله «بصلائق وصناب» في الصحاح : الصلائق : الخبز الرقاق. والصناب : صباغ يتخذ من الخردل والزبيب. والكركرة : رحى زور البعير : والزور : أعلى الصدر اه أخذا من مواضع. (ع)
(3). أخرجه ابن المبارك في الزهد أخبرنا جرير بن حازم أنه سمع الحسن يقول «قدم على أمير المؤمنين عمر وقد أهل البصرة مع أبى موسى الأشعرى قال لو كنا ندخل وأنه كل يوم خبز بيت. فذكر الحديث. وفيه «أما واللّه ما أجهل من كراكر وأسنمة وصلا وصناب وقال جرير : الصلا هو الشواء والصناب الخردل ، والصلائق الخبز الرقاق. ولكن سمعت اللّه عير أقواما بأمر فعلوه. فقال : أَذْهَبْتُمْ طَيِّباتِكُمْ الآية. وأخرجه أبو عبيدة في الغريب. وابن سعد وأحمد في الزهد. وأبو نعيم في الحلية كلهم من طريق جرير به.
(4). أخرجه الطبري من رواية سعيد عن قتادة قال ذكر لنا عمر قال : فذكره.

ويغدى عليه بجفنة ويراح عليه بأخرى ، ويستر بيته كما تستر الكعبة. قالوا : نحن يومئذ خير. قال. بل أنتم اليوم خير «1» وقرئ : أذهبتم بهمزة الاستفهام. وآ أذهبتم بألف بين همزتين ، الهون. والهوان : وقرئ عذاب الهوان ، وقرئ يفسقون بضم السين وكسرها.

[سورة الأحقاف (46) : آية 21]

وَاذْكُرْ أَخا عادٍ إِذْ أَنْذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ اللَّهَ إِنِّي أَخافُ عَلَيْكُمْ عَذابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ (21)

الأحقاف : جمع حقف وهو رمل مستطيل مرتفع فيه انحناء ، من احقوقف الشيء إذا اعوج ، وكانت عاد أصحاب عمد يسكنون بين رمال مشرفين على البحر بأرض يقال لها الشحر من بلاد اليمن. وقيل : بين عمان ومهرة. والنُّذُرُ جمع نذير بمعنى المنذر أو الإنذار مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ من قبله وَمِنْ خَلْفِهِ ومن بعده. وقرئ : من بين يديه ومن بعده. والمعنى : أنّ هودا عليه السلام قد أنذرهم فقال لهم : لا تعبدوا إلا اللّه إنى أخاف عليكم العذاب ، وأعلمهم أنّ الرسل الذين بعثوا قبله والذين سيبعثون بعده كلهم منذرون نحو إنذاره وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : يعنى الرسل الذين بعثوا قبله والذين بعثوا في زمانه. ومعنى وَمِنْ خَلْفِهِ على هذا التفسير ومن بعد إنذاره ، هذا إذا علقت ، وقد خلت النذر بقوله : أنذر قومه ، ولك أن تجعل قوله تعالى وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ اعتراضا بين أنذر قومه وبين أَلَّا تَعْبُدُوا ويكون المعنى : واذكر إنذار هود قومه عاقبة الشرك والعذاب العظيم وقد أنذر من تقدمه من الرسل ومن تأخر عنه مثل ذلك ، فاذكرهم.

[سورة الأحقاف (46) : آية 22]

قالُوا أَجِئْتَنا لِتَأْفِكَنا عَنْ آلِهَتِنا فَأْتِنا بِما تَعِدُنا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ (22)

الإفك : الصرف. يقال أفكه عن رأيه عَنْ آلِهَتِنا عن عبادتها بِما تَعِدُنا من معاجلة العذاب على الشرك إِنْ كُنْتَ صادقا في وعدك.

[سورة الأحقاف (46) : آية 23]

قالَ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ وَأُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ وَلكِنِّي أَراكُمْ قَوْماً تَجْهَلُونَ (23)

فإن قلت : من أين طابق قوله تعالى إِنَّمَا الْعِلْمُ عِنْدَ اللَّهِ جوابا لقولهم فَأْتِنا بِما تَعِدُنا؟

(1). أخرجه الطبري من رواية سعد عن قتادة قال : ذكر لنا. فذكره. ومن طريقه الشعبي. ورواه أبو نعيم في الحلية في ترجمة أهل الصفة من طريق الحسن قال «حسب أضعاف المسلمين» فذكر نحوه مطولا وفي الترمذي من طريق محمد بن كعب القرظي : حدثني من سمع على بن أبى طالب رضى اللّه عنه قال : بينا نحن جلوس في المسجد إذ طلع علينا مصعب بن عمير ما عليه إلا بردة له مرقوعة بفرو. فلما رآه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بكى للذي كان فيه من النعمة. ثم قال : كيف بكم ... الحديث نحوه».

قلت : من حيث إنّ قولهم هذا استعجال منهم بالعذاب. ألا ترى إلى قوله تعالى بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ فقال لهم : لا علم عندي بالوقت الذي يكون فيه تعذيبكم حكمة وصوابا ، إنما علم ذلك عند اللّه ، فكيف أدعوه بأن يأتيكم بعذابه في وقت عاجل تقترحونه أنتم؟ ومعنى : وَأُبَلِّغُكُمْ ما أُرْسِلْتُ بِهِ وقرئ بالتخفيف : أن الذي هو شأنى وشرطي : أن أبلغكم ما أرسلت به من الإنذار والتخويف والصرف عما يعرّضكم لسخط اللّه بجهدي ، ولكنكم جاهلون لا تعلمون أنّ الرسل لم يبعثوا إلا منذرين لا مقترحين ، ولا سائلين غير ما أذن لهم فيه.

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 24 إلى 25]

فَلَمَّا رَأَوْهُ عارِضاً مُسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قالُوا هذا عارِضٌ مُمْطِرُنا بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُمْ بِهِ رِيحٌ فِيها عَذابٌ أَلِيمٌ (24) تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّها فَأَصْبَحُوا لا يُرى إِلاَّ مَساكِنُهُمْ كَذلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (25)

فَلَمَّا رَأَوْهُ في الضمير وجهان : أن يرجع إلى ما تعدنا ، وأن يكون مبهما قد وضح أمره بقوله عارِضاً إما تمييزا وإما حالا. وهذا الوجه أعرب وأفصح. والعارض : السحاب الذي يعرض في أفق السماء. ومثله : الحبى والعنان ، من حبا وعنّ : إذا عرض. وإضافة مستقبل وممطر مجازية غير معرفة بدليل وقوعهما وهما مضافان إلى معرفتين وصفا للنكرة بَلْ هُوَ القول قبله مضمر ، والقائل : هود عليه السلام ، والدليل عليه قراءة من قرأ : قال هود ، بل هو. وقرئ : قل بل ما استعجلتم به هي ريح ، أى قال اللّه تعالى : قل تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ تهلك من نفوس عاد وأموالهم الجم الكثير ، فعبر عن الكثرة بالكلية. وقرئ يدمر كل شيء من دمر دمارا إذا هلك لا تَرى الخطاب للرائى من كان. وقرئ : لا يرى ، على البناء للمفعول بالياء والتاء ، وتأويل القراءة بالتاء وهي عن

وليست بالقوية. وقرئ : لا ترى إلا مسكنهم ، ولا يرى إلا مسكنهم. وروى أنّ الريح كانت تحمل الفسطاط والظعينة فترفعها في الجوّ حتى ترى كأنها جرادة. وقيل : أوّل من أبصر العذاب امرأة منهم قالت : رأيت ريحا فيها كشهب النار. وروى : أوّل ما عرفوا به أنه عذاب : أنهم رأوا ما كان في الصحراء من رحالهم ومواشيهم تطير به الريح السماء والأرض ، فدخلوا بيوتهم وغلقوا أبوابهم ، فقلعت الريح الأبواب وصرعتهم ،

(1). تقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء صفحة 12 فراجعه إن شئت اه مصححه.

وأما اللّه عليهم الأحقاف فكانوا تحتها سبع ليال وثمانية أيام لهم أنين ، ثم كشفت الريح عنهم ، فاحتملتهم فطرحتهم في البحر. وروى أنّ هودا لما أحس بالريح خط على نفسه وعلى المؤمنين خطا إلى جنب عين تنبع. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : اعتزل هود ومن معه في حظيرة ما يصيبهم من الريح إلا مايلين على الجلود وتلذه الأنفس ، وإنها لتمر من عاد بالظعن بين السماء والأرض وتدمغهم بالحجارة وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه كان إذا رأى الريح فزع وقال : اللهم إنى أسألك خيرها وخير ما أرسلت به ، وأعوذ بك من شرها وشر ما أرسلت «1» به ، وإذا رأى مخيلة : قام وقعد ، وجاء وذهب ، وتغير لونه ، فيقال له : يا رسول اللّه ما تخاف؟ فيقول : إنى أخاف أن يكون مثل قوم عاد حيث قالوا : «هذا عارض ممطرنا». فإن قلت : ما فائدة إضافة الرب إلى الريح؟ قلت : الدلالة على أن الريح وتصريف أعنتها مما يشهد لعظم قدرته ، لأنها من أعاجيب خلقه وأكابر جنوده. وذكر الأمر وكونها مأمورة من جهته عز وجل : يعضد ذلك ويقوّيه ،

[سورة الأحقاف (46) : آية 26]

وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيما إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنا لَهُمْ سَمْعاً وَأَبْصاراً وَأَفْئِدَةً فَما أَغْنى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ بِآياتِ اللَّهِ وَحاقَ بِهِمْ ما كانُوا بِهِ يَسْتَهْزِؤُنَ (26)

إِنْ نافية ، أى : فيما ما مكنا كم فيه ، إلا أنّ إِنْ أحسن في اللفظ ، لما فيه مجامعة ما مثلها من التكرير المستبشع. ومثله مجتنب ، ألا ترى أن الأصل في «مهما» : «ماماز» لبشاعة التكرير : قلبوا الألف هاء. ولقد أغث «2» أبو الطيب في قوله :

لعمرك ماما بان منك لضارب «3»

وما ضره لو اقتدى بعذوبة لفظ التنزيل فقال :

لعمرك ما إن بان منك لضارب «4»

(1). أخرجه مسلم والترمذي والنسائي وابن ماجة والبزار وأبو يعلى والبخاري في الأدب المفرد ، كلهم من رواية عطاء عن عائشة ، ولفظ مسلم قريب من لفظ الكتاب.
(2). قوله «و لقد أغث أبو الطيب» في الصحاح «أغث» : أى ردؤ وفسد ، تقول : أغث الرجل في منطقه. (ع) [.....]
(3) لعمرك ماما بان منك لضارب بأقتل مما بان منك لعائب
لأبى الطيب. يقول : وحياتك ليس الذي ظهر منك للضارب يعنى السنان ، أفتل : أى أسرع قتلا من الذي ظهر منك للعائب ، يعنى : اللسان ، بل هما سواء في الحدة. ويجوز أنه استعار القتل للضرب تصريحا.
(4). قال أحمد : بيت المتنبي ليس كما أنشده ، وإنما هو كما يروى :
لعمرك إن ما بان منك لضارب بأقتل مما بان منك لعائب
ولا يستقيم إلا كذلك لأن قبله :
هو ابن رسول اللّه وابن صفيه وشبههما شبهت بعد التجارب
من قصيدة يمدح بها طاهر بن الحسين العلوي ، ولو أنى أبو الطيب عوض «ما» ب «إن» لجاء البيت :
يرى أن إن ما بان منك لضارب
وهذا التكرار أثقل من تكرار «ما» بلا مراء. وإنما فنده الزمخشري وألزمه استعمال «إن» عوض «ما» لاعتقاده أن البيت كما أنشده:
لعمرك ما مابان منك لضارب بأقتل مما بان منك لعائب
ولو عوض «إن» عوض «ما» كما أصلحه الزمخشري : لزم دخول الباء في خبر «ما» وإنما تدخل الباء في خبر «ما» الحجازية العاملة ، و«إن» لا تعمل عمل «ما» على الصحيح ، فلا يستقيم دخول الباء في خبرها ، فما عدل المتنبي عن ذلك إلا لتعذره عليه من

يرجى المرء ما إن لا يراه وتعرض دون أدناه الخطوب
قال : ويكون معناه على هذا مكناهم في مثل ما مكناكم ... الخ» قلت : واختص بهذه الطائفة قوله تعالى وَقالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وقوله مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ.

وقد جعلت إن صلة ، مثلها فيما أنشده الأخفش :

يرجّى المرء ما إن لا يراه وتعرض دون أدناه الخطوب «1»

وتؤوّل بإنا مكناهم في مثل ما مكناكم فيه : والوجه هو الأوّل ، ولقد جاء عليه غير آية في القرآن هُمْ أَحْسَنُ أَثاثاً وَرِءْياً ، كانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَآثاراً وهو أبلغ في التوبيخ ، وأدخل في الحث على الاعتبار مِنْ شَيْءٍ أى من شيء من الإغناء ، وهو القليل منه. فإن قلت بم انتصب إِذْ كانُوا يَجْحَدُونَ؟ قلت : بقوله تعالى فَما أَغْنى . فإن قلت : لم جرى مجرى التعليل؟ قلت : لاستواء مؤدى التعليل والظرف في قولك : ضربته لإساءته وضربته إذا أساء ، لأنك إذا ضربته في وقت إساءته ، فإنما ضربته فيه لوجود إساءته فيه ، إلا أن «إذ ، وحيث ، غلبتا دون سائر الظروف في ذلك.

(1) فان أمسك فان العيش حلو إلى كأنه عسل مشوب
يرجي المرء ما إن لا يراه وتعرض دون أدناه الخطوب
وما يدرى الحريص علام يلقى شراشره أيخطئ أم يصيب
لجابر بن رالان الطائي. وقيل : لا ياس بن الأرت. والشراشر : جمع شرشر ، وهي أطراف الشيء المشرشرة ، أى : المفرقة المنشورة ، وتطلق على الجسد وعلى الثقل ويكنى بها عن النفس كما هنا. وقيل : هي حبال الصيد.
يقول : إن أبخل فالعيش حلو عنده كحلاوة العسل الممزوج بالماء لتزول حرارته وضمن «حلو» معنى محبوب ، فعداه بإلى. ثم قال : ولكن لا خير في الإمساك ، فان المرء يرتجى الأمر الغائب عنه. وتحول أهوال الموت أو شدائد الدهر بينه وبين أدنى شيء منه. وإن: زائدة بعد ما الموصولة حملا على ما النافية ، وما يدرى الذي وجه نفسه بكليتها للدنيا عواقب أمره ، أريح أم خسر ، وعلى أنها حبال الصيد ففي الكلام استعارة تمثيلية حيث شبه حال من أخذ في أسباب الأمر جاهلا عاقبته : بحال من نصب الحبال للصيد ، فقد وقد.

[سورة الأحقاف (46) : آية 27]

وَلَقَدْ أَهْلَكْنا ما حَوْلَكُمْ مِنَ الْقُرى وَصَرَّفْنَا الْآياتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ (27)

ما حَوْلَكُمْ يا أهل مكة مِنَ الْقُرى من نحو حجر ثمود وقرية سدوم وغيرهما. والمراد :

أهل القرى. ولذلك قال لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ

[سورة الأحقاف (46) : آية 28]

فَلَوْلا نَصَرَهُمُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ قُرْباناً آلِهَةً بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ وَذلِكَ إِفْكُهُمْ وَما كانُوا يَفْتَرُونَ (28)

القربان : ما تقرب به إلى الله تعالى ، أى : اتخذوهم شفعاء متقربا بهم إلى الله ، حيث قالوا : هؤلاء شفعاؤنا عند الله. وأحد مفعولي اتخذ الراجع إلى الذين «1» المحذوف «2» ، والثاني : آلهة. وقربانا : حال ولا يصح أن يكون قربانا مفعولا ثانيا وآلهة بدلا منه لفساد المعنى. وقرئ قربانا بضم الراء. والمعنى : فهلا منعهم من الهلاك آلهتهم بَلْ ضَلُّوا عَنْهُمْ أى غابوا عن نصرتهم وَذلِكَ إشارة إلى امتناع نصرة آلهتهم لهم وضلالهم عنهم ، أى : وذلك أثر إفكهم الذي هو اتخاذهم إياها آلهة ، وثمرة شركهم وافترائهم على الله الكذب من كونه ذا شركاء. وقرئ : إفكهم : والأفك والإفك : كالحذر والحذر. وقرئ : وذلك إفكهم ، أى : وذلك الاتخاذ الذي هذا أثره وثمرته صرفهم عن الحق. وقرئ : أفكهم على التشديد للمبالغة. وآفكهم : جعلهم آفكين. وآفكهم ، أى : قولهم الآفك ذو الإفك ، كما تقول قول كاذب ، وذلك إفك مما كانوا يفترون ، أى : بعض ما كانوا يفترون من الإفك.

[سورة الأحقاف (46) : الآيات 29 إلى 32]

وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً مِنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قالُوا أَنْصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ (29) قالُوا يا قَوْمَنا إِنَّا سَمِعْنا كِتاباً أُنْزِلَ مِنْ بَعْدِ مُوسى مُصَدِّقاً لِما بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلى طَرِيقٍ مُسْتَقِيمٍ

(1). قال محمود : «أحد مفعولي اتخذ الراجع إلى الموصول محذوف ... الخ» قال أحمد : لم يتبين وجه فساد المعنى على هذا الإعراب. ونحن نبينه فنقول : لو كان قربانا مفعولا ثانيا ومعناه متقربا بهم : لصار المعنى إلى أنهم وبخوا على ترك اتخاذ اللّه متقربا به ، لأن السيد إذا ونخ عبده وقال : اتخذت فلانا سيدا دوني ، فإنما معناه اللوم على نسبة السيادة إلى غيره ، وليس هذا المقصد ، فان اللّه تعالى يتقرب إليه ولا يتقرب به لغيره ، فإنما وقع التوبيخ على نسبة الالهية إلى غير اللّه تعالى ، فكان حق الكلام أن يكون آلهة هو المفعول الثاني لا غير.
(2). قوله «اتخذ الراجع إلى الذين المحذوف» هو الذي أبرزه في قوله : أى اتخذوهم. (ع)

صَرَفْنا إِلَيْكَ نَفَراً أملناهم إليك وأقبلنا بهم نحوك. وقرئ : صرفنا بالتشديد ، لأنهم جماعة. والنفر : دون العشرة. ويجمع أَنفارا. وفي حديث أبى ذر رضى اللّه عنه : لو كان هاهنا أحد من أنفارنا «1» فَلَمَّا حَضَرُوهُ الضمير للقرآن. أى : فلما كان بمسمع منهم. أو لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. وتعضده قراءة من قرأ فَلَمَّا قُضِيَ أى أتمّ قراءته وفرغ منها قالُوا قال بعضهم لبعض أَنْصِتُوا اسكتوا مستمعين. يقال : أنصت لكذا واستنصت له. روى أنّ الجنّ كانت تسترق السمع ، فلما حرست السماء ورجموا بالشهب قالوا : ما هذا إلا لنبإ حدث ، فنهض سبعة نفر أو تسعة من أشراف جنّ نصيبين أو نينوى : منهم زوبعة ، فضربوا حتى بلغوا تهامة ، ثم اندفعوا إلى وادى نخلة ، فوافقوا «2» رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهو قائم في جوف الليل يصلى أو في صلاة الفجر ، فاستمعوا لقراءته ، وذلك عند منصرفه من الطائف حين خرج إليهم يستنصرهم فلم يجيبوه إلى طلبته وأغروا به سفهاء ثقيف «3». وعن سعيد بن جبير رضى اللّه عنه : ما قرأ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على الجن ولا رآهم ، وإنما كان يتلو في صلاته فمروا به فوقفوا مستمعين وهو لا يشعر ، فأنبأه اللّه باستماعهم «4». وقيل : بل أمر اللّه رسوله أن ينذر الجنّ ويقرأ عليهم فصرف إليه نفرا منهم جمعهم له فقال : إنى أمرت أن أقرأ على الجنّ الليلة فمن يتبعني : قالها ثلاثا ، فأطرقوا إلا عبد اللّه بن مسعود رضى اللّه عنه قال : لم يحضره ليلة الجنّ أحد غيرى ، فانطلقنا حتى إذا كنا بأعلى مكة في شعب الحجون فخط لي خطا وقال : لا تخرج منه حتى أعود إليك ، ثم افتتح القرآن وسمعت لغطا شديدا حتى خفت على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ،

(1). هذا طرف من قصة إسلام أبى ذر رضى اللّه عنه من رواية عبد اللّه بن الصامت عن أبى ذر ذكره مطولا.
وفيه : فبينا أنا في ليلة قمراء ختموانية وقد ضرب اللّه على أهل مكة فما يطوف غير امرأتين ، فأتيا على فذكر القصة.
وفيه ثم انطلقتا يولولان. ويقولان لو كان هاهنا أحد من أنصارنا» أخرجه مسلم مطولا.
(2). قوله «فوافقوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم» لعله : فوافوا. (ع)
(3). متفق عليه بمعناه من رواية سعيد بن جبير عن ابن عباس دون أوله. ودون قوله «و كانوا تسعة نفر أحدهم زوبعة» ودون قوله «في جوف الليل يصلى» ودون قوله «من نينوى» ودون قوله «عند منصرفه إلى آخره» وأما زوبعة فأخرجه الحاكم من رواية ذر عن ابن مسعود قال «هبطوا - يعني الجن - على النبي صلى اللّه عليه وسلم وهو يقرأ القرآن ببطن نخلة. فلما سمعوه قالوا أنصتوا. وكانوا تسعة أحدهم زوبعة. فأنزل اللّه وَإِذْ صَرَفْنا إِلَيْكَ - الآية وقوله «نينوى» أخرجه الطبري من رواية قتادة في هذه الآية قال : ذكر لنا أنهم صرفوا إليه من نينوى الحديث».
(4). متفق عليه من رواية سعيد بن جبير ، وهو في الذي قبله.

وغشيته أسودة كثيرة حالت بيني وبينه حتى ما أسمع صوته ثم انقطعوا كقطع السحاب فقال لي رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : هل رأيت شيئا؟ قلت : نعم رجالا سودا مستثفري ثياب بيض «1» ، فقال : أولئك جنّ نصيبين» «2» وكانوا اثنى عشر ألفا ، والسورة التي قرأها عليهم اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ. فإن قلت : كيف قالوا مِنْ بَعْدِ مُوسى ؟ قلت : عن عطاء رضى اللّه عنه : أنهم كانوا على اليهودية. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : إنّ الجنّ لم تكن سمعت بأمر عيسى عليه السلام ، فلذلك قالت : من بعد موسى. فإن قلت : لم بعّض في قوله مِنْ ذُنُوبِكُمْ؟ قلت : لأن من الذنوب ما لا يغفر بالإيمان كذنوب المظالم «3» ونحوها.

ونحوه قوله عزّ وجل أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ يَغْفِرْ لَكُمْ مِنْ ذُنُوبِكُمْ. فإن قلت : هل للجنّ ثواب كما للإنس؟ قلت : اختلف فيه فقيل : لا ثواب لهم إلا النجاة من النار ، لقوله تعالى وَيُجِرْكُمْ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ وإليه كان يذهب أبو حنيفة رحمه اللّه. والصحيح أنهم في حكم بنى آدم ، لأنهم مكلفون مثلهم فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ أى : لا ينجى منه مهرب ، ولا يسبق قضاءه سابق. ونحوه قوله تعالى وَأَنَّا ظَنَنَّا أَنْ لَنْ نُعْجِزَ اللَّهَ فِي الْأَرْضِ وَلَنْ نُعْجِزَهُ هَرَباً.

(1). قوله «مستثفري ثياب بيض» في القاموس «الاستئفار» : أن يدخل إزاره بين فخذيه ملويا وإدخال الكلب ذنبه بين فخذيه حتى يلزقه ببطنه اه (ع)
(2). لم أجده بتمامه في سياق واحد. بل وجدته مفرقا. فروى الطبري من رواية قتادة ذكر لنا النبي صلى اللّه عليه وسلم قال «إنى أمرت أن أقرأ على الجن. فأيكم يتبعني فأطرقوا ثلاثا إلا ابن مسعود قاتبعه حتى دخل شعبا يقال له شعب الحجون قال : وخط على ابن مسعود خطا. فذكر أى قوله حتى خفت عليه - وزاد فيه : فقلت ما هذا اللغط؟ فقال : اختصموا إلى في جبل قضيت بينهم بالحق»

فانطلقت حتى إذا كنا بأعلى مكة خط لي برجله خطا ثم أمرنى أن أجلس فيه ، ثم انطلق حتى قام. فافتتح القرآن - الحديث» ولم يذكر قوله «رجالا سودا إلى آخره» وروى الطبري من رواية عمرو بن غيلان الثقفي أنه سأل ابن مسعود فذكر القصة. وفيها فقال «رأيت شيئا؟ قلت : نعم. قد رأيت رجالا سودا مستشعرين بثياب بيض. فقال : أولئك جن نصيبين سألونى المتاع - فذكر الحديث» وليس فيه عددهم ولا اسم السورة. وروى ابن أبى حاتم من رواية عكرمة في هذه الآية قال «كانوا من جن نصيبين جاءوا من جزيرة الموصل. وكانوا اثنى عشر ألفا» فهذه الأحاديث من مجموعها ما ذكر إلا اسم السورة.
(3). قال محمود : «إنما بعض المغفرة لأن من الذنوب مالا يغفره الايمان كذنوب المظالم» قال أحمد : ليس ما أطلقه من أن الايمان لا يغفر المظالم بصحيح ، لأن الحربي لو نهب الأموال المصونة وسفك الدماء المحقونة ثم حسن إسلامه : جب الإسلام عنه إثم ما تقدم بلا إشكال. ويقال : إنه ما وعد المغفرة الكافر على تقدير الايمان في كتاب اللّه تعالى إلا مبعضة ، وهذا منه ، فان لم يكن لاطراده بذلك سر فما هو إلا أن مقام الكافر قبض لا بسط ، فلذلك لم يبسط رجاءه في مغفرة جملة الذنوب. وقد ورد في حق المؤمنين مثله كثيرا ، واللّه أعلم.

[سورة الأحقاف (46) : آية 33]

أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقادِرٍ عَلى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتى بَلى إِنَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (33)

بِقادِرٍ محله الرفع ، لأنه خبر أن ، يدل عليه قراءة عبد اللّه : قادر ، وإنما دخلت الباء لاشتمال النفي في أوّل الآية على أن وما في حيزها. وقال الزجاج : لو قلت : ما ظننت أنّ زيدا بقائم : جاز ، كأنه قيل : أليس اللّه بقادر. ألا ترى إلى وقوع بلى مقرّرة للقدرة على كل شيء من البعث وغيره ، لا لرؤيتهم. وقرئ : يقدر. ويقال: عييت بالأمر ، إذا لم تعرف وجهه.

ومنه أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ.

[سورة الأحقاف (46) : آية 34]

وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هذا بِالْحَقِّ قالُوا بَلى وَرَبِّنا قالَ فَذُوقُوا الْعَذابَ بِما كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (34)
أَلَيْسَ هذا بِالْحَقِّ محكي بعد قول مضمر ، وهذا المضمر هو ناصب الظرف. وهذا إشارة إلى العذاب ، بدليل قوله تعالى فَذُوقُوا الْعَذابَ والمعنى : التهكم بهم ، والتوبيخ لهم على استهزائهم بوعد اللّه ووعيده ، وقولهم وَما نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ.

[سورة الأحقاف (46) : آية 35]

فَاصْبِرْ كَما صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ ما يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ ساعَةً مِنْ نَهارٍ بَلاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلاَّ الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ (35)

أُولُوا الْعَزْمِ أولوا الجد والثبات والصبر. ومِنَ يجوز أن تكون للتبعيض ، ويراد بأولى العزم : بعض الأنبياء. قيل : هم نوح ، صبر على أذى قومه : كانوا يضربونه حتى يغشى عليه ، وإبراهيم على النار وذبح ولده ، وإسحاق على الذبح ، ويعقوب على فقد ولده وذهاب بصره ، ويوسف على الجب والسجن ، وأيوب على الضرّ، وموسى قال له قومه : إنا لمدركون ، قال : كلا إنّ معى ربى سيهدين ، وداود بكى على خطيئته أربعين سنة ، وعيسى لم يضع لبنة على لبنة وقال : إنها معبرة فاعبروها ولا تعمروها. وقال اللّه تعالى في آدم وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً وفي يونس وَلا تَكُنْ كَصاحِبِ الْحُوتِ ويجوز أن تكون للبيان ، فيكون أولو العزم صفة الرسل كلهم وَلا تَسْتَعْجِلْ لكفار قريش بالعذاب ، أى : لا تدع لهم بتعجيله ، فإنه نازل بهم لا محالة ، وإن تأخر ، وأنهم مستقصرون حينئذ مدّة لبثهم في الدنيا حتى يحسبوها ساعَةً مِنْ نَهارٍ بَلاغٌ أى هذا الذي وعظتم به كفاية في الموعظة. أو هذا تبليغ من الرسول عليه السلام فَهَلْ يُهْلَكُ إلا الخارجون عن الاتعاظ به ، والعمل بموجبه. ويدل على معنى التبليغ قراءة من قرأ : بلغ فهل يهلك : وقرئ : بلاغا ، أى بلغوا بلاغا : وقرئ : يهلك ، بفتح الياء وكسر اللام وفتحها ، من هلك وهلك. ونهلك بالنون إِلَّا الْقَوْمُ الْفاسِقُونَ.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة الأحقاف كتب له عشر حسنات بعدد كل رملة في الدنيا» «1».

سورة محمد صلى اللّه عليه وسلم

مدنية عند مجاهد. وقال الضحاك وسعيد بن جبير : مكية. وهي سورة القتال وهي تسع وثلاثون آية. وقيل ثمان وثلاثون [نزلت بعد الحديد]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة محمد (47) : الآيات 1 إلى 2]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ (1) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ وَآمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بالَهُمْ (2)

وَصَدُّوا. وأعرضوا وامتنعوا عن الدخول في الإسلام : أو صدّوا غيرهم عنه. قال ابن عباس رضى اللّه عنه : هم المطعمون يوم بدر. وعن مقاتل : كانوا اثنى عشر رجلا من أهل الشرك يصدّون الناس عن الإسلام ويأمرونهم بالكفر. وقيل : هم أهل الكتاب الذين كفروا وصدّوا من أراد منهم ومن غيرهم أن يدخل في الإسلام. وقيل : هو عامّ في كل من كفر وصدّ أَضَلَّ أَعْمالَهُمْ أبطلها وأحبطها. وحقيقته : جعلها ضالة ضائعة ليس لها من يتقبلها ويثيب عليها ،

(1). أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبى بن كعب رضى اللّه عنه.

كالضالة من الإبل «1» التي هي بمضيعة لا ربّ لها يحفظها ويعتنى بأمرها. أو جعلها ضالة في كفرهم ومعاصيهم ومغلوبة بها ، كما يضل الماء في اللبن. وأعمالهم : ما عملوه في كفرهم بما كانوا يسمونه مكارم : من صلة الأرحام وفك الأسارى وقرى الأضياف وحفظ الجوار.

وقيل : أبطل ما عملوه من الكيد لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم والصدّ عن سبيل اللّه : بأن نصره عليهم وأظهر دينه على الدين كله وَالَّذِينَ آمَنُوا قال مقاتل : هم ناس من قريش. وقيل : من الأنصار. وقيل : هم مؤمنو أهل الكتاب. وقيل : هو عام. وقوله وَآمَنُوا بِما نُزِّلَ عَلى مُحَمَّدٍ اختصاص للإيمان بالمنزل على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من بين ما يجب به الإيمان تعظيما لشأنه وتعليما ، لأنه لا يصح الإيمان ولا يتم إلا به. وأكد ذلك بالجملة الاعتراضية التي هي قوله وَهُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وقيل : معناها إنّ دين محمد هو الحق ، إذ لا يرد عليه النسخ ، وهو ناسخ لغيره. وقرئ : نزل وأنزل ، على البناء للمفعول. ونزّل على البناء للفاعل ، ونزل بالتخفيف كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ ستر بإيمانهم وعملهم الصالح ما كان منهم من الكفر والمعاصي لرجوعهم عنها وتوبتهم وَأَصْلَحَ بالَهُمْ أى حالهم وشأنهم بالتوفيق في أمور الدين ، وبالتسليط على الدنيا بما أعطاهم من النصرة والتأييد.

[سورة محمد (47) : آية 3]

ذلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْباطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثالَهُمْ (3)

ذلِكَ مبتدأ وما بعده خبره ، أى : ذلك الأمر وهو إضلال أعمال أحد الفريقين وتكفير سيئات الثاني : كائن بسبب اتباع هؤلاء الباطل وهؤلاء الحق. ويجوز أن يكون ذلك خبر مبتدإ محذوف ، أى. الأمر كما ذكر بهذا السبب ، فيكون محل الجار والمجرور منصوبا على هذا ، ومرفوعا على الأوّل والْباطِلَ ما لا ينتفع به. وعن مجاهد : الباطل الشيطان : وهذا الكلام يسميه علماء البيان التفسير كَذلِكَ مثل ذلك الضرب يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثالَهُمْ والضمير راجع إلى الناس ، أو إلى المذكورين من الفريقين ، على معنى : أنه يضرب أمثالهم لأجل الناس ليعتبروا بهم.

(1). قال محمود : «معناه جعلها كالضالة من الإبل ... الخ» قال أحمد : هذا المعنى الثاني حسن متمكن مليء بمقابلة قوله وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ ثم قال كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بالَهُمْ وتحرير المقابلة بينهما أن الكفار ضلت أعمالهم الصالحة في جملة أعمالهم السيئة من الكفر والمعاصي ، حتى صار صالحهم مستهلكا في غمار سيئهم ، ومقابله في المؤمنين ستر اللّه لأعمالهم السيئة في كنف أعمالهم الصالحة من الايمان والطاعة ، حتى صار سيئهم مكفرا ممحقا في جنب صالح أعمالهم ، وإلى هذا التمثيل الحسن في

فإن قلت : أين ضرب الأمثال؟ قلت : في أن جعل اتباع الباطل مثلا لعمل الكفار ، واتباع الحق مثلا لعمل المؤمنين. أو في أن جعل الإضلال مثلا لخيبة الكفار ، وتكفير السيئات مثلا لفوز المؤمنين.

[سورة محمد (47) : الآيات 4 إلى 6]

فَإِذا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقابِ حَتَّى إِذا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِداءً حَتَّى تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزارَها ذلِكَ وَلَوْ يَشاءُ اللَّهُ لانْتَصَرَ مِنْهُمْ وَلكِنْ لِيَبْلُوَا بَعْضَكُمْ بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَنْ يُضِلَّ أَعْمالَهُمْ (4) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بالَهُمْ (5) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَها لَهُمْ (6)

لَقِيتُمُ من اللقاء وهو الحرب فَضَرْبَ الرِّقابِ أصله : فاضربوا الرقاب ضربا ، فحذف الفعل وقدّم المصدر فأنيب منابه مضافا إلى المفعول. وفيه اختصار مع إعطاء معنى التوكيد ، لأنك تذكر المصدر وتدل على الفعل بالنصبة التي فيه. وضرب الرقاب عبارة عن القتل ، لأنّ الواجب أن تضرب الرقاب خاصة دون غيرها من الأعضاء ، وذلك أنهم كانوا يقولون : ضرب الأمير رقبة فلان ، وضرب عنقه وعلاوته ، وضرب ما فيه عيناه «1» إذا قتله ، وذلك أن قتل الإنسان أكثر ما يكون بضرب رقبته ، فوقع عبارة عن القتل ، وإن ضرب بغير رقبته من المقاتل كما ذكرنا في قوله فَبِما كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ على أن في هذه العبارة من الغلظة والشدّة ما ليس في لفظ القتل ، لما فيه «2» من تصوير القتل بأشنع صورة وهو حز العنق وإطارة العضو الذي هو رأس البدن وعلوه وأوجه أعضائه. ولقد زاد في هذه الغلظة في قوله تعالى فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ. أَثْخَنْتُمُوهُمْ أكثرتم قتلهم وأغلظتموه ، من الشيء الثخين : وهو الغليظ. أو أثقلتموهم بالقتل والجراح حتى أذهبتم عنهم النهوض فَشُدُّوا الْوَثاقَ فأسروهم.

والوثاق بالفتح والكسر : - اسم ما يوثق به مَنًّا وفِداءً منصوبان بفعليهما مضمرين ، أى : فإمّا تمنون منا ، وإما تفدون فداء. والمعنى : التخيير بعد الأسر بين أن يمنوا عليهم فيطلقوهم ، وبين أن يفادوهم. فإن قلت : كيف حكم أسارى المشركين؟ قلت : أمّا عند أبى حنيفة وأصحابه فأحد أمرين : إمّا قتلهم وإمّا استرقاقهم : أيهما رأى الإمام، ويقولون في المنّ والفداء المذكورين في الآية : نزل ذلك في يوم بدر ثم نسخ. وعن مجاهد : ليس اليوم منّ ولا فداء ، وإنما هو الإسلام أو ضرب العنق. ويجوز أن يراد بالمنّ : أن يمنّ عليهم بترك القتل ويسترقوا.

(1). قوله «و ضرب ما فيه عيناه» لعله كناية عن رأسه أو عن وجهه. (ع)
(2). قوله «لما فيه من تصوير القتل» لعله لما فيها. (ع)

أو يمنّ عليهم فيخلوا لقبولهم الجزية ، وكونهم من أهل الذمّة. وبالفداء أن يفادى بأساراهم أسارى المشركين ، فقد رواه الطحاوي مذهبا عن أبى حنيفة ، والمشهور أنه لا يرى فداءهم لا بمال ولا بغيره ، خيفة أن يعودوا حربا للمسلمين ، وأما الشافعي فيقول : للإمام أن يختار أحد أربعة على حسب ما اقتضاه نظره للمسلمين ، وهو: القتل ، والاسترقاق «1» ، والفداء بأسارى المسلمين ، والمن. ويحتج بأن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم منّ على أبى عروة الحجبي «2» ، وعلى ثمامة بن أثال الحنفي ، «3» وفادى رجل برجلين من المشركين «4» : وهذا كله منسوخ عند أصحاب الرأى. وقرئ : فدى ، بالقصر مع فتح الفاء. أوزار الحرب : آلاتها وأثقالها التي لا تقوم إلا بها كالسلاح والكراع. قال الأعشى :

وأعددت للحرب أوزارها رماحا طوالا وخيلا ذكورا «5»

وسميت أوزارها لأنه لما لم يكن لها بد من جرّها فكأنها تحملها وتستقل بها ، فإذا انقضت فكأنها وضعتها. وقيل. أوزارها آثامها ، يعنى : حتى يترك أهل الحرب. هم المشركون شركهم ومعاصيهم بأن يسلموا. فإن قلت: حَتَّى بم تعلقت؟ قلت : لا تخلو إما أن تتعلق بالضرب والشد : أو بالمن والفداء ، فالمعنى على كلا المتعلقين عند الشافعي رضى اللّه عنه : أنهم لا يزالون على ذلك أبدا إلى أن لا يكون حرب مع المشركين. وذلك إذا لم يبق لهم شوكة. وقيل : إذا نزل عيسى ابن مريم عليه السلام. وعند أبى حنيفة رحمه اللّه : إذا علق بالضرب والشد ، فالمعنى : أنهم يقتلون ويؤسرون حتى تضع جنس الحرب الأوزار ، وذلك حين لا تبقى شوكة للمشركين. وإذا علق بالمن والفداء ، فالمعنى : أنه يمن عليهم ويفادون حتى تضع حرب بدر أوزارها إلا أن يتأول المن والفداء بما ذكرنا من التأويل ذلِكَ أى الأمر ذلك ،

(1). قوله «و هو القتل والاسترقاق» لعله : وهي ... (ع)
(2). هو مذكور في المغازي لابن إسحاق وغيره «أنه أسر يوم بدر. فمن عليه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بغير فداء ثم أسره يوم أحد فقتله صبرا» ورواه الواقدي عن ابن أخى الزهري عن عمه عن سعيد بن المسيب.
(3). قوله «على ثمامة بن أثال الحنفي» هو في حديث أبى هريرة عند الشيخين مطولا
(4). قوله «و فادى رجلا برجلين من المشركين» : هذا طرف من حديث أخرجه مسلم والترمذي وغيرهما من حديث عمران ، ولكن فيه «أن أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أسروا رجلا من بنى عقيل ، وكانت ثقيف أسرت رجلين من أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. ففداه النبي صلى اللّه عليه وسلم بالرجلين اللذين أسرتهما ثقيف» وروى البيهقي في المعرفة عن الشافعي من هذا الوجه مثل لفظ الكتاب. ثم قال : أظنه من الكاتب ، والصحيح الأول.
(5). للأعشى ، واستعار الأوزار لآلات الحرب على طريق التصريحية ، ويحتمل أنه شبيه الحرب بمطايا ذات أوزار ، أى : أحمال ثقال على طريق المكنية ، وإثبات الأوزار تخييل ، ورماحا : بدل.

أو افعلوا ذلك لَانْتَصَرَ مِنْهُمْ لانتقم منهم ببعض أسباب الهلك : من خسف ، أو رجفة ، أو حاصب ، أو غرق. أو موت جارف ، وَلكِنْ أمركم بالقتال ليبلو المؤمنين بالكافرين : أن يجاهدوا ويصبروا حتى يستوجبوا الثواب العظيم ، والكافرين بالمؤمنين بأن يعاجلهم على أيديهم ببعض ما وجب لهم من العذاب. وقرئ : قتلوا ، بالتخفيف والتشديد : وقتلوا. وقاتلوا. وقرئ : فلن يضل أعمالهم ، وتضل أعمالهم : على البناء للمفعول. ويضل أعمالهم من ضل. وعن قتادة : أنها نزلت في يوم أحد عَرَّفَها لَهُمْ أعلمها لهم وبينها بما يعلم به كل أحد منزلته ودرجته من الجنة. قال مجاهد : يهتدى أهل الجنة إلى مساكنهم منها لا يخطئون ، كأنهم كانوا سكانها منذ خلقوا لا يستدلون عليها. وعن مقاتل : إن الملك الذي وكل بحفظ عمله في الدنيا يمشى بين يديه فيعرفه كل شيء أعطاه اللّه. أو طيبها لهم ، من العرف : وهو طيب الرائحة. وفي كلام بعضهم : عزف كنوح القمارى «1» ، وعرف كفوح القمارى. أو حددها لهم ، فجنة كل أحد محدودة مفرزة عن غيرها ، من : عرف الدار وارفها. والعرف والارف ، الحدود.

[سورة محمد (47) : آية 7]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ (7)

إِنْ تَنْصُرُوا دين اللَّهَ ورسوله يَنْصُرْكُمْ على عدوكم ويفتح لكم وَيُثَبِّتْ أَقْدامَكُمْ في مواطن الحرب أو على محجة الإسلام.

[سورة محمد (47) : الآيات 8 إلى 9]

وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ (8) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا ما أَنْزَلَ اللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ (9)

وَالَّذِينَ كَفَرُوا يحتمل الرفع على الابتداء والنصب بما يفسره فَتَعْساً لَهُمْ كأنه قال : أتعس الذين كفروا. فإن قلت : علام عطف قوله وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ؟ قلت : على الفعل الذي نصب تعسا ، لأنّ المعنى فقال : تعسا لهم ، أو فقضى تعسا لهم. وتعسا له : نقيض «لعاله» قال الأعشى : فالتّعس أولى لها من أن أقول لعا «2»

(1). قوله «عزف كنوح القمارى» العزف : الغناء. والقمارى : جمع قمرى ، اسم طير. والعود القمارى : منسوب إلى موضع ببلاد الهند. أفاده الصحاح. (ع)
(2) وبلدة يرهب الجواب دلجتها حتى تراه عليها يبتغى الشيما
كلفت مجهولها نفسي وشايعنى همى عليها إذا ما آلها لمعا
بذات لوث عفرناة إذا عثرت فالتعس أولى لها من أن يقال لعا
للأعشى ، أى : ورب مفازة يخاف الجواب : أى كثير السير ، من جبت الأرض : قطعتها بالسير. والدلجة من دلج وأدلج ، وزن افتعل. وأدلج وزن أكرم : إذا سار ليلا. والدلجة : ساعة من الليل ، أى : يخاف المعتاد على السير من سيرها ليلا ، حتى يطلب الجماعات المساعدين له على سيرها ، كلفت نفسي سير المجهول منها ، وعاونني عزمي على سيرها وقت لمعان آلها وهو السراب الذي يرى عند شدة الحر ، كأنه ماء ، مع أن سير الهاجرة أشد من سير الليل ، ثم قال : مع ناقة صاحبة قوة. ويطلق اللوث على الضعف أيضا ، فهو من الأضداد. عفرناة : غليظة.
ويقال للعاثر : لعا لك : دعاء له بالانتعاش. وتعسا له : دعاء عليه بالسقوط ، يريد أنها لا تعثر ، ولو عثرت فالدعاء عليها أحق بها من الدعاء لها.

يريد : فالعثور والانحطاط أقرب لها من الانتعاش والثبوت. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : يريد في الدنيا القتل ، وفي الآخرة التردي في النار كَرِهُوا القرآن وما أنزل اللّه فيه من التكاليف والأحكام ، لأنهم قد ألفوا الإهمال وإطلاق العنان في الشهوات والملاذ فشق عليهم ذلك وتعاظمهم.

[سورة محمد (47) : آية 10]

أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كانَ عاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكافِرِينَ أَمْثالُها (10)

دمره : أهلكه ، ودمر عليه : أهلك عليه ما يختص به. والمعنى : دمر اللّه عليهم ما اختص بهم من أنفسهم وأموالهم وأولادهم وكل ما كان لهم وَلِلْكافِرِينَ أَمْثالُها الضمير للعاقبة المذكورة أو للهلكة ، لأن التدمير يدل عليها. أو للسنة ، لقوله عزّ وعلا سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا.

[سورة محمد (47) : آية 11]

ذلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكافِرِينَ لا مَوْلى لَهُمْ (11)

مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وليهم وناصرهم. وفي قراءة ابن مسعود : ولى الذين آمنوا. ويروى أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كان في الشعب يوم أحد وقد فشت فيهم الجراحات ، وفيه نزلت ، فنادى المشركون : اعل هبل : فنادى المسلمون : اللّه أعلى وأجل ، فنادى المشركون : يوم بيوم والحرب سجال ، إن لنا عزى ولا عزى لكم فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «قولوا اللّه مولانا ولا مولى لكم ، إن القتلى مختلفة أما قتلانا فأحياء يرزقون وأما قتلاكم ففي النار يعذبون «1». فإن قلت : قوله تعالى وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ مناقض لهذه الآية. قلت : لا تناقض بينهما ، لأن اللّه مولى عباده جميعا على معنى أنه ربهم ومالك أمرهم وأما على معنى الناصر فهو مول المؤمنين خاصة.

(1). أخرجه الطبري من رواية سعيد عن قتادة قال «ذكر لنا أن هذه الآية. يعنى بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا نزلت يوم أحد ، ورسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في الشعب وقد فشت فيهم الجراحات. الخ» سواء. وله شاهد في البخاري من حديث البراء بن عازب.

[سورة محمد (47) : آية 12]

إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ (12)

يَتَمَتَّعُونَ ينتفعون بمتاع الحياة الدنيا أياما قلائل وَيَأْكُلُونَ غافلين غير مفكرين في العاقبة كَما تَأْكُلُ الْأَنْعامُ في مسارحها ومعالفها ، غافلة عما هي بصدده من النحر والذبح مَثْوىً لَهُمْ منزل ومقام.

[سورة محمد (47) : آية 13]
وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِنْ قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْناهُمْ فَلا ناصِرَ لَهُمْ (13)

وقرئ : وكائن ، بوزن كاعن «1». وأراد بالقرية أهلها ، ولذلك قال أَهْلَكْناهُمْ كأنه قال : وكم من قوم هم أشد قوّة من قومك الذين أخرجوك أهلكناهم. ومعنى أخرجوك : كانوا سبب خروجك. فإن قلت : كيف قال فَلا ناصِرَ لَهُمْ؟ وإنما هو أمر قد مضى. قلت : مجراه مجرى الحال المحكية ، كأنه قال أهلكناهم فهم لا ينصرون.

[سورة محمد (47) : آية 14]

أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ (14)

من زين له : هم أهل مكة الذين زين لهم الشيطان شركهم وعداوتهم للّه ورسوله ، ومن كان على بينة من ربه أى على حجة من عنده وبرهان : وهو القرآن المعجز وسائر المعجزات هو رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. وقرئ : أمن كان على بينة من ربه. وقال تعالى سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا للحمل على لفظ مِنْ ومعناه.

[سورة محمد (47) : آية 15]

مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيها أَنْهارٌ مِنْ ماءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهارٌ مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهارٌ مِنْ خَمْرٍ لَذَّةٍ لِلشَّارِبِينَ وَأَنْهارٌ مِنْ عَسَلٍ مُصَفًّى وَلَهُمْ فِيها مِنْ كُلِّ الثَّمَراتِ وَمَغْفِرَةٌ مِنْ رَبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا ماءً حَمِيماً فَقَطَّعَ أَمْعاءَهُمْ (15)

(1). قوله «و كائن بوزن كاعن» في الصحاح «كائن» : معناها معنى كم في الخبر والاستفهام ، وفيها لغتان : كأين. مثال كعين وكائن : مثال كاعن اه. (ع)

فإن قلت : ما معنى قوله تعالى مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيها أَنْهارٌ كمن هو خالد في النار؟ قلت : هو كلام في صورة الإثبات ومعنى النفي والإنكار «1» ، لانطوائه تحت حكم كلام مصدّر بحرف الإنكار ، ودخوله في حيزه ، وانخراطه في سلكه ، وهو قوله تعالى أَفَمَنْ كانَ عَلى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّهِ كَمَنْ زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ فكأنه قيل : أمثل الجنة كمن هو خالد في النار ، أى كمثل جزاء من هو خالد في النار. فإن قلت : فلم عرّى في حرف الإنكار؟ وما فائدة التعرية؟ قلت : تعريته من حرف الإنكار فيها زيادة تصوير لمكابرة من يسوّى بين المتمسك بالبينة والتابع لهواه ، وأنه بمنزلة من يثبت التسوية بين الجنة التي تجرى فيها تلك الأنهار ، وبين النار التي يسقى أهلها الحميم. ونظيره قول القائل : أفرح أن أرزأ الكرام وأن أورث ذودا شصائصا نبلا «2»

هو كلام منكر للفرح برزية الكرام ووراثة الذود ، مع تعريه عن حرف الإنكار لانطوائه تحت حكم قول من قال: أتفرح بموت أخيك وبوراثة إبله ، والذي طرح لأجله حرف الإنكار إرادة أن يصوّر قبح ما أزن به «3» فكأنه قال له : نعم مثلي يفرح بمرزاة الكرام وبأن يستبدل منهم ذودا يقل طائله «4» ، وهو من التسليم الذي تحته كل إنكار ، ومثل الجنة : صفة الجنة العجيبة الشأن ، وهو مبتدأ ، وخبره : كمن هو خالد. وقوله : فيها أنهار ، داخل في حكم الصلة كالتكرير لها. ألا ترى إلى صحة قولك : التي فيها أنهار. ويجوز أن يكون خبر مبتدأ محذوف هي فيها «5» أنهار ،

(1). قال محمود : «هو كلام في صورة الإثبات ومعناه النفي ... الخ» قال أحمد : كم ذكر الناس في تأويل هذه الآية ، فلم أر أطلى ولا أحلى من هذه النكت التي ذكرها ، لا يعوزها إلا للتنبيه على أن في الكلام محذوفا لا بد من تقديره لأنه لا معادلة بين الجنة وبين الخالدين في النار إلا على تقدير مثل ساكن فيه يقوم وزن الكلام ويتعادل كفتاه. ومن هذا النمط قوله تعالى أَجَعَلْتُمْ سِقايَةَ الْحاجِّ وَعِمارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فانه لا بد من تقدير محذوف مع الأول أو الثاني ، ليتعادل القسمان ، وبهذا الذي قدرته في الآية ينطبق آخر الكلام على أوله ، فيكون المقصود تنظير بعد التسوية بين المتمسك بالسيئة والراكب للهوى ببعد التسوية بين المنعم في الجنة والمعذب في النار على الصفات المتقابلة المذكورة في الجهتين. وهو من وادى تنظير الشيء بنفسه ، باعتبار حالتين إحداهما أوضح في البيان من الأخرى ، فان المتمسك بالسنة هو المنعم في الجنة الموصوفة. والمتبع للهوى : هو المعذب في النار المنعوتة ، ولكن أنكر التسوية بينهما باعتبار الأعمال أولا ، وأوضح ذلك بإنكار التسوية بينهما باعتبار الأعمال أولا، وأوضح ذلك بإنكار التسوية بينهما باعتبار الجزاء ثانيا.
(2). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثالث صفحة 264 فراجعه إن شئت اه مصححه.
(3). قوله «ما أزن» أى اتهم. أفاده الصحاح. (ع) [.....]
(4). قوله «بقل طائله» لأن الشصائص قليلات اللبن. والنبل : الكبار من الإبل ، والصغار منها أيضا ، فهو من الأضداد. أفاده الصحاح. (ع)
(5). قوله «هي فيها» لعله : أى هي فيها. (ع)

وكأن قائلا قال : وما مثلها؟ فقيل : فيها أنهار ، وأن يكون في موضع الحال ، أى : مستقرّة فيها أنهار ، وفي قراءة على رضى اللّه عنه : أمثال الجنة ، أى : ما صفاتها كصفات النار. وقرئ : أسن. يقال : أسن الماء وأجن: إذا تغير طعمه وريحه. وأنشد ليزيد بن معاوية : لقد سقتني رضابا غير ذى أسن كالمسك فتّ على ماء العناقيد «1»
مِنْ لَبَنٍ لَمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ كما تتغير ألبان الدنيا ، فلا يعود قارصا ولا حاذرا «2» ، ولا ما يكره من الطعوم لَذَّةٍ تأنيث لذّ ، وهو اللذيذ ، أو وصف بمصدر. وقرئ بالحركات الثلاث ، فالجر على صفه الخمر ، والرفع علىصفة الأنهار ، والنصب على العلة ، أى : لأجل لذة الشاربين.

والمعنى : ما هو إلا التلذذ الخالص ، ليس معه ذهاب عقل ولا خمار ولا صداع ، ولا آفة من آفات الخمر مُصَفًّى لم يخرج من بطون النحل فيخالطه الشمع وغيره ماءً حَمِيماً قيل إذا دنا منهم شوى وجوههم ، وانمازت فروة رءوسهم ، فإذا شربوه قطع أمعاءهم.

[سورة محمد (47) : آية 16]

وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّى إِذا خَرَجُوا مِنْ عِنْدِكَ قالُوا لِلَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ ما ذا قالَ آنِفاً أُولئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلى قُلُوبِهِمْ وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ (16)

هم المنافقون : كانوا يحضرون مجلس رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فيسمعون كلامه ولا يعونه ولا يلقون له إلا تهاونا منهم ، فإذا خرجوا قالوا لأولى العلم من الصحابة ، ما ذا قال الساعة؟

على جهة الاستهزاء. وقيل : كان يخطب فإذا عاب المنافقين خرجوا فقالوا ذلك للعلماء. وقيل : قالوه لعبد اللّه بن مسعود. وعن ابن عباس : أنا منهم ، وقد سميت فيمن سئل آنِفاً وقرئ : أنفا على فعل ، نصب على الظرف«3» قال الزجاج : هو من استأنفت الشيء : إذا ابتدأته.

والمعنى : ما ذا قال في أوّل وقت يقرب منا.

[سورة محمد (47) : آية 17]

وَالَّذِينَ اهْتَدَوْا زادَهُمْ هُدىً وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ (17)

زادَهُمْ اللّه هُدىً بالتوفيق وَآتاهُمْ تَقْواهُمْ أعانهم عليها. أو أتاهم جزاء تقواهم.

---

(1). ليزيد بن معاوية. وترضب الرجل ريق المرأة : إذا ترشفه. وأسن أسنا كتعب تعبا : تغير طعمه أو ريحه أو لونه. لطول مدته. يقول : سقتني ريقها الذي لم يتغير. وماء العناقيد : كناية عن الخمر ، واستعاره لريقها على التصريحية ، وناولتني المسك حال كونه تفتت على ريقها الشبيه بالخمر ، أى : كأنه كذلك لطيبه. ويروى : كالمسك وهي الظاهرة ، والتشبيه من قبيل تشبيه المفرد بالمركب ، لأنه لا يريد تشبيه الرضاب بالمسك فقط.

(2). قوله «و لا حاذرا ولا ما يكره» لعله محذوف ، وأصله : حازر بالزاي ، وفي الصحاح : الحاذر : اللبن الحامض

(3). قوله «و قرئ أنفا على فعل نصب على الظرف» لعله : بالضم. (ع)

وعن السدى : بين لهم ما يتقون. وقرئ : وأعطاهم. وقيل : الضمير في زادهم ، لقول الرسول أو لاستهزاء المنافقين.

[سورة محمد (47) : آية 18]

فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها فَأَنَّى لَهُمْ إِذا جاءَتْهُمْ ذِكْراهُمْ (18)

أَنْ تَأْتِيَهُمْ بدل اشتمال من الساعة ، نحو : أن تطؤهم من قوله رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِساءٌ مُؤْمِناتٌ وقرئ : أن تأتهم ، بالوقف على الساعة واستئناف الشرط ، وهي في مصاحف أهل مكة كذلك : فإن قلت : فما جزاء الشرط؟ قلت : قوله فأنى لهم. ومعناه : إن تأتهم الساعة فكيف لهم ذكراهم ، أى تذكرهم واتعاظهم إذا جاءتهم الساعة ، يعنى لا تنفعهم الذكرى حينئذ ، كقوله تعالى يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرى . فإن قلت : بم يتصل قوله فَقَدْ جاءَ أَشْراطُها على القراءتين؟ قلت : بإتيان الساعة اتصال العلة بالمعلول ، كقولك : إن أكرمنى زيد فأنا حقيق بالإكرام أكرمه. والأشراط : العلامات. قال أبو الأسود :

فإن كنت قد أزمعت بالصّرم بيننا فقد جعلت أشراط أوّله تبدو «1»

وقيل : مبعث محمد خاتم الأنبياء صلى اللّه عليه وسلم وعليهم منها ، وانشقاق القمر ، والدخان.

وعن الكلبي : كثرة المال والتجارة ، وشهادة الزور ، وقطع الأرحام ، وقلة الكرام ، وكثرة اللئام. وقرئ : بغتة بوزن جربة «2» ، وهي غريبة لم ترد في المصادر أختها ، وهي مروية عن أبى عمرو ، وما أخوفنى أن تكون غلطة من الراوي على أبى عمرو ، وأن يكون الصواب :

بغتة ، بفتح الغين من غير تشديد ، كقراءة الحسن فيما تقدم.

[سورة محمد (47) : آية 19]

فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْواكُمْ (19)

لما ذكر حال المؤمنين وحال الكافرين قال : إذا علمت أن الأمر كما ذكر من سعادة هؤلاء وشقاوة هؤلاء ، فاثبت على ما أنت عليه من العلم بوحدانية اللّه ، وعلى التواضع وهضم النفس :

(1). لأبى الأسود. يقول : إن كنت جزمت بقطع المودة بيننا فلا تكتميه ، لأن علامات ابتدائه شرعت في الظهور.
(2). قوله «بغتة بوزن جربة وهي غريبة» في القاموس «الجربة» محركة مشددة : جماعة الحمراء. وفي الصحاح «الجربة» بالفتح: بغتة ، وتشديد الباء : العانة من الحمير. رفيه أيضا «العانة» القطيع من حمر الوحش. (ع)

باستغفار ذنبك وذنوب من على دينك. واللّه يعلم أحوالكم ومتصرفاتكم ومتقلبكم في معايشكم ومتاجركم ، ويعلم حيث تستقرون في منازلكم أو متقلبكم في حياتكم ومثواكم في القبور. أو متقلبكم في أعمالكم ومثواكم من الجنة والنار. ومثله حقيق بأن يخشى ويتقى ، وأن يستغفر ويسترحم. وعن سفيان بن عيينة : أنه سئل عن فضل العلم فقال : ألم تسمع قوله حين بدأ به فقال فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلهَ إِلَّا اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ فأمر بالعمل بعد العلم وقال : اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ إلى قوله سابِقُوا إِلى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وقال : وَاعْلَمُوا أَنَّما أَمْوالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ

ثم قال بعد فَاحْذَرُوهُمْ وقال : وَاعْلَمُوا أَنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ ثم أمر بالعمل بعد.

[سورة محمد (47) : الآيات 20 إلى 21]

وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلى لَهُمْ (20) طاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ (21)

كانوا يدعون الحرص على الجهاد ويتمنونه بألسنتهم ويقولون لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ في معنى الجهاد فَإِذا أُنْزِلَتْ وأمروا فيها بما تمنوا وحرصوا عليه كاعوا «1» وشق عليهم ، وسقطوا في أيديهم ، كقوله تعالى فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتالُ إِذا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَوْنَ النَّاسَ. مُحْكَمَةٌ مبينة غير متشابهة لا تحتمل وجها إلا وجوب القتال. وعن قتادة : كل سورة فيها ذكر القتال فهي محكمة ، وهي أشدّ القرآن على المنافقين. وقيل لها «محكمة» لأنّ النسخ لا يرد عليها من قبل أنّ القتال قد نسخ ما كان من الصفح والمهادنة ، وهو غير منسوخ إلى يوم القيامة. وقيل : هي المحدثة ، لأنها حين يحدث نزولها لا يتناولها النسخ ، ثم تنسخ بعد ذلك أو تبقى غير منسوخة.

وفي قراءة عبد اللّه : سورة محدثة. وقرئ : فإذا نزلت سورة وذكر فيها القتال. على البناء للفاعل ونصب القتال الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ هم الذين كانوا على حرف غير ثابتى الأقدام نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ أى تشخص أبصارهم جبنا وهلعا وغيظا ، كما ينظر من أصابته الغشية عند الموت فَأَوْلى لَهُمْ وعيد بمعنى : فويل لهم ، وهو أفعل : من الولي وهو القرب. ومعناه الدعاء عليهم بأن يليهم المكروه طاعَةٌ وَقَوْلٌ مَعْرُوفٌ كلام مستأنف ، أى : طاعة وقول معروف خير لهم. وقيل : هي حكاية قولهم ، أى قالوا طاعة وقول معروف ،

(1). قوله «كاعوا» في الصحاح : كاع الكلب يكوع ، أى : مشى على كوعه في الرمل من شدة الحر. (ع)

بمعنى : أمرنا طاعة وقول معروف. وتشهد له قراءة أبىّ : يقولون طاعة وقول معروف فَإِذا عَزَمَ الْأَمْرُ أى جدّ. والعزم والجد لأصحاب الأمر. وإنما يسندان إلى الأمر إسنادا مجازيا. ومنه قوله تعالى إِنَّ ذلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ. فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ فيما زعموا من الحرص على الجهاد. أو : فلو صدقوا في إيمانهم وواطأت قلوبهم فيه ألسنتهم.

[سورة محمد (47) : الآيات 22 إلى 23]

فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِنْ تَوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ (22) أُولئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمى أَبْصارَهُمْ (23)

عسيت وعسيتم : لغة أهل الحجاز. وأما بنو تميم فيقولون : عسى أن تفعل ، وعسى أن تفعلوا ، ولا يلحقون الضمائر : وقرأ نافع بكسر السين وهو غريب ، وقد نقل الكلام من الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات ، ليكون أبلغ في التوكيد. فإن قلت : ما معنى : فهل عسيتم ... أن تفسدوا في الأرض؟ قلت : معناه : هل يتوقع منكم الإفساد؟ فإن قلت : فكيف يصح هذا في كلام اللّه عز وعلا وهو عالم بما كان وما يكون؟ قلت : معناه إنكم - لما عهد منكم - أحقاء بأن يقول لكم كل من ذاقكم وعرف تمريضكم ورخاوة عقدكم في الإيمان : يا هؤلاء ، ما ترون؟ هل يتوقع منكم إن توليتم أمور الناس وتأمرتم عليهم لما تبين منكم من الشواهد ولاح من المخايل أَنْ تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحامَكُمْ تناحرا على الملك وتهالكا على الدنيا؟ وقيل : إن أعرضتم وتوليتم عن دين رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وسنته أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه في الجاهلية من الإفساد في الأرض : بالتغاور والتناهب ، وقطع الأرحام : بمقاتلة بعض الأقارب بعضا ووأد البنات؟ وقرئ : وليتم «1». وفي قراءة على بن أبى طالب رضى اللّه عنه : توليتم ، أى : إن تولاكم ولاة غشمة خرجتم معهم ومشيتم تحت لوائهم وأفسدتم بإفسادهم؟ وقرئ : وتقطعوا ، وتقطعوا ، من التقطيع والتقطع أُولئِكَ إشارة إلى المذكورين لَعَنَهُمُ اللَّهُ لإفسادهم وقطعهم الأرحام ، فمنعهم ألطافه وخذلهم ، حتى صموا عن استماع الموعظة ، وعموا عن إبصار طريق الهدى. ويجوز أن يريد بالذين آمنوا : المؤمنين الخلص الثابتين ، وأنهم يتشوفون إلى الوحى إذا أبطأ عليهم ، فإذا أنزلت سورة في معنى الجهاد : رأيت المنافقين فيما بينهم يضجرون منها.

[سورة محمد (47) : آية 24]

أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها (24)

(1). قوله «و قرئ وليتم» لعله بالبناء للمجهول ، وكذا توليتم في قراءة على. (ع)

أَفَلا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ويتصفحونه وما فيه من المواعظ والزواجر ووعيد العصاة ، حتى لا يجسروا على المعاصي ، ثم قال أَمْ عَلى قُلُوبٍ أَقْفالُها وأم بمعنى بل وهمزة التقرير ، للتسجيل عليهم بأن قلوبهم مقفلة لا يتوصل إليها ذكر. وعن قتادة : إذا واللّه يجدوا في القرآن زاجرا عن معصية اللّه لو تدبروه ، ولكنهم أخذوا بالمتشابه فهلكوا. فإن قلت : لم نكرت القلوب وأضيفت الأقفال إليها؟ قلت : أما التنكير ففيه وجهان : أن يراد على قلوب قاسية مبهم أمرها في ذلك.

أو يراد على بعض القلوب : وهي قلوب المنافقين. وأما إضافة الأقفال ، فلأنه يريد الأقفال المختصة بها ، وهي أقفال الكفر التي استغلقت فلا تنفتح. وقرئ : إقفالها ، على المصدر.

[سورة محمد (47) : الآيات 25 إلى 28]

إِنَّ الَّذِينَ ارْتَدُّوا عَلى أَدْبارِهِمْ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدَى الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلى لَهُمْ (25) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ قالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا ما نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ (26) فَكَيْفَ إِذا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبارَهُمْ (27) ذلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا ما أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ (28)

الشَّيْطانُ سَوَّلَ لَهُمْ جملة من مبتدإ وخبر وقعت خبرا لإنّ ، كقولك : إنّ زيدا عمرو مرّ به. سوّل لهم : سهل لهم ركوب العظائم ، من السول وهو الاسترخاء ، وقد اشتقه من السؤل من لا علم له بالتصريف والاشتقاق جميعا «1» وَأَمْلى لَهُمْ ومدّ لهم في الآمال والأمانى. وقرئ وأملى لهم ، يعنى : إنّ الشيطان يغويهم وأنا أنظرهم ، كقوله تعالى أَنَّما نُمْلِي لَهُمْ وقرئ : وأملى لهم على البناء للمفعول ، أى : أمهلوا ومدّ في عمرهم. وقرئ : سوّل لهم «2» ، ومعناه : كيد الشيطان زين لهم على تقدير حذف المضاف. فإن قلت : من هؤلاء؟ قلت : اليهود كفروا بمحمد صلى اللّه عليه وسلم من بعد ما تبين لهم الهدى ، وهو نعته في التوراة. وقيل : هم المنافقون.
الذين قالوا القائلون : اليهود. والذين كرهوا ما نزل اللّه : المنافقون. وقيل عكسه ، وأنه قول المنافقين لقريظة والنضير : لئن أخرجتم لنخرجنّ معكم. وقيل بَعْضِ الْأَمْرِ : التكذيب برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، أو بلا إله إلا اللّه ، أو ترك القتال معه. وقيل : هو قول أحد الفريقين للمشركين :

(1). قال محمود : «هو مشتق من السول وهو الاسترخاء ، أى : سهل لهم ركوب العظائم. قال : وقد أشقه من السؤل من لا علم له بالتصريف والاشتقاق جميعا ، قلت : لأن السؤل مهموز ، وسول معتل.
(2). قوله «و قرئ سول لهم» لعله بالبناء للمجهول. (ع)

سنطيعكم في التظافر على عداوة رسول الله صلى الله عليه وسلم والقعود عن الجهاد معه. ومعنى فِي بَعْضِ الْأَمْرِ في بعض ما تأمرون به. أو في بعض الأمر الذي يهمكم وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرارَهُمْ وقرئ : إسرارهم على المصدر ، قالوا ذلك سرا فيما بينهم ، فأفشاه الله عليهم. فكيف يعملون وما حيلتهم حينئذ؟ وقرئ : توفاهم ، ويحتمل أن يكون ماضيا ، ومضارعا قد حذفت إحدى تاءيه ، كقوله تعالى إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ وعن ابن عباس رضى الله عنهما : لا يتوفى أحد على معصية الله إلا يضرب من الملائكة في وجهه ودبره ذلِكَ إشارة إلى التوفي الموصوف ما أَسْخَطَ اللَّهَ من كتمان نعت رسول الله صلى الله عليه وسلم. ورِضْوانَهُ الإيمان برسول الله.

[سورة محمد (47) : الآيات 29 إلى 30]

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ أَنْ لَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغانَهُمْ (29) وَلَوْ نَشاءُ لَأَرَيْناكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيماهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمالَكُمْ (30)

أَضْغانَهُمْ أحقادهم وإخراجها : إبرازها لرسول الله صلى الله عليه وسلم وللمؤمنين ، وإظهارهم على نفاقهم وعداوتهم لهم ، وكانت صدورهم تغلى حنقا عليهم لَأَرَيْناكَهُمْ لعرفناكهم ودللناك عليهم. حتى تعرفهم بأعيانهم لا يخفون عليك بِسِيماهُمْ بعلامتهم : وهو أن يسمعهم الله تعالى بعلامة تعلمون بها. وعن أنس رضى الله عنه : ما خفى على رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد هذه الآية شيء من المنافقين : كان يعرفهم بسيماهم ، ولقد كنا في بعض الغزوات وفيها تسعة من المنافقين يشكوهم الناس ، فناموا ذات ليلة وأصبحوا وعلى جبهة كل واحد منهم مكتوب : هذا منافق «1». فإن قلت : أى فرق بين اللامين في فَلَعَرَفْتَهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ؟ قلت : الأولى هي الداخلة في جواب «لو» كالتي في لَأَرَيْناكَهُمْ كررت في المعطوف ، وأما اللام في وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فواقعة مع النون في جواب قسم محذوف فِي لَحْنِ الْقَوْلِ في نحوه وأسلوبه. وعن ابن عباس : هو قولهم : مالنا إن أطعنا من الثواب؟ ولا يقولون : ما علينا إن عصينا من العقاب. وقيل : اللحن : أن تلحن بكلامك ، أى : تميله إلى نحو من الأنحاء ليفطن له صاحبك كالتعريض والتورية. قال : ولقد لحنت لكم لكيما تفقهوا واللّحن يعرفه ذوو الألباب «2»

(1). ذكره الشعبي بغير سند ، ولم أجده.
(2). اللحن : العدول بالكلام عن الظاهر ، كالتعريض والتورية ، والمخطئ لاحن ، لعدوله عن الصواب أى : لكي تفهموا دون غيركم ، فان اللحن يعرفه أرباب الألباب دون غيرهم. والألباب : العقول اه.

وقيل للمخطئ : لاحن ، لأنه يعدل بالكلام عن الصواب.

[سورة محمد (47) : آية 31]

وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَا أَخْبارَكُمْ (31)

أَخْبارَكُمْ ما يحكى عنكم وما يخبر به عن أعمالكم ، ليعلم حسنها من قبيحها ، لأن الخبر على حسب المخبر عنه: إن حسنا فحسن ، وإن قبيحا فقبيح ، وقرأ يعقوب : ونبلو ، بسكون الواو على معنى : ونحن نبلو أخباركم. وقرئ : وليبلونكم ويعلم ، ويبلو بالياء. وعن الفضيل : أنه كان إذا قرأها بكى وقال : اللهم لا تبلنا ، فإنك إن بلوتنا فضحتنا وهتكت أستارنا وعذبتنا.

[سورة محمد (47) : آية 32]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَشَاقُّوا الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ لَهُمُ الْهُدى لَنْ يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئاً وَسَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ (32)

وَسَيُحْبِطُ أَعْمالَهُمْ التي عملوها في دينهم يرجون بها الثواب ، لأنها مع كفرهم برسول الله صلى الله عليه وسلم باطلة ، وهم قريظة والنضير. أو سيحبط أعمالهم التي عملوها ، والمكايد التي نصبوها في مشاقة الرسول ، أى: سيبطلها فلا يصلون منها إلى أغراضهم ، بل يستنصرون بها ولا يثمر لهم إلا القتل والجلاء عن أوطانهم. وقيل هم رؤساء قريش ، والمطعمون يوم بدر.

[سورة محمد (47) : آية 33]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ (33)

وَلا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ أى لا تحبطوا الطاعات بالكبائر «1» ، كقوله تعالى لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ إلى أن قال أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وعن أبى العالية :

(1). قال محمود : «معناه : لا تحبطوا الطاعات بالكبائر ... الخ» قال أحمد : قاعدة أهل السنة مؤسسة على أن الكبائر ما دون الشرك لا تحبط حسنة مكتوبة ، لأن اللّه لا يَظْلِمُ مِثْقالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضاعِفْها وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً نعم يقولون : إن الحسنات يذهبن السيئات كما وعد به الكريم جل وعلا. وقاعدة المعتزلة موضوعة على أن كبيرة واحدة تحبط ما تقدمها من الحسنات ولو كانت مثل زيد البحر ، لأنهم يقطعون بخلود الفاسق في النار ، وسلب سمة الايمان عنه ، ومتى خلد في النار لم تنفع طاعاته ولا إيمانه ، فعلى هذا بنى الزمخشري كلامه وجلب الآثار التي في بعضها موافقة في الظاهر لمعتقده ، ولا كلام عليها جملة من غير تفصيل ، لأن القاعدة المتقدمة ثابتة قطعا بأدلة اقتضت ذلك بحاشى كل معتبر في الحل والعقد عن مخالفتها ، فمهما ورد من ظاهر يخالفها وجب رده إليها بوجه من التأويل ، فان كان نصا لا يقبل التأويل فالطريق في ذلك تحسين الظن بالمنقول عنه ، والتوريك بالغلط على النقلة ، على أن الأثر المذكور عن ابن عمر هو أولى بأن يدل ظاهره لأهل السنة فتأمله ، وأما محمل الآية عند أهل الحق فعلى أن النهى عن الإخلال بشرط من شروط العمل وبركن يقتضى بطلانه من أصله ، لا أنه يبطل بعد استجماعه شرائط الصحة والقبول. [.....]

كان أصحاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يرون أنه لا يضر مع الإيمان ذنب ، كما لا ينفع مع الشرك «1» عمل ، حتى نزلت وَلا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ فكانوا يخافون الكبائر على أعمالهم. وعن حذيفة : فخافوا أن تحبط الكبائر أعمالهم. وعن ابن عمر : كنا ترى أنه ليس شيء من حسناتنا إلا مقبولا ، حتى نزل وَلا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ فقلنا : ما هذا الذي يبطل أعمالنا؟ فقلنا : الكبائر الموجبات «2» والفواحش ، حتى نزل إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ ما دُونَ ذلِكَ لِمَنْ يَشاءُ فكففنا عن القول في ذلك ، فكنا نخاف على من أصاب الكبائر ونرجو لمن لم يصبها «3». وعن قتادة رحمه اللّه : رحم اللّه عبدا لم يحبط عمله الصالح بعمله السيئ. وقيل : لا تبطلوها بمعصيتهما. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : لا تبطلوها بالرياء والسمعة ، وعنه : بالشك والنفاق : وقيل : بالعجب ، فإنّ العجب يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب. وقيل : ولا تبطلوا صدقاتكم بالمنّ والأذى.

[سورة محمد (47) : آية 34]

إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ ماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ (34)

ثُمَّ ماتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ قيل ، هم أصحاب القليب ، والظاهر العموم.

[سورة محمد (47) : آية 35]

فَلا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَتِرَكُمْ أَعْمالَكُمْ (35)

فَلا تَهِنُوا ولا تضعفوا ولا تذلوا للعدوّ وَلا تَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وقرئ : السلم وهما المسالمة وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ أى الأغلبون الأقهرون وَاللَّهُ مَعَكُمْ أى ناصركم ، وعن قتادة : لا تكونوا أوّل الطائفتين ضرعت إلى صاحبتها بالموادعة. وقرئ : ولا تدّعوا ، من ادّعى القوم وتداعوا : إذا دعوا. نحو قولك : ارتموا الصيد وترامو. وتدعوا : مجزوم لدخوله في حكم النهى.

(1). أخرجه محمد بن نصر المروزي في كتاب قدر الصلاة له. قال حدثنا أبو قدامة حدثنا وكيع حدثنا أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس بهذا وزاد : فنزلت وَلا تُبْطِلُوا أَعْمالَكُمْ وفي الكتاب حديث مرفوع. أخرجه إسحاق وأبو يعلى وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن مسعود. قال أبو نعيم : تفرد به يحيى بن يمان عن سفيان اه.
ويحيى ضعيف. وفيه عن عمر أيضا أخرجه العقيلي. وابن عدى من رواية حجاج بن نصير عن منذر بن زياد وهما ضعيفان.
(2). قوله «فقلنا الكبائر الموجبات» عبارة الخازن : الكبائر والفواحش. (ع)
(3). أخرجه ابن مردويه. من طريق عبد اللّه بن المبارك عن بكير بن معروف. عن مقاتل بن حيان. عن نافع. عن ابن عمر بهذا. وأخرجه محمد بن نصر أيضا. من هذا الوجه.

أو منصوب لإضمار إن. ونحو قوله تعالى وَأَنْتُمُ الْأَعْلَوْنَ : قوله تعالى إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلى . وَلَنْ يَتِرَكُمْ من وترت الرجل إذا قتلت له قتيلا من ولد أو أخ أو حميم ، أو حربته ، وحقيقته : أفردته من قريبه أو ماله ، من الوتر وهو الفرد فشبه إضاعة عمل العامل وتعطيل ثوابه بوتر الواتر ، وهو من فصيح الكلام. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام : «من فاتته صلاة العصر ، فكأنما وتر أهله وماله» «1» أى أفرد عنهما قتلا ونهبا.

[سورة محمد (47) : الآيات 36 إلى 38]

إِنَّمَا الْحَياةُ الدُّنْيا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلا يَسْئَلْكُمْ أَمْوالَكُمْ (36) إِنْ يَسْئَلْكُمُوها فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ (37) ها أَنْتُمْ هؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللَّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَراءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثالَكُمْ (38)

يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ ثواب إيمانكم وتقواكم وَلا يَسْئَلْكُمْ أى ولا يسألكم جميعها ، إنما يقتصر منكم على ربع العشر ، ثم قال إِنْ يَسْئَلْكُمُوها فَيُحْفِكُمْ أى يجهدكم ويطلبه كله ، والإحفاء : المبالغة وبلوغ الغاية في كل شيء ، يقال : أحفاه في المسألة إذا لم يترك شيئا من الإلحاح.

وأحفى شاربه : إذا استأصله تَبْخَلُوا وَيُخْرِجْ أَضْغانَكُمْ أى تضطغنون على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «2»، وتضيق صدوركم لذلك ، وأظهرتم كراهتكم ومقتكم لدين يذهب بأموالكم ، والضمير في يُخْرِجْ للّه عز وجل ، أى يضغنكم بطلب أموالكم. أو للبخل ، لأنه سبب الاضطغان.

وقرئ : نخرج. بالنون. ويخرج ، بالياء والتاء مع فتحهما ورفع أضغانكم هؤُلاءِ موصول بمعنى الذين صلته تُدْعَوْنَ أى أنتم الذين تدعون. أو أنتم يا مخاطبون هؤلاء الموصوفون ، ثم استأنف وصفهم ، كأنهم قالوا : وما وصفنا؟ فقيل : تدعون لِتُنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ قيل : هي النفقة في الغزو. وقيل : الزكاة ، كأنه قيل : الدليل على أنه لو أحفاكم لبخلتم وكرهتم العطاء واضطغنتم أنكم تدعون إلى أداء ربع العشر ، فمنكم ناس يبخلون به ، ثم قال وَمَنْ يَبْخَلْ بالصدقة وأداء الفريضة. فلا يتعداه ضرر بخله ، وإنما يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ يقال بخلت عليه وعنه ، وكذلك ضننت عليه وعنه.

(1). متفق عليه من حديث ابن عمر.
(2). قوله «أى تضطغنون على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم» في الصحاح : «الضغن» الحقد. وتضاغن القوم واضطغنوا : انطووا على الأحقاد. (ع)

ثم أخبر أنه لا يأمر بذلك ولا يدعو اليه لحاجته إليه ، فهو الغنى الذي تستحيل عليه الحاجات ، ولكن لحاجتكم وفقركم إلى الثواب وَإِنْ تَتَوَلَّوْا معطوف على : وإن تؤمنوا وتتقوا يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ يخفق قوما سواكم على خلاف صفتكم راغبين في الإيمان والتقوى ، غير متولين عنهما ، كقوله تعالى وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ وقيل : هم الملائكة.

وقيل : الأنصار. وعن ابن عباس : كندة والنخع. وعن الحسن : العجم وعن عكرمة : فارس والروم. وسئل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن القوم وكان سلمان إلى جنبه ، فضرب على فخذه وقال : «هذا وقومه ، والذي نفسي بيده ، لو كان الإيمان منوطا بالثريا لتناوله رجال من فارس» «1» وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «من قرأ سورة محمد صلى اللّه عليه وسلم كان حقا على اللّه أن يسقيه من أنهار الجنة» «2»

سورة الفتح

مدنية [نزلت في الطريق عند الانصراف من الحديبية] وآياتها 29 [نزلت بعد الجمعة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الفتح (48) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

إِنَّا فَتَحْنا لَكَ فَتْحاً مُبِيناً (1) لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ ما تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَما تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِراطاً مُسْتَقِيماً (2) وَيَنْصُرَكَ اللَّهُ نَصْراً عَزِيزاً (3)

هو فتح مكة ، وقد نزلت مرجع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن مكة عام الحديبية عدة له بالفتح ،

(1). أخرجه الترمذي وابن حبان والحاكم. والطبري وابن أبى حاتم وغيرهم من طريق العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبى هريرة وله طرق عنه وعن غيره.
(2). أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي ، بأسانيدهم إلى أبى بن كعب.

وجيء به على لفظ الماضي على عادة رب العزة سبحانه في أخباره ، لأنها في تحققها وتيقنها بمنزلة الكائنة الموجودة ، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر «1» ما لا يخفى «2».

فإن قلت : كيف جعل فتح مكة علة للمغفرة؟ قلت : لم يجعل علة للمغفرة ، ولكن لاجتماع ما عدّد من الأمور الأربعة : وهي المغفرة وإتمام النعمة وهداية الصراط المستقيم والنصر العزيز ، كأنه قيل : يسرنا لك فتح مكة ، ونصرناك على عدوّك ، لنجمع لك بين عز الدارين وأغراض العاجل والآجل. ويجوز أن يكون فتح مكة - من حيث إنه جهاد للعدوّ - سببا للغفران والثواب والفتح والظفر بالبلد عنوة أو صلحا بحرب أو بغير حرب ، لأنه منغلق ما لم يظفر به ، فإذا ظفر به وحصل في اليد فقد فتح. وقيل : هو فتح الحديبية ، ولم يكن فيه قتال شديد ، ولكن ترام بين القوم بسهام وحجارة. وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : رموا المشركين حتى أدخلوهم ديارهم.

وعن الكلبي : ظهروا عليهم حتى سألوا الصلح. فإن قلت : كيف يكون فتحا وقد أحصروا فنحروا وحلقوا بالحديبية؟ قلت : كان ذلك قبل الهدنة ، فلما طلبوها وتمت كان فتحا مبينا. وعن موسى بن عقبة : أقبل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من الحديبية راجعا ، فقال رجل من أصحابه : ما هذا بفتح ، لقد صدّونا عن البيت وصد هدينا ، فبلغ النبي صلى اللّه عليه وسلم فقال : «بئس الكلام هذا ، بل هو أعظم الفتوح ، وقد رضى المشركون أن يدفعوكم عن بلادهم بالراح ، «3» ويسألوكم القضية ، ويرغبوا إليكم في الأمان ، وقد رأوا منكم ما كرهوا» «4» وعن الشعبي : نزلت بالحديبية وأصاب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في تلك الغزوة ما لم يصب في غزوة أصاب : أن بويع بيعة الرضوان ، وغفر له ما تقدّم من ذنبه وما تأخر ، وظهرت الروم على فارس ، وبلغ الهدى محله ، وأطعموا نخل خيبر ، وكان في فتح الحديبية آية عظيمة. وذلك أنه نزح ماؤها حتى لم يبق فيها قطرة ، فتمضمض رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ثم مجه فيها ، فدرت بالماء حتى شرب جميع من كان معه ،

(1). قوله «علو شأن المخبر» لعله : المخبر به. وعبارة النسفي : المخبر عنه. (ع)
(2). قال محمود : «جاء الاخبار بالفتح على لفظ الماضي وإن لم يقع بعد ، لأن المراد فتح مكة ، والآية نزلت حين رجع عليه الصلاة والسلام من الحديبية قبل عام الفتح ، وذلك على عادة رب العزة في أخباره ، لأنها كانت محققة نزلت منزلة الكائنة الموجودة ، وفي ذلك من الفخامة والدلالة على علو شأن المخبر ما لا يخفى» قال أحمد : ومن الفخامة الالتفات من التكلم إلى الغيبة.
(3). قوله «عن بلادهم بالراح» في الصحاح «الراح» : الخمر ، والراح : جمع راحة وهي الكف. والراح : الارتياح اه والظاهر هنا الثالث. (ع)
(4). هكذا هو في مغازي موسى بن عقبة عن الزهري وأخرجه البيهقي في الدلائل من طريقه ومن طريق أبى الأسود عن عروة أيضا نحوه مطولا

وقيل : فجاش الماء حتى امتلأت ولم ينفد ماؤها «1» بعد - وقيل : هو فتح خيبر ، وقيل : فتح الروم. وقيل : فتح اللّه له بالإسلام والنبوّة والدعوة بالحجة والسيف ، ولا فتح أبين منه وأعظم ، وهو رأس الفتوح كلها ، إذ لا فتح من فتوح الإسلام إلا وهو تحته ومتشعب منه. وقيل : معناه قضينا لك قضاء بينا على أهل مكة أن تدخلها

[سورة الفتح (48) : الآيات 4 إلى 7]

هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدادُوا إِيماناً مَعَ إِيمانِهِمْ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَكانَ اللَّهُ عَلِيماً حَكِيماً (4) لِيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِناتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ خالِدِينَ فِيها وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئاتِهِمْ وَكانَ ذلِكَ عِنْدَ اللَّهِ فَوْزاً عَظِيماً (5) وَيُعَذِّبَ الْمُنافِقِينَ وَالْمُنافِقاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَساءَتْ مَصِيراً (6) وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (7)

السَّكِينَةَ السكون كالبهيتة للبهتان ، أى : أنزل اللّه في قلوبهم السكون والطمأنينة بسبب الصلح والأمن ،

(1). متفق عليه. من حديث البراء مطولا باللفظ الأول. ولمسلم من حديث سلمة بن الأكوع. قال «قدمنا المدينة ونحن أربع عشرة مائة وعليها خمسون شاة لا ترويها. فقعد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على جنب الركية فاما دعا وإما بصق ، قال فجاشت. فسقينا واستقينا. وعند البخاري في الحديث الطويل عن المسور بن مخرمة ومروان : فعدل عنهم حتى نزل بأقصى الحديبية على ثمد قليل الماء. فلم يلبث الناس أن سرحوه. وشكوا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم العطش فانتزع سهما من كنانته ثم أمرهم أن يجعلوه فيه. فو اللّه ما زال يجيش لهم بالري ولا مخالفة في هذا لحديث البراء. لما رواه الواقدي من طريق عطاء بن أبى مروان. عن أبيه. حدثني أربعة عشر رجلا من أسلم صحابة. أن ناجية بن الأعجم. قال «دعاني رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. حين شكا إليه من قلة الماء فدفع إلى سهما من كنانته وأمر بدلو من مائها. فمضمض فاه منه ثم مجه في الدلو. وقال لي : انزل الماء فصبه في البئر وفتحت الماء بالسهم. ففعلت. فو الذي بعثه بالحق. ما كدت أخرج حتى كاد يغمرنى». وروى أيضا من حديث قتادة. قال : لما دعا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الرجل. فنزل بالسهم وتوضأ. ومج فاه منه ، ثم رده في البئر : جاشت بالرواء.

ليعرفوا فضل اللّه عليهم بتيسير الأمن بعد الخوف ، والهدنة غب القتال ، فيزدادوا يقينا إلى يقينهم ، وأنزل فيها السكون إلى ما جاء به محمد عليه السلام من الشرائع لِيَزْدادُوا إِيماناً بالشرائع مقرونا إلى إيمانهم وهو التوحيد. عن ابن عباس رضى اللّه عنهما : أن أوّل ما أتاهم به النبي صلى اللّه عليه وسلم التوحيد ، فلما آمنوا باللّه وحده أنزل الصلاة والزكاة ، ثم الحج ، ثم الجهاد ، فازدادوا إيمانا إلى إيمانهم. أو أنزل فيها الوقار والعظمة للّه عزّ وجل ولرسوله ، ليزدادوا باعتقاد ذلك إيمانا إلى إيمانهم. وقيل : أنزل فيها الرحمة ليتراحموا فيزداد إيمانهم وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يسلط بعضها على بعض كما يقتضيه علمه وحكمته ، ومن قضيته أن سكن قلوب المؤمنين بصلح الحديبية ووعدهم أن يفتح لهم ، وإنما قضى ذلك ليعرف المؤمنون نعمة اللّه فيه ويشكروها فيستحقوا الثواب ، فيثيبهم ويعذب الكافرين والمنافقين لما غاظهم من ذلك وكرهوه. وقع السوء : عبارة عن رداءة الشيء وفساده ، والصدق عن جودته وصلاحه ، فقيل في المرضى الصالح من الأفعال : فعل صدق ، وفي المسخوط الفاسد منها : فعل سوء. ومعنى ظَنَّ السَّوْءِ ظنهم أن اللّه تعالى لا ينصر الرسول والمؤمنين ، ولا يرجعهم إلى مكة ظافرين فاتحيها عنوة وقهرا عَلَيْهِمْ دائِرَةُ السَّوْءِ أى : ما يظنونه ويتربصونه بالمؤمنين فهو حائق بهم ودائر عليهم - والسوء : الهلاك والدمار. وقرئ : دائرة السوء «1» بالفتح ، أى.

الدائرة التي يذمونها ويسخطونها ، فهي عندهم دائرة سوء ، وعند المؤمنين دائرة صدق. فإن قلت : هل من فرق بين السوء والسوء؟ قلت : هما كالكرة والكره والضعف والضعف ، من ساء ، إلا أنّ المفتوح غلب في أن يضاف إليه ما يراد ذمه من كل شيء. وأما السوء بالضم فجار مجرى الشر الذي هو نقيض الخير. يقال : أراد به السوء وأراد به الخير ، ولذلك أضيف الظن إلى المفتوح لكونه مذموما ، وكانت الدائرة محمودة فكان حقها أن لا تضاف إليه إلا على التأويل الذي ذكرنا وأما دائرة السوء بالضم ، فلأن الذي أصابهم مكروه وشدة ، فصح أن يقع عليه اسم السوء ، كقوله عزّ وعلا إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً.

[سورة الفتح (48) : الآيات 8 إلى 9]

إِنَّا أَرْسَلْناكَ شاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (8) لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً (9)

شاهِداً تشهد على أمّتك ، كقوله تعالى وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً. لِتُؤْمِنُوا الضمير للناس وَتُعَزِّرُوهُ ويقووه بالنصرة وَتُوَقِّرُوهُ ويعظموه وَتُسَبِّحُوهُ من التسبيح. أو من السبحة ،

(1). قوله «و قرئ دائرة السوء بالفتح ، يفيد أن القراءة المشهورة. دائرة السوء. بالضم. (ع)

والضمائر للّه عز وجلّ والمراد بتعزير اللّه : تعزير دينه ورسوله صلى اللّه عليه وسلم.

ومن فرق الضمائر فقد أبعد. وقرئ : لتؤمنوا وتعزروه «1» وتوقروه وتسبحوه ، بالتاء ، والخطاب لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ولأمّته. وقرئ : وتعزروه بضم الزاى وكسرها.

وتعزروه بضم التاء والتخفيف ، وتعززوه بالزاعين. وتوقروه من أوقره بمعنى وقره. وتسبحوا اللّه بُكْرَةً وَأَصِيلًا عن ابن عباس رضى اللّه عنهما : صلاة الفجر وصلاة الظهر والعصر.

[سورة الفتح (48) : آية 10]

إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ وَمَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً (10)

لما قال إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ أكده تأكيدا على طريق التخييل «2» فقال يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ يريد أن يد رسول اللّه التي تعلو أيدى المبايعين : هي يد اللّه ، واللّه تعالى منزه عن الجوارح وعن صفات الأجسام ، وإنما المعنى : تقرير أن عقد الميثاق مع الرسول كعقده مع اللّه من غير تفاوت بينهما ، كقوله تعالى مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطاعَ اللَّهَ والمراد : بيعة الرضوان فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ فلا يعود ضرر نكثه إلا عليه. قال جابر بن عبد اللّه رضى اللّه عنه : بايعنا رسول اللّه تحت الشجرة على الموت ، وعلى أن لا نفرّ ، فما نكث أحد منا البيعة إلا جد بن قيس وكان منافقا ، اختبأ تحت إبط بعيره ولم يسر مع القوم «3». وقرئ : إنما يبايعون للّه ، أى : لأجل اللّه ولوجهه، وقرئ : ينكث بضم الكاف وكسرها ، وبما عاهد وعهد فَسَيُؤْتِيهِ بالنون والياء ، يقال : وفيت بالعهد وأوفيت به ، وهي لغة تهامة. ومنها قوله تعالى أَوْفُوا بِالْعُقُودِ ، وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ.

[سورة الفتح (48) : آية 11]

سَيَقُولُ لَكَ الْمُخَلَّفُونَ مِنَ الْأَعْرابِ شَغَلَتْنا أَمْوالُنا وَأَهْلُونا فَاسْتَغْفِرْ لَنا يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ قُلْ فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً بَلْ كانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ خَبِيراً (11)

(1). قوله «قرئ لتؤمنوا وتعزروه» يفيد أن قراءة الياء هي المشهورة ، وقد تشير إلى تفريق الضمائر قراءة : وتسبحوا اللّه ... الآية. (ع) [.....]

(2). قال محمود : «لما قال إنما يبايعون اللّه أكده تأكيدا على طريق التخييل ... الخ» قال أحمد : كلام حسن بعد إسقاط لفظ التخييل وإبداله بالتمثيل ، وقد تقدمت أمثاله.

(3). لم أجده هكذا بل في حديث جابر «أنه سئل كم كانوا يوم الحديبية؟ قال : كنا أربعة عشر مائة فبايعناه وعمر آخذ بيده تحت الشجرة. وهي سمرة. فبايعناه. وجد بن قيس اختبأ تحت بطن بعيره» أخرجه مسلم. ولأبى يعلى من هذا الوجه «لم نبايعه على الموت وإنما بايعناه على أن لا نفر ، بايعناه كلنا. إلا الجد بن قيس ، فانه اختبأ تحت بطن بعيره» فهذا ليس فيه أنه بايع ونكث ، بل فيه أنه لم يبايع أصلا.

هم الذين خلفوا عن الحديبية ، وهم أعراب غفار ومزينة وجهينة وأشجع وأسلم والديل.

وذلك أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حين أراد المسير إلى مكة عام الحديبية معتمرا استنفر من حول المدينة من الأعراب وأهل البوادي ليخرجوا معه حذرا من قريش «1» أن يعرضوا له بحرب أو يصدوه عن البيت ، وأحرم هو صلى اللّه عليه وسلم وساق معه الهدى ، ليعلم أنه لا يريد حربا ، فتثاقل كثير من الأعراب وقالوا : يذهب إلى قوم قد غزوه في عقر «2» داره بالمدينة وقتلوا أصحابه ، فيقاتلهم ، وظنوا أنه يهلك فلا ينقلب إلى المدينة واعتلوا بالشغل بأهاليهم وأموالهم وأنه ليس لهم من يقوم بأشغالهم. وقرئ : شغلتنا ، بالتشديد يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِمْ ما لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ تكذيب لهم في اعتذارهم. وأن الذي خلفهم ليس بما يقولون ، وإنما هو الشك في اللّه والنفاق ، وطلبهم للاستغفار أيضا ليس بصادر عن حقيقة فَمَنْ يَمْلِكُ لَكُمْ فمن يمنعكم من مشيئة اللّه وقضائه إِنْ أَرادَ بِكُمْ ما يضركم من قتل أو هزيمة أَوْ أَرادَ بِكُمْ نَفْعاً من ظفر وغنيمة «3» وقرئ : ضرا ، بالفتح والضم. الأهلون : جمع أهل. ويقال : أهلات ، على تقدير تاء التأنيث. كأرض وأرضات ، وقد جاء أهلة. وأمّا أهال ، فاسم جمع ، كليال.

[سورة الفتح (48) : آية 12]

بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلى أَهْلِيهِمْ أَبَداً وَزُيِّنَ ذلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَنْتُمْ ظَنَّ السَّوْءِ وَكُنْتُمْ قَوْماً بُوراً (12)

(1). أخرجه البيهقي في الدلائل من رواية آدم عن ورقاء. عن ابن نجيح عن مجاهد نحوه
(2). قوله «قد غزوه في عقر داره» في المصباح : عقر الدار أصلها ، وهو محلة القوم. وأهل المدينة يقولون : عقر الدار ، بالضم. (ع)
(3). قال محمود : «أى قتلا وهزيمة أو أراد بكم نفعا أى ظفرا وغنيمة» قال أحمد : لا تخلو الآية من الفن المعروف عند علماء البيان باللف ، وكان الأصل - والله أعلم - : فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا ، ومن يحرمكم النفع إن أراد بكم نفعا ، لأن مثل هذا النظم يستعمل في الضر ، وكذلك ورد في الكتاب العزيز مطردا ، كقوله فَمَنْ يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً إِنْ أَرادَ أَنْ يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ. وَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَنْ تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً فَلا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئاً هُوَ أَعْلَمُ بِما تُفِيضُونَ فِيهِ ومنه قوله عليه الصلاة والسلام في بعض الحديث «إنى لا أملك لكم شيئا» يخاطب عشيرته وأمثاله كثيرة ، وسر اختصاصه بدفع المضرة : أن الملك مضاف في هذه المواضع باللام ودفع المضرة نفع يضاف للمدفوع عنه ، وليس كذلك حرمان المنفعة ، فانه ضرر عائد عليه لا له ، فإذا ظهر ذلك فإنما انتظمت الآية على هذا الوجه ، لأن القسمين يشتركان في أن كل واحد منهما نفى لدفع المقدر من خير وشر ، فلما تقاربا أدرجهما في عبارة واحدة ، وخص عبارة دفع الضر ، لأنه هو المتوقع لهؤلاء ، إذ الآية في سياق التهديد أو الوعيد الشديد ، وهي نظير قوله قُلْ مَنْ ذَا الَّذِي يَعْصِمُكُمْ مِنَ اللَّهِ إِنْ أَرادَ بِكُمْ سُوءاً أَوْ أَرادَ بِكُمْ رَحْمَةً فان العصمة إنما تكون من السوء لا من الرحمة. فهاتان الآيتان يرامان في التقرير الذي ذكرته ، والله أعلم.

وقرئ : إلى أهلهم. وزين ، على البناء للفاعل وهو الشيطان ، أو الله عز وجل ، وكلاهما جاء في القرآن وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطانُ أَعْمالَهُمْ ، زَيَّنَّا لَهُمْ أَعْمالَهُمْ والبور : من بار ، كالهلك : من هلك ، بناء ومعنى ولذلك وصف به الواحد والجمع والمذكر والمؤنث. ويجوز أن يكون جمع بائر كعائذ وعوذ. والمعنى : وكنتم قوما فاسدين في أنفسكم وقلوبكم ونياتكم لا خير فيكم. أو هالكين عند الله مستوجبين لسخطه وعقابه.

[سورة الفتح (48) : آية 13]

وَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ فَإِنَّا أَعْتَدْنا لِلْكافِرِينَ سَعِيراً (13)

لِلْكافِرِينَ مقام مقام لهم ، للإيذان بأنّ من لم يجمع بين الإيمانين الإيمان بالله وبرسوله فهو كافر ، ونكر سَعِيراً لأنها نار مخصوصة ، كما نكر ناراً تَلَظَّى.

[سورة الفتح (48) : آية 14]

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يَغْفِرُ لِمَنْ يَشاءُ وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشاءُ وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً (14)

وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ يدبره تدبير قادر حكيم ، فيغفر ويعذب بمشيئته «1» ، ومشيئته تابعة لحكمته ، وحكمته المغفرة للتائب وتعذيب المصر وَكانَ اللَّهُ غَفُوراً رَحِيماً رحمته سابقة لغضبه ، حيث يكفر السيئات باجتناب الكبائر ، ويغفر الكبائر بالتوبة.

[سورة الفتح (48) : آية 15]

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلى مَغانِمَ لِتَأْخُذُوها ذَرُونا نَتَّبِعْكُمْ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ قُلْ لَنْ تَتَّبِعُونا كَذلِكُمْ قالَ اللَّهُ مِنْ قَبْلُ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنا بَلْ كانُوا لا يَفْقَهُونَ إِلاَّ قَلِيلاً (15)

سَيَقُولُ الْمُخَلَّفُونَ الذين تخلفوا عن الحديبية إِذَا انْطَلَقْتُمْ إِلى مَغانِمَ إلى غنائم خيبر أَنْ يُبَدِّلُوا كَلامَ اللَّهِ وقرئ كلم الله، أن يغيروا موعد الله لأهل الحديبية ، وذلك أنه وعدهم أن يعوّضهم من مغانم مكة مغانم خيبر «2» إذا قفلوا موادعين لا يصيبون منهم شيئا. وقيل :

(1). قال محمود : «يغفر ويعذب بمشيئته ... الخ» قال أحمد : قد تقدمت أمثالها ، والقول بأن موجب الحكمة ما ذكر تحكم. هذا وأدلة الشرع القاطعة تأتى على ما يعتقده فلا تبقى ولا تذر ، فكم من دليل على أن المغفرة لا تقف على التوبة ، وكم يروم إتباع القرآن للرأى الفاسد فيقيد مطلقا ويحجر واسعا ، والله الموفق.
(2). قال محمود : «المراد بكلام الله وعده أهل الحديبية بغنائم خيبر عوضا عما يفوتهم من غنائم مكة ... الخ» قال أحمد : فالاضراب الأول إذا هو المعروف ، والثاني هو المستغرب المستعذب الذي ليس فيه مباينة بين الأول والثاني ، بل زيادة بينة ومبالغة متمكنة ،

هو قوله تعالى لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً. تَحْسُدُونَنا أن نصيب معكم من الغنائم. قرئ بضم السين وكسرها لا يَفْقَهُونَ لا يفهمون إلا فهما قَلِيلًا وهو فطنتهم لأمور الدنيا دون أمور الدين ، كقوله تعالى يَعْلَمُونَ ظاهِراً مِنَ الْحَياةِ الدُّنْيا فإن قلت : ما الفرق بين حرفى الإضراب؟ قلت. الأوّل إضراب معناه : ردّ أن يكون حكم اللّه أن لا يتبعوهم وإثبات الحسد. والثاني إضراب عن وصفهم بإضافة الحسد إلى المؤمنين ، إلى وصفهم مما هو أطم منه ، وهو الجهل وقلة الفقه.

[سورة الفتح (48) : آية 16]

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرابِ سَتُدْعَوْنَ إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ فَإِنْ تُطِيعُوا يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْراً حَسَناً وَإِنْ تَتَوَلَّوْا كَما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذاباً أَلِيماً (16)

قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ هم الذين تخلفوا عن الحديبية إِلى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ يعنى بنى حنيفة قوم مسيلمة ، وأهل الردّة الذين حاربهم أبو بكر الصديق رضى اللّه عنه لأنّ مشركي العرب والمرتدين هم الذين لا يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف عند أبى حنيفة ومن عداهم من مشركي العجم وأهل الكتاب. والمجوس تقبل منهم الجزية ، وعند الشافعي لا تقبل الجزية إلا من أهل الكتاب والمجوس دون مشركي العجم والعرب. وهذا دليل على إمامة أبى بكر الصديق رضى اللّه عنه ، فإنهم لم يدعوا إلى حرب في أيام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ولكن بعد وفاته. وكيف يدعوهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مع قوله تعالى فَقُلْ لَنْ تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَداً وَلَنْ تُقاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا وقيل : هم فارس والروم. ومعنى يُسْلِمُونَ ينقادون ، لأنّ الروم نصارى ، وفارس مجوس يقبل منهم إعطاء الجزية. فإن قلت : عن قتادة أنهم ثقيف وهوازن ، وكان ذلك في أيام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم؟ قلت : إن صح ذلك فالمعنى : لن تخرجوا معى أبدا ما دمتم على ما أنتم عليه من مرض القلوب والاضطراب في الدين. أو على قول مجاهد : كان الموعد أنهم لا يتبعون رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلا متطوعين لا نصيب لهم في المغنم كَما تَوَلَّيْتُمْ مِنْ قَبْلُ يريد في غزوة الحديبية. أو يسلمون. معطوف على تقاتلونهم ، أى : يكون أحد الأمرين : إما المقاتلة ، أو الإسلام ، لا ثالث لهما. وفي قراءة أبىّ : أو يسلموا ، بمعنى : إلى أن يسلموا.

[سورة الفتح (48) : آية 17]

لَيْسَ عَلَى الْأَعْمى حَرَجٌ وَلا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذاباً أَلِيماً (17)

نفى الحرج عن هؤلاء من ذوى العاهات في التخلف عن الغزو. وقرئ : ندخله ونعذبه ، بالنون.

[سورة الفتح (48) : الآيات 18 إلى 19]

لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً (18) وَمَغانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَها وَكانَ اللَّهُ عَزِيزاً حَكِيماً (19)

هي بيعة الرضوان ، سميت بهذه الآية ، وقصتها : أنّ النبي صلى اللّه عليه وسلم حين نزل الحديبية بعث جوّاس «1» بن أمّية الخزاعي رسولا إلى أهل مكة ، فهموا به فمنعه الأحابيش ، فلما رجع دعا بعمر رضى اللّه عنه ليبعثه فقال : إنى أخافهم على نفسي ، لما عرف من عداوتي إياهم وما بمكة عدوىّ يمنعني ، ولكنى أدلك على رجل هو أعز بها منى وأحب إليهم : عثمان بن عفان فبعثه فخبرهم أنه لم يأت بحرب ، وإنما جاء زائرا لهذا البيت معظما لحرمته ، فوقروه وقالوا : إن شئت أن تطوف بالبيت فافعل ، فقال : ما كنت لأطوف قبل أن يطوف رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم واحتبس عندهم ، فأرجف بأنهم قتلوه ، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : لا نبرح حتى نناجز القوم. ودعا الناس إلى البيعة فبايعوه تحت الشجرة وكانت سمرة. قال جابر ابن عبد اللّه : لو كنت أبصر لأريتكم مكانها «2». وقيل : كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم جالسا في أصل الشجرة وعلى ظهره غصن من أغصانها. قال عبد اللّه بن المغفل : وكنت قائما على رأسه وبيدي غصن من الشجرة أذب عنه ،

(1). «جواس» الذي في أبى السعود وفي الشهاب : خراش ، بالخاء والراء والشين اه ملخصا من هامش ، وكذا في النسفي والخازن. (ع)
(2). أخرجه أحمد من رواية عروة عن المسور ومروان. قالا : «خرج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عام الحديبية يريد زيارة البيت» فذكر الحديث مطولا. وفيه هذه القصة دون قصة جابر وروى الطبري من رواية عكرمة مولى ابن عباس قال «دعا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم جواس بن أمية الخزاعي فذكره ومن طريق أبى إسحاق حدثني عبد اللّه بن أبى بكر «بلغ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن عثمان قتل فقال : لا نبرح حتى نناجز القوم.
ودعا الناس إلى البيعة. فكانت بيعة الرضوان تحت الشجرة ، فكان الناس يقولون : بايعهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على الموت، وجابر يقول : لم يبايعنا على الموت ولكن بايعنا على أن لا نفر ، إلى أن قال : وبلغ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أن الذي ذكر من أمر عثمان باطل» وقوله وكانت سمرة. رواه مسلم من حديث جابر قال «فبايعناه وأخذ عمر بيده تحت الشجرة وكانت سمرة» وقول جابر : لو كنت أبصر الخ : متفق عليه من حديثه.

فرفعت الغصن عن ظهره فبايعوه على الموت دونه ، وعلى أن لا يفروا ، فقال لهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «أنتم اليوم خير أهل الأرض» «1» وكان عدد المبايعين ألفا وخمسمائة وخمسة وعشرين «2» وقيل : ألفا وأربعمائة : وقيل : ألفا وثلاثمائة فَعَلِمَ ما فِي قُلُوبِهِمْ من الإخلاص وصدق الضمائر فيما بايعوا عليه فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ أى : الطمأنينة والأمن بسبب الصلح على قلوبهم وَأَثابَهُمْ فَتْحاً قَرِيباً وقرئ : وآتاهم ، وهو فتح خيبر غب انصرافهم من مكة. وعن الحسن : فتح هجر ، وهو أجلّ فتح : اتسعوا بثمرها زمانا مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها هي مغانم خيبر ، وكانت أرضا ذات عقار «3» وأموال ، فقسمها رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وآله وسلم عليهم ، ثم أتاه عثمان بالصلح فصالحهم وانصرف بعد أن نحر بالحديبية وحلق.

[سورة الفتح (48) : آية 20]

وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً (20)

وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً وهي ما يفيء على المؤمنين إلى يوم القيامة فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ المغانم يعنى مغانم خيبر وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنْكُمْ يعنى أيدى أهل خيبر وحلفاؤهم من أسد وغطفان حين جاءوا لنصرتهم ، فقذف اللّه في قلوبهم الرعب فنكصوا. وقيل : أيدى أهل مكة بالصلح وَلِتَكُونَ هذه الكفة آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ وعبرة يعرفون بها أنهم من اللّه تعالى بمكان ،

(1). قوله «و قيل كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم جالسا في ظل الشجرة وعلى ظهره غصن من أغصانها. قال عبد اللّه بن مغفل : كنت قائما على رأسه وبيدي غصن من الشجرة أذب عنه ، فرفعت الغصن عن ظهره وبايعوه على الموت دونه ، وعلى أن لا يفروا ، فقال لهم : أنتم اليوم خير أهل الأرض «أخرجه النسائي من رواية ثابت عن عبد اللّه بن مغفل. قال «كنا مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالحديبية في أصل الشجرة وعلى رأسه غصن إلى قوله عن ظهره». وفي حديث معقل بن يسار «لقد رأيتنى يوم الشجرة والنبي صلى اللّه عليه وسلم يبايع الناس وأنا رافع غصنا من أغصانها - الحديث». وأما قوله «بايعوه ... الخ» فهو في حديث جابر.
(2). أما الأولى فمتفق عليها من حديث سالم بن أبى الجعد عن جابر. دون قوله «و خمسا وعشرين» وأما الثانية ففي رواية عمرو بن مرة عن جابر في الصحيحين. وفي رواية أبى الزبير عنه ومسلم وعندهما عن قتادة. قلت : لسعيد ابن المسيب «لم كان عدد الذين شهدوا بيعة الرضوان؟ قال : خمس عشرة مائة قال : قلت : فان جابرا قال : كانوا أربع عشرة مائه قال : رحمه اللّه لقد وهم ، هو واللّه حدثني أنهم كانوا خمس عشرة مائة» قال البيهقي في الدلائل :
كأن جابرا رجع عن رواية خمس عشرة. إلى ألف وأربعمائة. وكذلك قال البراء ومعقل بن يسار. وسلمة بن الأكوع. انتهى. والرواية الثالثة في الصحيحين من رواية عمرو بن مرة عن عبد اللّه بن أبى أوفى. قال «كان أصحاب الشجرة ألفا وثلاثمائة وكان من أسلم من المهاجرين. قلت والرواية التي فيها ألفا وخمسمائة وخمسا وعشرين.
أخرجها ابن مردويه في تفسيره من حديث ابن عباس موقوفا. وفي عددهم أقوال غير هذه بسطنها في شرح البخاري
(3). قوله «ذات عقار» في الصحاح «العقار» بالفتح : الأرض والضياع والنخل. (ع)

وأنه ضامن نصرهم والفتح عليهم. وقيل : رأى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فتح مكة في منامه ، ورؤيا الأنبياء صلوات اللّه عليهم وحى ، فتأخر ذلك إلى السنة القابلة ، فجعل فتح خيبر علامة وعنوانا لفتح مكة وَيَهْدِيَكُمْ صِراطاً مُسْتَقِيماً ويزيدكم بصيرة ويقينا ، وثقة بفضل اللّه.

[سورة الفتح (48) : آية 21]

وَأُخْرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها وَكانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيراً (21)

وَأُخْرى معطوفة على هذه ، أى : فعجل لكم هذه المغانم ومغانم أخرى لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها وهي مغانم هوازن في غزوة حنين ، وقال : لم تقدروا عليها لما كان فيها من الجولة قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها أى قدر عليها واستولى وأظهركم عليها وغنمكموها. ويجوز في أُخْرى النصب بفعل مضمر ، يفسره قَدْ أَحاطَ اللَّهُ بِها تقديره : وقضى اللّه أخرى قد أحاط بها. وأما لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْها فصفة لأخرى ، والرفع على الابتداء لكونها موصوفة بلم تقدروا ، وقد أحاط اللّه بها : خبر المبتدإ ، والجرّ بإضمار رب. فإن قلت : قوله تعالى وَلِتَكُونَ آيَةً لِلْمُؤْمِنِينَ كيف موقعه؟ قلت : هو كلام معترض. ومعناه : ولتكون الكفة آية للمؤمنين فعل ذلك. ويجوز أن يكون المعنى : وعدكم المغانم ، فعجل هذه الغنيمة وكف الأعداء لينفعكم بها ، ولتكون آية للمؤمنين إذا وجدوا وعد اللّه بها صادقا ، لأنّ صدق الإخبار عن الغيوب معجزة وآية ، ويزيدكم بذلك هداية وإيقانا.

[سورة الفتح (48) : الآيات 22 إلى 23]

وَلَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوُا الْأَدْبارَ ثُمَّ لا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلا نَصِيراً (22) سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً (23)

وَلَوْ قاتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا من أهل مكة ولم يصالحوا. وقيل : من حلفاء أهل خيبر لغلبوا وانهزموا سُنَّةَ اللَّهِ في موضع المصدر المؤكد ، أى : سن اللّه غلبة أنبيائه سنه ، وهو قوله تعالى لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي.

[سورة الفتح (48) : آية 24]

وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنْكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُمْ بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ وَكانَ اللَّهُ بِما تَعْمَلُونَ بَصِيراً(24)
أَيْدِيَهُمْ أيدى أهل مكة ، أى : قضى بينهم وبينكم المكافة والمحاجزة بعد ما خولكم الظفر عليهم والغلبة ، وذلك يوم الفتح. وبه استشهد أبو حنيفة رحمه اللّه ، على أنّ مكة فتحت عنوة لا صلحا. وقيل : كان ذلك في غزوة الحديبية لما روى أنّ عكرمة بن أبى جهل خرج في خمسمائة ، فبعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من هزمه وأدخله حيطان «1» مكة. وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : أظهر اللّه المسلمين عليهم بالحجارة حتى أدخلوهم البيوت. وقرئ : تعملون ، بالتاء والياء.

(1). أخرجه الطبري عن شيخه محمد بن حميد عن يعقوب القمي عن جعفر هو ابن أبى المغيرة عن ابن أبزى.
قال «لما خرج النبي صلى اللّه عليه وسلم بالهدى وانتهي إلى ذى الحليفة : قال له نمر : يا نبى اللّه تدخل على حرب قوم حرب لك بغير سلاح ولا كراع. قال : فبعث إلى المدينة فلم يدع فيها كراعا ولا سلاحا إلا حمله. فلما دنا من مكة منعوه أن يدخل فسار حتى أتى منى فنزل بها. فأتاه عتبة بن عكرمة بن أبى جهل ، قد خرج عليه في خمسمائة.
فقال لخالد بن الوليد : يا خالد هذا ابن عمك قد أتاك في الخيل. فقال خالد : أنا سيف اللّه ورسوله فيومئذ سمى سيف اللّه ، يا رسول اللّه ارم بن أين شئت ، فبعثه على خيل ، فلقى عكرمة في الشعب ، فهزمه ، حتى أدخله حيطان مكة - الحديث» وأخرجه ابن أبى حاتم من هذا الوجه وفي صحته نظر ، لأن خالدا لم يكن أسلم في الحديبية وظاهر السياق أن هذه القصة كانت في الحديبية. فلو كانت في عمرة القضية لأمكن ، مع أن المشهور أنهم فيها لم يمانعوه ولم يقاتلوه.

[سورة الفتح (48) : آية 25]

هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرامِ وَالْهَدْيَ مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ وَلَوْلا رِجالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِساءٌ مُؤْمِناتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَؤُهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذاباً أَلِيماً (25)

وقرئ : والهدى ، والهدى : بتخفيف الياء وتشديدها ، وهو ما يهدى إلى الكعبة : بالنصب عطفا على الضمير المنصوب في صدّوكم. أى : صدّوكم وصدّوا الهدى وبالجر عطفا على المسجد الحرام. بمعنى : وصدّوكم عن نحر الهدى مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ محبوسا عن أن يباع ، وبالرفع على : وصدّ الهدى. ومحله : مكانه الذي يحل فيه نحره ، أى يجب. وهذا دليل لأبى حنيفة على أن المحصر محل هديه الحرم. فإن قلت : فكيف حل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ومن معه وإنما نحر هديهم بالحديبية؟ قلت : بعض الحديبية من الحرم «1». وروى أن مضارب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم كانت في الحل ، ومصلاه في الحرم «2». فإن قلت : فإذن قد نحر في الحرم ، فلم قيل : مَعْكُوفاً أَنْ يَبْلُغَ مَحِلَّهُ؟ قلت : المراد المحل المعهود وهو منى لَمْ تَعْلَمُوهُمْ صفة الرجال والنساء جميعا. وأَنْ تَطَؤُهُمْ بدل اشتمال منهم أو من الضمير المنصوب في تعلموهم.

(1). أخرجه البخاري من حديث ابن عمر قال : «خرج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم معتمرا فحال كفار قريش بينه وبين البيت ، فنحر هديه وحلق رأسه بالحديبية» وفيه من رواية المسور ومروان «أنه صلى اللّه عليه وسلم قال لأصحابه : قوموا فانحروا ثم احلقوا» قال البخاري : والحديبية خارج الحرم. [.....]
(2). أخرجه أحمد من رواية المسور ومروان. في أثناء الحديث الطويل. قال «و كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يصلى في الحرم. وهو مضطرب في الحل»

والمعرة : مفعلة ، من عره بمعنى عراه إذا دهاه «1» ما يكره ويشق عليه.

وبِغَيْرِ عِلْمٍ متعلق بأن تطؤهم ، يعنى : أن تطئوهم غير عالمين بهم. والوطء والدوس : عبارة عن الإيقاع والإبادة. قَال : ووطئتنا وطأ على حنق وطأ المقيّد نابت الهرم «2»

وقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «و أن آخر وطأة وطئها اللّه بوج» «3» والمعنى : أنه كان بمكة قوم من المسلمين مختلطون بالمشركين غير متميزين منهم ولا معروفى الأماكن فقيل : ولو لا كراهة أن تهلكوا ناسا مؤمنين بين ظهراني المشركين وأنتم غير عارفين بهم ، فتصيبكم بإهلاكهم مكروه ومشقة : لما كف أيديكم عنهم، وحذف جواب «لولا» لدلالة الكلام عليه «4». ويجوز أن يكون لَوْ تَزَيَّلُوا كالتكرير للولا رجال مؤمنون، لمرجعهما إلى معنى واحد ، ويكون لَعَذَّبْنَا هو الجواب. فإن قلت : أى معرة تصيبهم إذا قتلوهم وهم لا يعلمون. قلت : يصيبهم وجوب الدية والكفارة ، وسوء قالة المشركين أنهم فعلوا بأهل دينهم مثل ما فعلوا بنا من غير تمييز ، والمأثم إذا جرى منهم بعض التقصير. فإن قلت : قوله تعالى لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ مَنْ يَشاءُ تعليل لما ذا؟ قلت : لما دلت عليه الآية وسيقت له :

(1). قوله «بمعنى عراه إذا دهاه» عبارة الصحاح بلفظها : هو يعر قومه : أى يدخل عليهم مكروها يلطخهم به.
والمعرة : الإثم. (ع)
(2) ووطئتنا وطأ على حنق وطأ المقيد نابت الهرم
وتركتنا لحما على وضم لو كنت تستبقى من اللحم
للحرث بن وعلة الذهلي. والوطء : وضع القدم فوق الشيء بشدة. وهو كناية عن الإهلال. والحنق - كسبب ، الحقد والغيظ. والهرم - بالسكون - : ضرب من الحمض ترعاه الإبل ، وبعير هارم : يرعى الهرم. يقول : أتيتنا مرتفعا علينا بقوتك وشدة بطشك كوطء الجمل المقيد للهرم النابت : أى الحديث النبات. ويروى : يابس الهرم فيهلكه لعظمه وقوته ، مع رطوبة ذلك النبات وضعفه ، أو مع يبسه فيتفتت ، فجعله مقيدا لتكون بطشته قوية ، حيث يرفع رجليه معا ويضربها عند الوثوب. أو جعله مقيدا ، لأن الذليل إذا قدر لا يعفو. والوضم : خوان الجزار الذي يقطع عليه اللحم. و«لو» شرطية ، جوابها دل عليه قوله «تركتنا» أى : على فرض أنك تركت هنا بقية تركتنا كهذا اللحم الذي يهيأ للأكل. وفي التعبير بلو : دلالة على أنه لم يستبق منهم.
(3). تقدم في آخر براءة.
(4). قال محمود : «يجوز أن يكون جواب لولا محذوفا ... الخ» قال أحمد : وإنما كان مرجعهما هاهنا واحدا وإن كانت لولا تدل على امتناع لوجود ، و«لو» تدل على امتناع لامتناع ، وبين هذين تناف ظاهر ، لأن لولا هاهنا دخلت على وجود ، ولو دخلت على قوله تزيلوا وهو راجع إلى عدم وجودهم وامتناع عدم الوجود وجود ، فآلا إلى أمر واحد من هذا الوجه. وكان جدي رحمه اللّه يختار هذا الوجه الثاني ويسميه تطرية ، وأكثر ما تكون إذا تطاول الكلام وبعد عهد أوله واحتيج إلى رد الآخر على الأول ، فمرة يطرى بلفظه ، ومرة بلفظ آخر يؤدى مؤداه. وقد تقدمت لها أمثال ، واللّه أعلم. وهو الموفق.

من كف الأيدى عن أهل مكة ، والمنع من قتلهم ، صونا لمن بين أظهرهم من المؤمنين ، كأنه قال : كان الكف ومنع التعذيب ليدخل اللّه في رحمته ، أى : في توفيقه لزيادة الخير والطاعة مؤمنيهم. أو ليدخل في الإسلام من رغب فيه من مشركيهم لَوْ تَزَيَّلُوا لو تفرقوا وتميز بعضهم من بعض : من زاله يزيله. وقرئ : لو تزايلوا.

[سورة الفتح (48) : آية 26]

إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوى وَكانُوا أَحَقَّ بِها وَأَهْلَها وَكانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً (26)

إِذْ يجوز أن يعمل فيه ما قبله. أى : لعذبناهم أو صدوهم عن المسجد الحرام في ذلك الوقت ، وأن ينتصب بإضمار اذكر. والمراد بحمية الذين كفروا وسكينة المؤمنين - والحمية الأنفة والسكينة الوقار - ما روى أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لما نزل بالحديبية بعثت قريش سهيل بن عمرو القرشي وحويطب بن عبد العزى ومكرز بن حفص بن الأخيف ، على أن يعرضوا على النبي صلى اللّه عليه وسلم أن يرجع من عامه ذلك على أن تخلى له قريش مكة من العام القابل ثلاثة أيام ، ففعل ذلك ، «1» وكتبوا بينهم كتابا ، فقال عليه الصلاة والسلام لعلى رضى اللّه عنه : اكتب بسم اللّه الرحمن الرحيم ، فقال سهيل وأصحابه : ما نعرف هذا ، ولكن اكتب : باسمك اللهم ، ثم قال : اكتب «هذا ما صالح عليه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أهل مكة» فقالوا : لو

(1). أخرجه البيهقي في الدلائل من رواية عروة في قصة الحديبية. وفيه ثم بعثت قريش سهيل بن عمرو الخ مطولا. والقصة في الصحيح من رواية البراء بن عازب ومن رواية مروان والمسور. وفي النسائي مختصرة من رواية ثابت اليماني عن عبد اللّه بن مغفل.

[سورة الفتح (48) : آية 27]

لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرامَ إِنْ شاءَ اللَّهُ آمِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُؤُسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لا تَخافُونَ فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً (27)

رأى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قبل خروجه إلى الحديبية كأنه وأصحابه قد دخلوا مكة آمنين وقد حلقوا وقصروا ، فقصّ الرؤيا على أصحابه ، ففرحوا واستبشروا وحسبوا أنهم داخلوها في عامهم ، وقالوا : إن رؤيا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم حق ، فلما تأخر ذلك قال عبد اللّه بن أبىّ وعبد اللّه بن نفيل ورفاعة بن الحرث : واللّه ما حلقنا ولا قصرنا ولا رأينا المسجد الحرام «1» فنزلت. ومعنى صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا صدقه في رؤياه ولم يكذبه - تعالى اللّه عن الكذب وعن كل قبيح علوا كبيرا - فحذف الجارّ وأوصل الفعل ، كقوله تعالى : صدقوا ما عاهدوا اللّه عليه. فإن قلت : بم تعلق بِالْحَقِّ؟ قلت : إمّا بصدق ، أى : صدقه فيما رأى ، وفي كونه وحصوله صدقا ملتبسا بالحق : أى بالغرض الصحيح والحكمة البالغة ، وذلك ما فيه من الابتلاء والتمييز بين المؤمن المخلص ، وبين من في قلبه مرض. ويجوز أن يتعلق بالرؤيا حالا منها أى : صدقه الرؤيا ملتبسا «2» بالحق ، على معنى أنها لم تكن من أضغاث الأحلام. ويجوز أن يكون بِالْحَقِّ قسما : إمّا بالحق الذي هو نقيض الباطل. أو بالحق الذي هو من أسمائه.

ولَتَدْخُلُنَّ جوابه. وعلى الأوّل هو جواب قسم محذوف. فإن قلت : ما وجه دخول إِنْ شاءَ اللَّهُ في أخبار اللّه عز وجل؟ قلت : فيه وجوه : أن يعلق عدته بالمشيئة تعليما لعباده أن يقولوا في عداتهم مثل ذلك ، متأدّبين بأدب اللّه، ومقتدين بسنته ، وأن يريد : لتدخلنّ جميعا إن شاء اللّه ولم يمت منكم أحدا ، أو كان ذلك على لسان ملك ، فأدخل الملك إن شاء اللّه.

أو هي حكاية ما قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لأصحابه وقصّ عليهم. وقيل : هو متعلق بآمنين فَعَلِمَ ما لَمْ تَعْلَمُوا من الحكمة والصواب في تأخير فتح مكة إلى العام القابل فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ أى من دون فتح مكة فَتْحاً قَرِيباً وهو فتح خيبر ، لتستروح إليه قلوب المؤمنين إلى أن يتيسر الفتح الموعود.

(1). لم أجده هكذا مفسرا وروى الطبري من روآية عبد الرحمن بن زيد بن أسلم في قوله لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا بِالْحَقِّ - الآية فقال لهم النبي صلى اللّه عليه وسلم «إنى قد رأيت أنكم ستدخلون المسجد الحرام محلقين رؤسكم ومقصرين. فلما ترك الحديبية ولم يدخل ذلك العام طعن المنافقون في ذلك. فقالوا : أين رؤياه ، فقال اللّه لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّؤْيا - الآية وروى الطبري من طريق ابن أبى نجيح عن مجاهد قال «أرى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهو بالحديبية أنه يدخل في أهل مكة هو وأصحابه محلقين فلما نحر الهدى وهو بالحديبية قال أصحابه : أين رؤياك يا رسول اللّه؟ فنزلت» وبه قال وقوله فَجَعَلَ مِنْ دُونِ ذلِكَ فَتْحاً قَرِيباً قال : النحر بالحديبية ، فرجعوا ففتحوا خيبرا. وقال : ثم اعتمر بعد ذلك فكان تصديق رؤياه في السنة المقبلة».
(2). قوله «أى صدقه الرؤيا ملتبسا» لعله : ملتبسة. (ع)

[سورة الفتح (48) : آية 28]

هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفى بِاللَّهِ شَهِيداً (28)

بِالْهُدى وَدِينِ الْحَقِّ بدين الإسلام لِيُظْهِرَهُ ليعليه عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ على جنس الدين كله ، يريد : الأديان المختلفة من أديان المشركين والجاحدين من أهل الكتاب : ولقد حقق ذلك سبحانه ، فإنك لا ترى دينا قط إلا وللإسلام دونه العز والغلبة. وقيل : هو عند نزول عيسى حين لا يبقى على وجه الأرض كافر. وقيل : هو إظهاره بالحجج

[سورة الفتح (48) : آية 29]

مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ تَراهُمْ رُكَّعاً سُجَّداً يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَرِضْواناً سِيماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوى عَلى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْراً عَظِيماً (29)

مُحَمَّدٌ إما خبر مبتدإ ، أى : هو محمد لتقدّم قوله تعالى هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ وإما مبتدأ ، ورسول اللّه : عطف بيان. وعن ابن عامر أنه قرأ : رسول اللّه ، بالنصب على المدح وَالَّذِينَ مَعَهُ أصحابه أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَماءُ بَيْنَهُمْ جمع شديد ورحيم. ونحوه أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكافِرِينَ ، وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ. بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُفٌ رَحِيمٌ وعن الحسن رضى اللّه عنه : بلغ من تشدّدهم على الكفار : أنهم كانوا يتحرّزون من ثيابهم أن تلزق بثيابهم ، ومن أبدانهم أن تمس أبدانهم ، وبلغ من ترحمهم فيما بينهم أنه كان لا يرى مؤمن مؤمنا إلا صافحه وعانقه ، والمصافحة لم تختلف فيها الفقهاء. وأما المعانقة فقد كرهها أبو حنيفة رحمه اللّه ، وكذلك

(1). قوله «إنه سيظهر دينك» لعله : دينه ، كعبارة النسفي. (ع)

التقبيل. قال لا أحب أن يقبل الرجل من الرجل وجهه ولا يده ولا شيئا من جسده. وقد رخص أبو يوسف في المعانقة. ومن حق المسلمين في كل زمان أن يراعوا هذا التشدّد وهذا التعطف : فيتشدّدوا على من ليس على ملتهم ودينهم ويتحاموه ، ويعاشروا إخوتهم في الإسلام متعطفين بالبر والصلة. وكف الأذى ، والمعونة ، والاحتمال ، والأخلاق السجيحة «1». ووجه من قرأ : أشداء ، ورحماء - بالنصب - : أن ينصبهما على المدح، أو على الحال بالمقدّر في مَعَهُ ، ويجعل تَراهُمْ الخبر سِيماهُمْ علامتهم. وقرئ سيماؤهم ، وفيها ثلاث لغات : هاتان. والسيمياء ، والمراد بها السمة التي تحدث في جبهة السجاد من كثرة السجود ، وقوله تعالى مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ يفسرها ، أى : من التأثير الذي يؤثره السجود ، وكان كل من العليين : علىّ بن الحسين زين العابدين ، وعلىّ بن عبد اللّه بن عباس أبى الأملاك ، يقال له : ذو الثفنات ، لأنّ كثرة سجودهما أحدثت في مواقعه منهما أشباه ثفنات «2» البعير. وقرئ : من أثر السجود ، ومن آثار السجود ، وكذا عن سعيد ابن جبير: هي السمة في الوجه. فإن قلت : فقد جاء عن النبي صلى اللّه عليه وسلم «لا تعلبوا «3» صوركم «4»» وعن ابن عمر رضى اللّه عنه أنه رأى رجلا قد أثر في وجهه السجود فقال : إن صورة وجهك أنفك ، فلا تعلب وجهك ، ولا تشن صورتك «5». قلت : ذلك إذا اعتمد بجبهته على الأرض لتحدث فيه تلك السمة. وذلك رياء ونفاق يستعاذ باللّه منه ، ونحن فيما حدث في جبهة السجاد الذي لا يسجد إلا خالصا لوجه اللّه تعالى. وعن بعض المتقدّمين : كنا نصلى فلا يرى بين أعيننا شيء ، ونرى أحدنا الآن يصلى فيرى بين عينيه ركبة البعير ، فما ندرى أثقلت الأرؤس أم خشنت الأرض وإنما أراد بذلك من تعمد ذلك للنفاق. وقيل : هو صفرة الوجه من خشية اللّه. وعن الضحاك : ليس بالندب «6» في الوجوه ، ولكنه صفرة. وعن سعيد بن المسيب : ندى الطهور وتراب الأرض. وعن عطاء رحمه اللّه : استنارت وجوههم من طول ما صلوا بالليل ،

(1). قوله «و الأخلاق السجيحة» أى السهلة. أفاده الصحاح. (ع)
(2). قوله «ثفنات البعير» في الصحاح : هي ما يقع على الأرض من أعضائه إذا استناخ. (ع)
(3). قوله «لا تعلبوا صوركم» في الصحاح : علبته أعلبه - بالضم - : إذا وسمته أو خدشته ، أو أثرت فيه. (ع)
(4). لم أجده مرفوعا وهو في الذي بعده موقوف.
(5). أخرجه عبد الرزاق عن الثوري. عن الأعمش عن حبيب عن أبى الثعثاء. عن ابن عمر «أنه رأى رجلا ينتحز إذا سجد فقال : لا تقلب صورتك» يقول لا تؤثرها. قلت : ما تقلب صورتك؟ قال : لا تغير لا تشن» ورواه إبراهيم الحربي من رواية أبى معاوية عن الأعمش عن حبيب عن عطاء عن عمر «أنه رأى رجلا قد أثر السجود بوجهه فقال : لا تقلب صورتك. ثم قال : قلبت الشيء إذا أثرت فيه. [.....]
(6). قوله «ليس بالندب في الوجوه» في الصحاح «الندب» : أثر الجرح إذا لم يرتفع عن الجلد. (ع)

كقوله «من كثرت صلاته بالليل حسن وجهه بالنهار» «1» ذلِكَ الوصف مَثَلُهُمْ أى وصفهم العجيب الشأن في الكتابين جميعا ، ثم ابتدأ فقال كَزَرْعٍ يريد : هم كزرع. وقيل : تم الكلام عند قوله ذلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْراةِ ثم ابتدئ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ ويجوز أن يكون ذلك إشارة مبهمة أوضحت بقوله كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ كقوله تعالى وَقَضَيْنا إِلَيْهِ ذلِكَ الْأَمْرَ أَنَّ دابِرَ هؤُلاءِ مَقْطُوعٌ مُصْبِحِينَ. وقرئ : الإنجيل ، بفتح الهمزة شَطْأَهُ فراخه. يقال :

وقيل : مكتوب في الإنجيل سيخرج قوم ينبتون نبات الزرع ، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر. وعن عكرمة : أخرج شطأه بأبى بكر ، فآزره بعمر ، فاستغلظ بعثمان ، فاستوى على سوقه بعلىّ. وهذا مثل ضربه اللّه لبدء أمر الإسلام وترقيه في الزيادة إلى أن قوى واستحكم ، لأنّ النبي صلى اللّه عليه وسلم ، قام وحده. ثم قوّاه اللّه بمن آمن معه كما يقوى الطاقة الأولى من الزرع ما يحتف بها مما يتولد منها حتى يعجب الزرّاع. فإن قلت : قوله لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ تعليل لما ذا؟ قلت : لما دل عليه تشبيههم بالزرع من نمائهم وترقيهم في الزيادة والقوّة ، ويجوز أن يعلل به وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لأنّ الكفار إذا سمعوا بما أعدّ لهم في الآخرة مع ما يعزهم به في الدنيا غاظهم ذلك. ومعنى مِنْهُمْ البيان ، كقوله تعالى فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثانِ.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وآله وسلم «من قرأ سورة الفتح فكأنما كان ممن شهد مع محمد فتح مكة» «2».

(1). أخرجه ابن ماجة عن إسماعيل الطلحي عن ثابت بن موسى عن شريك عن الأعمش عن أبى سفيان عن جابر مرفوعا بهذا واتفق أئمة الحديث وابن عدى والدارقطني والعقيلي وابن حبان والحاكم على أنه من قول شريك قاله لثابت لما دخل. وقال ابن عدى سرقه جماعة من ثابت كعبد اللّه بن شبرمة الشريكى وعبد الحميد بن بحر وغيرهما وأورده صاحب مسند الشهاب من رواية عبد الرزاق عن الثوري وابن جريج عن أبى الزبير عن جابر وهو موضوع على هذا الاسناد. وكذا من رواية الحسين بن حفص عن الثوري عن الأعمش عن أبى سفيان عن جابر والأمر فيه كذلك. ومن طرق أخرى واهية. قال ابن طاهر : ظن القضاعي أن الحديث صحيح ، لكثرة طرقه. وهو معذور لأنه لم يكن حافظا. وله طرق أخرى من غير رواية جابر أخرجه ابن جميع في معجمه من حديث أنس وابن الجوزي من وجه آخر عنه وهو باطل أيضا من الوجهين.
(2). أخرجه ابن مردويه والواحدي بالإسناد إلى أبى بن كعب.

سورة الحجرات

مدنية ، وآياتها 18 [نزلت بعد المجادلة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الحجرات (49) : آية 1]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (1)

قدّمه وأقدمه : منقولان بتثقيل الحشو والهمزة ، من قدمه إذا تقدّمه «1» في قوله تعالى يَقْدُمُ قَوْمَهُ ونظيرهما معنى ونقلا : سلفه وأسلفه. وفي قوله تعالى لا تُقَدِّمُوا من غير ذكر مفعول : وجهان ، أحدهما : أن يحذف ليتناول كل ما يقع في النفس مما يقدّم. والثاني : أن لا يقصد قصد «2» مفعول ولا حذفه ، ويتوجه بالنهى إلى نفس التقدمة ، كأنه قيل : لا تقدموا على التلبس بهذا الفعل ، ولا تجعلوه منكم بسبيل «3» ، كقوله تعالى هُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ ويجوز أن يكون من قدّم بمعنى تقدّم ، كوجه وبين. ومنه مقدّمة الجيش خلاف ساقته ، وهي الجماعة المتقدّمة منه. وتعضده قراءة من قرأ : لا تقدموا ، بحذف إحدى تاءى تتقدموا ، إلا أن الأوّل أملأ بالحسن وأوجه ، وأشدّ ملاءمة لبلاغة القرآن ، والعلماء له أقبل. وقرئ : لا تقدموا من القدوم ، أى لا تقدموا إلى أمر من أمور الدين قبل قدومها ، ولا تعجلوا عليهما. وحقيقة قولهم : جلست بين يدي فلان ، أن يجلس بين الجهتين المسامتتين ليمينه وشماله قريبا منه ،

(1). قوله «إذا تقدمه في قوله تعالى» لعله كما في قوله تعالى. (ع)
(2). قوله «أن لا يقصد قصد ... الخ» عبارة النسفي : أن لا يقصد مفعول. والتهجي متوجه إلى نفس التقدمة. (ع)
(3). ذكر الزمخشري من النكت : «أنه تعالى ابتدأ السورة بإيجاب أن يكون الأمر الذي ينتهى إلى اللّه ورسوله متقدما على الأمور كلها من غير تقييد ولا تخصيص» قال أحمد : يريد أنه لم يذكر المفعول الذي يتقاضاه تقدموا ، باطراح ذلك المفعول كقوله يُحْيِي وَيُمِيتُ وحلى الكلام بمجاز التمثيل في قوله بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ بفائدة ليست في الكلام العريان ، وهو تصور الهجنة والشناعة فيما نهوا عنه من الاقدام على أمر دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة ، وجعل صورة ذلك المنهي عنه مثل أن يجلس العبد في الجهتين المسامتتين ليمين سيده ويساره ويوليه دبره ، ومعناه : أن لا تقدموا على أمر حتى يأذن اللّه ورسوله فيه فتكونوا مقتدين فيما تأتون وتذرون بكتاب اللّه وسنة نبيه.

فسميت الجهتان يدين لكونهما على سمت اليدين مع للقرب منهما توسعا ، كما يسمى الشيء باسم غيره إذا جاوره وداناه في غير موضع ، وقد جرت هذه العبارة هاهنا على سنن ضرب من المجاز ، وهو الذي يسميه أهل البيان تمثيلا. ولجريها هكذا فائدة جليلة ليست في الكلام العريان : وهي تصوير الهجنة والشناعة فيما نهوا عنه من الإقدام على أمر من الأمور دون الاحتذاء على أمثلة الكتاب والسنة : والمعنى : أن لا تقطعوا أمرا إلا بعد ما يحكمان به ويأذنان فيه ، فتكونوا إما عاملين بالوحي المنزل ، وإما مقتدين برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم. وعليه يدور تفسير ابن عباس رضى اللّه عنه. وعن مجاهد : لا تفتاتوا على اللّه شيئا حتى يقصه «1» على لسان رسوله. ويجوز أن يجرى مجرى قولك : سرني زيد وحسن حاله ، وأعجبت بعمرو وكرمه. وفائدة هذا الأسلوب : الدلالة على قوّة الاختصاص ، ولما كان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من اللّه بالمكان الذي لا يخفى : سلك به ذلك المسلك. وفي هذا تمهيد وتوطئة لما نقم منهم فيما يتلوه من رفع أصواتهم فوق صوته : لأنّ من أحظاه اللّه بهذه الأثرة واختصه هذا الاختصاص القوى : كان أدنى ما يجب له من التهيب والإجلال أن يخفض بين يديه الصوت ، ويخافت لديه بالكلام. وقيل : بعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إلى تهامة سرية سبعة وعشرين رجلا وعليهم المنذر بن عمرو الساعدي ، فقتلهم بنو عامر وعليهم عامر بن الطفيل ، إلا ثلاثة نفر نجوا فلقوا رجلين من بنى سليم قرب المدينة ، فاعتزيا لهم إلى بنى عامر ، لأنهم أعز من بنى سليم ، فقتلوهما وسلبوهما ، ثم أتوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال : «بئسما صنعتم كانا من سليم ، والسلب ما كسوتهما» فوداهما رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «2» ونزلت ، أى : لا تعملوا شيئا من ذات أنفسكم حتى تستأمروا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم.

وعن مسروق : دخلت على عائشة في اليوم الذي يشك فيه ، فقالت للجارية : اسقه عسلا ، فقلت : إنى صائم ، فقالت : قد نهى اللّه عن صوم هذا اليوم «3». وفيه نزلت. وعن الحسن أنّ أناسا ذبحوا يوم الأضحى قبل

(1). قوله «حتى يقصه على لسان رسوله» لعله : يقضيه. (ع)
(2). أخرجه البيهقي في الشعب في الخامس عشر من طريق مقاتل بن حيان قال «بلغنا أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بعث سرية واستعمل عليهم المنذر بن عمرو - فذكر قصة بئر معونة مطولا. وفيه هذا اللفظ. ورو :
الدلائل من طريق ابن إسحاق ، ومن طريق موسى بن عقبة : هذه القصة على غير هذا السياق وأن المقتولين بنى كلاب ، وأن الثلاثة قتل منهم واحد. وهو المحفوظ والمشهور في المغازي
(3). هكذا ذكره الثعلبي بغير سند. وذكره الدارقطني من رواية مالك بن حمزة بضم المهملة والراء. عن مسروق قال «دخلت على عائشة رضى اللّه عنها في اليوم الذي يشك فيه أنه يوم عرفة» ... الحديث
(4). أخرجه عبد الرزاق. حدثنا معمر عن الحسن في قوله تعالى يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ قال : هم قوم ذبحوا قبل أن يصلى النبي صلى اللّه عليه وسلم. فأمرهم أن يعيدوا الذبح» وأخرجه الطبري من رواية سعيد عن قتادة. قال «ذكر لنا أن ناسا كانوا يقولون : لو أنزل كذا ، لو صنع كذا ، لو قبل كذا» قال : وقال الحسن هم أناس ، فذكره.

إلا أن تزول الشمس. وعند الشافعي : يجوز الذبح إذا مضى من الوقت مقدار الصلاة.

وعن الحسن أيضا : لما استقرّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالمدينة أتته الوفود من الآفاق فأكثروا عليه بالمسائل ، فنهوا أن يبتدؤه بالمسئلة حتى يكون هو المبتدئ «1». وعن قتادة : ذكر لنا أنّ ناسا كانوا يقولون : لو أنزل فيه كذا لكان كذا ، فكره اللّه ذلك منهم وأنزلها.

وقيل : هي عامة في كل قول وفعل : ويدخل فيه أنه إذا جرت مسألة في مجلس رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم لم يسبقوه بالجواب ، وأن لا يمشى بين يديه إلا لحاجة ، وأن يستأنى «2» في الافتتاح بالطعام وَاتَّقُوا اللَّهَ فإنكم إن اتقيتموه عاقتكم التقوى عن التقدمة المنهي عنها وعن جميع ما تقتضي مراقبة اللّه تجنبه ، فإن التقىّ حذر لا يشافه أمرا «3» إلا عن ارتفاع الريب وانجلاء الشك في أن لا تبعة عليه فيه ، وهذا كما تقول لمن يقارف بعض الرذائل : لا تفعل هذا وتحفظ مما يلصق بك العار ، فتنهاه أوّلا عن عين ما قارفه ، ثم تعم وتشيع وتأمره بما لو امتثل فيه أمرك لم يرتكب تلك الفعلة وكل ما يضرب في طريقها ويتعلق بسببها إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ لما تقولون عَلِيمٌ بما تعملون ، وحق مثله أن يتقى ويراقب.

[سورة الحجرات (49) : آية 2]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ (2)

إعادة النداء عليهم : استدعاء منهم لتجديد الاستبصار عند كل خطاب وارد ، وتطرية الإنصات لكل حكم نازل ، وتحريك منهم لئلا يفتروا ويغفلوا عن تأملهم وما أخذوا به عند حضور مجلس رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من الأدب الذي المحافظة عليه تعود عليهم بعظيم الجدوى في دينهم ، وذلك لأنّ في إعظام صاحب الشرع إعظام ما ورد به ، ومستعظم الحق لا يدعه استعظامه أن يألو عملا بما يحدوه «4» عليه ، وارتداعا عما يصده عنه ، وانتهاء إلى كل خير ، والمراد بقوله لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ أنه إذا نطق ونطقتم فعليكم أن لا تبلغوا بأصواتكم وراء الحدّ الذي يبلغه بصوته ،

(1). لم أجده.
(2). قوله «و أن يستأنى في الافتتاح» أى : ينتظر. أفاده الصحاح. (ع)
(3). قوله «لا يشافه أمرا» أى : لا يتشاغل بأمر ، وفي الصحاح : «الشفه» : الشغل ، يقال : شفهنى عن كذا ، أى : شغلني. (ع)
(4). قوله «بما يحدوه عليه» أى : يحضه. (ع) [.....]

وأن تغضوا منها بحيث يكون كلامه عاليا لكلامكم ، وجهره باهرا لجهركم ، حتى تكون مزيته عليكم لائحة ، وسابقته واضحة ، وامتيازه عن جمهوركم كشية الأبلق «1» غير خاف ، لا أن تغمروا صوته بلغطكم وتبهروا منطقه بصخبكم.

وبقوله : ولا تجهروا له بالقول : إنكم إذا كلمتموه وهو صامت فإياكم والعدول عما نهيتم عنه من رفع الصوت ، بل عليكم أن لا تبلغوا به الجهر الدائر بينكم ، وأن تتعمدوا في مخاطبته القول اللين المقرّب من الهمس الذي يضادّ الجهر ، كما تكون مخاطبة المهيب المعظم ، عاملين بقوله عز اسمه وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وقيل معنى وَلا

(1). قوله «كشية الأبلق» في الصحاح «الشية» : لون يخالف معظم لون الفرس وغيره. وفيه أيضا : اللغط الصوت والجلبة. وفيه الصخب : الصياح والجلبة. (ع)
(2). ذكره الواحدي عن عطاء عن ابن عباس. ولم يسق سنده إليه. وأخرجه البزار وابن مردويه من طريق طارق بن شهاب عن أبى بكر. قال لما نزل يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ قلت :
يا رسول اللّه آليت ألا أكلمك إلا كأخى السرار حتى ألقى اللّه» وأخرجه الحاكم والبيهقي في المدخل من حديث أبى هريرة. قال «لما نزلت إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ - الآية قال أبو بكر. والذي أنزل عليك الكتاب يا رسول اللّه لا أكلمك إلا كأخى السرار حتى ألقى اللّه عز وجل «و قال صحيح على شرط مسلم
(3). أخرجه البخاري من حديث أبى الزبير. قال «لما نزلت يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْواتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ - الآية كان عمر بعد ذلك إذا حدث النبي صلى اللّه عليه وسلم حدثه كأخى السرار. لم يسمعه حتى يستفهمه.
(4). لم أجده

«اصرخ بالناس «1»» وكان العباس أجهر الناس صوتا «2». يروى : أنّ غارة أتتهم يوما فصاح العباس يا صباحاه ، فأسقطت الحوامل لشدّة صوته «3». وفيه يقول نابغة بنى جعدة :

زجر أبى عروة السّباع إذا أشفق أن يختلطن بالغنم «4»

زعمت الرواة أنه كان يزجر السباع عن الغنم فيفتق مرارة السبع في جوفه «5». وفي قراءة ابن مسعود : لا ترفعوا بأصواتكم والباء مزيدة محذوّ بها حذو التشديد في قول الأعلم الهذلي :

رفعت عينى بالحجا ز إلى أناس بالمناقب «6»

وليس المعنى في هذه القراءة أنهم نهوا عن الرفع الشديد ، تخيلا أن يكون ما دون الشديد مسوغا لهم ، ولكن المعنى نهيهم عما كانوا عليه من الجلبة ، واستجفاؤهم فيما كانوا يفعلون. وعن ابن عباس : نزلت في ثابت بن قيس بن شماس ، وكان في أذنه وقر ، وكان جهوري الصوت ، فكان إذا تكلم رفع صوته ، وربما كان يكلم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فيتأذى بصوته «7». وعن أنس أن هذه الآية لما نزلت : فقد ثابت ، فتفقده رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فأخبر بشأنه ، فدعاه ، فسأله فقال : يا رسول اللّه ، لقد أنزلت إليك هذه الآية ، وإنى رجل جهير الصوت. فأخاف أن يكون عملى قد حبط ، فقال له رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : لست هناك ، إنك تعيش بخير وتموت بخير ، وإنك من أهل الجنة «8» .. وأمّا ما يروى عن الحسن : أنها نزلت فيمن كان يرفع صوته من المنافقين فوق صوت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فمحمله والخطاب للمؤمنين : على أن ينهى المؤمنون ليندرج المنافقون تحت النهى ، ليكون الأمر أغلظ عليهم وأشق. وقيل : كان المنافقون يرفعون أصواتهم ليظهروا قلة مبالاتهم ، فيقتدى بهم ضعفة المسلمين. وكاف التشبيه في محل النصب ،

(1). لم أجده ، وقد تقدم أن ذلك كان يوم حنين ، والعباس لم يشهد أحدا.
(2). لم أجده
(3). لم أجده
(4). تقدم شرح هذا الشاهد بهذا الجزء صفحة 38 فراجعه إن شئت اه مصححه.
(5). لم أجده
(6). للأعلم الهذلي ، يقول : نظرت وأنا في الحجاز إلى من في المناقب. وهذان الموضعان بينهما مسافة بعيدة ، وهذا من شدة الشوق إلى من في المناقب.
(7). لم أجده
(8). متفق عليه من حديث أنس دون قوله «لست هناك ، وزاد أحمد والطبراني فيه : فقال أنس : فكنا نراه يمشى بين أظهرنا ونحن نعلم أنه من أهل الجنة».

أى : لا تجهروا له جهرا مثل جهر بعضكم لبعض. وفي هذا : أنهم لم ينهوا عن الجهر مطلقا ، حتى لا يسوغ لهم أن يكلموه إلا بالهمس والمخافتة ، وإنما نهوا عن جهر مخصوص مقيد بصفة ، أعنى : الجهر المنعوت بمماثلة ما قد اعتادوه منهم فيما بينهم ، وهو الخلو من مراعاة أبهة النبوّة وجلالة مقدارها ، وانحطاط سائر الرتب وإن جلت عن رتبتها أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ منصوب الموضع ، على أنه مفعول له ، وفي متعلقه وجهان ، أحدهما : أن يتعلق بمعنى النهى ، فيكون المعنى : انتهوا عما نهيتم عنه لحبوط أعمالكم ، أى : لخشية حبوطها على تقدير حذف المضاف ، كقوله تعالى يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا والثاني : أن يتعلق بنفس الفعل ، ويكون المعنى: أنهم نهوا عن الفعل الذي فعلوه لأجل الحبوط ، لأنه لما كان بصدد الأداء إلى الحبوط : جعل كأنه فعل لأجله ، وكأنه العلة والسبب في إيجاده على سبيل التمثيل ، كقوله تعالى لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا.

فإن قلت : لخص الفرق بين الوجهين. قلت : تلخيصه أن يقدر الفعل في الثاني مضموما إليه المفعول له ، كأنهما شيء واحد «1» ، ثم يصب النهى عليهما جميعا صبا. وفي الأوّل يقدر النهى موجها على الفعل على حياله ،

(1). قال محمود : «إنه مفعول له ومتعلقه إما معنى النهى ، كأنه قال : انتهوا كراهية حبوط أعمالكم على حذف مضاف ، كقوله يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَنْ تَضِلُّوا وأما نفس الفعل فهو المنهي عنه ، على معنى تنزيل صيرورة الجهر المنهي عنه إلى الحبوط. منزلة جعل الحبوط علة في الجهر على التمثيل ، من وادى لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَناً قال : وتلخيص الفرق بينهما أنه على الثاني يقدر انضمام المفعول من أجله إلى الفعل الأول ... الخ» قال أحمد : هو يحوم على شرعة وبيئة إياك. ورودها : وذلك أنه يعتقد أن ما دون الكفر ولو كبيرة واحدة تحبط العمل وتوجب الخلود في العذاب المقيم ، وتخرج المؤمن من اسم الايمان ورسمه ، ومعاذ الله من هذا المعتقد ، فعليك بعقيدة أهل السنة الممهدة في مواضع من هذا المجموع ، فجدد العهد بها : وهي اعتقاد أن المؤمن لا يخلد في النار ، وأن الجنة له بوعد الله حتم ولو كانت خطاياه ما دون الشرك أو ما يؤدى إليه كزبد البحر ، وأنه لا تحبط حسنة سيئة طارئة كائنة ما كانت سوى الشرك.
والزمخشري اغتنم الفرصة في ظاهر هذه الآية فنزلها على معتقده ووجه ظهورها فيما يدعيه : أن رفع الصوت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم معصية لا تبلغ الشرك ، وقد أخاف الله عباده من إحباطه الأعمال بها ، ولو كان الإحباط مقطوعا بنفيه : لم تستقم الاخافة به ، وأنى له أن يبلغ من ذلك آماله ، ونظم الكلام يأباه عنده البصر بمعناه ، فنقول : المراد في الآية النهى عن رفع الصوت على الإطلاق ، ومعلوم أن حكم النهي : الحذر مما يتوقع في ذلك من إيذاء النبي عليه السلام ، والقاعدة المختارة أن إيذاءه عليه الصلاة والسلام يبلغ مبلغ الكفر المحبط للعمل باتفاق ، فورد النهى عما هو مظنة لأذى النبي عليه الصلاة والسلام سواء وجد هذا المعنى أولا ، حماية للذريعة وحسما للمادة ، ثم لما كان هذا المنهي عنه وهو رفع الصوت منقسما إلى ما يبلغ ذلك المبلغ أولا ، ولا دليل يميز أحد القسمين عن الآخر : لزم المكلف أن يكف عن ذلك مطلقا ، وخوف أن يقع فيهما هو محبط للعمل ، وهو البالغ حد الإيذاء ، إذ لا دليل ظاهر يميزه ، وإن كان فلا يتفق تمييزه في كثير من الأحيان ، وإلى التباس أحد القسمين بالآخر وقعت الاشارة بقوله أَنْ تَحْبَطَ أَعْمالُكُمْ وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ وإلا فلو كان الأمر على ما يعتقده الزمخشري : لم يكن لقوله وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ موقع ، إذ الأمر بين أن يكون رفع الصوت مؤذيا فيكون كفرا محبطا قطعا ، وبين أن يكون غير مؤذ فيكون كبيرة محبطة ، على رأيه قطعا ، فعلى كلا حاليه الإحباط به محقق ، إذا فلا موقع لادعام الكلام بعدم الشعور ، مع أن الإحباط ثابت مطلقا ، والله أعلم وهذا التقرير الذي ذكرته يدور على مقدمتين كلتا هما صحيحة إحداهما : أن رفع الصوت من جنس ما يحصل به الإيذاء ، وهذا أمر يشهد به النقل والمشاهدة الآن ، حتى إن الشيخ ليتأذى برفع التلميذ صوته بين يديه ، فكيف برتبة النبوة وما يستحقه من الإجلال والإعظام.
المقدمة الأخرى : أن إيذاء النبي صلى الله عليه وسلم كفر ، وهذا أمر ثابت قد نص عليه أئمتنا وأفتوا بقتل من تعرض لذلك كفرا ، ولا تقبل توبته ، فما أتاه أعظم عند الله وأكبر ، والله الموفق.

ثم يعلل له منهيا عنه. فإن قلت : بأى النهيين تعلق المفعول له؟

قلت : بالثاني عند البصريين ، مقدرا إضماره عند الأوّل ، كقوله تعالى آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً وبالعكس عند الكوفيين ، وأيهما كان فمرجع المعنى إلى أنّ الرفع والجهر كلاهما منصوص أداؤه إلى حبوط العمل : وقراءة ابن مسعود : فتحبط أعمالكم ، أظهر نصا بذلك ، لأنّ ما بعد الفاء لا يكون إلا مسببا عما قبله ، فيتنزل الحبوط من الجهر منزلة الحلول من الطغيان في قوله تعالى فَيَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبِي والحبوط من حبطت الإبل : إذا أكلت الخضر فنفخ بطونها ، وربما هلكت. ومنه قوله عليه الصلاة والسلام «و إن مما ينبت الربيع لما يقتل حبطا أو يلم» «1» ومن أخواته : حبجت الإبل ، إذا أكلت العرفج «2» فأصابها ذلك. وأحبض عمله : مثل أحبطه. وحبط الجرح وحبر : إذا غفر ، وهو نكسه وترامیه إلى الفساد : جعل العمل السيئ في إضراره بالعمل الصالح كالداء والحرض «3» لمن يصاب به ، أعاذنا الله من حبط الأعمال وخيبة الآمال. وقد دلت الآية على أمرين هائلين ، أحدهما : أن فيما يرتكب من يؤمن من الآثام ما يحبط عمله.

والثاني : أن في آثامه ما لا يدرى أنه محبط ، ولعله عند الله كذلك ، فعلى المؤمن أن يكون في تقواه كالماشى في طريق شائك لا يزال يحترز ويتوقى ويتحفظ.

[سورة الحجرات (49) : آية 3]

إِنَّ الَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْواتَهُمْ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ أُولئِكَ الَّذِينَ امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ (3)

امْتَحَنَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوى من قولك : امتحن فلان لأمر كذا وجرب له ، ودرب للنهوض به. فهو مضطلع به غير وان عنه. والمعنى أنهم صبر على التقوى ، أقوياء على احتمال مشاقها.

أو وضع الامتحان موضع المعرفة ، لأنّ تحقق الشيء باختباره ، كما يوضع الخبر موضعها ، فكأنه قيل : عرف اللّه قلوبهم للتقوى ، وتكون اللام متعلقة بمحذوف ، واللام هي التي في قولك : أنت لهذا الأمر ، أى كائن له ومختص به قال : أنت لها أحمد من بين البشر «4»

(1). أخرجه مسلم وغيره. [.....]
(2). قوله «إذا أكلت العرفج» في الصحاح : شجر ينبت في السهل ، الواحدة : عرفجة. (ع)
(3). قوله «كالداء والحرض» أى الفساد. أفاده الصحاح.
(4). رائعة : خالية من الحشو والتعقيد ، وصوغتها - بالتشديد - : للمبالغة ، وأنت لها : أى أهل لها وكفؤ ، وأحمد : منادى ، ومن بين البشر : متعلق بمحذوف حال ، أى : منتخبا من بينهم. ويجوز أن «أحمد» أفعل تفضيل ، كذا قيل.

أعدّاء من لليعملات على الوجى «1»

وهي مع معمولها منصوبة على الحال. أو ضرب اللّه قلوبهم بأنواع المحن والتكاليف الصعبة لأجل التقوى ، أى لتثبت وتظهر تقواها ، ويعلم أنهم متقون ، لأن حقيقة التقوى لا تعلم إلا عند المحن والشدائد والاصطبار عليها. وقيل أخلصها للتقوى. من قولهم : امتحن الذهب وفتنه ، إذا أذا به فخلص إبريزه من خبثه ونقاه. وعن عمر رضى اللّه عنه : أذهب الشهوات عنها.

والامتحان : افتعال ، من محنه ، وهو اختبار بليغ أو بلاء جهيد. قال أبو عمرو : كل شيء جهدته فقد محنته. وأنشد :

أتت رذايا باديا كلالها قد محنت واضطربت آطالها «2»

قيل : أنزلت في الشيخين رضى اللّه عنهما ، لما كان منهما من غض الصوت والبلوغ به أخا السرار. وهذه الآية بنظمها الذي رتبت عليه من إيقاع الغاضين أصواتهم اسما لإنّ المؤكدة.

وتصيير خبرها جملة من مبتدإ وخبر معرفتين معا. والمبتدأ : اسم الإشارة ، واستئناف الجملة المستودعة ما هو جزاؤهم على عملهم ، وإيراد الجزاء نكرة : مبهما أمره ناظرة في الدلالة على غاية الاعتداد والارتضاء لما فعل الذين وقروا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من خفض أصواتهم ، وفي الإعلام بمبلغ عزة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وقدر شرف منزلته ، وفيها تعريض بعظيم ما ارتكب الرافعون أصواتهم واستيجابهم ضد ما استوجب هؤلاء.

[سورة الحجرات (49) : الآيات 4 إلى 5]

إِنَّ الَّذِينَ يُنادُونَكَ مِنْ وَراءِ الْحُجُراتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ (4) وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا حَتَّى تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكانَ خَيْراً لَهُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (5)

(1) أعداء من لليعملات على الوجا وأضياف بيت بيتوا لنزول
أعداء ما للعيش بعدك لذة ولا لخليل بهجة بخليل
أعداء ما وجدي عليك بهين ولا الصبر إن أعطيته بجميل
لعتبة بن مالك العقيلي ، يرثى عداء صاحبه. والهمزة للنداء. وعداء - كفعال - : على صيغة المبالغة ، أى : يا من كان معدا لاغاثة المطايا الكثيرات العمل ، والسفر مع الوجاء وهو الحفاء في أخفافها من كثرة السير ، واليعملات : جمع يعملة ، والبعير يعمل ، ومن كان معدا لأضياف بيته الذين يبيتون للنزول والاستراحة عنده. والعيش : الحياة ، أو ما يعاش به. والبهجة : السرور. والوجد : الحزن. وإن أعطيته : اعتراض ، دل على أنه لم يصبر. ونفى جمال الصبر مبالغة في عظم عداء عنده وحبه إياه ، وكرر النداء لإظهار التفجع.
(2). الرذايا جمع رذية وهي الناقة المهزولة الضعيفة. ومحنته : بلوته. ويقال : محنت ناقتي أجهدتها في السير. ومحنت الجلد : مددته ووسعته. والآطال : جمع أطل وهو الخاصرة ، كأسباب وسبب. يقول : أتت المطايا مهازيل ظاهرا ملالها وتعبها من السير ، قد أجهدت تلك النوق بالسير. أو قد تدلت واضطربت خواصرها من شدة الجوع ويروى : أوصالها ، أى : أعضاؤها.

والوراء : الجهة التي يواريها عنك الشخص بظله من خلف أو قدام «1». ومن لابتداء الغاية ، وأنّ المناداة نشأت من ذلك المكان. فإن قلت : فرق بين الكلامين بين ما تثبت فيه وما تسقط عنه. قلت : الفرق بينهما أنّ المنادى والمنادى في أحدهما يجوز أن يجمعهما الوراء ، وفي الثاني : لا يجوز لأنّ الوراء تصير بدخول من مبتدأ الغاية ، ولا يجتمع على الجهة الواحدة أن تكون مبتدأ ومنتهى لفعل واحد ، والذي يقول : ناداني فلان من وراء الدار. لا يريد وجه الدار ولا دبرها ، ولكن أى قطر من أقطارها الظاهرة كان مطلقا بغير تعيين واختصاص ، والإنكار لم يتوجه عليهم من قبل أنّ النداء وقع منهم في أدبار الحجرات أو في وجوهها ، وإنما أنكر عليهم أنهم نادوه من البرّ «2» والخارج مناداة الأجلاف بعضهم لبعض ، من غير قصد إلى جهة دون جهة. والحجرة : الرقعة من الأرض المحجورة بحائط يحوط عليها ، وحظيرة الإبل تسمى الحجرة ، وهي فعلة بمعنى مفعولة ، كالغرفة والقبضة ، وجمعها : الحجرات - بضمتين ، والحجرات - بفتح الجيم ، والحجرات بتسكينها. وقرئ بهنّ جميعا ، والمراد : حجرات نساء رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وكانت لكل واحدة منهنّ حجرة. ومناداتهم من ورائها يحتمل أنهم قد تفرّقوا على الحجرات متطلبين له ، فناداه بعض من وراء هذه ، وبعض من وراء تلك ، وأنهم قد أتوها حجرة حجرة فنادوه من ورائها ، وأنهم نادوه منوراء الحجرة التي كان فيها ، ولكنها جمعت إجلالا لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ولمكان حرمته.

والفعل وإن كان مسندا إلى جميعهم فإنه يجوز أن يتولاه بعضهم ، وكان الباقون راضين ، فكأنهم تولوه جميعا ، فقد ذكر الأصم أنّ الذي ناداه عيينة بن حصن والأقرع بن حابس. والإخبار عن أكثرهم بأنهم لا يعقلون : يحتمل أن يكون فيهم من قصد بالمحاشاة. ويحتمل أن يكون الحكم بقلة العقلاء فيهم قصدا إلى نفى أن يكون فيهم من يعقل ، فإنّ القلة تقع موقع النفي في كلامهم. وروى أن وفد بنى تميم أتوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وقت الظهيرة وهو راقد،

(1). قال محمود : «الوراء الجهة التي يواريها عنك الشخص بظله من خلف أو قدام ... الخ» قال أحمد :
ولقد اغتر بعضهم في تبكيت بنى تميم بما لا تساعده عليه الآية ، فإنها نزلت في المتولين لمناداة النبي عليه الصلاة والسلام ، أو في الحاضرين حينئذ الراضين بفعل المنادين له ، وقد سئل عليه الصلاة والسلام عنهم فقال : هم جفاة بنى تميم ، وعلى الجملة وَلا تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى فكيف يسوغ إطلاق اللسان بالسوء في حق أمة عظيمة لأن واحدا منهم أو اثنين ارتكب جهالة وجفاء ، فقد ورد أن المنادى له عليه السلام : هو الأقرع ، هذا مع توارد الأحاديث في فضائل تميم وتخليدها وجوه الكتب الصحاح.
(2). قوله «أنهم نادوه من البر والخارج» الظاهر أن تفسيره ما بعده. وفي الصحاح «في مادة برر» أن البرية هي الصحراء. وفي مادة ضمن : في تفسير قوله عليه الصلاة والسلام في بعض كتبه : «إن لنا الضاحية من البعل ولكم الضامنة من النخل» ما نصه : فالضاحية : هي الظاهرة التي في البر من النخل ، والضامنة : ما تضمنها أمصارهم وقراهم. (ع)

فجعلوا ينادونه : محمد اخرج إلينا ، فاستيقظ فخرج «1» ونزلت. وسئل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عنهم فقال : «هم جفاة بنى تميم ، لولا أنهم من أشدّ الناس قتالا للأعور الدجال لدعوت اللّه عليهم أن يهلكهم» «2» فورود الآية على النمط الذي وردت عليه فيه مالا يخفى على الناظر : من بينات إكبار محل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وإجلاله : منها مجيئها على النظم المسجل على الصائحين به بالسفه والجهل ، لما أقدموا عليه. ومنها لفظ الحجرات وإيقاعها كناية عن موضع خلوته. ومقيله مع بعض نسائه.

ومنها : المرور على لفظها بالاقتصار على القدر الذي تبين به ما استنكر عليهم. ومنها : التعريف باللام دون الإضافة. ومنها : أن شفع ذمهم باستجفائهم واستركاك عقولهم وقلة ضبطهم لمواضع التمييز في المخاطبات ، تهوينا للخطب على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وتسلية له ، وإماطة لما تداخله من إيحاش تعجرفهم وسوء أدبهم ، وهلم جرا : من أوّل السورة إلى آخر هذه الآية ، فتأمّل كيف ابتدئ بإيجاب أن تكون الأمور التي تنتمى إلى اللّه ورسوله متقدّمة على الأمور كلها من غير حصر ولا تقييد ، ثم أردف ذلك النهى عما هو من جنس التقديم من رفع الصوت والجهر. كأن الأوّل بساط للثاني ووطاء لذكره ما هو ثناء على الذين تحاموا ذلك فغضوا أصواتهم ، دلالة على عظيم موقعه عند اللّه ، ثم جيء على عقب ذلك بما هو أطم وهجنته أتم : من الصياح برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في حال خلوته ببعض حرماته من وراء الجدر ، كما يصاح بأهون الناس قدرا ، لينبه على فظاعة من أجروا إليه وجسروا عليه ، لأنّ من رفع اللّه قدره على أن يجهر له بالقول حتى خاطبه جلة المهاجرين «3» والأنصار بأخى السرار ، كان صنيع هؤلاء من المنكر الذي بلغ من التفاحش مبلغا ، ومن هذا وأمثاله يقتطف ثمر الألباب وتقتبس محاسن الآداب ،

(1). أخرجه ابن اسحق في السيرة قال : «قدمت وفود العرب على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فذكر القصة قال : ولما قدم وفد بنى تميم دخلوا المسجد. فنادوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم من وراء الحجرات يا محمد اخرج إلينا - فذكره إلى آخره» وأخرجه ابن مردويه من رواية ابن إسحاق عن الكلبي عن أبى صالح عن ابن عباس قال «لما قدم وفد بنى تميم وهم سبعون رجلا - فذكره مطولا. وأخرجه ابن مندة في المعرفة. وأورده الثعلبي من طريق يعلى بن عبد الرحمن عن عبد الحميد بن جعفر عن شمر بن الحكم

(2). أخرجه الثعلبي من رواية هاشم بن القاسم الحراني عن يعلى بن الأشدق حدثنا سعد بن عبد اللّه : أن النبي صلى اللّه عليه وسلم - فذكره : ولمسلم من حديث أبى هريرة «لا أزال أحب بنى تميم لثلاث - فذكر فيه «و هم أشد أمتى على الدجال».
(3). قوله «حتى خاطبه جلة المهاجرين» معظم المهاجرين. (ع)

كما يحكى عن أبى عبيد - ومكانه من العلم والزهد وثقة الرواية ما لا يخفى - أنه قال : ما دققت بابا على عالم قط حتى يخرج في وقت خروجه أَنَّهُمْ صَبَرُوا في موضع الرفع على الفاعلية ، لأنّ المعنى : ولو ثبت صبرهم. والصبر : حبس النفس عن أن تنازع إلى هواها. قال اللّه تعالى وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ وقولهم : صبر عن كذا ، محذوف منه المفعول ، وهو النفس ، وهو حبس فيه شدّة ومشقة على المحبوس ، فلهذا قيل للحبس على اليمين أو القتل : صبر. وفي كلام بعضهم : الصبر مرّ لا يتجرّعه إلا حرّ. فإن قلت : هل من فرق بين حَتَّى تَخْرُجَ وإلى أن تخرج؟ قلت : إنّ «حتى» مختصة بالغاية المضروبة.

تقول : أكلت السمكة حتى رأسها ، ولو قلت : حتى نصفها ، أو صدرها : لم يجز ، و«إلى» عامّة في كل غاية، فقد أفادت «حتى» بوضعها : أنّ خروج رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم إليهم غاية قد ضربت لصبرهم ، فما كان لهم أن يقطعوا أمرا دون الانتهاء إليه. فإن قلت : فأى فائدة في قوله إِلَيْهِمْ؟ قلت : فيه أنه لو خرج ولم يكن خروجه إليهم ولأجلهم ، للزمهم أن يصبروا إلى أن يعلموا أنّ خروجه إليهم لَكانَ خَيْراً لَهُمْ في «كان» إما ضمير فاعل الفعل المضمر بعد لو ، وإما ضمير مصدر صَبَرُوا ، كقولهم : من كذب كان شرا له وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ بليغ الغفران والرحمة واسعهما ، فلن يضيق غفرانه ورحمته عن هؤلاء إن تابوا وأنابوا.

[سورة الحجرات (49) : الآيات 6 إلى 8]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ (6) وَاعْلَمُوا أَنَّ فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ لَوْ يُطِيعُكُمْ فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ لَعَنِتُّمْ وَلكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيانَ أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ (7) فَضْلاً مِنَ اللَّهِ وَنِعْمَةً وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (8)

بعث رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم الوليد بن عقبة أخا عثمان لأمّه - وهو الذي ولاه عثمان الكوفة بعد سعد بن أبى وقاص ، فصلى بالناس وهو سكران صلاة الفجر أربعا ، ثم قال : هل أزيدكم ، فعزله عثمان «1» عنهم - مصدّقا إلى بنى المصطلق ، وكانت بينه وبينهم إحقة ، فلما شارف ديارهم ركبوا مستقبلين له ، فحسبهم مقاتليه، فرجع وقال لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم :

(1). أخرجه مسلم من طريق أبى ساسان حصين بن منذر قال شهدت عثمان أخى الوليد بن عقبة وقد صلى الغداة بالكوفة أربعا - الحديث بطوله» وأخرجه ابن إسحاق والنسائي من هذا الوجه وقالوا فيه «و قد صلى للغداة أربعا»

قد ارتدوا ومنعوا الزكاة «1» ، فغضب رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وهمّ أن يغزوهم ، فبلغ القوم فوردوا وقالوا : نعوذ باللّه من غضبه وغضب رسوله ، فاتهمهم فقال : «لتنتهنّ أو لأبعثنّ إليكم رجلا هو عندي كنفسي يقاتل مقاتلتكم ويسبى ذراريكم» ثم ضرب بيده على كتف على رضى اللّه عنه. وقيل : بعث إليهم خالد بن الوليد فوجدهم منادين بالصلوات متهجدين ، فسلموا إليه الصدقات «2» ، فرجع. وفي تنكير الفاسق والنبأ : شياع في الفساق والأنباء ، كأنه قال : أىّ فاسق جاءكم بأىّ نبإ «3». فتوقفوا فيه وتطلبوا بيان الأمر وانكشاف الحقيقة ، ولا تعتمدوا قول الفاسق «لأنّ من لا يتحامى جنس الفسوق لا يتحامى الكذب الذي هو نوع منه.

والفسوق : الخروج من الشيء والانسلاخ منه. يقال : فسقت الرطبة عن قشرها. ومن مقلوبه : قفست البيضة ، إذا كسرتها وأخرجت ما فيها. ومن مقلوبه أيضا : قفست الشيء إذا أخرجته عن يد مالكه مغتصبا له عليه ، ثم استعمل في الخروج عن القصد والانسلاخ من الحق.

قال رؤبة : فواسقا عن قصدها جوائرا «4»

وقرأ ابن مسعود : فتثبتوا. والتثبت والتبين : متقاربان ، وهما طلب الثبات والبيان والتعرّف ، ولما كان رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وآله وسلم والذين معه بالمنزلة التي لا يجسر أحد أن يخبرهم بكذب ، وما كان يقع مثل ما فرط من الوليد إلا في الندرة. قيل : إن جاءكم بحرف الشك وفيه أنّ على المؤمنين أن يكونوا على هذه الصفة، لئلا يطمع فاسق في مخاطبتهم بكلمة زور أَنْ تُصِيبُوا مفعول له ، أى : كراهة إصابتكم قَوْماً بِجَهالَةٍ

والندم : ضرب من الغم ، وهو : أن تغتمّ على ما وقع منك تتمنى أنه لم يقع ، وهو غم يصحب الإنسان صحبة لها دوام ولزام ،

(1). أخرجه إسحاق والطبراني من حديث أم سلمة. دون قوله «فاتهمهم فقال لتنتهن أو لأبعثن إليكم رجلا هو عندي كنفسي يقاتل مقاتلتكم الخ» وعندهما بدل ذلك «فما زالوا يعتذرون إليه حتى نزلت فيهم الآية» وفيه موسى بن عبيدة ، وهو ضعيف ونحوه رواه أحمد والطبراني أيضا من حديث الحارث بن دثار الخزاعي أخرجه ابن مردويه من طريق عبد الله بن عبد القدوس عن الأعمش عن موسى بن المسيب عن سالم بن أبى الجعد. عن جابر قال :
بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم الوليد بن عقبة - فذكر الحديث بنحوه وزاد فقال عليه الصلاة والسلام : لتنتهن أو لأبعثن إليكم رجلا - فذكره.
(2). لم أره.
(3). قال محمود : «نكر فاسقا ونبأ لقصد الشياع ، فكأنه قيل أىّ فاسق جاء بأي نبأ» قال أحمد : تسامح بلفظ الشياع والمراد الشمول ، لأن النكرة إذا وقعت في سياق الشرط تعم ، كما إذا وقعت في سياق النفي ، والله أعلم. [.....]
(4). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 119 فراجعه إن شئت اه مصححه.

لأنه كلما تذكر المتندّم عليه راجعه من الندام : وهو لزام الشريب ودوام صحبته. ومن مقلوباته : أدمن الأمر أدامه. ومدن بالمكان : أقام به. ومنه : المدينة وقد تراهم يجعلون الهم صاحبا ونجيا وسميرا وضجيعا ، وموصوفا بأنه لا يفارق صاحبه. الجملة المصدّرة بلو لا تكون كلاما مستأنفا ، لأدائه إلى تنافر النظم «1» ، ولكن متصلا بما قبله حالا من أحد الضميرين في فيكم المستتر المرفوع ، أو البارز المجرور. وكلاهما مذهب سديد. والمعنى : أن فيكم رسول الله على حالة يجب عليكم تغييرها. أو أنتم على حالة يجب عليكم تغييرها : وهي أنكم تحاولون منه أن يعمل في الحوادث على مقتضى ما يعنّ لكم من رأى ، واستصواب فعل المطواع لغيره التابع له فيما يرتئيه ، المحتذى على أمثلته ، ولو فعل ذلك لَعَنِتُّمْ أى لوقعتم في العنت والهلاك. يقال : فلان يتعنت فلانا ، أى : يطلب ما يؤدّيه إلى الهلاك. وقد أعنت العظم : إذا هيض «2» بعد الجبر. وهذا يدل على أن بعض المؤمنين زينوا لرسول الله صلى الله عليه وسلم الإيقاع ببني المصطلق وتصديق قول الوليد. وأن نظائر ذلك من الهنات كانت تفرط منهم ، وأن بعضهم كانوا يتصوّنون ويزعهم جدّهم في التقوى عن الجسارة على ذلك ، وهم الذين استثناهم بقوله تعالى وَلكِنَّ اللَّهَ حَبَّبَ إِلَيْكُمُ الْإِيمانَ أى إلى بعضكم ، ولكنه أغنت عن ذكر البعض : صفتهم المفارقة لصفة غيرهم ، وهذا من إيجازات القرآن ولمحاته اللطيفة ، التي لا يفطن لها إلا الخواص. وعن بعض المفسرين : هم الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى. وقوله أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أى : أولئك المستثنون هم الراشدون يصدق ما قلته. فإن قلت : ما فائدة تقديم خبر إن على اسمها؟ قلت : القصد إلى توبيخ بعض المؤمنين على ما استهجن الله منهم من استتباع رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم لآرائهم ، فوجب تقديمه لانصباب الغرض إليه. فإن قلت : فلم قيل يُطِيعُكُمْ دون : أطاعكم؟ قلت : للدلالة على أنه كان في إرادتهم استمرار عمله على ما يستصوبونه. وأنه كلما عنّ لهم رأى في أمر كان معمولا عليه ،

(1). قال محمود : «الجملة المصدرة بلو لا تكون مستأنفة ، لأدائه إلى تنافر النظم ... الخ» قال أحمد : من جملة هنات المعتزلة : ثلبهم على عثمان رضى الله عنه ووقوفهم عن الحكم بتعنيف قتلته ، فضم إلى هذا المعتقد غير معرج عليه : ما أورده الزمخشري في هذا الموضع من حكايات تولية عثمان لأخيه الوليد الفاعل تلك الفعلة الشنعاء عوضا عن سعد بن أبى وقاص أحد الصحابة ، وما عرض به من أن بعض الصحابة كان يصدر منهم هنات ، فمنها مطالبتهم النبي صلى الله عليه وسلم باتباع آرائهم التي من جملتها تصديق الوليد في الإيقاع ببني المصطلق ، فإذا ضممت هذه النبذة التي ذكرها إرسالا إلى ما علمت من معتقده : تبين لك من حال - أعنى الزمخشري - ما لا أطيق التصريح به ، لأنه لم يصرح وإنما سلكنا معه سبيل الانصاف ومحجة الانتصاف : نص بنص ، وتلويح بتلويح ، فنسأل الله العظيم - بعد الصلاة على نبيه محمد خاتم النبيين - أن يرضى عن أصحابه أجمعين ، وعنا بهم آمين.
(2). قوله «إذا هيض بعد الجبر» في الصحاح : هاض العظم يهيضه هيضا : كسره بعد الجبر. وفيه أيضا :
جبرت العظم جبرا ، وجبر العظم بنفسه جبورا ، أى : انجبر. (ع)

بدليل قوله فِي كَثِيرٍ مِنَ الْأَمْرِ كقولك : فلان يقرى الضيف ويحمى الحريم ، تريد : أنه مما اعتاده ووجد منه مستمرّا. فإن قلت : كيف موقع لكِنْ وشريطتها مفقودة : من مخالفة ما بعدها لما قبلها نفيا وإثباتا؟ قلت : هي مفقودة من حيث اللفظ ، حاصلة من حيث المعنى لأن الذين حبب إليهم الإيمان قد غايرت صفتهم صفة المتقدّم ذكرهم ، فوقعت ، لكنّ في حاق موقعها من الاستدراك. ومعنى تحبيب الله وتكريهه اللطف والإمداد بالتوفاق «1» ، وسبيله الكناية كما سبق ، وكل ذى لب وراجع إلى بصيرة وذهن لا يغبى عليه أن الرجل لا يمدح بغير فعله ، وحمل الآية على ظاهرها يؤدّى إلى أن يثنى عليهم بفعل الله ، وقد نفى الله هذا عن الذين أنزل فيهم وَيُحِبُّونَ أَنْ يُحْمَدُوا بِما لَمْ يَفْعَلُوا فإن قلت : فإنّ العرب تمدح بالجمال وحسن الوجوه ، وذلك فعل الله ، وهو مدح

(1). عاد كلامه. قال : «و معنى تحبيب الله وتكريهه اللطف والامداد بالتوفيق ... الخ» قال أحمد : تلجلج والحق أبلج ، وزاغ والسبيل منهج ، وقاس الخلق بالواحد الحق ، وجعل أفعالهم لهم من إيمان وكفر وخير وشر ، اغترارا بحال اعتقد اطراده في الشاهد ، وهو أن الإنسان لا يمدح بفعل غيره ، وقاس الغائب على الشاهد تحكما ، وتغلغل باتباع هوى معجما ، فجره ذلك بل جرأه على تأويل الآية وإبطال ما ذكرته من نسبة تحبيب الايمان إلى الله تعالى على حقيقته ، وجعله مجازا لأنه يعتقد أنها لو بقيت على ظاهرها لكان خلق الايمان مضافا إلى الله تعالى ، والعبد إذا ممدوح بما ليس من فعله. وهذا عنده محال ، فأتبع الآية رأيه الفاسد ، فإذا عرضت عليه الأدلة العقلية على الوحدانية ، والنقلية على أنه لا خالق إلا الله خالق كل شيء ، وطولب بابقاء الآية على ظاهرها المؤيد بالعقل والنقل، فانه يتمسك في تأويلها بالحبال المذكورة في التحكم بقياس الغائب على الشاهد ، مما له إدلاء إلى تعويج كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فالذي نعتقده - ثبتنا الله على الحق - أن الله تعالى منح ومدح وأعطى وامتن ، فلا موجود إلا الله وصفاته وأفعاله ، غير أنه تعالى جعل أفعاله بعضها محلا لبعض ، فسمى المحل فاعلا والحال فعلا ، فهذا هو التوحيد الذي لا محيص عنه للمؤمن ولا محيد ، ولا بد أن أطارحه القول فأقول :
أخبرني عن ثناء الله على أنبيائه ورسله بما حاصله اصطفاؤه لهم لاختياره إياهم : هل بمكتسب أم بغير مكتسب ، فلا يسعه أن يقول إلا أنه أثنى عليهم بما لم يكتسبوه ، بل بما وهبه إياهم فاتهبوه. وإن عرج على القسم الآخر وهو دعوى أنهم أثنى عليهم بمكتسب لهم من رسالة أو نبوة ، فقد خرج عن أهل الملة ، وانحرف عن أهل القبلة ، وهذه البذة كفاية إن شاء الله تعالى.
(2). قوله «حسن الرواء» في الصحاح : الرواء - بالضم - : المنظر. (ع)
(3). قوله «ما في الدميم وجهه» في الصحاح «الدميم» : القبيح. (ع)

والْفُسُوقَ الخروج عن قصد الإيمان ومحجته بركوب الكبائر وَالْعِصْيانَ ترك الانقياد والمضي لما أمر به الشارع. والعرق العاصي : العانذ «1». واعتصت النواة : اشتدّت. والرشد : الاستقامة على طريق الحق مع تصلب فيه من الرشادة وهي الصخرة : قال أبو الوازع : كل صخرة رشادة. وأنشد :

وغير مقلّد وموشّمات صلين الضّوء من صمّ الرّشاد «2»

وفَضْلًا مفعول له ، أو مصدر من غير فعله «3». فإن قلت : من أين جاز وقوعه مفعولا له ، والرشد فعل القوم ، والفضل فعل الله تعالى ، والشرط أن يتحد الفاعل. قلت : لما وقع الرشد عبارة عن التحبيب والتزيين والتكريه ، مسندة إلى اسمه تقدست أسماؤه : صار الرشد كأنه فعله ، فجاز أن ينتصب عنه أو لا ينتصب عن الراشدون ، ولكن عن الفعل المسند إلى اسم الله تعالى ، والجملة التي هي أُولئِكَ هُمُ الرَّاشِدُونَ اعتراض. أو عن فعل مقدر ، كأنه قيل : جرى ذلك ، أو كان ذلك فضلا من الله. وأما كونه مصدرا من غير فعله ، فأن يوضع موضع رشدا ، لأنّ رشدهم فضل من الله لكونهم موفقين فيه ، والفضل والنعمة بمعنى الإفضال والإنعام وَاللهُ عَلِيمٌ بأحوال المؤمنين وما بينهم من التمايز والتفاضل حَكِيمٌ حين يفضل وينعم بالتوفيق على أفاضلهم.

(1). قوله «و العرق العاصي : العانذ» في الصحاح : عنذ العرق : سال ولم يرقأ ، فهو عرق عانذ. (ع)
(2). الظاهر أن الشاعر يصف الديار بأنها لم يبق فيها غير وتد الخباء المقلد بالحبل ، وغير الأثافى المغير لونها بالنار. والوشم والتوشيم : تغيير اللون ، أى : التي احترقت بضوءها أى حرها. ومن صم الرشاد : بيان لها.
والصم : جمع صماء ، أى : صلبة. والرشاد الصخر. واحدة رشادة. وقيل : يصف مطايا بأنها مطبوعة على العمل غير محتاجة الزمام ، وأنها غيرها أثر السير قوية ، بحيث يظهر الشرر من شدة وقع خفافها على الصخر الصلب.
(3). أعرب الزمخشري فضلا في الآية مفعولا لأجله ، منصبا عن قوله : الراشدون ... الخ. قال أحمد : أورد الاشكال بعد تقرير أن الرشد ليس من فعل الله تعالى ، وإنما هو فعلهم حقيقة على ما هو معتقده ، ونحن بنينا على ما بينا : أن الرشد من أفعال الله ومخلوقاته، فقد وجد شرط انتصاب المفعول له ، وهو اتحاد فاعل الفعلين ، على أن الاشكال وارد نصا على تقريرنا على غير الحد الذي أورده عليه الزمخشري ، بل من جهة أن الله تعالى خاطب خلقه بلغتهم المعهودة عندهم. ومما يعهدونه أن الفاعل من نسب إليه الفعل ، وسواء كان ذلك حقيقة أو مجازا حتى يكون زيد فاعلا وانقض الحائط وأشباهه كذلك. وقد نسب الرشد إليهم على طريقة أنهم الفاعلون وإن كانت النسبة مجازية باعتبار المعتقد ، وإذا تقرر وروده على هذا الوجه فلك في الجواب عنه طريقان : إما جواب الزمخشري ، وإما أمكن منه وأبين : وهو أن الرشد هنا يستلزم كونه راشدا ، إذ هو مطاوعه ، لأن الله تعالى أرشدهم فرشدوا.
وحينئذ يتحد الفاعل على طريقة الصناعة المطابقة للحقيقة وهو عكس قوله يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً فان الاشكال بعينه وارد فيها ، إذ الخوف والطمع فعلهم ، أى : منسوب إليهم على طريقة أنهم الخائفون الطامعون ، والفعل الأول لله تعالى ، لأنه مريهم ذلك ، والجواب عنه : أنهم مفعولون في معنى الفاعلين ، بواسطة استلزام المطاوعة ، لأنه إذا أراهم فقد رأوا. وقد سلف هذا الجواب مكانه ، فصححت الكلام هاهنا بتقدير المفعول فاعلا وعكسه آية الحجرات ، إذ تصحيح الكلام فيها بتقدير الفاعل مفعولا ، وهذا من دقائق العربية فتأمله، والله الموفق.

[سورة الحجرات (49) : آية 9]

وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما فَإِنْ بَغَتْ إِحْداهُما عَلَى الْأُخْرى فَقاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلى أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فاءَتْ فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (9)

عن ابن عباس رضى اللّه عنهما قال : وقف رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم على مجلس بعض الأنصار وهو على حمار فبال الحمار ، فأمسك عبد اللّه ابن أبىّ بأنفه وقال : خل سبيل حمارك فقد آذانا نتنه. فقال عبد اللّه بن رواحة : واللّه إنّ بول حماره لأطيب من مسكك «1» وروى : حماره أفضل منك ، وبول حماره أطيب من مسكك «2» ، ومضى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وطال الخوض بينهما حتى استبا وتجالدا ، وجاء قوماهما وهما الأوس والخزرج ، فتجالدوا بالعصى ، وقيل بالأيدى والنعال والسعف ، فرجع إليهم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وأصلح بينهم ، ونزلت.

وعن مقاتل : قرأها عليهم فاصطلحوا. والبغي : الاستطالة والظلم وإباء الصلح. والفيء : الرجوع ، وقد سمى به الظل والغنيمة ، لأنّ الظل يرجع بعد نسخ الشمس ، والغنيمة : ما يرجع من أموال الكفار إلى المسلمين ، وعن أبى عمرو : حتى تفي ، بغير همز ، ووجهه أنّ أبا عمرو خفف الأولى من الهمزتين الملتقيتين فلطفت على الراوي تلك الخلسة «3» ، فظنه قد طرحها. فإن قلت : ما وجه قوله اقْتَتَلُوا والقياس اقتتلتا «4» ، كما قرأ ابن أبى عبلة. أو اقتتلا ، كما قرأ عبيد بن عمير على تأويل الرهطين أو النفرين؟ قلت : هو مما حمل على المعنى دون اللفظ ، لأنّ الطائفتين في معنى القوم والناس. وفي قراءة عبد اللّه : حتى يفيئوا إلى أمر اللّه ، فإن فاءوا فخذوا بينهم بالقسط. وحكم الفئة الباغية : وجوب قتالها ما قاتلت. وعن ابن عمر : ما وجدت في نفسي من شيء ما وجدته من أمر هذه الآية إن لم أقاتل هذه الفئة الباغية كما أمرنى اللّه عز وجل. قاله بعد أن اعتزل ،

(1). لم أره عن ابن عباس. وهو في الصحيحين من حديث أنس. وفيه «فبلغنا أنها أنزلت وَإِنْ طائِفَتانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ... الآية. دون بول الحمار. وقوله «و اللّه إن بول حماره لأطيب من مسك» وليس فيه أيضا «و إنه صلى اللّه عليه وسلم مضى. ثم نزلت الآية.
(2). لم أره هكذا وحديث أنس في الصحيحين «و اللّه لحمار رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أطيب ريحا منك».
(3). قوله «تلك الخلسة» في الصحاح : خلست الشيء واختلسته ، إذا استلبته «و الاسم الخلسة - بالضم. (ع)
(4). قال محمود : «لم قال اقتتلوا عدولا ... الخ» قال أحمد : قد تقدم في مواضع إنكار النحاة الحمل على لفظ «من» ، بعد الحمل على معناها ، وفي هذه الآية حمل على المعنى بقوله اقْتَتَلُوا ثم على اللفظ بقوله بَيْنَهُما فلا يعتقد أن المقول في «مق» مطرد في هذا ، لأن المانع لزوم الإجمال والإبهام بعد التفسير ، وهاهنا لا يلزم ذلك ، إذ لا إبهام في الطائفة ، بل لفظها مفرد أبدا ، ومعناها جمع أبدا ، وكانت كذلك لاختلاف أحوالها من حيث المعنى مرة جمعا ومرة مقردا ، فتأمله ، واللّه الموفق.

فإذا كافت وقبضت عن الحرب أيديها تركت ، وإذا تولت عمل بما روى عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال «يا ابن أم عبد ، هل تدرى كيف حكم اللّه فيمن بغى من هذه الأمّة؟ قال : اللّه ورسوله أعلم قال : لا يجهز على جريحها ، ولا يقتل أسيرها ، ولا يطلب هاربها ولا يقسم فيؤها» «1» ولا تخلو الفئتان من المسلمين في اقتتالهما : إما أن يقتتلا على سبيل البغي منهما جميعا ، فالواجب في ذلك أن يمشى بينهما بما يصلح ذات البين ويثمر المكافة والموادعة ، فإن لم تتحاجزا ولم تصطلحا وأقامتا على البغي : صير إلى مقاتلتهما ، وإما أن يلتحم بينهما القتال لشبهة دخلت عليهما ، وكلتاهما عند أنفسهما محقة ، فالواجب إزالة الشبهة بالحجج النيرة والبراهين القاطعة ، واطلاعهما على مراشد الحق. فإن ركبتا متن اللجاج ولم تعملا على شاكلة ما هديتا إليه ونصحتا من اتباع الحق بعد وضوحه لهما ، فقد لحقتا بالفئتين الباغيتين. وإما أن تكون إحداهما الباغية على الأخرى ، فالواجب أن تقاتل فئة البغي إلى أن تكف وتتوب ، فإن فعلت أصلح بينهما وبين المبغى عليها بالقسط والعدل ، وفي ذلك تفاصيل : إن كانت الباغية من قلة العدد بحيث لا منعة لها : ضمنت بعد الفيئة ما جنت ، وإن كانت كثيرة ذات منعة وشوكة ، لم تضمن إلا عند محمد بن الحسن رحمه اللّه ، فإنه كان يفتي بأن الضمان يلزمها إذا فاءت. وأمّا قبل التجمع والتجند أو حين تتفرق عند وضع الحرب أوزارها ، فما جنته ضمنته عند الجميع ، فمحمل الإصلاح بالعدل في قوله تعالى فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُما بِالْعَدْلِ على مذهب محمد واضح منطبق على لفظ التنزيل ، وعلى قول غيره : وجهه أن يحمل على كون الفئة قليلة العدد ، والذي ذكروا أن الغرض إماتة الضغائن وسل الأحقاد دون ضمان الجنايات : ليس بحسن الطباق للمأمور به من أعمال العدل ومراعاة القسط.
فإن قلت : فلم قرن بالإصلاح الثاني العدل دون الأوّل؟ قلت : لأنّ المراد بالاقتتال في أول الآية أن يقتتلا باغيتين معا أو راكبتى شبهة ، وأيتهما كانت ، فالذي يجب على المسلمين أن يأخذوا به في شأنهما : إصلاح ذات البين ، وتسكين الدهماء «2» بإراءة الحق والمواعظ الشافية ، ونفى الشبهة ، إلا إذا أصرتا ، فحينئذ تجب المقاتلة. وأما الضمان فلا يتجه ، وليس كذلك إذا بغت إحداهما ، فإنّ الضمان متجه على الوجهين المذكورين وَأَقْسِطُوا أمر باستعمال القسط على طريق العموم بعد ما أمر به في إصلاح ذات البين ،

(1). أخرجه الحاكم في المستدرك والبزار والحارث. وابن عدى من رواية كوثر بن حكيم النافع عن نافع عن ابن عمر. وكوثر متروك ، قال فيه أحمد : أحاديثه أباطيل. [.....]
(2). قوله «الدهماء» اى الجماعة. (ع)

والقول فيه مثله في الأمر باتقاء اللّه على عقب النهى عن التقديم بين يديه ، والقسط - بالفتح - : الجور من القسط: وهو اعوجاج في الرجلين «1». وعود قاسط : يابس. وأقسطته الرياح. وأمّا القسط بمعنى العدل ، فالفعل منه : أقسط ، وهمزته للسلب ، أى : أزال القسط وهو الجور.

[سورة الحجرات (49) : آية 10]

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ (10)

هذا تقرير لما ألزمه من تولى الإصلاح بين من وقعت بينهم المشاقة من المؤمنين ، وبيان أن الإيمان قد عقد بين أهله من السبب القريب والنسب اللاصق : ما إن لم يفضل الأخوّة ولم يبرز عليها لم ينقص عنها ولم يتقاصر عن غايتها ، ثم قد جرت عادة الناس على أنه إذا نشب بين اثنين من إخوة الولاد ، لزم السائر أن يتناهضوا في رفعه وإزاحته ، ويركبوا الصعب والذلول مشيا بالصلح وبثا للسفراء «2» بينهما ، إلى أن يصادف ما وهي من الوفاق من يرقعه ، وما استشن «3» من الوصال من يبله ، فالأخوة في الدين أحق بذلك وبأشدّ منه. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : «المسلم أخو المسلم لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يعيبه ، ولا يتطاول عليه في البنيان فيستر عنه الريح إلا بإذنه ، ولا يؤذيه بقتار قدره» «4» ثم قال «احفظوا ، ولا يحفظ منكم إلا قليل» «5». فإن قلت : فلم خص الاثنان بالذكر دون الجمع؟ قلت : لأن أقل من يقع بينهم الشقاق اثنان، فإذا لزمت المصالحة بين الأقل كانت بين الأكثر ألزم ، لأنّ الفساد في شقاق الجمع أكثر منه في شقاق الاثنين ، وقيل : المراد بالأخوين الأوس والخزرج ، وقرئ : بين إخوتكم وإخوانكم. والمعنى : ليس المؤمنون إلا إخوة ، وأنهم خلص لذلك متمحضون ، قد انزاحت عنهم شبهات الأجنبية ، وأبى لطف حالهم في التمازج والاتحاد أن يقدموا على ما يتولد منه التقاطع ، فبادروا قطع ما يقع من ذلك إن وقع واحسموه وَاتَّقُوا اللَّهَ فإنكم إن فعلتم لم تحملكم التقوى إلا على التواصل والائتلاف ، والمسارعة إلى إماطة ما يفرط منه ، وكان عند فعلكم ذلك وصول رحمة اللّه إليكم ، واشتمال رأفته عليكم حقيقا بأن تعقدوا به رجاءكم.

(1). قوله «و هو اعوجاج في الرجلين» في الصحاح : القسط - بالتحريك - : انتصاب في رجلي الدابة ، وذلك عيب ، لأنه يستحب فيهما الانحناء والتوقير اه. (ع)
(2). قوله «و بنا السفراء بينهما ... الخ» جمع سفير : وهو الرسول والمصلح بين القوم. (ع)
(3). قوله «استشن» في الصحاح : تشنن الجلد يبس ، واستشن الرجل : هزل. (ع)
(4). قوله «بقتار قدره» في الصحاح : «القتار» : ريح الشواء. (ع)
(5). أخرجه الثعلبي من رواية إسماعيل بن رافع عن سعيد عن أبى هريرة به سواء وزاد فيه «و لا يؤذيه بقتار قدره إلا أن يغرف له منها. ولا يشترى لبنيه الفاكهة ، فيخرجون بها إلى صبيان جاره ثم لا يطعمونهم منها» قلت :
وإسناده ضعيف وأول الحديث في الصحيحين» من وجه آخر عن أبى هريرة : وسيأتى في آخر تفسير سورة الواقعة.

[سورة الحجرات (49) : آية 11]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ وَلا نِساءٌ مِنْ نِساءٍ عَسى أَنْ يَكُنَّ خَيْراً مِنْهُنَّ وَلا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ وَلا تَنابَزُوا بِالْأَلْقابِ بِئْسَ الاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمانِ وَمَنْ لَمْ يَتُبْ فَأُولئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (11)
القوم : الرجال خاصة ، لأنهم القوّام بأمور النساء. قال اللّه تعالى الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ وقال عليه الصلاة والسلام : «النساء لحم على وضم «1» إلا ما ذب»

عنه» والذابون هم الرجال ، وهو في الأصل جمع قائم ، كصوّم وزوّر : في جمع صائم وزائر. أو تسمية بالمصدر. عن بعض العرب : إذا أكلت طعاما أحببت نوما وأبغضت قوما. أى قياما ، واختصاص القوم بالرجال:

صريح في الآية وفي قول زهير :

أقوم آل حصن أم نساء «3»

وأما قولهم في قوم فرعون وقوم عاد : هم الذكور والإناث ، فليس لفظ القوم بمتعاط للفريقين ، ولكن قصد ذكر الذكور وترك ذكر الإناث لأنهن توابع لرجالهن ، وتنكير القوم والنساء يحتمل معنيين :

(1). قوله «على وضم» الوضم : ما يوضع تحت اللحم من خشب وغيره يوقى به من الأرض. أفاده الصحاح. (ع)
(2). لم أره عن على ، وأخرجه ابن المبارك في البر والصلة من قول عمر بن الخطاب ، وكذلك رواه أبو عبيد وابراهيم الحربي في الغريب.
(3) وما أدرى وسوف إخال أدرى أقوم آل حصن أم نساء
فان تكن النساء مخبآت فحق لكل محصنة اهتداء
لزهير يهجو حصن بن حذيفة الفزاري. والقوم : الرجال فقط ، حتى قيل : إنه جمع قائم ، كصوم وزور ، في صائم وزائر. وقيل إنه في الأصل مصدر ، والهمزة لطلب التعيين ، ولكن الكلام من مجاهل العارف. ونساء : عطف على قوم الوقع خبرا من آل حصن ، أو خبرا لمبتدأ محذوف ، والعطف من عطف الجمل. ويجوز أن الهمزة التسوية كالواقعة بعد سواء ، كأنه. قال : ما أبالى منهم ، سواء أكانوا رجالا أو نساء ، فيتعين أنه من عطف الجمل لأجل التسوية ، ولكن المقام يؤيد الأول ، وفي البيت الاعتراض بين سوف ومدخلها بالفعل الملقى عند المفعول ، والاعتراض أيضا بين ما أدرى وبين الاستفهام بجملة التسويف ، لأن «أدرى» طالب لمفعولين وجملة «أقوم» سادة مسدهما ، وانظر كيف خطر بباله أن ينفى الدراية بحال الآل. ثم قبل أن يكمل ذلك خطر بباله الجزم بأنه سوف يدرى ، ثم قبل أن يكمل ذلك قال : إن حصول الدراية في المستقبل على سبيل التخيل والظن ، فحكى حال النفس عند ترددها في شأنه، فللّه در العرب ما ألطفهم في حكاية الحال بأبلغ مقال. وروى لست بدل سوف. وفيه نظر ، واسم تكن ضمير القوم ، والنساء خبرها ومخبآت حال ، أى : فان كن محصنات فحق لهن أن يهدين إلى أزواجهن ، وهدى المرأة إلى زوجها وأهداها إليه إهداء ، بمعنى.

أن يراد : لا يسخر بعض المؤمنين والمؤمنات «1» من بعض وأن تقصد إفادة الشياع ، وأن تصير كل جماعة منهم منهية عن السخرية ، وإنما لم يقل : رجل من رجل ، ولا امرأة من امرأة على التوحيد ، «2» إعلاما بإقدام غير واحد من رجالهم وغير واحدة من نسائهم على السخرية ، واستفظاعا للشأن الذي كانوا عليه ، ولأنّ مشهد الساخر لا يكاد يخلو ممن يتلهى ويستضحك على قوله ، ولا يأتى ما عليه من النهى «3» والإنكار ، فيكون شريك الساخر وتلوه في تحمل الوزر ، وكذلك كل من يطرق سمعه فيستطيبه ويضحك به ، فيؤدى ذلك - وإن أوجده واحد - إلى تكثر السخرة وانقلاب الواحد جماعة وقوما. وقوله تعالى عَسى أَنْ يَكُونُوا خَيْراً مِنْهُمْ كلام مستأنف قد ورد مورد جواب المستخبر «4» عن العلة الموجبة لما جاء النهى «5» عنه ، وإلا فقد كان حقه أن يوصل بما قبله بالفاء. والمعنى وجوب أن يعتقد كل أحد أن المسخور منه ربما كان عند اللّه خيرا من الساخر ، لأنّ الناس لا يطلعون إلا على ظواهر الأحوال ولا علم لهم بالخفيات ، وإنما الذي يزن «6» عند اللّه: خلوص الضمائر وتقوى القلوب ، وعلمهم من ذلك بمعزل ، فينبغي أن لا يجترئ أحد على الاستهزاء بمن تقتحمه عينه إذا رآه رث الحال ، أو ذا عاهة في بدنه ، أو غير لبيق في محادثته ، فلعله أخلص ضميرا وأتقى قلبا ممن هو على ضدّ صفته ، فيظلم نفسه بتحقير من وقره اللّه والاستهانة بمن عظمه اللّه ، ولقد بلغ بالسلف إفراط توقيهم وتصونهم من ذلك أن قال عمرو بن شرجيل : لو رأيت رجلا يرضع عنزا فضحكت منه : خشيت أن أصنع مثل الذي صنعه «7». وعن عبد اللّه بن مسعود : البلاء موكل بالقول ، لو سخرت من كلب لخشيت أن أحوّل كلبا «8». وفي قراءة عبد اللّه : عسوا أن يكونوا ، وعسين أن يكن،

(1). قال محمود : «لم يقل لا يسخر بعض المؤمنين والمؤمنات ... الخ» قال أحمد : ولو عرف فقال : لا يسخر المؤمنون بعضهم من بعض : لكانت كل جماعة منهم منهية ضرورة شمول النهى ، ولكن أورد الزمخشري هذا ، وإنما أراد أن في التنكير فائدة : أن كل جماعة منهية على التفصيل في الجماعات والتعرض بالنهى لكل جماعة على الخصوص ، ومع التعريف تحصيل النهي ، لكن لا على التفصيل بل على الشمول ، والنهى على التفصيل أبلغ وأوقع.
(2). عاد كلامه. قال : «و إنما لم يقل رجل من رجل ولا امرأة من امرأة للاشعار ... الخ» قال أحمد :
وهو في غاية الحسن لا مزيد عليه.
(3). قوله «و لا يأتى ما عليه من النهى» أى يتلهى ولا يفعل ما عليه من نهى الساخر والإنكار عليه. (ع)
(4). قال محمود : «و قوله عسى أن يكونوا خيرا منهم جواب للمستخبر عن علة النهى ... الخ» قال أحمد : وهو من الطراز الأول.
(5). قوله «لما جاء النهى عنه» لعل ما مصدرية ، ولفظ عنه مزيد من ناسخ الأصل ، أى : لمجيء النهى ، وإلا : أى وإلا يكن مستأنفا. (ع) [.....]
(6). قوله «و إنما الذي يزن عند اللّه» لعله يزين. (ع)
(7). لم أره عنه ، وفي ابن أبى شيبة عن أبى موسى من قوله نحوه.
(8). أخرجه ابن أبى شيبة في الأدب المفرد من رواية إبراهيم عن ابن مسعود بهذا.

فعسى على هذه القراءة هي ذات الخبر كالتي في قوله تعالى فَهَلْ عَسَيْتُمْ وعلى الأولى التي لا خبر لها كقوله تعالى وَعَسى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً. واللمز : الطعن والضرب باللسان.

وقرئ : ولا تلمزوا - بالضم. والمعنى : وخصوا أيها المؤمنون أنفسكم بالانتهاء عن عيبها والطعن فيها ، ولا عليكم أن تعيبوا غيركم ممن لا يدين بدينكم ولا يسير بسيرتكم ، ففي الحديث عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم: «اذكروا الفاجر بما فيه كى يحذره الناس» «1» وعن الحسن رضى اللّه عنه في ذكر الحجاج : أخرج إلى بنانا قصيرة قلما عرقت فيها الأعنة في سبيل اللّه ثم جعل يطبطب شعيرات له ويقول : يا أبا سعيد يا أبا

(1). أخرجه أبو يعلى والترمذي الحكيم في النوادر في الثامن والستين والعقيلي وابن عدى وابن حبان كلهم من رواية الجارود بن يزيد عن بهز بن حكيم. عن أبيه عن جده مرفوعا أترعوون عن ذكر الفاجر؟ اذكره بما فيه ، كى يحذره الناس» واتفقوا على أن الجارود غير ثقة ، وقال الدارقطني : هو من وضع الجارود ثم سرقه منه جماعة منهم عمرو بن الأزهر ، وسليمان بن عيسى عن الثوري عن بهز وسليمان وعمرو كذا بان وقد رواه العلاء بن بشر عن ابن عيينة عن بهز : قال الدارقطني : وابن عيينة لم يسمع من بهز وغير لفظه فقال : «ليس للفاسق غيبة» انتهى وهذا أورده البيهقي في الشعب عن الحاكم بسنده إلى العلاء وقال : قال الحاكم : هذا غير صحيح ولا معتمد. وقال ابن طاهر : روى عن معمر عن بهز أيضا أخرجه عبد الوهاب أخو عبد الرزاق. وعبد الوهاب كذاب وأخرجه الطبراني في الأوسط وقال لم يروه عن معمر غيره ، قال : وله طريق أخرى عن عمر بن الخطاب رواه يوسف بن أبان حدثنا الأبرد بن حاتم أخبرنى منهال السراج عن عمر.
(2). قوله «فانه أتانا أخيفش أعيمش» في الصحاح «الخفش» : صغر في العين ، وضعف في البصر خلقة والرجل أخفش. وفيه : العمش في العين : ضعف الرؤية مع سيلان الدمع. والرجل أعمش اه. وأخيفش وأعيمش تصغير : أخفش وأعمش. (ع)
(3). قوله «و يقال النبز» في الصحاح «النبز» بالتحريك : اللقب ، وبالتسكين : المصدر. (ع)
(4). لم أجده هكذا ، وروى البيهقي في الشعب في الحادي والستين عن عثمان بن طلحة الحجى رفعه قال «ثلاث مصفين لك ود أخيك: تسلم عليه إذا لقيته ، وتوسع له في المجلس ، وتدعوه بأحب أسمائه إليه» وفيه موسى بن عبد الملك بن عمير وهو ضعيف. وروى أبو يعلى والطبراني من حديث ذيال بن عبيد بن حنظلة حدثني جدي حنظلة بن جذيم قال : «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه أن يدعى الرجل بأحب الأسماء إليه».

قال عمر رضي الله عنه : أشيعوا الكي فإنها منبهة. ولقد لقب أبو بكر بالعتيق والصدّيق ، وعمر بالفاروق ، وحمزة بأسد الله ، وخالد بسيف الله. وقلّ من المشاهير في الجاهلية والإسلام من ليس له لقب ، ولم تزل هذه الألقاب الحسنة في الأمم كلها من العرب والعجم تجرى في مخاطباتهم ومكاتباتهم من غير نكير. روى عن الضحاك أن قوما من بنى تميم استهزؤا ببلال وخباب وعمار وصهيب وأبى ذرّ وسالم مولى حذيفة ، فنزلت. وعن عائشة رضى الله عنها أنها كانت تسخر من زينب بنت خزيمة الهلالية وكانت قصيرة. وعن ابن عباس أن أمّ سلمة ربطت حقويها بسبيبة ، «1» وسدلت طرفها خلفها وكانت تجرّه ، فقالت عائشة لحفصة : انظري ما تجرّ خلفها كأنه لسان كلب. وعن أنس : عيرت نساء رسول الله صلى الله عليه وسلم أمّ سلمة بالقصر.

وعن عكرمة عن ابن عباس أن صفية بنت حيّى أتت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت : إن النساء يعيرننى ويقلن يا يهودية بنت يهوديين ، فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم : «هلا قلت إن أبى هرون وإن عمى موسى وإن زوجي محمد» «2» وروى أنها نزلت في ثابت بن قيس وكان به وقر ، وكانوا يوسعون له في مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ليسمع ، فأتى يوما وهو يقول : تفسحوا لي ، حتى انتهى إلى رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وسلم ، فقال لرجل : تنح ، فلم يفعل ، فقال : من هذا؟ فقال الرجل. أنا فلان ، فقال : بل أنت ابن فلانة ، يريد : أمّا كان يعير بها في الجاهلية ، فخجل الرجل فنزلت ، فقال ثابت : لا أفخر على أحد في الحسب بعدها أبدا «3» الِاسْمُ هاهنا بمعنى الذكر ، من قولهم : طار اسمه في الناس بالكرم أو باللؤم ، كما يقال : طار ثناؤه وصيته. وحقيقته : ما سما من ذكره وارتفع بين الناس.

ألا ترى إلى قولهم : أشاد بذكره ، كأنه قيل : بئس الذكر المرتفع للمؤمنين «4»

(1). قوله «حقويها بسبيبة» في الصحاح «السب» : شقة كتان : والسبيبة : مثله. (ع)
(2). ذكره الثعلبي عن عكرمة ، عن ابن عباس بغير إسناد وفي الترمذي من رواية هاشم بن سعيد الكوفي : حدثنا كنانة حدثتنا صفية بنت حيي قالت «دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وقد بلغني عن عائشة وحفصة كلام. فذكرت ذلك له فقال : ألا قلت : وكيف تكونا خيرا منى وزوجي محمد صلى الله عليه وسلم وأبى هارون وعمى موسى عليهما الصلاة والسلام. وكان الذي بلغها أنهن قلن نحن أكرم على رسول الله صلى الله عليه وسلم منها وخير منها نحن أزواجه وبنات عمه» وقال : غريب. وليس إسناده بذاك. وروى الترمذي وابن حبان وأحمد والطبراني من رواية معمر عن ثابت عن أنس قال. «بلغ صفية أن حفصة قالت بنت يهودى فبكت ... فذكر معناه.
(3). ذكره الثعلبي ، ومن تبعه عن ابن عباس بغير سند.

(4). قال محمود : «الاسم هاهنا الذكر ، من قولهم : طار اسمه في الناس بالكرم. كأنه قال : بئس الذكر المرتفع للمؤمنين ... الخ» قال أحمد : أقرب الوجوه الثلاثة ملائمة لقاعدة أهل السنة وأولاها : هو أولها ، ولكن بعد صرف الذم إلى نفس الفسق ، وهو مستقيم لأن الاسم هو المسمى. ولكن الزمخشري لم يستطع ذلك : انحرافا إلى قاعدة : يصرف الذم إلى ارتفاع ذكر الفسق من المؤمن ، تحوما على أن الاسم التسمية ، ولا شك أن صرف الذم إلى نفس الفسق أولى. وأما الوجه الثاني ، فأدخله ليتم له حمل الاسم على التسمية صريحا. وأما الثالث فليتم له أن الفاسق غير مؤمن ، وكلا القاعدتين مخالف للسنة فاحذرهما ، وبالله التوفيق. ولقد كشف الله لي عن مقاصده ، حتى ما تنقلب له كلمة متحيزة إلى فئة البدعة إلا إذا أدركها الحق فكلمها ، ولله الحمد.

بسبب ارتكاب هذه الجرائر «1» أن يذكروا بالفسق. وفي قوله بَعْدَ الْإِيمانِ ثلاثة أوجه : أحدها استقباح الجمع بين الايمان وبين الفسق الذي يأباه الإيمان ويحظره ، كما تقول : بئس الشأن بعد الكبرة الصبوة «2». والثاني : أنه كان في شتائمهم لمن أسلم من اليهود : يا يهودى يا فاسق ، فنهوا عنه ، وقيل لهم : بئس الذكر أن تذكروا الرجل بالفسق واليهودية بعد إيمانه ، والجملة على هذا التفسير متعلقة بالنهى عن التنابز. والثالث : أن يجعل من فسق غير مؤمن ، كما تقول للمتحول عن التجارة إلى الفلاحة : بئست الحرفة الفلاحة بعد التجارة.

[سورة الحجرات (49) : آية 12]

يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضاً أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَحِيمٌ (12)

يقال : جنبه الشر إذا أبعده عنه ، وحقيقته : جعله منه في جانب ، فيعدى إلى مفعولين.

قال الله عز وجل وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنامَ ثم يقال في مطاوعه : اجتنب الشر فتقص المطاوعة مفعولا ، والمأمور باجتنابه هو بعض الظن ، وذلك البعض موصوف بالكثرة : ألا ترى إلى قوله إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ؟ فإن قلت : بين الفصل بين كَثِيراً ، حيث جاء نكرة وبينه لو جاء معرفة. قلت : مجيئه نكرة يفيد معنى البعضية ، وإنّ في الظنون ما يجب أن يجتنب من غير تبيين لذلك ولا تعيين ، لئلا يجترئ أحد على ظنّ إلا بعد نظر وتأمّل ، وتمييز بين حقه وباطله بأمارة بينة ، مع استشعار للتقوى والحذر ، ولو عرف لكان الأمر باجتناب الظنّ منوطا بما يكثر منه دون ما يقل ، ووجب أن يكون كل ظنّ متصف بالكثرة مجتنبا ، وما اتصف منه بالقلة مرخصا في تظننه. والذي يميز الظنون التي يجب اجتنابها عما سواها : أنّ كل ما لم تعرف له أمارة صحيحة وسبب ظاهر: كان حراما واجب الاجتناب ، وذلك إذا كان المظنون

(1). قوله «هذه الجرائر» جمع جريرة ، وهي الجناية. أفاده الصحاح. (ع)
(2). قوله «بعد الكبرة الصبوة» الكبرة - بالفتح - : اسم للكبر في السن. والصبوة : الميل إلى الجهل والفتوة. أفاده الصحاح. (ع)

به ممن شوهد منه الستر والصلاح ، وأونست منه الأمانة في الظاهر ، فظنّ الفساد والخيانة به محرّم ، بخلاف من اشتهره الناس بتعاطى الريب والمجاهرة بالخبائث. عن النبي صلى الله عليه وسلم : «إن الله تعالى حرّم من المسلم دمه وعرضه وأن يظنّ به ظنّ السوء» «1» وعن الحسن : كنا في زمان الظن بالناس حرام ، وأنت اليوم في زمان اعمل واسكت ، وظنّ بالناس ما شئت.

وعنه : لا حرمة لفاجر. وعنه : إن الفاسق إذا أظهر فسقه وهتك ستره هتكه الله ، وإذا استتر لم يظهر الله عليه لعله أن يتوب. وقد روى : من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له «2».

والإثم : الذنب الذي يستحق صاحبه العقاب. ومنه قيل لعقوبته : الأثام ، فعال منه : كالنكال والعذاب والوبال. قال : لقد فعلت هذى النّوى بى فعلة أصاب النّوى قبل الممات أثامها «3»

والهمزة فيه عن الواو ، كأنه يثم الأعمال : أى يكسرها بإحباطه. وقرئ : ولا تحسسوا بالحاء والمعنيان متقاربان. يقال : تجسس الأمر إذا تطلبه وبحث عنه : تفعل من الجس ، كما أن التلمس بمعنى التطلب من اللمس، لما في اللمس من الطلب. وقد جاء بمعنى الطلب في قوله تعالى وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّماءَ والتحسس : التعرّف من الحس ، ولتقاربهما قيل لمشاعر الإنسان : الحواس بالحاء والجيم ، والمراد النهى عن تتبع عورات المسلمين ومعاييهم والاستكشاف عما ستروه. وعن مجاهد. خذوا ما ظهر ودعوا ما ستره الله. وعن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه خطب فرفع صوته حتى أسمع العواتق في خدورهنّ. قال : يا معشر من آمن بلسانه ولم يخلص الإيمان إلى قلبه ، لا تتبعوا عورات المسلمين :

(1). أخرجه ابن ماجة. من حديث ابن عمر بإسناد فيه لين ، ولفظه «رأيت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يطوف بالكعبة وهو يقول : ما أطيبك وأطيب ريحك ، ما أعظمك وأعظم حرمتك ، والذي نفس محمد بيده لحرمة المؤمن أعظم عند اللّه حرمة منك : ماله ودمه وأن يظن به إلا خيرا» وروى ابن أبى شيبة من طريق مجالد عن الشعبي عن ابن عباس أن النبي صلى اللّه عليه وسلم نظر إلى الكعبة فقال «ما أعظمك وأعظم حرمتك والمسلم أعظم حرمة منك. حرم اللّه دمه وماله وعرضه ، وأن يظن به ظن السوء. وروى البيهقي في الشعب من طريق مجاهد عن ابن عباس نحوه. وفيه حفص بن عبد الرحمن. [.....]
(2). أخرجه البيهقي في الشعب في التاسع والستين والقضاعي في مسند الشهاب من طريق رواه بن الجراح عن أبى سعد الساعدي عن أنس وإسناده ضعيف. وأخرجه ابن عدى من رواية الربيع بن بدر عن أبان عن أنس وإسناده أضعف من الأول.
(3). النوى : نية المسافر من قرب أو بعد ، فهي مؤنثة ، وتستعمل اسم جمع نية ، فيذكر : أى لقد فعلت في هذه النية فعلة مسيئة ، فهي بمعنى في ، ثم دعا عليها بقوله : أصاب النوى التي أذنتنى أثامها ، أى : جزاء تلك الفعلة.
أو جزاء النوى التي تستحقه. وقد يسمى الذنب إثما وأثاما ، من إطلاق المسبب على السبب ، وقال قبل الممات ، أى : قبل موته ليتشفى فيها ، فكأنه شبهها بعدو ، ثم دعا عليها.

فإن من تتبع عورات المسلمين تتبع اللّه عورته حتى يفضحه ولو في جوف بيته «1». وعن زيد بن وهب : قلنا لا بن مسعود : هل لك في الوليد بن عقبة ابن أبى معيط تقطر لحيته خمرا؟ فقال ابن مسعود : إنا قد نهينا عن التجسس ، فإن ظهر لنا شيء أخذنا به «2». غابه واغتابه: كغاله واغتاله. والغيبة من الاغتياب ، كالغيلة من «3» الاغتيال : وهي ذكر السوء في الغيبة. سئل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم عن الغيبة فقال : «أن تذكر أخاك بما يكره ، فإن كان فيه فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه فقد بهته» «4» وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : الغيبة إدام كلاب الناس أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ تمثيل وتصوير لما يناله المغتاب من عرض المغتاب على أفظع وجه وأفحشه. وفيه مبالغات شتى : منها الاستفهام الذي معناه التقرير.

ومنها جعل ما هو في الغاية من الكراهة موصولا بالمحبة. ومنها إسناد الفعل إلى أحدكم والإشعار بأن أحدا من الأحدين لا يحب ذلك. ومنها أن لم يقتصر على تمثيل الاغتياب بأكل لحم الإنسان ، حتى جعل الإنسان أخا. ومنها أن لم يقتصر على أكل لحم الأخ حتى جعل ميتا. وعن قتادة : كما تكره إن وجدت جيفة مدوّدة أن تأكل منها ، كذلك فاكره لحم أخيك وهو حى. وانتصب مَيْتاً على الحال من اللحم. ويجوز أن ينتصب عن الأخ. وقرئ: ميتا. ولما قرّرهم عز وجل بأنّ أحدا منهم لا يحب أكل جيفة أخيه ، عقب ذلك بقوله تعالى فَكَرِهْتُمُوهُ معناه : فقد كرهتموه واستقرّ ذلك. وفيه معنى الشرط ، أى : إن صحّ هذا فكرهتموه ، وهي الفاء الفصيحة ،

(1). أخرجه الطبراني والعقيلي. وابن عدى من رواية قدامة بن محمد الأشجعى عن إسماعيل بن شبيب الطائفي عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس بهذا وفي الباب عن ابن عمر رواه الترمذي وابن حبان في صحيحه ولفظه «صعد النبي صلى اللّه عليه وسلم المنبر فنادى بصوت رفيع : قال يا معشر من أسلم بلسانه ولم يفض الايمان إلى قلبه لا تؤذوا المسلمين ولا تعيروهم ، ولا تتبعوا عوراتهم ، فانه من تتبع عورة أخيه المسلم تتبع اللّه عورته ومن تتبع اللّه عورته يفضحه ، ولو في جوف رحله» وعن أبى بردة عند أبى داود وأحمد والطبراني وأبى يعلى وعن البراء بن عازب عند أبى يعلى والبيهقي في الشعب في التاسع والستين من رواية مصعب بن سلام عن أبى إسحاق عن البراء. وعن ثوبان عند أحمد بلفظ «لا تؤذوا عباد اللّه ولا تعيروهم ولا تطلبوا عوراتهم فانه من طلب عورة أخيه المسلم طلب اللّه عورته حتى يفضحه في بيته» وعن بريدة عند الطبراني وابن مردويه ولفظه «صلينا الظهر خلف النبي صلى اللّه عليه وسلم فلما انفتل أقبل علينا غضبان فنادى بصوت أسمع العواتق في جوف الخدور فذكر نحوه.
(2). أخرجه أبو داود وابن أبى شيبة وعبد الرزاق والطبراني والبيهقي في الشعب في الثاني والخمسين من طرق عن الأعمش عن زيد بن وهب قال «أتى ابن مسعود قيل له : هذا فلان تقطر لحيته خمرا» لفظ أبى داود والباقين نحوه. ورواه الحاكم والبزار من رواية أسباط عن الأعمش فقال فيه «إن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم نهانا عن التجسس» قال البزار تفرد به أسباط وقال ابن أبى حاتم عن أبى زرعة والترمذي عن البخاري : أخطأ فيه أسباط.
والصحيح من رواية أبى معاوية وغيره عن الأعمش «إن اللّه نهانا»
(3). قوله «كالغيلة من الاغتيال» كذا في الصحاح. وفيه يقال : قتله غيلة ، وهو أن يخدعه فيذهب به إلى موضع فيقتله فيه. (ع)
(4). متفق عليه من حديث أبى هريرة.

أى : فتحققت - بوجوب الإقرار عليكم وبأنكم لا تقدرون على دفعه وإنكاره ، لإباء البشرية عليكم أن تجحدوه - كراهتكم له وتقذركم منه ، فليتحقق أيضا أن تكرهوا ما هو نظيره من الغيبة والطعن في أعراض المسلمين. وقرئ : فكرهتموه. أى : جبلتم على كراهته. فإن قلت : هلا عدّى بإلى كما عدّى في قوله وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وأيهما القياس؟ قلت : القياس تعدّيه بنفسه ، لأنه ذو مفعول واحد قبل تثقيل حشوه ، تقول : كرهت الشيء ، فإذا ثقل استدعى زيادة مفعول. وأما تعدّيه بإلى ، فتأوّل وإجراء لكره مجرى بغض ، لأنّ بغض منقول من بغض إليه الشيء فهو بغيض إليه ، كقولك : حب إليه الشيء فهو حبيب إليه. والمبالغة في التواب للدلالة على كثرة من يتوب عليه من عباده ، أو لأنه ما من ذنب يقترفه المقترف إلا كان معفوا عنه بالتوبة. أو لأنه بليغ في قبول التوبة ، منزل صاحبها منزلة من لم يذنب قط ، لسعة كرمه.

والمعنى : واتقوا اللّه بترك ما أمرتم باجتنابه والندم على ما وجد منكم منه ، فإنكم إن اتقيتم تقبل اللّه توبتكم وأنعم عليكم بثواب المتقين التائبين. وعن ابن عباس : أن سلمان كان يخدم رجلين من الصحابة ويسوّى لهما طعامهما، فنام عن شأنه يوما ، فبعثاه إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يبغى لهما إداما ، وكان أسامة على طعام رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال : ما عندي شيء ، فأخبرهما سلمان بذلك ، فعند ذلك قالا : لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها ، فلما راحا إلى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم قال لهما : مالى أرى خضرة اللحم في أفواهكما ، فقالا : ما تناولنا لحما فقال : إنكما قد اغتبتما «1» فنزلت.

[سورة الحجرات (49) : آية 13]

يا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى وَجَعَلْناكُمْ شُعُوباً وَقَبائِلَ لِتَعارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ (13)

مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثى من آدم وحوّاء. وقيل : خلقنا كل واحد منكم من أب وأمّ ، فما منكم أحد إلا وهو يدلى بمثل ما يدلى به الآخر سواء بسواء ، فلا وجه للتفاخر والتفاضل في النسب. والشعب : الطبقة الأولى من الطبقات الست التي عليها العرب ، وهي : الشعب ، والقبيلة ، والعمارة ، والبطن ، والفخذ ، والفصيلة ، فالشعب يجمع القبائل، والقبيلة تجمع ، العمائر ، والعمارة تجمع البطون ، والبطن تجمع الأفخاذ ، والفخذ تجمع الفصائل : خزيمة شعب ، وكنانة قبيلة ، وقريش عمارة ، وقصى بطن ، وهاشم فخذ ، والعباس فصيلة. وسميت الشعوب ،

(1). هكذا ذكره الثعلبي وربيعة بغير سند ولا راو. وفي الترغيب لأبى القاسم الأصبهانى من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن عبد الرحمن بن أبى ليلة نحوه.

لأنّ القبائل تشعبت منها. وقرئ : لتتعارفوا ، ولتعارفوا بالإدغام. ولتعرفوا ، أى لتعلموا كيف تتناسبون. ولتتعرفوا. والمعنى : أنّ الحكمة التي من أجلها رتبكم على شعوب وقبائل هي أن يعرف بعضكم نسب بعض ، فلا يعتزى إلى غير آبائه ، لا أن تتفاخروا بالآباء والأجداد ، وتدعوا التفاوت والتفاضل في الأنساب. ثم بين الخصلة التي بها يفضل الإنسان غيره ويكتسب الشرف والكرم عند اللّه تعالى فقال : إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقاكُمْ وقرئ : أنّ ، بالفتح ، كأنه قيل : لم لا يتفاخر بالأنساب؟ فقيل : لأنّ أكرمكم عند اللّه أتقاكم لا أنسبكم. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : أنه طاف يوم فتح مكة ، فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال : «الحمد اللّه الذي أذهب عنكم عبية «1» الجاهلية وتكبرها ، يا أيها الناس ، إنما الناس رجلان : مؤمن تقى كريم على اللّه ، وفاجر شقىّ هين على اللّه» «2» ثم قرأ الآية. وعنه عليه السلام : من سرّه أن يكون أكرم الناس فليتق اللّه «3». وعن ابن عباس : كرم الدنيا الغنى ، وكرم الآخرة التقوى.

وعن يزيد بن شجرة : مرّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في سوق المدينة فرأى غلاما أسود يقول : من اشترانى فعلى شرط لا يمنعني عن الصلوات الخمس خلف رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وآله وسلم ، فاشتراه رجل فكان رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وآله وسلم يراه عند كل صلاة ، ففقده يوما فسأل عنه صاحبه ، فقال: محموم ، فعاده ثم سأل عنه بعد ثلاثة أيام فقال : هو لما به ، فجاءه وهو في ذمائه»، فتولى غسله ودفنه ، فدخل على المهاجرين والأنصار أمر «5» عظيم ، فنزلت.

(1). قوله «عبية الجاهلية» في الصحاح : رجل فيه عبية ، أى : كبر وتجبر. وعبية الجاهلية : نخوتها. (ع)
(2). أخرجه الترمذي وابن حبان وأبو يعلى وابن أبى حاتم من رواية عبد اللّه بن دينار عن ابن عمر. وفي الباب عن أبى هريرة أخرجه أبو داود والترمذي وأحمد والبزار وابن المبارك في البر والصلة من رواية سعيد بن أبى سعيد عن أبيه عنه نحوه. ومنهم من قال عن سعيد عن أبى هريرة : وعن عبد الملك بن قدامة الحاطبى. حدثني أبى أن النبي صلى اللّه عليه وسلم عام فتح مكة. صعد المنبر فحمد اللّه وأثنى عليه ثم قال : أما بعد يا أيها الناس» فذكر نحوه وأخرجه.
(3). أخرجه الحاكم والبيهقي وأبو يعلى وإسحاق وعبد والطبراني وأبو نعيم في الحلية كلهم من طريق هشام ابن زياد أبى المقدام عن محمد بن كعب عن ابن عباس وأتم منه ، قال البيهقي في الزهد : تكلموا في هشام بسبب هذا الحديث ، وأنه كان يقول : حدثني عن محمد بن كعب ثم ادعى أنه سمعه من محمد ، ثم أخرجه البيهقي من طريق عبد الجبار بن محمد العطاردي والد أحمد عن عبد الرحمن الطيبي بن القاسم بن عروة عن محمد بن كعب عن ابن عباس يرفع الحديث نحوه.
(4). قوله «و هو في ذمائه» في الصحاح «الدماء» : ممدود بقية الروح في المذبوح. (ع)
(5). هكذا ذكره الثعلبي والواحدي بغير سند.

[سورة الحجرات (49) : آية 14]

قالَتِ الْأَعْرابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمالِكُمْ شَيْئاً إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (14)

الإيمان : هو التصديق مع الثقة وطمأنينة النفس. والإسلام : الدخول في السلم. والخروج من أن يكون حربا للمؤمنين بإظهار الشهادتين. ألا ترى إلى قوله تعالى وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ فاعلم أنّ ما يكون من الإقرار باللسان من غير مواطأة القلب فهو إسلام ، وما واطأ فيه القلب اللسان فهو إيمان. فإن قلت : ما وجه قوله تعالى قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا والذي يقتضيه نظم الكلام أن يقال : قل لا تقولوا آمنا ، ولكن قولوا أسلمنا. أو قل لم تؤمنوا ولكن أسلمتم؟ قلت : أفاد هذا النظم تكذيب دعواهم أوّلا ، ودفع ما انتحلوه «1» ، فقيل : قل لم تؤمنوا. وروعي في هذا النوع من التكذيب أدب حسن حين لم يصرّح بلفظه ، فلم يقل : كذبتم ، ووضع لَمْ تُؤْمِنُوا الذي هو نفي ما ادعوا إثباته موضعه ، ثم نبه على ما فعل من وضعه موضع كذبتم في قوله في صفة المخلصين أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ تعريضا بأن هؤلاء هم الكاذبون ، ورب تعريض لا يقاومه التصريح ، واستغنى بالجملة التي هي لَمْ تُؤْمِنُوا عن أن يقال : لا تقولوا آمنا ، لاستهجان أن يخاطبوا بلفظ مؤدّاه النهى عن القول بالإيمان ، ثم وصلت بها الجملة المصدّرة بكلمة الاستدراك محمولة على المعنى ، ولم يقل : ولكن أسلمتم ، ليكون خارجا مخرج الزعم والدعوى ، كما كان قولهم آمَنَّا كذلك ، ولو قيل : ولكن أسلمتم ، لكان خروجه في معرض التسليم لهم والاعتداد بقولهم وهو غير معتدّ به. فإن قلت : قوله وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ بعد قوله تعالى قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا يشبه التكرير من غير استقلال بفائدة متجددة.

قلت : ليس كذلك ، فإن فائدة قوله لَمْ تُؤْمِنُوا هو تكذيب دعواهم ، وقوله وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمانُ فِي قُلُوبِكُمْ توقيت لما أمروا به أن يقولوه ، كأنه قيل لهم وَلكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنا حين لم تثبت مواطأة قلوبكم لألسنتكم ،

(1). قال محمود : «وجه هذا النظم تكذيب دعواهم أولا الخ» قال أحمد : ونظير هذا النظم ومراعاة هذه اللطيفة قوله تعالى إِذا جاءَكَ الْمُنافِقُونَ قالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ ثم قال : وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ ولما كان مؤدى هذا تكذيب الله تعالى لهم في شهادتهم برسالة النبي صلى الله عليه وسلم قدم على ذلك مقدمة تلخص المقصود وتخلصه من حوادث الوهم ونوائبه ، فقال بين الكلامين ، وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ ، ثم قال بعد ذلك :
وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنافِقِينَ لَكاذِبُونَ فتلخص من ذلك أنهم كذبوا فيما ادعوه من شهادة قلوبهم الحق ، لأن ذلك حقيقة الشهادة ، لا أنهم كذبوا في أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رسول من الله وكان المخلص من ذلك قوله جل وعلا وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ.

لأنه كلام واقع موقع الحال من الضمير في قُولُوا وما في لَمَّا من معنى التوقع : دال على أن هؤلاء قد آمنوا فيما بعد لا يَلِتْكُمْ لا ينقصكم ولا يظلمكم.

يقال : ألته السلطان حقه أشدّ الألت ، وهي لغة غطفان. ولغة أسد وأهل الحجاز : لاته ليتا.

وحكى الأصمعى عن أمّ هشام السلولية أنها قالت : الحمد للّه الذي لا يفات ولا يلات ، ولا تصمه الأصوات «1». وقرئ باللغتين : لا يلتكم ، ولا يألتكم. ونحوه في المعنى فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً.

ومعنى طاعة اللّه ورسوله : أن يتوبوا عما كانوا عليه من النفاق ويعقدوا قلوبهم على الإيمان ويعملوا بمقتضياته، فان فعلوا ذلك تقبل اللّه توبتهم ، ووهب لهم مغفرته ، وأنعم عليهم بجزيل ثوابه. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما أنّ نفرا من بنى أسد قدموا المدينة في سنة جدبة ، فأظهروا الشهادة ، وأفسدوا طرق المدينة بالعذرات ، وأغلوا أسعارها ، وهم يغدون ويروحون على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ويقولون : أتتك العرب بأنفسها على ظهور رواحلها ، وجئناك بالأثقال والذراري ، يريدون الصدقة ويمنون عليه ، فنزلت.

[سورة الحجرات (49) : آية 15]

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتابُوا وَجاهَدُوا بِأَمْوالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ(15)

ارتاب : مطاوع را به إذا أوقعه في الشك مع التهمة. والمعنى : أنهم آمنوا ثم لم يقع في نفوسهم شك فيما آمنوا به ، ولا اتهام لمن صدّقوه واعترفوا بأنّ الحق منه. فإن قلت : ما معنى ثم هاهنا وهي التراخي وعدم الارتياب يجب أن يكون مقارنا للإيمان لأنه وصف فيه ، لما بينت من إفادة الإيمان معنى الثقة والطمأنينة التي حقيقتها

ونظيره قوله ثُمَّ اسْتَقامُوا والثاني : أنّ الإيقان وزوال الريب لما كان ملاك الإيمان أفرد بالذكر بعد تقدّم الايمان ، تنبيها على مكانه ، وعطف على الإيمان بكلمة التراخي إشعارا باستقراره في الأزمنة المتراخية المتطاولة غضا جديدا وَجاهَدُوا يجوز أن يكون المجاهد منويا وهو العدوّ المحارب أو الشيطان أو الهوى ، وأن يكون جاهد مبالغة في جهد. ويجوز أن يراد بالمجاهدة بالنفس : الغزو ، وأن يتناول العبادات بأجمعها ، وبالمجاهدة بالمال :

(1). قوله «و لا تصمه الأصوات» إن كان من الوصم فالمعنى : لا تصدعه الأصوات ولا تعيبه ، وإن كان من الصمم فالمعنى : لا تجد أصم. وفي الصحاح «الوصم» : الصدع والعيب. وفيه «أصممته» : وجدته أصم. (ع) [.....]

نحو ما صنع عثمان رضى اللّه عنه في جيش العسرة ، وأن يتناول الزكوات وكل ما يتعلق بالمال من أعمال البر التي يتحامل فيها الرجل على ماله لوجه اللّه تعالى أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ الذين صدقوا في قولهم آمنا ، ولم يكذبوا كما كذب أعراب بنى أسد. أو هم الذين إيمانهم إيمان صدق وإيمان حق وجدّ وثبات.

[سورة الحجرات (49) : آية 16]

قُلْ أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (16)

يقال : ما علمت بقدومك ، أى : ما شعرت به ولا أحطت به. ومنه قوله تعالى أَتُعَلِّمُونَ اللَّهَ بِدِينِكُمْ وفيه تجهيل لهم.

[سورة الحجرات (49) : الآيات 17 إلى 18]

يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا قُلْ لا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَداكُمْ لِلْإِيمانِ إِنْ كُنْتُمْ صادِقِينَ (17) إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِما تَعْمَلُونَ (18)

يقال : منّ عليه بيد أسداها إليه ، كقولك : أنعم عليه وأفضل عليه. والمنة : النعمة التي لا يستثيب مسديها من يزلها إليه «1» ، واشتقاقها من المنّ الذي هو القطع ، لأنه إنما يسديها إليه ليقطع بها حاجته لا غير ، من غير أن يعمد لطلب مثوبة. ثم يقال : منّ عليه صنعه ، إذا اعتده عليه منة وإنعاما. وسياق هذه الآية فيه لطف ورشاقة، وذلك أنّ الكائن من الأعاريب قد سماه اللّه إسلاما ، ونفى أن يكون كما زعموا إيمانا ، فلما منوا على رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ما كان منهم قال اللّه سبحانه وتعالى لرسوله عليه السلام : إنّ هؤلاء يعتدّون عليك بما ليس جديرا بالاعتداد به من حدثهم الذي حق تسميته أن يقال له إسلام ، فقل لهم : لا تعتدوّا علىّ إسلامكم ، أى حدثكم المسمى إسلاما عندي لا إيمانا. ثم قال : بل اللّه يعتدّ عليكم أن أمدّكم بتوفيقه حيث هداكم للإيمان على ما زعمتم وادعيتم أنكم أرشدتم إليه ووفقتم له إن صحّ زعمكم وصدقت دعواكم ، إلا أنكم تزعمون وتدعون ما اللّه عليم بخلافه. وفي إضافة الإسلام إليهم وإيراد الايمان غير مضاف : ما لا يخفى على المتأمل ، وجواب الشرط محذوف لدلالة ما قبله عليه ، تقديره : إن كنتم صادقين في ادعائكم الإيمان ، فللّه المنة عليكم. وقرئ : إن هداكم ، بكسر الهمزة.

(1). قوله «من يزلها إليه» في الصحاح : أزللت إليه نعمته ، أى : استديتها إليه. وفي الحديث «من أزلت إليه نعمة فليشكرها» وأزللت شيئا من حقه ، أى : أعطيت اه. (ع)

وفي قراءة ابن مسعود رضى اللّه عنه : إذ هداكم. وقرئ : تعلمون ، بالتاء والياء ، وهذا بيان لكونهم غير صادقين في دعواهم ، يعنى أنه عزّ وجل يعلم كل مستتر في العالم ويبصر كل عمل تعملونه في سركم وعلانيتكم ، لا يخفى عليه منه شيء ، فكيف يخفى عليه ما في ضمائركم ولا يظهر على صدقكم وكذبكم ، وذلك أنّ خاله مع كل معلوم واحدة لا تختلف.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة الحجرات أعطى من الأجر بعدد من أطاع اللّه وعصاه»«1».

سورة ق

مكية [إلا آية 38 فمدنية] وآياتها 45 [نزلت بعد المرسلات]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة ق (50) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ (1) بَلْ عَجِبُوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ فَقالَ الْكافِرُونَ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ (2) أَإِذا مِتْنا وَكُنَّا تُراباً ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ (3)

الكلام في ق وَالْقُرْآنِ الْمَجِيدِ بَلْ عَجِبُوا نحوه في ص وَالْقُرْآنِ ذِي الذِّكْرِ بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا سواء بسواء ، لالتقائهما في أسلوب واحد. والمجيد : ذو المجد والشرف على غيره من الكتب ، ومن أحاط علما بمعانيه وعمل بما فيه : مجد عند اللّه وعند الناس ، وهو بسبب من اللّه المجيد ، فجاز اتصافه بصفته. قوله بل عجبوا أَنْ جاءَهُمْ مُنْذِرٌ مِنْهُمْ إنكار لتعجبهم مما ليس بعجب ، وهو أن ينذرهم بالمخوف رجل منهم قد عرفوا وساطته فيهم وعدالته وأمانته ، ومن كان على صفته لم يكن إلا ناصحا لقومه مترفرفا «2» عليهم ، خائفا أن ينالهم سوء ويحل بهم مكروه ، وإذا علم أنّ مخوفا أظلهم ، لزمه أن ينذرهم ويحذرهم ،

(1). أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من طرق عن أبى بن كعب به.
(2). قوله «مترفرفا عليهم» في الصحاح : فلان يرفنا ، أى : يحوطنا ، ورفرف الطائر : إذا حرك جناحيه حول الشيء يريد أن يقع عليه. ورف لونه بالفاء رفا ورفيفا : برق وتلألأ. وثوب رفيف وشجر رفيف : إذا تدانت أوراقه. وفيه أيضا : ترقرق الشيء بالقاف : تلألأ. (ع)

فكيف بما هو غاية المخاوف ونهاية المحاذير ، وإنكار لتعجبهم مما أنذرهم به من البعث ، مع علمهم بقدرة اللّه تعالى على خلق السماوات والأرض وما بينهما ، وعلى اختراع كل شيء وإبداعه ، وإقرارهم بالنشأة الأولى ، ومع شهادة العقل بأنه لا بدّ من الجزاء. ثم عوّل على أحد الإنكارين بقوله تعالى فَقالَ الْكافِرُونَ هذا شَيْءٌ عَجِيبٌ، أَإِذا مِتْنا دلالة على أن تعجبهم من البعث أدخل في الاستبعاد وأحق بالإنكار ، ووضع الكافرون موضع الضمير للشهادة على أنهم في قولهم هذا مقدمون على الكفر العظيم ، وهذا إشارة إلى الرجع ، وإذا منصوب بمضمر ، معناه : أحين نموت ونبلى نرجع؟ ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ مستبعد مستنكر ، كقولك : هذا قول بعيد. وقد أبعد فلان في قوله. ومعناه : بعيد من الوهم والعادة. ويجوز أن يكون الرجع بمعنى المرجوع. وهو الجواب ، ويكون من كلام اللّه تعالى استبعادا لإنكارهم ما أنذروا به من البعث ، والوقف قبله على هذا التفسير حسن. وقرئ : إذا متنا ، على لفظ الخبر ، ومعناه : إذا متنا بعد أن نرجع ، والدال عليه ذلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ. فإن قلت : فما ناصب الظرف إذا كان الرجع بمعنى المرجوع؟ قلت : ما دل عليه المنذر من المنذر به ، وهو البعث.

[سورة ق (50) : آية 4]

قَدْ عَلِمْنا ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنا كِتابٌ حَفِيظٌ (4)

قَدْ عَلِمْنا ردّ لاستبعادهم الرجع ، لأن من لطف علمه حتى تغلغل إلى ما تنقص الأرض من أجساد الموتى وتأكله من لحومهم وعظامهم ، كان قادرا على رجعهم أحياء كما كانوا. عن النبي صلى اللّه عليه وسلم «كل ابن آدم يبلى إلا عجب الذنب» «1» وعن السدى ما تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ ما يموت فيدفن في الأرض منهم كِتابٌ حَفِيظٌ محفوظ من الشياطين ومن التغير ، وهو اللوح المحفوظ. أو حافظ لما أودعه وكتب فيه.

[سورة ق (50) : آية 5]

بَلْ كَذَّبُوا بِالْحَقِّ لَمَّا جاءَهُمْ فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ (5)

بَلْ كَذَّبُوا إضراب أتبع الإضراب الأوّل ، للدلالة على أنهم جاءوا بما هو أفظع من تعجبهم ، وهو التكذيب بالحق الذي هو النبوّة الثابتة بالمعجزات في أوّل وهلة من غير تفكر ولا تدبر فَهُمْ فِي أَمْرٍ مَرِيجٍ مضطرب. يقال :

(1). متفق عليه من حديث أبى صالح عن أبى هريرة وأخرجه الحاكم من حديث أبى سعيد ، وزاد «قالوا : ما هو يا رسول اللّه؟ قال : هو مثل حبة الخردل ، منه ينبتون».

[سورة ق (50) : آية 6]

أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّماءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْناها وَزَيَّنَّاها وَما لَها مِنْ فُرُوجٍ (6)

أَفَلَمْ يَنْظُرُوا حين كفروا بالبعث إلى آثار قدرة اللّه في خلق العالم بَنَيْناها رفعناها بغير عمد مِنْ فُرُوجٍ من فتوق : يعنى أنها ملساء سليمة من العيوب لا فتق فيها ولا صدع ولا خلل ، كقوله تعالى : هَلْ تَرى مِنْ فُطُورٍ.

[سورة ق (50) : الآيات 7 إلى 8]

وَالْأَرْضَ مَدَدْناها وَأَلْقَيْنا فِيها رَواسِيَ وَأَنْبَتْنا فِيها مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (7) تَبْصِرَةً وَذِكْرى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ (8)

مَدَدْناها دحوناها رَواسِيَ جبالا ثوابت لولا هي لتكفأت مِنْ كُلِّ زَوْجٍ من كل صنف بَهِيجٍ يبتهج به لحسنه تَبْصِرَةً وَذِكْرى لتبصر به ونذكر كل عَبْدٍ مُنِيبٍ راجع إلى ربه ، مفكر في بدائع خلقه. وقرئ : تبصرة وذكرى بالرفع ، أى : خلقها تبصرة.

[سورة ق (50) : الآيات 9 إلى 11]

وَنَزَّلْنا مِنَ السَّماءِ ماءً مُبارَكاً فَأَنْبَتْنا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (9) وَالنَّخْلَ باسِقاتٍ لَها طَلْعٌ نَضِيدٌ (10) رِزْقاً لِلْعِبادِ وَأَحْيَيْنا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذلِكَ الْخُرُوجُ (11)

ماءً مُبارَكاً كثير المنافع وَحَبَّ الْحَصِيدِ وحب الزرع الذي من شأنه أن يحصد ، وهو ما يقتات به من نحو الحنطة والشعير وغيرهما باسِقاتٍ طوالا في السماء : وفي قراءة رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : باصقات ، بإبدال السين صادا لأجل القاف نَضِيدٌ منضود بعضه فوق بعض : إما أن يراد كثرة الطلع وتراكمه ، أو كثرة ما فيه من الثمر رِزْقاً على أنبتناها رزقا ، لأنّ الإنبات في معنى الرزق. أو على أنه مفعول له ، أى : أنبتناها لنرزقهم كَذلِكَ الْخُرُوجُ كما حييت هذه البلدة الميتة ، كذلك تخرجون أحياء بعد موتكم ، والكاف في محل الرفع على الابتداء :

[سورة ق (50) : الآيات 12 إلى 14]

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ (12) وَعادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوانُ لُوطٍ (13) وَأَصْحابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ (14)

أراد بفرعون قومه كقوله تعالى مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَائِهِمْ لأنّ المعطوف عليه قوم نوح ، والمعطوفات جماعات كُلٌّ يجوز أن يراد به كل واحد منهم ، وأن يراد جميعهم ، إلا أنه وحد

الضمير الراجع إليه على اللفظ دون المعنى فَحَقَّ وَعِيدِ فوجب وحل وعيدى ، وهو كلمة العذاب. وفيه تسلية لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وتهديد لهم.

[سورة ق (50) : آية 15]

أَفَعَيِينا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ (15)

عيى بالأمر : إذا لم يهتد لوجه عمله ، والهمزة للإنكار. والمعنى : أنا لم نعجز كما علموا عن الخلق الأول ، حتى نعجز عن الثاني ، ثم قال : هم لا ينكرون «1» قدرتنا على الخلق الأوّل ، واعترافهم بذلك في طيه الاعتراف بالقدرة على الإعادة بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ أى في خلط وشبهة.

قد لبس عليهم الشيطان وحيرهم. ومنه قول على رضى اللّه عنه : يا حار «2» إنه لملبوس عليك ، اعرف الحق تعرف أهله. ولبس الشيطان عليهم : تسويله إليهم أن إحياء الموتى أمر خارج عن العادة ، فتركوا لذلك القياس الصحيح : أن من قدر على الإنشاء كان على الإعادة أقدر. فإن قلت : لم نكر الخلق الجديد ، «3» وهلا عرّف كما عرّف الخلق الأول؟ قلت : قصد في تنكيره إلى خلق جديد له شأن عظيم وحال شديد ، حق من سمع به أن يهتم به ويخاف ، ويبحث عنه ولا يقعد على لبس في مثله.

[سورة ق (50) : آية 16]

وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ وَنَعْلَمُ ما تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ (16)

(1). قوله «ثم قال هم لا ينكرون» يعنى كأنه قال ذلك بمعونة الاضراب. وقوله «في طيه ... الخ» أى يلزمه ذلك وإن لم يقع منهم اللبس. (ع)
(2). قوله «يا حار إنه لملبوس» لعله ترخيم حارث. (ع)
(3). وقع في النسخة ما أحكيه وصورته : «فان قلت لم نكر الخلق الجديد ... الخ» قال أحمد : هذا كلام كما تراه غير منتظم ، والظاهر أنه لفساد في النسخة ، والذي يتحرر في الآية - وهو مقتضى تفسير الزمخشري : أن فيها أسئلة ثلاثة : لم عرف الخلق الأول ونكر اللبس والخلق الجديد؟ فاعلم أن التعريف لا غرض منه إلا تفخيم ما قصد تعريفه وتعظيمه ، ومنه تعريف الذكور في قوله وَيَهَبُ لِمَنْ يَشاءُ الذُّكُورَ ولهذا المقصد عرف الخلق الأول ، لأن الغرض جعله دليلا على إمكان الخلق الثاني بطريق الأولى أى إذا لم يعي تعالى بالخلق الأول على عظمته ، فالخلق الآخر أولى أن لا يعيأ به ، فهذا سر تعريف الخلق الأول. وأما التنكير فأمره منقسم : فمرة يقصد به تفخيم المنكر من حيث ما فيه من الإبهام ، كأنه أفخم من أن يخاطبه معرفة ، ومرة يقصد به التقليل من المنكر والوضع منه ، وعلى الأول سَلامٌ قَوْلًا مِنْ رَبٍّ رَحِيمٍ وقوله لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ وإِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ وقوله بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وهو أكثر من أن يحصى. والثاني : هو الأصل في التنكير ، فلا يحتاج إلى تمثيله ، فتنكير اللبس من التعظيم والتفخيم ، كأنه قال : في لبس أىّ لبس : وتنكير الخلق الجديد للتقليل منه والتهوين لأمره بالنسبة إلى الخلق الأول ، ويحتمل أن يكون التفخيم ، كأنه أمر أعظم من أن يرضى الإنسان بكونه ملتبسا عليه ، مع أنه أول ما تبصر فيه صحته ، ولعل إشارة الزمخشري إلى هذا واللّه أعلم ، فهذا كما تراه كلام مناسب لاستطراف أسئلة وأجوبة ، فان يكن هو ما أراده الزمخشري فذاك ، وإلا فالعق العسل ولا تسل.

الوسوسة : الصوت الخفي. ومنها : وسواس الحلي. ووسوسة النفس : ما يخطر ببال الإنسان ويهجس في ضميره من حديث النفس. والباء مثلها في قولك : صوت بكذا وهمس به. ويجوز أن تكون للتعدية والضمير للإنسان ، أى : ما تجعله موسوسا ، وما مصدرية ، لأنهم يقولون : حدّث نفسه بكذا ، كما يقولون : حدثته به نفسه. قال : وأكذب النّفس إذا حدّثتها «1»

وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مجاز ، والمراد : قرب علمه منه ، وأنه يتعلق بمعلومه منه ومن أحواله تعلقا لا يخفى عليه شيء من خفياته ، فكأن ذاته قريبة منه ، كما يقال : اللّه في كل مكان ، وقد جل عن الأمكنة. وحبل الوريد : مثل في فرط القرب ، كقولهم : هو منى مقعد القابلة ومعقد الإزار. وقال ذو الرمة : والموت أدنى لي من الوريد«2»

والحبل : العرق ، شبه بواحد الحبال. ألا ترى إلى قوله : كأن وريديه رشاءا خلب «1»

(1) وأكذب النفس إذا حدثها إن صدق النفس يزرى بالأمل
غير أن لا تكذبنها في التقى واخزها بالبر للّه الأجل
للبيد بن ربيعة ، وسئل بشار : أى بيت قالته العرب أشعر؟ فقال تفضيل بيت واحد على الشعر كله غير سديد ، ولكنه أحسن لبيد في قوله : وأكذب النفس ، يقال : كذبه وصدقه مخففا ومشددا ، بمعنى. وما هنا من الأول للوزن ، أى : لا تصدقها إذا حدثتك بأمر وحدثتها فيه ، لأنها مثبطة عن نيل الفضائل. طامحة إلى الرذائل ، وهذا معنى «إن صدق النفس» أى : تصديقها ، يزرى بالأمل. يقال : زراه ، إذا عابه. وأزرى به : إذا أوقع به العيب ، غير أنه الحال والشأن لا تكذبها في تحديثها إياك بالتقى ، والخوف من اللّه ، فان مخففة من الثقيلة ، واسمها ضمير الشأن. ويجوز أنه ضمير المخاطب ، ولا ناهية ، وإجراء الكلام على الاستثناء يحتاج إلى تكلف في بيان المستثنى والمستثنى منه ، ويمكن إجراؤه على الاستدراك ، لكن نصب «غير» يحتاج إلى الحمل على الاستثناء» ويحتمل أن تكون «أن» مصدرية «و لا» نافية أو زائدة ، لكن تأكيد الفعل بالنون بعد النهى كثير ، وبعد النفي قليل ، ومع الإثبات في هذا شاذ أو ضرورة ، ولا بد من إجراء الكلام بهذا الوجه على الاستثناء معنى ولفظا.
وقد قال القسطلاني في شرح صحيح البخاري باحتمال النهي والزيادة. وبعضهم باحتمال النفي في قوله صلى اللّه عليه وسلم لعائشة حين حاضت في الحج : «فأقضي ما يقضى الحاج غير أن لا تطوفي بالبيت» وخزاه يخزوه : قهره وغلبه ، أى : واقهرها بالخير للّه الأجل الأعظم ، وكأن في البر قهرا لها لمشقته عليها عادة.
(2) هل أغدون في عيشة رغيد والموت أدنى لي من الوريد

لذي الرمة. والاستفهام إنكارى ، أى : لا أكون في عيشة واسعة والحال أن الموت أقرب إلىّ من الوريد.
وروى : أوفى. والمعنى واحد. والوريدان : عرقان في مقدم صفحتي العنق ، سميا بذلك لأنهما يردان من الرأس.
ولأن الروح تردهما. وقال : عيشة رغيد ، كقوله الله تعالى إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ وإن كان قليلا في فعيل بمعنى فاعل.

والوريدان : عرقان مكتنفان لصفحتى العنق في مقدمهما متصلان بالوتين ، يردان من الرأس إليه. وقيل : سمى وريدا لأنّ الروح ترده. فإن قلت : ما وجه إضافة الحبل إلى الوريد ، والشيء لا يضاف إلى نفسه؟ قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن تكون الاضافة للبيان ، كقولهم : بعير سانية. والثاني : أن يراد حبل العاتق فيضاف إلى الوريد ، كما يضاف إلى العاتق لاجتماعهما في عضو واحد» كما لو قيل : حبل العلياء «2» مثلا.

[سورة ق (50) : الآيات 17 إلى 18]

إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمالِ قَعِيدٌ (17) ما يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ (18)

إِذْ منصوب بأقرب ، وساغ ذلك لأنّ المعاني تعمل في الظرف متقدّمة ومتأخرة : والمعنى : أنه لطيف يتوصل علمه إلى خطرات النفس وما لا شيء أخفى منه ، وهو أقرب من الإنسان «3» من كل قريب حين يتلقى الحفيظان ما يتلفظ به ، إيذانا بأن استحفاظ الملكين أمر هو غنى عنه ، وكيف لا يستغنى عنه وهو مطلع على أخفى الخفيات؟ وإنما ذلك لحكمة اقتضت ذلك : وهي ما في كتبة الملكين وحفظهما ، وعرض صحائف العمل يوم يقوم الأشهاد.

وعلم العبد بذلك مع علمه بإحاطة الله بعمله : من زيادة لطف له في الانتهاء عن السيئات والرغبة في الحسنات. وعن النبي صلى الله عليه وسلم «إنّ مقعد ملكيك على ثنيتيك ، ولسانك قلمهما ، وريقك مدادهما ، وأنت تجرى فيما لا يعنيك لا تستحي من الله تعالى ولا منهما» «4» ويجوز أن يكون تلقى الملكين بيانا للقرب ، يعنى : ونحن قريبون منه مطلعون على أحواله مهيمنون عليه ، إذ حفظتنا وكتبتنا موكلون به ، والتلقي : التلقن بالحفظ والكتبة. والقعيد : القاعد ،

(1) غضنفر تلقاء عند الغضب كأن وريديه رشاءا خلب
لرؤية. والغضنفر : الأسد. والوريدان : عرقان يردان من الرأس يكتنفان الحلقوم. وقيل : تردهما الروح.
والرشاءان : حبلان للاستقاء. والخلب - بضمتين ، وقد يسكن - : اللب والماء المخلوط بالطين. ويجوز أن يراد به هنا البئر الكدرة : شبه الشجاع بالأسد ، وشبه وريديه عند الغضب بالرشاءين ، وكأن هنا عاملة ، وهي مخففة ، وهو قليل ، والكثير إهمالها.
(2). قوله «لو قيل حبل العلباء» هي عصب العنق ، كما في الصحاح. (ع)
(3). قوله «و هو أقرب من الإنسان» يقال : قرب من الشيء كما يقال : قرب إليه. (ع)
(4). أخرجه الثعلبي من رواية جميل بن الحسن عن أرطاه بن الأشعث العدوى عن جعفر بن محمد عن أبيه عن على رضى الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال «مقعد ملكيك» فذكره.

كالجليس بمعنى الجالس ، وتقديره : عن اليمين قعيد وعن الشمال قعيد من المتلقيين ، فترك أحدهما لدلالة الثاني عليه ، كقوله :

... كنت منه ووالدي بريّا ..... «1» ..

رَقِيبٌ ملك يرقب عمله عَتِيدٌ حاضر ، واختلف فيما يكتب الملكان ، فقيل : يكتبان كل شيء حتى أنينه في مرضه. وقيل : لا يكتبان إلا ما يؤجر عليه أو يؤزر به. ويدل عليه قوله عليه السلام «كاتب الحسنات على يمين الرجل وكاتب السيئات على يسار الرجل ، وكاتب الحسنات أمين على كاتب السيئات ، فإذا عمل حسنة كتبها ملك اليمين عشرا ، وإذا عمل سيئة قال صاحب اليمين لصاحب الشمال : دعه سبع ساعات لعله يسبح أو يستغفر» «2» وقيل : إنّ الملائكة يجتنبون الإنسان عند غائطه وعند جماعه. وقرئ : ما يلفظ ، على البناء للمفعول.

[سورة ق (50) : الآيات 19 إلى 22]

وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذلِكَ ما كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ (19) وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ (20) وَجاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَها سائِقٌ وَشَهِيدٌ (21) لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هذا فَكَشَفْنا عَنْكَ غِطاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ (22)

لما ذكر إنكارهم البعث واحتج عليهم بوصف قدرته وعلمه ، أعلمهم أن ما أنكروه وجحدوه هم لا قوه عن قريب عند موتهم وعند قيام الساعة ، ونبه على اقتراب ذلك بأن عبر عنه بلفظ الماضي ، وهو قوله وَجاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ونفخ في الصور ، وسكرة الموت : شدّته الذاهبة بالعقل. والباء في بالحق للتعدية ، يعنى : وأحضرت سكرة الموت حقيقة الأمر الذي أنطق الله به كتبه وبعث به رسله. أو حقيقة الأمر وجلية الحال : من سعادة الميت وشقاوته. وقيل : الحق الذي خلق له الإنسان ، من أن كل نفس ذائقة الموت. ويجوز أن تكون الباء مثلها في قوله تَنْبُتُ بِالدُّهْنِ أى وجاءت ملتبسة بالحق ، أى : بحقيقة الأمر. أو بالحكمة والغرض الصحيح ،

(1). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الثاني صفحة 52 فراجعه إن شئت اه مصححه. [.....]
(2). أخرجه الثعلبي والبغوي من طريق جعفر عن القاسم عن أبى أمامة. ومن هذا الوجه أخرجه الطبراني.
وأخرجه البيهقي من هذا الوجه. ومن رواية بشر بن نمير عن القاسم نحوه. وأخرجه الطبراني من رواية ثور بن يزيد عن القاسم نحوه. وروى أبو نعيم في الحلية وابن مردويه من طريق إسماعيل بن عياش عن عاصم بن رجاء عن عروة بن رديم ، عن القاسم عن أبى أمامة وعند الطبري من طريق على بن جرير عن حماد بن سلمة عن عبد الحميد بن جعفر عن كنانة ، قال «دخل عثمان بن عفان على رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقال : يا رسول الله ، كم مع العبد ملك؟ - الحديث»

كقوله تعالى خَلَقَ السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وقرأ أبو بكر وابن مسعود رضى الله عنهما : سكرة الحق بالموت ، على إضافة السكرة إلى الحق والدلالة على أنها السكرة التي كتبت على الإنسان وأوجبت له ، وأنها حكمة ، والباء للتعدية ، لأنها سبب زهوق الروح لشدتها ، أو لأنّ الموت يعقبها ، فكأنها جاءت به. ويجوز أن يكون المعنى : جاءت ومعها الموت. وقيل سكرة الحق سكرة الله ، أضيفت إليه تفظيعا لشأنها وتهويلا. وقرئ : سكرات الموت ذلِكَ إشارة إلى الموت ، والخطاب للإنسان في قوله وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسانَ على طريق الالتفات. أو إلى الحق والخطاب للفاجر تَحِيدُ تنفر وتهرب. وعن بعضهم : أنه سأل زيد بن أسلم عن ذلك فقال : الخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، فحكاه لصالح بن كيسان فقال : والله ما سنّ عالية ولا لسان فصيح ولا معرفة بكلام العرب ، هو للكافر. ثم حكاهما للحسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس فقال : أخالفهما جميعا : هو للبر والفاجر ذلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ على تقدير حذف المضاف ، أى : وقت ذلك يوم الوعيد ، والإشارة إلى مصدر نفخ سائِقٌ وَشَهِيدٌ ملكان : أحدهما يسوقه إلى المحشر ، والآخر يشهد عليه بعمله. أو ملك واحد جامع بين الأمرين ، كأنه قيل : معها ملك يسوقها ويشهد عليها ، ومحل مَعَها سائِقٌ النصب على الحال من كل لتعرّفه بالإضافة إلى ما هو في حكم المعرفة. قرئ : لقد كنت. عنك غطاءك فبصرك ، بالكسر على خطاب النفس ، أى : يقال لها لقد كنت. جعلت الغفلة كأنها غطاء غطى به جسده كله أو غشاوة غطى بها عينيه فهو لا يبصر شيئا ، فإذا كان يوم القيامة تيقظ وزالت الغفلة عنه وغطاؤها فيبصر ما لم يبصره من الحق. ورجع بصره الكليل عن الإبصار لغفلته :

حديدا لتيقظه.

[سورة ق (50) : آية 23]

وَقالَ قَرِينُهُ هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ (23)

وَقالَ قَرِينُهُ هو الشيطان الذي قيض له في قوله نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطاناً فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ يشهد له قوله تعالى قالَ قَرِينُهُ رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ. هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ هذا شيء لدىّ وفي ملكتي عتيد لجهنم. والمعنى : أن ملكا يسوقه وآخر يشهد عليه ، وشيطانا مقرونا به ، يقول : قد أعتدته لجهنم وهيأته لها بإغوائى وإضلالى. فإن قلت : كيف إعراب هذا الكلام؟ قلت : إن جعلت ما موصوفة ، فعتيد : صفة لها : وإن جعلتها موصولة ، فهو بدل ، أو خبر بعد خبر. أو خبر مبتدأ محذوف.

[سورة ق (50) : الآيات 24 إلى 26]

أَلْقِيا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ (24) مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ (25) الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ فَأَلْقِياهُ فِي الْعَذابِ الشَّدِيدِ (26)

أَلْقِيا خطاب من الله تعالى للملكين السابقين : السائق والشهيد : ويجوز أن يكون خطابا للواحد على وجهين : أحدهما قول المبرد : أن تثنية الفاعل نزلت منزلة تثنية الفعل لا تحادهما ، كأنه قيل : ألق ألق : للتأكيد. والثاني : أنّ العرب أكثر ما يرافق الرجل منهم اثنان ، فكثر على ألسنتهم أن يقولوا : خليلىّ وصاحبىّ ، وقفا وأسعدا ،

ويجوز أن تكون الألف في أَلْقِيا بدلا من النون : إجراء للوصل مجرى الوقف عَنِيدٍ معاند مجانب للحق معاد لأهله مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ كثير المنع للمال عن حقوقه ، جعل ذلك عادة له لا يبذل منه شيئا قط. أو مناع لجنس الخير أن يصل إلى أهله يحول بينه وبينهم. قيل : نزلت في الوليد بن المغيرة ، كان يمنع بنى أخيه من الإسلام ، وكان يقول : من دخل منكم فيه لم أنفعه بخير ما عشت مُعْتَدٍ ظالم متخط للحق مُرِيبٍ شاك في الله وفي دينه الَّذِي جَعَلَ مبتدأ مضمن معنى الشرط ، ولذلك أجيب بالفاء. ويجوز أن يكون الَّذِي جَعَلَ منصوبا بدلا من كُلَّ كَفَّارٍ ويكون فَأَلْقِياهُ تكريرا للتوكيد.

[سورة ق (50) : آية 27]

قالَ قَرِينُهُ رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ وَلكِنْ كانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ (27)

فإن قلت : لم أخليت هذه الجملة عن الواو وأدخلت على الأولى؟ قلت : لأنها استؤنفت كما تستأنف الجمل الواقعة في حكاية التقاول كما رأيت في حكاية المقاولة بين موسى وفرعون. فإن قلت ، فأين التقاول هاهنا؟ قلت : لما قال قرينه هذا ما لَدَيَّ عَتِيدٌ وتبعه قوله قالَ قَرِينُهُ رَبَّنا ما أَطْغَيْتُهُ وتلاه لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ : علم أنّ ثم مقاولة من الكافر ، لكنها طرحت لما يدل عليها ، كأنه قال : رب هو أطغانى ، فقال قرينه : ربنا ما أطغيته. وأمّا الجملة الأولى فواجب عطفها للدلالة على الجمع بين معناها ومعنى ما قبلها في الحصول ، أعنى مجيء كل نفس مع الملكين : وقول قرينه ما قال له ما أَطْغَيْتُهُ ما جعلته طاغيا ، وما أوقعته في الطغيان ، ولكنه طغى واختار الضلالة على الهدى كقوله تعالى : وَما كانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطانٍ إِلَّا أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي.

[سورة ق (50) : الآيات 28 إلى 29]

قالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ (28) ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (29)

قالَ لا تَخْتَصِمُوا استئناف مثل قوله قالَ قَرِينُهُ كأن قائلا قال : فما ذا قال الله؟ فقيل : قال لا تختصموا. والمعنى : لا تختصموا في دار الجزاء وموقف الحساب ، فلا فائدة في اختصامكم ولا طائل تحته ، وقد أوعدتكم بعذابي على الطغيان في كتبي وعلى ألسنة رسلي ، فما تركت لكم حجة علىّ ، ثم قال : لا تطمعوا أن أبدل قولي ووعيدى فأعفيكم عما أوعدتكم به وَما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ فأعذب من ليس بمستوجب للعذاب. والباء في بِالْوَعِيدِ مزيدة مثلها في وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ أو معدية ، على أن «قدّم» مطاوع بمعنى «تقدّم» ويجوز أن يقع الفعل على جملة قوله ما يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَما أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ويكون بِالْوَعِيدِ حالا ، أى : قدّمت إليكم هذا ملتبسا بالوعيد مقترنا به. أو قدّمته إليكم موعدا لكم به. فإنْ قلت : إنّ قوله وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ واقع موقع الحال من لا تَخْتَصِمُوا والتقديم بالوعيد في الدنيا والخصومة في الآخرة واجتماعها في زمان واحد واجب. قلت : معناه ولا تختصموا وقد صح عندكم أنى قدمت إليكم بالوعيد ، وصحة ذلك عندهم في الاخرة. فإن قلت : كيف قال بِظَلَّامٍ على لفظ المبالغة «1»؟

قلت : فيه وجهان ، أحدهما : أن يكون من قولك : هو ظالم لعبده ، وظلام لعبيده. والثاني : أن يراد لو عذبت من لا يستحق العذاب لكنت ظلاما مفرط الظلم ، فنفى ذلك.

[سورة ق (50) : آية 30]

يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ امْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِنْ مَزِيدٍ (30)

قرئ : نقول ، بالنون والياء. وعن سعيد بن جبير : يوم يقول الله لجهنم. وعن ابن مسعود والحسن : يقال. وانتصاب اليوم بظلام أو بمضمر ، نحو : أذكر وأنذر. ويجوز أن ينتصب بنفخ ، كأنه قيل. ونفخ في الصور يوم نقول لجهنم. وعلى هذا يشار بذلك إلى يوم نقول ، ولا يقدّر حذف المضاف. وسؤال جهنم وجوابها من باب التخييل «2» الذي يقصد به تصوير المعنى في القلب وتثبيته ،

(1). قال محمود : «إن قلت كيف جاء على لفظ المبالغة ... الخ» قال أحمد : وذكر فيه وجهان آخران ، أحدهما أن فعالا قد ورد بمعنى فاعل ، فهذا منه. الثاني : أن المنسوب في المعتاد إلى الملوك من الظلم تحت ظلمهم : إن عظيما فعظيم ، وإن قليلا فقليل ، فلما كان ملك اللّه تعالى على كل شيء ملكه قدس ذاته عما يتوهم مخذول والعياذ باللّه أنه منسوب إليه من ظلم تحت شمول كل موجود ، ولقد بدل القدرية فتوهموا أن اللّه تعالى لم يأمر إلا بما أراده وبما هو من خلق العبد ، بناء على أنه لو كلف على خلاف ما أراد وبما ليس من خلق العبد لكان تكليفا بما لا يطاق ، واعتقدوا أن ذلك ظلم في الشاهد ، فلو ثبت في الغائب لكان كما هو في الشاهد ظلما ، واللّه تعالى مبرأ من الظلم. ألا ترى هذا المعتقد كيف لزمهم عليه أن يكون اللّه تعالى ظلاما لعبيده ، تعالى اللّه عن ذلك ، لأن الحق الذي قامت بصحته البراهين : هو عين ما اعتقدوه ظلما فنفوه ، فلمثلهم وردت هذه الآية وأشباهها ، لتبين الناس ما نزل إليهم ، ولئلا يكون للناس على اللّه حجة بعد الرسل ، واللّه الموفق للصواب.

(2). قال محمود : «سؤال جهنم وجوابها من باب التخييل الذي يقصد به تصوير المعنى ... الخ» قال أحمد : قد تقدم إنكارى عليه إطلاق التخييل في غير ما موضع ، والنكير هاهنا أشد عليه ، فان إطلاق التخييل قد مضى له في مثل قوله وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ وفي مثل قوله بَلْ يَداهُ مَبْسُوطَتانِ وإنما أراد به حمل الأيدى على نوع من المجاز ، فمعنى كلامه صحيح ، لأنا نعتقد فيهما المجاز ، وندين اللّه بتقديسه عن المفهوم الحقيقي ، فلا بأس عليه في معنى إطلاقه ، غير أنا مخاطبون باجتناب الألفاظ الموهمة في حق جلال اللّه تعالى وإن كانت معانيها صحيحة ، وأى إيهام أشد من إيهام لفظ التخييل. ألا ترى كيف استعمله اللّه فيما أخبر أنه سحر وباطل في قوله يُخَيَّلُ إِلَيْهِ مِنْ سِحْرِهِمْ أَنَّها تَسْعى فلا يشك في وجوب اجتنابه ، ثم يعود بنا الكلام إلى إطلاقه هاهنا فنقول : هو منكر لفظا ومعنى.

أما اللفظ فقد تقدم ، وأما المعنى فلأنا نعتقد أن سؤال جهنم وجوابها حقيقة ، وأن اللّه تعالى يخلق فيها الإدراك بذلك بشرطه ، وكيف نفرض وقد وردت الأخبار وتظاهرت على ذلك : منها هذا : ومنها : لجاج الجنة والنار.

ومنها : اشتكاؤها إلى ربها فأذن لها في نفسين. وهذه وإن لم تكن نصوصا فظواهر يجب حملها على حقائقها ، لأنا متعبدون باعتقاد الظاهر ما لم يمنع مانع ، ولا مانع هاهنا «فان القدرة صالحة. والعقل يجوز ، والظواهر قاضية بوقوع ما صوره العقل ، وقد وقع مثل هذا قطعا في الدنيا ، كتسليم الشجر وتسبيح الحصا في كف النبي صلى اللّه عليه وسلم وفي يد أصحابه ، ولو فتح باب المجاز والعدول عن الظواهر في تفاصيل المقالة لا تسع الخرق وضل كثير من الخلق عن الحق ، وليس هذا كالظواهر الواردة في الإلهيات مما لم يجوز العقل اعتقاد ظاهرها ، فان العدول فيها عن ظاهر الكلام بضرورة الانقياد إلى أدلة العقل المرشدة إلى المعتقد الحق ، فاشدد يدك بما فصل في هذا الفصل ، مما أرشدتك به إلى منهج القرب والوصل ، واللّه الموفق.

وفيه معنيان ، أحدهما : أنها تمتلئ مع اتساعها وتباعد أطرافها حتى لا يسعها شيء «1» ولا يزاد على امتلائها، لقوله تعالى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ والثاني : أنها من السعة بحيث يدخلها من يدخلها وفيها موضع للمزيد. ويجوز أن يكون هَلْ مِنْ مَزِيدٍ استكثارا للداخلين فيها واستبداعا للزيادة «2» عليهم لفرط كثرتهم. أو طلبا للزيادة غيظا على العصاة. والمزيد : إما مصدر كالمحيدو المميد ، وإما اسم مفعول كالمبيع.

[سورة ق (50) : الآيات 31 إلى 35]

وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ (31) هذا ما تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ (32) مَنْ خَشِيَ الرَّحْمنَ بِالْغَيْبِ وَجاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ (33) ادْخُلُوها بِسَلامٍ ذلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ (34) لَهُمْ ما يَشاؤُنَ فِيها وَلَدَيْنا مَزِيدٌ (35)

غَيْرَ بَعِيدٍ نصب على الظرف ، أى : مكانا غير بعيد. أو على الحال ، وتذكيره لأنه على زنة المصدر ، كالزئير والصليل ، والمصادر يستوي في الوصف بها المذكر والمؤنث. أو على حذف الموصوف ، أى : شيئا غير بعيد، ومعناه التوكيد ، كما تقول : هو قريب غير بعيد ، وعزيز غير ذليل. وقرئ : توعدون بالتاء والياء ، وهي جملة اعتراضية. ولِكُلِّ أَوَّابٍ بدل من قوله للمتقين ، بتكرير الجارّ كقوله تعالى لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ ، وهذا إشارة إلى الثواب. أو إلى مصدر أزلفت. والأوّاب : الرجاع إلى ذكر اللّه تعالى ، والحفيظ : الحافظ لحدوده تعالى. ومَنْ خَشِيَ بدل بعد بدل تابع لكل. ويجوز أن يكون بدلا عن موصوف أوّاب وحفيظ ، ولا يجوز أن يكون في حكم أوّاب وحفيظ ، لأنّ من لا يوصف به ولا يوصف من بين الموصولات إلا بالذي وحده.

(1). قوله «حتى لا يسعها شي ء» كأن فيه قلبا. (ع)
(2). قوله «و استيداعا للزيادة» لعله واستبعادا. (ع)

ويجوز أن يكون مبتدأ خبره : يقال لهم ادخلوها بسلام ، لأنّ مَنْ في معنى الجمع. ويجوز أن يكون منادى كقولهم : من لا يزال محسنا أحسن إلىّ ، وحذف حرف النداء للتقريب بِالْغَيْبِ حال من المفعول ، أى : خشيه وهو غائب لم يعرفه ، وكونه معاقبا إلا بطريق الاستدلال. أو صفة لمصدر خشي ، أى خشيه خشية ملتبسة بالغيب ، حيث خشي عقابه وهو غائب ، أو خشيه بسبب الغيب الذي أوعده به من عذابه. وقيل : في الخلوة حيث لا يراه أحد. فإن قلت : كيف قرن بالخشية اسمه الدال على سعة الرحمة؟ «1» قلت : للثناء البليغ على الخاشى وهو خشيته ، مع علمه أنه الواسع الرحمة ، كما أثنى عليه بأنه خاش ، مع أنّ المخشى منه غائب ، ونحوه وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ ما آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ فوصفهم بالوجل مع كثرة الطاعات. وصف القلب بالإنابة وهي

أو مسلما عليكم يسلم عليكم اللّه وملائكته ذلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ أى يوم تقدير الخلود ، كقوله تعالى فَادْخُلُوها خالِدِينَ أى مقدرين الخلود وَلَدَيْنا مَزِيدٌ هو ما لم يخطر ببالهم ولم تبلغه أمانيهم ، حتى يشاؤه. وقيل : إن السحاب تمرّ بأهل الجنة فتمطرهم الحور ، فتقول : نحن المزيد الذي قال اللّه عز وجل : وَلَدَيْنا مَزِيدٌ.

[سورة ق (50) : آية 36]

وَكَمْ أَهْلَكْنا قَبْلَهُمْ مِنْ قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً فَنَقَّبُوا فِي الْبِلادِ هَلْ مِنْ مَحِيصٍ (36)

فَنَقَّبُوا وقرئ بالتخفيف : فخرقوا في البلاد ودوّخوا «2». والتنقيب : التنقير عن الأمر والبحث والطلب. قال الحرث بن حلزة : نقّبوا في البلاد من حذر الموت وجالوا في الأرض كلّ مجال «3»

ودخلت الفاء للتسبيب عن قوله هُمْ أَشَدُّ مِنْهُمْ بَطْشاً أى : شدّة بطشهم أبطرتهم وأقدرتهم على التنقيب وقوّتهم عليه. ويجوز أن يراد : فنقب أهل مكة في أسفارهم ومسايرهم في بلاد القرون ،

(1). قال محمود : «إن قلت : كيف قرن الخشية باسمه الدال على سعة الرحمة ... الخ» قال أحمد : ومن هذا الوادي بالغ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم في الثناء على صهيب بقوله : «نعم العبد صهيب لو لم يخف اللّه لم يعصه».
(2). قوله «و دوخوا» الذي في الصحاح : أن دوخ البلاد بمعنى قهرها واستولى على أهلها. (ع)
(3). للحرث بن كلدة. والنقب : الطريق. ونقبوا ، أى : ساروا في طرق البلاد ونقروا وفتشوا على مهرب وملجأ ، لأجل حذرهم من الموت. وجالوا ، أى : ذهبوا في الأرض. والجول : الناحية والجانب ، أى : ساروا في نواحي الأرض وجوانبها ، كل مجال ، أى : كل طريق ، أو كل جولان ، لأن مفعل صالح للمكان والحدث.

فهل رأوا لهم محيصا حتى يؤملوا مثله لأنفسهم ، والدليل على صحته قراءة من قرأ فَنَقَّبُوا على الأمر ، كقوله تعالى فَسِيحُوا فِي الْأَرْضِ وقرئ بكسر القاف مخففة من النقب وهو أن يتنقب خف البعير. قال : ما مسّها من نقب ولا دبر «1»

والمعنى : فنقبت أخفاف إبلهم. أو : حفيت أقدامهم ونقبت ، كما تنقب أخفاف الإبل لكثرة طوفهم في البلاد هَلْ مِنْ مَحِيصٍ من اللّه ، أو من الموت.

[سورة ق (50) : آية 37]

إِنَّ فِي ذلِكَ لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى السَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ (37)

لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ أى قلب واع ، لأنّ من لا يعي قلبه فكأنه لا قلب له. وإلقاء السمع : الإصغاء وَهُوَ شَهِيدٌ أى حاضر بفطنته ، لأنّ من لا يحضر ذهنه فكأنه غائب ، وقد ملح الإمام عبد القاهر في قوله لبعض من يأخذ عنه:
ما شئت من زهزهة والفتى بمصقلاباذ لسقى الزروع «2»

(1) أقسم باللّه أبو حفص عمر ما مسها من نقب ولا دبر
اغفر له اللهم إن كان فجر
لأعرابى : شكا إلى عمر رضى اللّه عنه ضعف ناقته ، فأعطاه شيئا من الدقيق ولم يعطه مطية ، فولى يقول ذلك ، فأعطاه مراده. ومن زائدة في الفاعل ، مفيدة للمبالغة في الاستغراق. والنقب - كالتعب - : ضرر خف البعير من الحفا ، ويطلق على الجرب والحكة ورقة الجلد. والدبر كالتعب أيضا : انجراح مؤخر الظهر من الحمل ونحوه ، ووقوع ألف الوصل أول المصراع سائغ ، لأنها محل ابتداء ، كما نص عليه الخليل ، والمراد بالفجور : الحنث.
(2) يجيء في فضلة وقت له مجيء من شاب الهوى بالنزوع
ثم يرى جبلة مشبوبة قد شددت أحماله بالنسوع
ما شئت من زهزهة والفتى بمصقلاباذ لسقى الزروع
ملح ولمح به الامام عبد القاهر في بعض من يأخذ عنه ولا يحضر ذهنه ، وهو أبو عامر الجرجاني ، أى : يجيء في بقية وقت له مع تعلق فكره بغير ما جاء له ، كمجيء من خلط الهوى بالنزوع ، أى الرجوع ويطلق النزوع على الشوق أيضا ، ثم يرى خلقة وطبيعة غليظة مشعلة بشهوات الشباب. والجبلة - بكسرتين فتشديد ، وبتثليث أوله وسكون ثانيه - : الخلقة والطبيعة ، ولعلها مضافة لما بعدها إضافة الموصوف لصفته. ويقال : شب يشب ويشب شبابا وشبيا : قمص ولعب. وشببت النار شبا وشبوبا : أوقدتها. وشببته : أظهرته. وأشببته : هيجته. ويروى :

ثم ترى جلسة مستوفز ، أى : مستعجل متهيأ للقيام. وهذه الرواية أوفق بالوزن والمعنى. والنسع : حزام عريض يوضع تحت صدر المطية ، وستر الهودج ، واسترخاء لحم الأسنان ، وريح الشمال ، والذهاب ، وسرعة الانبات.
وجمعه : أنساع ونسوع ونسع. أى : والحال أنه قد شددت أحماله بالنسوع ، كناية عن الرحيل. ويقول الفارسي عند استحسان الأمر : زهازه ، فأخذ منه الزهزهة ، أى : ما شئت من الاستحسان عند التعلم موجود منه كثير ، والخطاب لغير معين ، والحال أن الفتى في مصقلاباد ، وهي محلة بجرجان ، ويروى بالذال المعجمة ، أى : كائن هناك لسقى زروعه. لما كان قلبه غير متعلق إلا بذلك المكان ، كان جسمه كأنه هناك ، ولقد ترقى في التشبيه حيث شبهه بمن خلط الهوى بغيره تشبيها بليغا. ثم بمن تهيأ للرحيل على سبيل التمثيل ، ثم بمن سافر بالفعل ووصل مقصده واشتغل بما فيه تشبيها بليغا ، فللّه دره بليغا.

أو : وهو مؤمن شاهد على صحته وأنه وحى من اللّه ، أو وهو بعض الشهداء في قوله تعالى لِتَكُونُوا شُهَداءَ عَلَى النَّاسِ وعن قتادة وهو شاهد على صدقه من أهل الكتاب لوجود نعته عنده وقرأ السدى وجماعة : ألقى السمع ، على البناء للمفعول. ومعناه : لمن ألقى غيره السمع وفتح له أذنه فحسب ولم يحضر ذهنه وهو حاضر الذهن متفطن. وقيل : ألقى سمعه أو السمع منه.

[سورة ق (50) : آية 38]

وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ وَما بَيْنَهُما فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَما مَسَّنا مِنْ لُغُوبٍ (38)

اللغوب : الإعياء. وقرئ بالفتح بزنة القبول والولوع. قيل : نزلت في اليهود لعنت تكذيبا لقولهم : خلق اللّه السماوات والأرض في ستة أيام أوّلها الأحد وآخرها الجمعة ، واستراح يوم السبت واستلقى على العرش. وقالوا: إنّ الذي وقع من التشبيه في هذه الأمة إنما وقع من اليهود ومنهم أخذ.

[سورة ق (50) : الآيات 39 إلى 43]

فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ (39) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبارَ السُّجُودِ (40) وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ (41) يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ (42) إِنَّا نَحْنُ نُحْيِي وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا الْمَصِيرُ (43)

فَاصْبِرْ عَلى ما يَقُولُونَ أى اليهود ويأتون به من الكفر والتشبيه. وقيل : فاصبر على ما يقول المشركون من إنكارهم البعث ، فإنّ من قدر على خلق العالم قدر على بعثهم والانتقام منهم. وقيل : هي منسوخة بآية السيف. وقيل : الصبر مأمور به في كل حال بِحَمْدِ رَبِّكَ حامدا ربك ، والتسبيح محمول على ظاهره أو على الصلاة ، فالصلاة قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ الفجر وَقَبْلَ الْغُرُوبِ الظهر والعصر وَمِنَ اللَّيْلِ العشا آن. وقيل التهجد وَأَدْبارَ السُّجُودِ التسبيح في آثار الصلوات ، والسجود والركوع يعبر بهما عن الصلاة. وقيل النوافل بعد المكتوبات. وعن على رضى اللّه عنه : الركعتان بعد المغرب. وروى عن النبي صلى اللّه عليه وسلم «من صلى بعد المغرب قبل أن يتكلم كتبت صلاته في عليين» «1» وعن ابن عباس رضى اللّه

(1). أخرجه ابن أبى شيبة وعبد الرزاق من رواية عبد العزيز بن عمر : سمعت مكحولا يقول : بلغني أن النبي صلى اللّه عليه وسلم قال «من صلى ركعتين بعد المغرب قبل أن يتكلم كتبتا - أو قال رفعتا - في عليين» هذا مرسل. وقد روى موصولا عن أنس عن عائشة رضى اللّه عنهما. أما حديث أنس فرواه الدارقطني في غرائب مالك ، من رواية أحمد بن سليمان الأسدى عنه عن الزهري عن أنس به وأتم منه. وقال. هذا موضوع على مالك. وأما حديث عائشة فرواه ابن شاهين في الترغيب. وفي إسناده جعفر بن جميع

عنهما : الوتر بعد العشاء. والأدبار : جمع دبر. وقرئ : وأدبار ، من أدبرت الصلاة إذا انقضت وتمت. ومعناه: ووقت انقضاء السجود ، كقولهم : آتيك خفوق النجم وَاسْتَمِعْ يعنى واستمع لما أخبرك به من حال يوم القيامة. وفي ذلك تهويل وتعظيم لشأن المخبر به والمحدّث عنه ، كما يروى عن النبي صلى اللّه عليه وسلم أنه قال سبعة أيام لمعاذ بن جبل : «يا معاذ اسمع ما أقول لك» ، ثم حدّثه بعد ذلك «1». فإن قلت : بم انتصب اليوم؟ قلت : بما دل عليه ذلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ أى : يوم ينادى المنادى يخرجون من القبور. ويوم يسمعون : بدل من يَوْمَ يُنادِ وَالْمُنادِ إسرافيل ينفخ في الصور وينادى : أيتها العظام البالية والأوصال المنقطعة واللحوم المتمزقة والشعور المتفرّقة إنّ اللّه يأمركن أن تجتمعن لفصل القضاء. وقيل : إسرافيل ينفخ وجبريل ينادى بالحشر مِنْ مَكانٍ قَرِيبٍ من صخرة بيت المقدس ، وهي أقرب الأرض من السماء باثنى عشر ميلا ، وهي وسط الأرض. وقيل : من تحت أقدامهم. وقيل : من منابت شعورهم يسمع من كل شعرة : أيتها العظام البالية - والصَّيْحَةَ النفخة الثانية بِالْحَقِّ متعلق بالصيحة ، والمراد به البعث والحشر للجزاء.

[سورة ق (50) : آية 44]

يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِراعاً ذلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنا يَسِيرٌ (44)

وقرئ : تشقق ، وتشقق بإدغام التاء في الشين ، وتشقق على البناء للمفعول ، وتنشق سِراعاً حال من المجرور عَلَيْنا يَسِيرٌ تقديم الظرف يدل على الاختصاص ، يعنى : لا يتيسر مثل ذلك الأمر العظيم إلا على القادر الذات الذي لا يشغله شأن عن شأن ، كما قال تعالى ما خَلْقُكُمْ وَلا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ واحِدَةٍ.

[سورة ق (50) : آية 45]

نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ وَما أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ مَنْ يَخافُ وَعِيدِ (45)

نَحْنُ أَعْلَمُ بِما يَقُولُونَ تهديد لهم وتسلية لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بِجَبَّارٍ كقوله تعالى بِمُصَيْطِرٍ حتى تقسرهم على الإيمان ، إنما أنت داع وباعث «2». وقيل : أريد التحلم عنهم وتَرك الغلظة عليهم. ويجوز أن يكون من جبره على الأمر بمعنى أجبره عليه ، أى : ما أنت بوال عليهم تجبرهم على الإيمان.

(1). لم أجده.
(2). قوله «إنما أنت داع وباعث» أى : تبعث الناس على الايمان. (ع)

وعلى بمنزلته في قولك : هو عليهم ، إذا كان واليهم ومالك أمرهم مَنْ يَخافُ وَعِيدِ كقوله تعالى إِنَّما أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشاها لأنه لا ينفع إلا فيه دون المصر على الكفر.
عن رسول اللّه صلى اللّه تعالى عليه وسلم : «من قرأ سورة ق هوّن اللّه عليه تارات «1» الموت وسكراته»«2».

سورة الذاريات

مكية وآياتها 60 [نزلت بعد الأحقاف]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الذاريات (51) : الآيات 1 إلى 6]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالذَّارِياتِ ذَرْواً (1) فَالْحامِلاتِ وِقْراً (2) فَالْجارِياتِ يُسْراً (3) فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً (4) إِنَّما تُوعَدُونَ لَصادِقٌ (5) وَإِنَّ الدِّينَ لَواقِعٌ (6)

وَالذَّارِياتِ الرياح لأنها تذرو التراب وغيره. قال اللّه تعالى : تَذْرُوهُ الرِّياحُ وقرئ بإدغام التاء في الذال فَالْحامِلاتِ وِقْراً السحاب ، لأنها تحمل المطر. وقرئ : وقرأ ، بفتح الواو على تسمية المحمول بالمصدر. أو على إيقاعه موقع حملا فَالْجارِياتِ يُسْراً الفلك.

ومعنى يُسْراً : جريا ذا يسر ، أى ذا سهولة فَالْمُقَسِّماتِ أَمْراً الملائكة ، لأنها تقسم الأمور من الأمطار والأرزاق وغيرها. أو تفعل التقسيم مأمورة بذلك. وعن مجاهد : تتولى تقسيم أمر العباد : جبريل للغلظة ، وميكائيل للرحمة. وملك الموت لقبض الأرواح ، وإسرافيل للنفخ.

وعن علىّ رضى اللّه عنه أنه قال وهو على المنبر : سلوني قبل أن لا تسألونى ، ولن تسألوا بعدي مثلي ، فقام ابن الكوّاء فقال : ما الذاريات ذروا؟ قال : الرياح. قال : فالحاملات وقرا؟

(1). قوله «هون اللّه عليه تارات الموت» في الصحاح : فعل ذلك الأمر تارة بعد تارة ، أى : مرة بعد مرة. (ع) [.....]
(2). أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبى بن كعب رضى اللّه عنه.

قال السحاب. قال : فالجاريات يسرا؟ قال : الفلك. قال فالمقسمات أمرا؟ قال : الملائكة «1» وكذا عن ابن عباس. وعن الحسن فَالْمُقَسِّماتِ السحاب ، يقسم اللّه بها أرزاق العباد ، وقد حملت على الكواكب السبعة ، ويجوز أن يراد : الرياح لا غير ، لأنها تنشئ السحاب وتقله وتصرفه ، وتجرى في الجوّ جريا سهلا ، وتقسم الأمطار بتصريف السحاب. فإن قلت : ما معنى الفاء على التفسيرين؟ قلت : أمّا على الأوّل فمعنى التعقيب فيها أنه تعالى أقسم بالرياح ، فبالسحاب الذي تسوقه ، فبالفلك التي تجريها بهبوبها ، فبالملائكة التي تقسم الأرزاق بإذن اللّه من الأمطار وتجارات البحر ومنافعه. وأمّا على الثاني ، فلأنها تبتدئ بالهبوب «2» ، فتذرو التراب والحصباء ، فتنقل السحاب ، فتجرى في الجوّ باسطة له فتقسم المطر إِنَّ ما تُوعَدُونَ جواب القسم ، وما موصولة أو مصدرية ، والموعود : البعث. ووعد صادق : كعيشة راضية. والدين : الجزاء ، والواقع : الحاصل.

[سورة الذاريات (51) : الآيات 7 إلى 9]

وَالسَّماءِ ذاتِ الْحُبُكِ (7) إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ (8) يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ (9)

الْحُبُكِ الطرائق ، مثل حبك الرمل والماء : إذا ضربته الريح ، وكذلك حبك الشعر : آثار تثنيه وتكسره. قال زهير :

مكلّل بأصول النّجم تنسجه ريح خريق لضاحى مائه حبك «3»

(1). أخرجه الحاكم والطبري. وغيرهما من رواية أبى الطفيل قال : رأيت على بن أبى طالب رضى اللّه عنه على المنبر فذكره وزاد فيه : قال «فمن الذين بدلوا نعمة اللّه كفرا؟ قال : هم منافقو قريش» وفي الباب عن عمر مرفوعا أخرجه البزار ، وفيه قصة منبع ، وقال ابن أبى سيرة : لين الحديث ، وسعيد بن سلام ليس من أصحاب الحديث اه ولم ينفرد به سعيد فقد رواه ابن مردويه من طريق عبيد بن موسى عن أبى سبرة أيضا.
(2). قوله «فلأنها تبتدئ بالهبوب» لعله : فإنها. (ع)

(3) حتى استغاثت بماء لا رشاء له من الأباطح في حافاته البرك
مكلل بأصول النجم تنسجه ريح خريق لضاحى مائه حبك
كما استغاث بسيء فز غيطلة خاف العيون ولم ينظر به الحشك
لزهير : يصف قطاة فرت من صفر حتى استغاثت منه بماء قريب لا رشاء له ، أى : لا حبل يستقى به منه لعدم احتياجه إليه من الأباطح ، أى : في الأمكنة المتسعة المستوية ، فان أراد من الماء مكانه ، فمن بيانية ، في حاماته أى جوانبه البرك جمع بركة ، كرطب ورطبة نوع من طير الماء يكلل الماء بأصول النجم ، أى : النبات الذي لا ساق له. وروى بعميم النجم ، أى : طويله ، تنسجه : أى تثنيه تثنيا منتظما كالنسج ، فهو استعارة مصرحة.
والخريق - بالقاف - : الباردة والشديدة السير. والضاحي : الظاهر. والحبك : الطريق في وجه الماء إذا ضربته الريح ، جمع حباك أو حبيكة. والسيئ بالفتح وبالكسر : اللبن في طرف الثدي. والفز : ولد البقرة الوحشية.
والغيطلة : الشجر الملتف ، فاضافة الفز إليها لأنه فيها. وقيل : هي البقرة الوحشية. والعيون هنا : رقباء الصيد وجواسيسه. وحشكت الدرة باللبن حشكا وحشوكا : امتلأت به. وحرك الحشك هنا للضرورة ، أى : لم ينتظر به امتلاء الدرة ، ولعمري نعمت هذه الاستغاثة. وفيه دلالة على أنها كانت ظمآنة.

والدرع محبوكة : لأنّ حلقها مطرق طرائق. ويقال : إنّ خلقة السماء كذلك. وعن الحسن : حبكها نجومها. والمعنى : أنها تزينها كما تزين الموشى طرائق الوشي. وقيل : حبكها صفاقتها وإحكامها ، من قولهم : فرس محبوك المعاقم ، «1» أى محكمها. وإذا أجاد الحائك الحياكة قالوا : ما أحسن حبكه ، وهو جمع حباك ، كمثال ومثل. أو حبيكة ، كطريقة وطرق. وقرئ : الحبك ، بوزن القفل. والحبك ، بوزن السلك. والحبك ، بوزن الجبل. والحبك بوزن البرق. والحبك بوزن النعم. والحبك بوزن الإبل إِنَّكُمْ لَفِي قَوْلٍ مُخْتَلِفٍ قولهم في الرسول : ساحر وشاعر ومجنون ، وفي القرآن : شعر وسحر وأساطير الأولين. وعن الضحاك : قول الكفرة لا يكون مستويا ، إنما هو متناقض مختلف. وعن قتادة : منكم مصدّق ومكذب ، ومقرّ ومنكر يُؤْفَكُ عَنْهُ الضمير للقرآن أو للرسول ، أى : يصرف عنه ، من صرف الصرف الذي لا صرف أشد منه «2» وأعظم ، كقوله : لا يهلك على اللّه إلا هالك. وقيل : يصرف عنه من صرف في سابق علم اللّه ، أى : علم فيما لم يزل أنه مأفوك عن الحق لا يرعوى. ويجوز أن يكون الضمير لما توعدون أو للدين : أقسم بالذاريات على أن وقوع أمر القيامة حق ، ثم أقسم بالسماء على أنهم في قول مختلف في وقوعه ، فمنهم شاك ، ومنهم جاحد. ثم قال : يؤفك عن الإقرار بأمر القيامة من هو المأفوك. ووجه آخر : وهو أن يرجع الضمير إلى قول مختلف وعن مثله في قوله : ينهون عن أكل وعن شرب «3»

أى : يتناهون في السمن بسبب الأكل والشرب. وحقيقته : يصدر تناهيهم في السمن عنهما ،

(1). قوله «فرس محبوك المعاقم» في الصحاح : المعاقم من الخيل : المفاصل ، فالراسغ عند الحافر معقم ، والركبة معقم ، والعرقوب معقم. اه (ع)
(2). قال محمود : «بصرف عنه من صرف الصرف الذي لا صرف أشد منه ... الخ» قال أحمد : إنما أفاد هذا النظم المعنى الذي ذكر من قبل أنك إذا قلت : يصرف عنه من صرف ، علم السامع أن قولك يصرف عنه يغنى عن قولك من صرف ، لأنه بمجرده كالتكرار للأول ، لولا ما يستشعر فيه من فائدة تأبى جعله تكرارا ، وتلك الفائدة أنك لما خصصت هذا بأنه هو الذي صرف ، أفهم أن غيره لم يصرف ، فكأنك قلت : لا يثبت الصرف في الحقيقة إلا لهذا ، وكل صرف دونه فكلا صرف بالنسبة إليه ، واللّه تعالى أعلم.
(3) ينهون عن أكل وعن شرب مثل المها يرتعن في خصب
يقال : نهي الجمل فهو ناه ، إذا فرط في السمن. والمها : جمع مهاة وهي البقرة الوحشية. ويقال : أخصب المكان فهو مخصب ، وأخصبه اللّه. وخصب خصبا ، كتعب تعبا ، وعلم علما : إذا كثر كلأه ونباته. يصف أضيافا بأنهم يصدر تناهيهم وسمنهم عن الأكل والشرب. وشبههم بالمها اللاتي يرتعن في الكلأ ، فالخصب في الأصل : مصدر سمى به الكلأ.

وكذلك يصدر إفكهم عن القول المختلف. وقرأ سعيد بن جبير : يؤفك عنه من أفك ، على البناء للفاعل. أى : من أفك الناس عنه وهم قريش ، وذلك أنّ الحي كانوا يبعثون الرجل ذا العقل والرأى ليسأل عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فيقولون له : احذره ، فيرجع فيخبرهم.

وعن زيد بن على : يأفك عنه من أفك ، أى : يصرف الناس عنه من هو مأفوك في نفسه. وعنه أيضا : يأفك عنه من أفك ، أى : يصرف الناس عنه من هو أفاك كذاب. وقرئ : يؤفن عنه من أفن ، أى : يحرمه من حرم ، من أفن الضرع إذا نهكه حلبا.

[سورة الذاريات (51) : الآيات 10 إلى 14]

قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ (10) الَّذِينَ هُمْ فِي غَمْرَةٍ ساهُونَ (11) يَسْئَلُونَ أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ (12) يَوْمَ هُمْ عَلَى النَّارِ يُفْتَنُونَ (13) ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ هذا الَّذِي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ (14)

قُتِلَ الْخَرَّاصُونَ دعاء عليهم ، كقوله تعالى قُتِلَ الْإِنْسانُ ما أَكْفَرَهُ وأصله الدعاء بالقتل والهلاك ، ثم جرى مجرى : لعن وقبح. والخرّاصون : الكذابون المقدرون ما لا يصح ، وهم أصحاب القول المختلف ، واللام إشارة إليهم ، كأنه قيل : قتل هؤلاء الخراصون. وقرئ : قتل الخراصين ، أى : قتل اللّه فِي غَمْرَةٍ في جهل يغمرهم ساهُونَ غافلون عما أمروا به يَسْئَلُونَ فيقولون أَيَّانَ يَوْمُ الدِّينِ أى متى يوم الجزاء. وقرئ بكسر الهمزة وهي لغة.

فإن قلت : كيف وقع أيان ظرفا لليوم ، وإنما تقع الأحيان ظروفا للحدثان؟ قلت : معناه : أيان وقوع يوم الدين. فإن قلت : فبم انتصب اليوم الواقع في الجواب؟ قلت : بفعل مضمر دل عليه السؤال ، أى : يقع يوم هم على النار يفتنون. ويجوز أن يكون مفتوحا لإضافته إلى غير متمكن وهي الجملة. فإن قلت : فما محله مفتوحا؟ قلت: يجوز أن يكون محله نصبا بالمضمر الذي هو يقع ، ورفعا على هو يوم هم على النار يفتنون. وقرأ ابن أبى عيلة بالرفع يُفْتَنُونَ يحرقون ويعذبون. ومنه الفتين : وهي الحرّة ، لأن حجارتها كأنها محرقة ذُوقُوا فِتْنَتَكُمْ في محل الحال ، أى : مقولا لهم هذا القول هذا مبتدأ ، والَّذِي خبره ، أى : هذا العذاب هو الذي كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ ويجوز أن يكون هذا بدلا من فتنتكم ، أى : ذوقوا هذا العذاب.

[سورة الذاريات (51) : الآيات 15 إلى 19]

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (15) آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ إِنَّهُمْ كانُوا قَبْلَ ذلِكَ مُحْسِنِينَ (16) كانُوا قَلِيلاً مِنَ اللَّيْلِ ما يَهْجَعُونَ (17) وَبِالْأَسْحارِ هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ (18) وَفِي أَمْوالِهِمْ حَقٌّ لِلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ (19)

آخِذِينَ ما آتاهُمْ رَبُّهُمْ قابلين لكل ما أعطاهم راضين به ، يعنى أنه ليس فيما آتاهم إلا ما هو متلقى بالقبول مرضى غير مسخوط ، لأن جميعه حسن طيب. ومنه قوله تعالى وَيَأْخُذُ الصَّدَقاتِ أى يقبلها ويرضاها مُحْسِنِينَ قد أحسنوا أعمالهم ، وتفسير إحسانهم ما بعده ما مزيدة. والمعنى : كانوا يهجعون في طائفة قليلة من الليل إن جعلت قليلا ظرفا ، ولك أن تجعله صفة للمصدر ، أى : كانوا يهجعون هجوعا قليلا. ويجوز أن تكون ما مصدرية أو موصولة ، على : كانوا قليلا من الليل هجوعهم ، أو ما يهجعون فيه. وارتفاعه بقليلا على الفاعلية «1». وفيه مبالغات لفظ الهجوع ، وهو الفرار من النوم «2». قال : قد حصت البيضة رأسى فما أطعم نوما غير تهجاع «3»

وقوله قَلِيلًا ومِنَ اللَّيْلِ لأن الليل وقت السبات والراحة ، وزيادة ما المؤكدة لذلك :

(1). ذكر الزمخشري فيه وجهين أن تكون ما زائدة وقليلا ظرف منتصب بيهجعون ، أى : كانوا يهجعون في طائفة قليلة من الليل. أو تكون ما مصدرية أو موصولة على : كانوا قليلا من الليل هجوعهم. أو ما يهجعون فيه ، وارتفاعه بقليلا على الفاعلية» قال أحمد : وجوه مستقيمة خلا جعل ما مصدرية ، فان قليلا حينئذ واقع على الهجوع ، لأنه فاعله. وقوله مِنَ اللَّيْلِ لا يستقيم أن يكون صفة للقليل ولا بيانا له ، ولا يستقيم أن يكون «من» صلة المصدر لأنه تقدم عليه ، ولا كذلك على أنها موصولة ، فان قليلا حينئذ واقع على الليل ، كأنه قال : قليلا المقدار الذي كانوا يهجعون فيه من الليل ، فلا مانع أن يكون مِنَ اللَّيْلِ بيانا للقليل على هذا الوجه ، وهذا الذي ذكره إنما تبع فيه الزجاج. وقد رد الزمخشري أن تكون ما نفيا وقليلا منصوب بيهجعون على تقدير : كانوا ما يهجعون قليلا من الليل ، وأسند رده إلى امتناع تقدم ما في حيز النفي عليه. قلت : وفيه خلل من حيث المعنى ، فان طلب قيام جميع الليل غير مستثنى منه الهجوع وإن قل غير ثابت في الشرع ولا معهود. ثم قال : وصفهم بأنهم يحيون الليل متهجدين ، فإذا اسحروا شرعوا في الاستغفار. كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم. قال : وقوله هُمْ معناه : هم الأحقاء بالاستغفار دون المصرين. قال : وفي الآية مبالغات منها لفظ الهجوع وهو الخفيف الفرار من النوم.
قال : وقوله : قَلِيلًا وقوله مِنَ اللَّيْلِ لأنه وقت السبات. قال : ومنها زيادة ما في بعض الوجوه. قلت : وفي عدها من المبالغة نظر ، فإنها تؤكد الهجوع وتحققه ، إلا أن يجعلها بمعنى القلة فيحتمل.
(2). قوله «و هو الفرار من النوم» في الصحاح : الفرار بالكسر : النوم القليل اه. (ع)
(3) قد حصت البيضة رأسى فما أطعم نوما غير تهجاع
أسعى على جل بنى مالك كل امرئ في شأنه ساع
لقيس بن الأسلت. وحصت : أهلكت أو حلقت ، البيضة التي تلبس على الرأس في الحرب ، أى حلقت شعر رأسى من دوام لبسها للحرب. وشبه النوم بالمطعوم لاستلذاذ مباديه على طريق المكنية ، وأطعم : أى أتناول تخييل لذلك والتهجاع : التغافل قليلا لطرد النوم، فالاستثناء منقطع. وجلهم : مهم أمورهم ومعظمها كالغارات يدفعها عنهم.
وروى : على حبل بنى مالك ، وعليه فشبه العهد بالحبل للتوثق والتوصل بكل على طريق التصريحية ، أى : أسعى في شأنى متمسكا بعهدهم ، وعلى الأول فقوله «كل امرى في شأنه ساع» فيه دلالة على إلزام نفسه بشأنهم ، وأنه شأنه

وصفهم بأنهم يحيون الليل متهجدين ، فإذا أسحروا أخذوا في الاستغفار ، كأنهم أسلفوا في ليلهم الجرائم. وقوله هُمْ يَسْتَغْفِرُونَ فيه أنهم هم المستغفرون الأحقاء بالاستغفار دون المصرين ، فكأنهم المختصون به لاستدامتهم له وإطنابهم فيه. فإن قلت : هل يجوز أن تكون ما نافية كما قال بعضهم ، وأن يكون المعنى : أنهم لا يهجعون من

[سورة الذاريات (51) : الآيات 20 إلى 21]

وَفِي الْأَرْضِ آياتٌ لِلْمُوقِنِينَ (20) وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ (21)

وَفِي الْأَرْضِ آياتٌ تدل على الصانع وقدرته وحكمته وتدبيره حيث هي مدحوّة كالبساط لما فوقها كما قال الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْداً وفيها المسالك والفجاج للمتقلبين فيها والماشين في مناكبها ، وهي مجزأة : فمن سهل وجبل وبر وبحر : وقطع متجاورات : من صلبة ورخوة ، وعذاة «3» وسبخة ، وهي كالطروقة تلقح بألوان النبات وأنواع الأشجار بالثمار المختلفة الألوان والطعوم والروائح تسقى بماء واحد وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ وكلها موافقة لحوائج ساكنيها ومنافعهم ومصالحهم في صحتهم واعتلالهم ، وما فيها من العيون المتفجرة والمعادن المفتنة والدواب المنبثة في برها وبحرها المختلفة الصور والأشكال والأفعال : من الوحشي والإنسى والهوام ، وغير ذلك لِلْمُوقِنِينَ الموحدين الذين سلكوا الطريق السوي البرهاني الموصل إلى المعرفة ، فهم نظارون بعيون باصرة وأفهام نافذة ، كلما رأوا آية عرفوا وجه تأملها ، فازدادوا إيمانا مع إيمانهم ، وإيقانا إلى إيقانهم وَفِي أَنْفُسِكُمْ في حال ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال وفي بواطنها وظواهرها من عجائب الفطر وبدائع الخلق : ما تتحير فيه الأذهان ، وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول وخصت به من أصناف المعاني ، وبالألسن ، والنطق ، ومخارج الحروف ، وما في تركيبها وترتيبها ولطائفها : من الآيات الساطعة والبينات القاطعة على حكمة المدبر ، دع الأسماع والأبصار والأطراف وسائر الجوارح وتأتيها لما خلقت له ، وما سوّى في الأعضاء من المفاصل للانعطاف والتثني ، فإنه إذا جسا «1» شيء منها جاء العجز ، وإذا استرخى أناخ الذل ، فتبارك اللّه أحسن الخالقين.

---

(1). أخرجه مسلم من حديث أبى هريرة.
(2). قوله «و قيل المحارف» في الصحاح : رجل محارف ، بفتح الراء : أى محدود محروم ، خلاف قولك : مبارك اه. (ع)
(3). قوله «و عذاة» في الصحاح «العذاة» : الأرض الطيبة التربة ، والجمع عذوات. (ع)

[سورة الذاريات (51) : الآيات 22 إلى 23]

وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ وَما تُوعَدُونَ (22) فَوَ رَبِّ السَّماءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ ما أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ (23)

وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ هو المطر ، لأنه سبب الأقوات. وعن سعيد بن جبير : هو الثلج وكل عين دائمة منه. وعن الحسن : أنه كان إذا رأى السحاب قال لأصحابه : فيه واللّه رزقكم ، ولكنكم تحرمونه لخطاياكم وَما تُوعَدُونَ الجنة : هي على ظهر السماء السابعة تحت العرش.

أو أراد : أن ما ترزقونه في الدنيا وما توعدون به في العقبى كله مقدر مكتوب في السماء. قرئ : مثل ما بالرفع صفة للحق ، أى حق مثل نطقكم ، وبالنصب على : إنه لحق حقا مثل نطقكم.

ويجوز أن يكون فتحا لإضافته إلى غير متمكن. وما مزيدة بنص الخليل ، وهذا كقول الناس : إن هذا لحق ، كما أنك ترى وتسمع ، ومثل ما إنك هاهنا. وهذا الضمير إشارة إلى ما ذكر من أمر الآيات والرزق وأمر النبي صلى اللّه عليه وسلم ، أو إلى ما توعدون. وعن الأصمعى : أقبلت من جامع البصرة فطلع أعرابى على قعود له فقال : من الرجل؟ قلت : من بنى أصمع. قال : من أين أقبلت؟ قلت : من موضع يتلى فيه كلام الرحمن. فقال : اتل علىّ ، فتلوت وَالذَّارِياتِ فلما بلغت قوله تعالى : وَفِي السَّماءِ رِزْقُكُمْ قال : حسبك ، فقام إلى ناقته فنحرها ووزعها على من أقبل وأدبر ، وعمد إلى سيفه وقوسه فكسرهما وولى ، فلما حججت مع الرشيد طفقت أطوف ، فإذا أنا بمن يهتف بى بصوت دقيق ، فالتفت فإذا أنا بالأعرابى قد نحل واصفر ، فسلم علىّ واستقرأ السورة ، فلما بلغت الآية صاح وقال : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا ، ثم قال : وهل غير هذا؟ فقرأت : فورب السماء والأرض إنه لحق ، فصاح وقال : يا سبحان اللّه ، من ذا الذي أغضب الجليل حتى حلف ، لم يصدقوه بقوله حتى ألجأوه إلى اليمين ، قالها ثلاثا وخرجت معها نفسه.

[سورة الذاريات (51) : الآيات 24 إلى 30]

هَلْ أَتاكَ حَدِيثُ ضَيْفِ إِبْراهِيمَ الْمُكْرَمِينَ (24) إِذْ دَخَلُوا عَلَيْهِ فَقالُوا سَلاماً قالَ سَلامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ (25) فَراغَ إِلى أَهْلِهِ فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ (26) فَقَرَّبَهُ إِلَيْهِمْ قالَ أَلا تَأْكُلُونَ (27) فَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قالُوا لا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلامٍ عَلِيمٍ (28) فَأَقْبَلَتِ امْرَأَتُهُ فِي صَرَّةٍ فَصَكَّتْ وَجْهَها وَقالَتْ عَجُوزٌ عَقِيمٌ (29) قالُوا كَذلِكَ قالَ رَبُّكِ إِنَّهُ هُوَ الْحَكِيمُ الْعَلِيمُ (30)

(1). قوله «إذا جسا شيء منها» في الصحاح : جست اليد وغيرها جسوا وجساء : يبست اه. (ع) [.....]

هَلْ أَتاكَ تفخيم للحديث وتنبيه على أنه ليس من علم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، وإنما عرفه بالوحي. والضيف للواحد والجماعة كالزور والصوم ، لأنه في الأصل مصدر ضافه ، وكانوا اثنى عشر ملكا. وقيل : تسعة عاشرهم جبريل. وقيل ثلاثة : جبريل ، وميكائيل ، وملك معهما. وجعلهم ضيفا ، لأنهم كانوا في صورة الضيف : حيث أضافهم إبراهيم. أو لأنهم كانوا في حسبانه كذلك. وإكرامهم : أنّ إبراهيم خدمهم بنفسه ، وأخدمهم امرأته ، وعجل لهم القرى أو أنهم في أنفسهم مكرمون. قال اللّه تعالى بَلْ عِبادٌ مُكْرَمُونَ. إِذْ دَخَلُوا نصب بالمكرمين إذا فسر بإكرام إبراهيم لهم ، وإلا فبما في ضيف من معنى الفعل. أو بإضمار اذكر سَلاماً مصدر سادّ مسدّ الفعل مستغنى به عنه. وأصله : نسلم عليكم سلام ، وأمّا سَلامٌ فمعدول به إلى الرفع على الابتداء. وخبره محذوف ، معناه : عليكم سلام ، للدلالة على ثبات السلام ، كأنه قصد أن يحييهم بأحسن مما حيوه به ، أخذا بأدب اللّه تعالى. وهذا أيضا من إكرامه لهم.

وقرئا مرفوعين. وقرئ : سلاما قال سلما. والسلم : السلام. وقرئ : سلاما قال سلم قَوْمٌ مُنْكَرُونَ أنكرهم للسلام الذي هو علم الإسلام. أو أراد : أنهم ليسوا من معارفه أو من جنس الناس الذين عهدهم ، كما لو أبصر العرب قوما من الخزر «1» أو رأى لهم حالا وشكلا خلاف حال الناس وشكلهم ، أو كان هذا سؤالا لهم ، كأنه قال : أنتم قوم منكرون ، فعرفوني من أنتم فَراغَ إِلى أَهْلِهِ فذهب إليهم في خفية من ضيوفه ، ومن أدب المضيف أن يخفى أمره «2» ، وأن يباده بالقرى من غير أن يشعر به الضيف ، حذرا من أن يكفه ويعذره. قال قتادة : كان عامة مال نبي اللّه إبراهيم : البقر فَجاءَ بِعِجْلٍ سَمِينٍ. والهمزة في أَلا تَأْكُلُونَ للإنكار : أنكر عليهم ترك الأكل. أو حثهم عليه فَأَوْجَسَ فأضمر. وإنما خافهم لأنهم لم يتحرّموا بطعامه «3»

(1). قوله «قوما من الخزر» في الصحاح : الخزر : جيل من الناس. والأخزر : ضيق العين صغيرها ، كما أفاده الصحاح. (ع)
(2). قال محمود : «فيه إشارة لاختفائه من ضيوفه ، ومن أدب المضيف أن يخفى أمره ... الخ» قال أحمد :
معنى حسن ، وقد نقل أبو عبيد أنه لا يقال : راغ إلا إذا ذهب على خفية. ونقل أبو عبيد في قوله عليه السلام :
«إذا كفى أحدكم خادمه حر طعامه فليقعده معه ، وإلا فليروغ له لقمة» قال أبو عبيد : يقال روغ اللقمة وسغبلها وسغسغها ومرغها : إذا غمسها فرويت سمنا قلت : وهو من هذا المعنى ، لأنها تذهب مغموسة في السمن حتى تخفى ومن مقلوبه : غور الأرض والجرح وسائر مقلوباته قريبة من هذا المعنى ، واللّه أعلم.
(3). قوله «لأنهم لم يتحرموا بطعامه» في الصحاح «الحرمة» : ما لا يحل انتهاكه ، وقد تحرم بصحبته اه.
وهو يفيد أن التحرم مراعاة الحرمة ، من حيث لا يحل انتهاكها. (ع)

فظن أنهم يريدون به سوءا. وعن ابن عباس : وقع في نفسه أنهم ملائكة أرسلوا للعذاب. وعن عون بن شداد : مسح جبريل العجل بجناحه فقام يدرج حتى لحق بأمّه بِغُلامٍ عَلِيمٍ أى يبلغ ويعلم. وعن الحسن : عليم : نبىّ ، والمبشر به إسحاق ، وهو أكثر الأقاويل وأصحها ، لأنّ الصّفة صفة سارّة لا هاجر ، وهي امرأة إبراهيم وهو بعلها. وعن مجاهد : هو إسماعيل فِي صَرَّةٍ في صيحة ، من : صر الجندب ، وصرّ القلم والباب ، ومحله النصب على الحال ، أى : فجاءت صارّة. قال الحسن : أقبلت إلى بيتها وكانت في زاوية تنظر إليهم ، لأنها وجدت حرارة الدم فلطمت وجهها من الحياء ، وقيل : فأخذت في صرة ، كما تقول : أقبل يشتمني.

وقيل : صرتها قولها : أوه. وقيل : يا ويلتا. وعن عكرمة : رنتها «1» فَصَكَّتْ فلطمت ببسط يديها. وقيل : فضربت بأطراف أصابعها جبهتها فعل المتعجب عَجُوزٌ أنا عجوز ، فكيف ألد كَذلِكَ مثل ذلك الذي قلنا وأخبرنا به قالَ رَبُّكِ أى إنما نخبرك عن اللّه ، واللّه قادر على ما تستبعدين. وروى أنّ جبريل قال لها : انظري إلى سقف بيتك ، فنظرت فإذا جذوعه مورقة مثمرة.

[سورة الذاريات (51) : الآيات 31 إلى 37]

قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (31) قالُوا إِنَّا أُرْسِلْنا إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ (32) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجارَةً مِنْ طِينٍ (33) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ (34) فَأَخْرَجْنا مَنْ كانَ فِيها مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (35) فَما وَجَدْنا فِيها غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ (36) وَتَرَكْنا فِيها آيَةً لِلَّذِينَ يَخافُونَ الْعَذابَ الْأَلِيمَ (37)

لما علم أنهم ملائكة وأنهم لا ينزلون إلا بإذن الله رسلا في بعض الأمور قالَ فَما خَطْبُكُمْ أى : فما شأنكم وما طلبكم إِلى قَوْمٍ مُجْرِمِينَ إلى قوم لوط حِجارَةً مِنْ طِينٍ يريد : السجيل ، وهو طين طبخ كما يطبخ الآجر ، حتى صار في صلابة الحجارة مُسَوَّمَةً معلمة ، من السومة وهي العلامة على كل واحد منها اسم من يهلك به. وقيل : أعلمت بأنها من حجارة العذاب.

وقيل : بعلامة تدل على أنها ليست من حجارة الدنيا. سماهم مسرفين ، كما سماهم عادين ، لإسرافهم وعدوانهم في عملهم : حيث لم يقنعوا بما أبيح لهم. الضمير في فِيها للقرية ، ولم يجر لها ذكر لكونها معلومة. وفيه دليل على أنّ الإيمان والإسلام واحد ، وأنهما صفتا مدح. قيل : هم لوط وابنتاه. وقيل : كان لوط وأهل بيته الذين نجوا ثلاثة عشر. وعن قتادة : لو كان فيها أكثر من ذلك لأنجاهم ، ليعلموا أن الإيمان محفوظ لا ضيعة على أهله عند الله آيَةً علامة يعتبر بها الخائفون دون القاسية قلوبهم. قال ابن جريج : هي صخر منضود فيها. وقيل : ماء أسود منتن.

(1). قوله «رنتها» في الصحاح «الرنة» الصوت : ، يقال : رفت المرأة رنينا وأرنت أيضا : صاحت. (ع)

[سورة الذاريات (51) : الآيات 38 إلى 40]

وَفِي مُوسى إِذْ أَرْسَلْناهُ إِلى فِرْعَوْنَ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (38) فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ وَقالَ ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (39) فَأَخَذْناهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْناهُمْ فِي الْيَمِّ وَهُوَ مُلِيمٌ (40)

وَفِي مُوسى عطف على وَفِي الْأَرْضِ آياتٌ أو على قوله وَتَرَكْنا فِيها آيَةً على معنى : وجعلنا في موسى آية كقوله : علفتها تبنا وماء باردا

فَتَوَلَّى بِرُكْنِهِ فازورّ وأعرض ، كقوله تعالى وَنَأى بِجانِبِهِ وقيل : فتولى بما كان يتقوّى به من جنوده وملكه. وقرئ : بركنه ، بضم الكاف وَقالَ ساحِرٌ أى هو ساحرٌ لِيمٌ آت بما يلام عليه من كفره وعناده ، والجملة مع الواو حال من الضمير في فأخذناه.

فإن قلت : كيف وصف نبى الله يونس صلوات الله عليه بما وصف به فرعون في قوله تعالى فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ؟ قلت : موجبات اللوم تختلف وعلى حسب اختلافها تختلف مقادير اللوم ، فراكب الكبيرة ملوم على مقدارها ، وكذلك مقترف الصغيرة. ألا ترى إلى قوله تعالى وَعَصَوْا رُسُلَهُ ، وَعَصى آدَمُ رَبَّهُ لأنّ الكبيرة والصغيرة يجمعهما اسم العصيان ، كما يجمعهما اسم القبيح والسيئة.

[سورة الذاريات (51) : الآيات 41 إلى 42]

وَفِي عادٍ إِذْ أَرْسَلْنا عَلَيْهِمُ الرِّيحَ الْعَقِيمَ (41) ما تَذَرُ مِنْ شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلاَّ جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ (42)

الْعَقِيمَ التي لا خير فيها من إنشاء مطر أو إلقاح شجر ، وهي ريح الهلاك. واختلف فيها : فعن على رضى الله عنه : النكباء. وعن ابن عباس : الدبور. وعن ابن المسيب : الجنوب.

الرميم : كل ما رم أى بلى وتفتت من عظم أو نبات أو غير ذلك.

[سورة الذاريات (51) : الآيات 43 إلى 45]

وَفِي ثَمُودَ إِذْ قِيلَ لَهُمْ تَمَتَّعُوا حَتَّى حِينٍ (43) فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فَأَخَذَتْهُمُ الصَّاعِقَةُ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (44) فَمَا اسْتَطاعُوا مِنْ قِيامٍ وَما كانُوا مُنْتَصِرِينَ (45)

حَتَّى حِينٍ تفسيره قوله تَمَتَّعُوا فِي دارِكُمْ ثَلاثَةَ أَيَّامٍ. فَعَتَوْا عَنْ أَمْرِ رَبِّهِمْ فاستكبروا عن امتثاله. وقرئ : الصعقة وهي المرّة ، من مصدر صعقتهم الصاعقة : والصاعقة النازلة نفسها وَهُمْ يَنْظُرُونَ كانت نهارا يعاينونها. وروى أن العمالقة كانوا معهم في الوادي ينظرون إليهم وما ضرّتهم فَمَا اسْتَطاعُوا مِنْ قِيامٍ كقوله تعالى فَأَصْبَحُوا فِي دارِهِمْ جاثِمِينَ وقيل : هو من قولهم : ما يقوم به ، إذا عجز عن دفعه مُنْتَصِرِينَ ممتنعين من العذاب.

[سورة الذاريات (51) : آية 46]

وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا قَوْماً فاسِقِينَ (46)

وَقَوْمَ قرئ بالجر على معنى : وفي قوم نوح وتقوّيه قراءة عبد اللّه : وفي قوم نوح. وبالنصب على معنى : وأهلكنا قوم نوح ، لأنّ ما قبله يدل عليه. أو واذكر قوم نوح.

[سورة الذاريات (51) : الآيات 47 إلى 48]

وَالسَّماءَ بَنَيْناها بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ (47) وَالْأَرْضَ فَرَشْناها فَنِعْمَ الْماهِدُونَ (48)

بِأَيْدٍ بقوّة. والأيد والآد : القوّة. وقد آد يئيد وهو أيد وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ لقادرون ، من الوسع وهو الطاقة. والموسع : القوى على الإنفاق. وعن الحسن : لموسعون الرزق بالمطر.

وقيل : جعلنا بينها وبين الأرض سعة فَنِعْمَ الْماهِدُونَ فنعم الماهدون نحن.

[سورة الذاريات (51) : آية 49]

وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (49)

وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ أى من كل شيء من الحيوان خَلَقْنا زَوْجَيْنِ ذكرا وأنثى. وعن الحسن : السماء والأرض ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، والبر والبحر ، والموت والحياة ، فعدّد أشياء وقال : كل اثنين منها زوج ، واللّه تعالى فرد لا مثل له لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ أى فعلنا ذلك كله من بناء السماء وفرش الأرض وخلق الأزواج إرادة أن تتذكروا فتعرفوا الخالق وتعبدوه.

[سورة الذاريات (51) : الآيات 50 إلى 51]

فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (50) وَلا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ إِلهاً آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (51)

فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ أى إلى طاعته وثوابه «1» من معصيته وعقابه ، ووحدوه ولا تشركوا به شيئا ،

(1). قال محمود : «معنى ففروا إلى اللّه ، أى : إلى طاعته من معصيته وإلى ثوابه ... الخ» قال أحمد :
حمل الآية ما لم تحمله ، لأنه لا يكاد يخلى سورة حتى يدس في تفسيرها بيده إلى معتقده ، فدس هاهنا القطع بوعيد الفساق وبخلودهم كالكفار ، ولا تحتمل الآية لما ذكر ، فان العناية في قوله فَفِرُّوا إِلَى اللَّهِ الفرار إلى عبادة اللّه فتوعد من لم يعبد اللّه ، ثم نهي عابده أن يشرك بعبادة ربه غيره ، وتوعده على ذلك. وفائدة تكرار النذارة الدلالة على أنه لا تنفع العبادة مع الاشراك ، بل حكم المشرك حكم الجاحد المعطل ، لا كما قال الزمخشري : المأمور به في الأول الطاعة الموظفة بعد الايمان ، فتوعد تاركها بالوعيد المعروف له وهو الخلود. وعلى هذا لا يكون تكرارا على اختلاف الوعيدين ، فهو أولى ، فكيف يحمل الآية على خلاف ما هو أولى بها ، ليتم الاستدلال بها على معتقده الفاسد ، نعوذ باللّه من ذلك.

وكرّر قوله إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ عند الأمر بالطاعة والنهى عن الشرك ، ليعلم أن الإيمان لا ينفع إلا مع العمل، كما أنّ العمل لا ينفع إلا مع الإيمان ، وأنه لا يفوز عند اللّه إلا الجامع بينهما. ألا ترى إلى قوله تعالى لا يَنْفَعُ نَفْساً إِيمانُها لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمانِها خَيْراً والمعنى : قل يا محمد : ففرّوا إلى اللّه.

[سورة الذاريات (51) : الآيات 52 إلى 53]

كَذلِكَ ما أَتَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ قالُوا ساحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ (52) أَتَواصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ (53)

كَذلِكَ الأمر ، أى مثل ذلك ، وذلك إشارة إلى تكذيبهم الرسول وتسميته ساحرا ومجنونا ، ثم فسر ما أجمل بقوله ما أَتَى ولا يصح أن تكون الكاف منصوبة بأتى ، لأنّ ما النافية لا يعمل ما بعدها فيما قبلها. ولو قيل : لم يأت ، لكان صحيحا ، على معنى : مثل ذلك الإتيان لم يأت من قبلهم رسول إلا قالوا أَتَواصَوْا بِهِ الضمير للقول ، يعنى : أتواصى الأوّلون والآخرون بهذا القول حتى قالوه جميعا متفقين عليه بَلْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ أى لم يتواصوا به لأنهم لم يتلاقوا في زمان واحد ، بل جمعتهم العلة الواحدة وهي الطغيان ، والطغيان هو الحامل عليه.

[سورة الذاريات (51) : الآيات 54 إلى 55]

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَما أَنْتَ بِمَلُومٍ (54) وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (55)

فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فأعرض عن الذين كرّرت عليهم الدعوة فلم يجيبوا ، وعرفت عنهم العناد واللجاج ، فلا لوم عليك في إعراضك بعد ما بلغت الرسالة وبذلت مجهودك في البلاغ والدعوة ، ولا تدع التذكير والموعظة بأيام اللّه فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ أى تؤثر في الذين عرف اللّه منهم أنهم يدخلون في الإيمان. أو يزيد الداخلين فيه إيمانا. وروى أنه لما نزلت فَتَوَلَّ عَنْهُمْ حزن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم واشتد ذلك على أصحابه ، ورأوا أنّ الوحى قد انقطع وأنّ العذاب قد حضر ، فأنزل اللّه. وذكر.

[سورة الذاريات (51) : آية 56]

وَما خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (56)

أى : وما خلقت الجن والإنس إلا لأجل العبادة ، ولم أرد من جميعهم إلا إياها «1». فإن قلت : لو كان مريدا «2» للعبادة منهم لكانوا كلهم عبادا؟ قلت : إنما أراد منهم أن يعبدوه مختارين للعبادة لا مضطرين إليها ، لأنه خلقهم ممكنين ، فاختار بعضهم ترك العبادة مع كونه مريدا لها ، ولو أرادها على القسر والإلجاء لوجدت من جميعهم.

[سورة الذاريات (51) : الآيات 57 إلى 58]

ما أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَما أُرِيدُ أَنْ يُطْعِمُونِ (57) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (58)

يريد : أنّ شأنى مع عبادي ليس كشأن السادة مع عبيدهم ، فإنّ ملاك العبيد إنما يملكونهم ليستعينوا بهم في تحصيل معايشهم وأرزاقهم ، فإمّا مجهز في تجارة ليفي ربحا. أو مرتب في فلاحة ليعتلّ أرضا. أو مسلم في حرفة لينتفع بأجرته. أو محتطب. أو محتش. أو طابخ. أو خابز ، وما أشبه ذلك من الأعمال والمهن التي هي تصرف في أسباب المعيشة وأبواب الرزق ، فأمّا مالك ملك العبيد وقال لهم : اشتغلوا بما يسعدكم في أنفسكم ، ولا أريد أن أصرفكم في تحصيل رزقي ولا رزقكم ، وأنا غنىّ عنكم وعن مرافقكم ، ومتفضل عليكم برزقكم وبما يصلحكم ويعيشكم من عندي ، فما هو إلا أنا وحدي الْمَتِينُ الشديد القوة. قرئ بالرفع صفة لذو ، وبالجر صفة للقوّة على تأويل الاقتدار ، والمعنى في وصفه بالقوة والمتانة : أنه القادر البليغ الاقتدار على كل شيء. وقرئ : الرازق. وفي قراءة النبي صلى اللّه عليه وسلم : إنى أنا الرازق.

(1). قال محمود : «إلا لأجل العبادة ، ولم أرد من جميعهم إلا إياها ... الخ» قال أحمد : من عاداته أنه إذا استشعر أن ظاهرا موافق لمعتقده نزله على مذهبه بصورة إيراد معتقد أهل السنة سؤالا ، وإيراد معتقده جوابا ، فكذلك صنع هاهنا ، فنقول : السؤال الذي أورده مما لا يجاب عنه بما ذكره ، فانه سؤال مقدماته قطعية عقلية ، فيجب تنزيل الآية عليه ، وهي أن ظاهر سياق الآية دليل لأهل السنة ، فإنها إنما سيقت لبيان عظمته عز وجل ، وأن شأنه مع عبيده لا يقاس به شأن عبيد الخلق معهم ، فان عبيدهم مطلوبون بالخدمة والتكسب للسادة ، وبواسطة مكاسب عبيدهم قدر أرزاقهم. واللّه تعالى لا يطلب من عباده رزقا ولا إطعاما ، وإنما يطلب منهم عبادته لا غير ، وزائد على كونه لا يطلب منهم رزقا أنه هو الذي يرزقهم ، فهذا المعنى الشريف هو الذي تحلى تحت راية هذه الآية ، وله سيقت ، وبه نطقت ، ولكن الهوى يعمى ويصم ، فحاصله : وما خلقت الجن والانس إلا لأدعوهم إلى عبادتي ، وهذا ما لا يعدل عنه أهل السنة ، فانه وافق معتقدهم وباللّه التوفيق.

(2). قوله «لو كان مريدا العبادة» قد يقال : لا يلزم من خلقهم العبادة أن يريدها من جميعهم. وقوله «مع كونه مريدا لها» هذا على مذهب المعتزلة من أن إرادة اللّه الفعل من العبد بمعنى الأمر. وأما مذهب أهل السنة فكل ما أراده اللّه كان ، ولا يقع في ملكه إلا ما يريد ، وتحقيقه في علم التوحيد. (ع)

[سورة الذاريات (51) : الآيات 59 إلى 60]

فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوباً مِثْلَ ذَنُوبِ أَصْحابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ (59) فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ(60)

الذنوب : الدلو العظيمة ، وهذا تمثيل ، أصله في السقاة يتقسمون الماء فيكون لهذا ذنوب ولهذا ذنوب. قال : لنا ذنوب ولكم ذنوب فإن أبيتم فلنا القليب «1»

ولما قال عمرو بن شاس : وفي كل حى قد خبطت بنعمة فحقّ لشاس من نداك ذنوب «2»

قال الملك : نعم وأذنبه. والمعنى : فإنّ الذين ظلموا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بالتكذيب من أهل مكة لهم نصيب من عذاب اللّه مثل نصيب أصحابهم ونظرائهم من القرون. وعن قتادة : سجلا من عذاب اللّه مثل سجل أصحابهم مِنْ يَوْمِهِمُ من يوم القيامة. وقيل : من يوم بدر.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : من قرأ سورة والذاريات أعطاه اللّه عشر حسنات بعدد كل ريح هبت وجرت في الدنيا «3».

---

(1) إنا إذا شاربنا شريب له ذنوب ولنا ذنوب
فان أبى كان له القليب
الشريب من يشرب معك. والذنوب : الدلو الممتلئة ماء ، والنصيب من الماء. والذنابة : مسيل الماء. والقلب البئر لقلب ترابه. يقول : إنا كرام نشاطر شريبنا ، فان لم يرض بالمناوبة أعطيناه الجميع. وروى بدل المصراعين
الأخيرين : لنا ذنوب ولكم ذنوب فان أبيتم فلنا القليب
ولعل الصواب : فان أبى أو فان أبيتم فلنا ، لئلا ينكر البيت. والمعنى : نقول لمن يشرب معنا ذلك ، ففيه دلالة على الشجاعة والغلبة. والشريب كالعشير : يطلق على الواحد والمتعدد.
(2) وأفت الذي آثاره في عدوه من البؤس والنعمى لهن ندوب
وفي كل حى قد خبطت بنعمة فحق لشاس من نداك ذنوب
لشاس أخى علقمة بن عبيدة ، يخاطب الحرث بن أبى شمر الغساني وكان أسيرا عنده. والندوب - في الأصل - :
آثار الجراح بعد برئها. ومن بيانية ، أى : آثاره التي هي البؤس والنعمى. أو ابتدائية ، أى : الناشئة منهما ، لهن بقايا في عدوه. والبؤس : الشدة ، والنعمى : الرخاء. والخابط : الذي يخبط مواضع الفقراء يتفقد أحوالهم من غير تخصيص ، ثم قيل لكل طالب : خابط ومختبط. ويجوز أن يكون من قولهم : خبط الشجرة ، ليسقط ورقها للإبل والغنم فاستعار في نفسه الورق للأموال ، والخبط تخييل والمعنى أنه شجاع كريم ، بأسه أوهن الأعداء ونعمته ظهرت عليهم بل على جميع الناس وشاس من وضع الظاهر موضع المضمر لإظهار المسكنة والاستعطاف :
قيل : إن القائل عمرو بن شاس ، فوضع الظاهر في موضعه. ولما سمع الحرث ذلك قال : نعم وأذنبته ، وكسا شاسا ومن معه ، وأركبهم وأطلقهم ، ولما استعار الندى للعطاء رشح ذلك بالذنوب : وهو الدلو الممتلئة.
(3). أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبى بن كعب رضى اللّه عنه.

سورة الطور

مكية ، وهي تسع وأربعون ، وقيل : ثمان وأربعون آية [نزلت بعد السجدة]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الطور (52) : الآيات 1 إلى 10]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالطُّورِ (1) وَكِتابٍ مَسْطُورٍ (2) فِي رَقٍّ مَنْشُورٍ (3) وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ (4) وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ (5) وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ (6) إِنَّ عَذابَ رَبِّكَ لَواقِعٌ (7) ما لَهُ مِنْ دافِعٍ (8) يَوْمَ تَمُورُ السَّماءُ مَوْراً (9) وَتَسِيرُ الْجِبالُ سَيْراً (10)

الطور : الجبل الذي كلم اللّه عليه موسى وهو بمدين. والكتاب المسطور في الرق المنشور ، والرق : الصحيفة. وقيل : الجلد الذي يكتب فيه الكتاب الذي يكتب فيه الأعمال. قال اللّه تعالى وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيامَةِ كِتاباً يَلْقاهُ مَنْشُوراً وقيل : هو ما كتبه اللّه لموسى وهو يسمع صرير القلم. وقيل : اللوح المحفوظ. وقيل القرآن ، ونكر لأنه كتاب مخصوص من بين جنس الكتب ، كقوله تعالى وَنَفْسٍ وَما سَوَّاها. وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ الضراح «1» في السماء الرابعة. وعمرانه : كثرة غاشيته من الملائكة. وقيل : الكعبة لكونها معمورة بالحجاج والعمار والمجاورين وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ السماء وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ المملوء. وقيل : الموقد ، من قوله تعالى وَإِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ وروى أن اللّه تعالى يجعل يوم القيامة البحار كلها نارا تسجر بها نار جهنم. وعن على رضى اللّه عنه أنه سأل يهوديا : أين موضع النار في كتابكم؟ قال : في البحر.

قال على : ما أراه إلا صادقا ، «2» لقوله تعالى وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ. لَواقِعٌ لنازل.

---

(1). قوله «و البيت المعمور الضراح في السماء» في الصحاح «الضراح» بالضم : بيت في السماء ، وهو البيت المعمور. عن ابن عباس. (ع)

(2). أخرجه الطبري من رواية داود بن أبي هند عن سعيد بن المسيب قال : قال على لرجل من اليهود : أين جهنم؟ قال : البحر. قال. ما أراه إلا صادقا : وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ ، وَإِذَا الْبِحارُ سُجِّرَتْ.

قال جبير بن مطعم : أتيت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أكلمه في الأسارى فألفيته في صلاة الفجر يقرأ سورة الطور ، فلما بلغ : إن عذاب ربك لواقع : أسلمت خوفا من أن ينزل العذاب «1» تَمُورُ السَّماءُ تضطرب وتجيء وتذهب. وقيل : المور تحرك في تموّج ، وهو الشيء يتردد في عرض كالداغصة في الركبة «2».

[سورة الطور (52) : الآيات 11 إلى 16]

فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ (11) الَّذِينَ هُمْ فِي خَوْضٍ يَلْعَبُونَ (12) يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلى نارِ جَهَنَّمَ دَعًّا (13) هذِهِ النَّارُ الَّتِي كُنْتُمْ بِها تُكَذِّبُونَ (14) أَفَسِحْرٌ هذا أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ (15) اصْلَوْها فَاصْبِرُوا أَوْ لا تَصْبِرُوا سَواءٌ عَلَيْكُمْ إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (16)

غلب الخوض في الاندفاع في الباطل والكذب. ومنه قوله تعالى وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخائِضِينَ ، وَخُضْتُمْ كَالَّذِي خاضُوا الدع : الدفع العنيف ، وذلك أن خزنة النار يغلون أيديهم إلى أعناقهم ، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم ، ويدفعونهم إلى النار دفعا على وجوههم وزخا في أقفيتهم «3». وقرأ زيد بن علىّ : يدعون ، من الدعاء أى يقال لهم : هلموا إلى النار ، وادخلوا النار دَعًّا مدعوعين ، يقال لهم : هذه النار أَفَسِحْرٌ هذا يعنى كنتم تقولون للوحى هذا سحر ، أفسحر هذا؟ يريد : أهذا المصداق أيضا سحر؟ ودخلت الفاء لهذا المعنى أَمْ أَنْتُمْ لا تُبْصِرُونَ كما كنتم لا تبصرون في الدنيا ، يعنى : أم أنتم عمى عن المخبر عنه كما كنتم عميا عن الخبر ، وهذا تقريع وتهكم سَواءٌ خبر محذوف ، أى : سواء عليكم الأمران : الصبر وعدمه ، فإن قلت : لم علل استواء الصبر وعدمه بقوله إِنَّما تُجْزَوْنَ ما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ؟

قلت : لأنّ الصبر إنما يكون له مزية على الجزع ، لنفعه في العاقبة بأن يجازى عليه الصابر جزاء الخير ، فأما الصبر على العذاب الذي هو الجزاء ولا عاقبة له ولا منفعة ، فلا مزية له على الجزع.

[سورة الطور (52) : الآيات 17 إلى 20]

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ (17) فاكِهِينَ بِما آتاهُمْ رَبُّهُمْ وَوَقاهُمْ رَبُّهُمْ عَذابَ الْجَحِيمِ (18) كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئاً بِما كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (19) مُتَّكِئِينَ عَلى سُرُرٍ مَصْفُوفَةٍ وَزَوَّجْناهُمْ بِحُورٍ عِينٍ (20)

(1). لم أجده هكذا. والذي جاء في الصحيح «أن ذلك في صلاة المغرب» وأنه قال لما سمع أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ - إلى آخره : كاد قلبي يطير».
(2). قوله «كالداغصة في الركبة» هي العظم المدور الذي يتحرك على رأس الركبة ، كما في الصحاح. (ع) [.....]
(3). قوله «و زخا في أقفيتهم» في الصحاح «زخه» أى : دفعه في وهدة اه. (ع)

فِي جَنَّاتٍ وَنَعِيمٍ في أية جنات وأى نعيم ، بمعنى الكمال في الصفة. أو في جنات ونعيم مخصوصة بالمتقين خلقت لهم خاصة. وقرئ : فاكهين وفكهين وفاكهون : من نصبه حالا جعل الظرف مستقرا ، ومن رفعه خبرا جعل الظرف لغوا ، أى : متلذذين بِما آتاهُمْ رَبُّهُمْ. فإن قلت : علام عطف قوله وَوَقاهُمْ رَبُّهُمْ؟ قلت : على قوله فِي جَنَّاتٍ أو على آتاهُمْ رَبُّهُمْ على أن تجعل ما مصدرية ، والمعنى : فاكهين بإيتائهم ربهم ووقايتهم عذاب الجحيم. ويجوز أن تكون الواو للحال وقد بعدها مضمرة. يقال لهم كُلُوا وَاشْرَبُوا أكلا وشربا هَنِيئاً أو طعاما وشرابا هنيئا ، وهو الذي لا تنغيص فيه. ويجوز أن يكون مثله في قوله : هنيئا مريئا غير داء مخامر لعزّة من أعراضنا ما استحلّت «1»

أعنى : صفة استعملت استعمال المصدر القائم مقام الفعل مرتفعا به ما استحلت كما يرتفع بالفعل» كأنه قيل : هناء عزة المستحل من أعراضنا ، وكذلك معنى هَنِيئاً هاهنا : هناءكم الأكل والشرب.

أو هناءكم ما كنتم تعملون ، أى : جزاء ما كنتم تعملون. والباء مزيدة كما في كَفى بِاللَّهِ والباء متعلقة بكلوا واشربوا إذا جعلت الفاعل الأكل والشرب. وقرئ : بعيس «2» عين.

[سورة الطور (52) : الآيات 21 إلى 24]

وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَما أَلَتْناهُمْ مِنْ عَمَلِهِمْ مِنْ شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ (21) وَأَمْدَدْناهُمْ بِفاكِهَةٍ وَلَحْمٍ مِمَّا يَشْتَهُونَ (22) يَتَنازَعُونَ فِيها كَأْساً لا لَغْوٌ فِيها وَلا تَأْثِيمٌ (23) وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمانٌ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَكْنُونٌ (24)

(1) يكلفها الخنزير شتمي وما بها هواني ولكن للمليك استذلت
هنيئا مريئا غير داء مخامر لعزة من أعراضنا ما استحلت
لكثير بن صخر صاحب عزة ، كان ينشد أشعاره في حلقة البصرة ، فمرت به مع زوجها فقال لها : لتغضبنه أو لأضربنك ، فقالت : كذا وكذا بفم الشاعر ، فقال ذلك. وقيل : خرجت تطلب سمنا فصادفها كثير فتحادثا ، وسكب من أداوة معه في إنائها حتى بل ثوبها ، وأنكر ذلك زوجها ، فقصت عليه القصص ، فأمرها بشتمه فقال ذلك. والمليك : مالك أمرها. وما بها هواني : أى ليست مريدة له. وهنيئا مريئا : صفتان مستعملتان استعمال المصدر النائب عن فعله ، وما استحلت : مرفوع محلا بأحدهما على التنازع ، وغير نصب على الحال. ومن أعراضنا بيان لما بعده. والهنيء والمريء : الذي لا تنغيص فيه ، المحمود العاقبة ، والمخامر : المخالط ، وشبه عرضه بالشراب السائغ على طريق المكنية. وهنيئا مريئا : تخييل. ويجوز أن التجوز فيهما على طريق التصريحية.
(2). قوله «و قرئ بعيس» في الصحاح : العيس - بالكسر - : الإبل البيض يخالط بياضها شيء من الشقرة ، واحدها : أعيس ، والأنثى : عيساء ، ويقال : هي كرائم الإبل اه ولعله هنا استعارة للنساء. (ع)

وَالَّذِينَ آمَنُوا معطوف على بِحُورٍ عِينٍ أى قرناهم بالحور وبالذين آمنوا ، أى : بالرفقاء والجلساء منهم ، كقوله تعالى إِخْواناً عَلى سُرُرٍ مُتَقابِلِينَ فيتمتعون تارة بملاعبة الحور ، وتارة بمؤانسة الإخوان المؤمنين وَاتَّبَعَتْهُمْ ذُرِّيَّتُهُمْ قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «إنّ اللّه يرفع ذرية المؤمن في درجته وإن كانوا دونه لتقرّبهم «1» عينه» ثم تلا هذه الآية. فيجمع اللّه لهم أنواع السرور بسعادتهم في أنفسهم ، وبمزاوجة الحور العين ، وبمؤانسة الإخوان المؤمنين ، وباجتماع أولادهم ونسلهم بهم. ثم قال بِإِيمانٍ أَلْحَقْنا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ أى بسبب إيمان عظيم رفيع المحل ، وهو إيمان الآباء ألحقنا بدرجاتهم ذريتهم وإن كانوا لا يستأهلونها ، تفضلا عليهم وعلى آبائهم ، لنتم سرورهم ونكمل نعيمهم. فإن قلت : ما معنى تنكير الايمان؟

قلت : معناه الدلالة على أنه إيمان خاص عظيم المنزلة. ويجوز أن يراد : إيمان الذرية الداني المحل : كأنه قال: بشيء من الإيمان ، لا يؤهلهم لدرجة الآباء ألحقناهم بهم. وقرئ : وأتبعتهم ذريتهم واتبعتهم ذريتهم. وذرياتهم:

يعنى : وفرنا عليهم جميع ما ذكرنا من الثواب والتفضل ، وما نقصناهم من ثواب عملهم من شيء.

وقيل معناه : وما نقصناهم من ثوابهم شيئا نعطيه الأبناء حتى يلحقوا بهم ، إنما ألحقناهم بهم على سبيل التفضل. قرئ : ألتناهم ، وهو من بابين : من ألت يألت ، ومن ألات يليت ، كأمات يميت.

وآلتناهم ، من آلت يؤلت ، كآمن يؤمن. ولتناهم ، من لات يليت. وولتناهم ، من ولت يلت.

ومعناهنّ واحد كُلُّ امْرِئٍ بِما كَسَبَ رَهِينٌ أى مرهون ، كأن نفس العبد رهن عند اللّه بالعمل الصالح الذي هو مطالب به ، كما يرهن الرجل عبده بدين عليه ، فإن عمل صالحا فكها وخلصها ، وإلا أوبقها وَأَمْدَدْناهُمْ وزدناهم في وقت بعد وقت يَتَنازَعُونَ يتعاطون ويتعاورون هم وجلساؤهم من أقربائهم وإخوانهم كَأْساً خمرا لا لَغْوٌ فِيها في شربها وَلا تَأْثِيمٌ أى لا يتكلمون في أثناء الشرب بسقط الحديث وما لا طائل تحته كفعل المتنادمين في الدنيا على الشراب في سفههم وعربدتهم ، ولا يفعلون ما يؤثم به فاعله ، أى : ينسب إلى الإثم لو فعله في دار التكليف من الكذب والشتم والفواحش ،

(1). أخرجه البزار وابن عدى. وأبو نعيم في الحلية وابن مردويه. والثعلبي من طريق قيس بن الربيع عن عمرو بن مرة عن سعيد بن جبير عن ابن عباس مرفوعا. قال البزار تفرد قيس برفعه. ورواه الثوري موقوفا ورواه الحاكم والبيهقي في الاعتقاد والطبري وابن أبى حاتم من طريق الثوري عن عمرو بن مرة به موقوفا

وإنما يتكلمون بالحكم والكلام الحسن متلذذين بذلك ، لأنّ عقولهم ثابتة غير زائلة ، وهم حكماء علماء. وقرئ : لا لغو فيها ولا تأثيم غِلْمانٌ لَهُمْ أى مملوكون لهم مخصوصون بهم مَكْنُونٌ في الصدف ، لأنه رطبا أحسن وأصفى. أو مخزون لأنه لا يخزن إلا الثمين الغالي القيمة. وقيل لقتادة : هذا الخادم فكيف المخدوم؟ فقال : قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «و الذي نفسي بيده إن فضل المخدوم على الخادم كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب» «1» وعنه عليه السلام : «إن أدنى أهل الجنة منزلة من ينادى الخادم من خدامه فيجيبه ألف ببابه : لبيك لبيك» «2».

[سورة الطور (52) : الآيات 25 إلى 28]

وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلى بَعْضٍ يَتَساءَلُونَ (25) قالُوا إِنَّا كُنَّا قَبْلُ فِي أَهْلِنا مُشْفِقِينَ (26) فَمَنَّ اللَّهُ عَلَيْنا وَوَقانا عَذابَ السَّمُومِ (27) إِنَّا كُنَّا مِنْ قَبْلُ نَدْعُوهُ إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ الرَّحِيمُ (28)

يَتَساءَلُونَ يتحادثون ويسأل بعضهم بعضا عن أحواله وأعماله وما استوجب به نيل ما عند اللّه مُشْفِقِينَ أرقاء القلوب من خشية اللّه. وقرئ ، ووقانا ، بالتشديد عَذابَ السَّمُوم عذاب النار ووهجها ولفحها. والسموم : الريح الحارّة التي تدخل المسام فسميت بها نار جهنم لأنها بهذه الصفة مِنْ قَبْلُ من قبل لقاء اللّه تعالى والمصير إليه ، يعنون في الدنيا نَدْعُوهُ نعبده ونسأله الوقاية إِنَّهُ هُوَ الْبَرُّ المحسن الرَّحِيمُ العظيم الرحمة الذي إذا عبد أثاب وإذا سئل أجاب. وقرئ : أنه بالفتح ، بمعنى : لأنه.

[سورة الطور (52) : آية 29]

فَذَكِّرْ فَما أَنْتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِكاهِنٍ وَلا مَجْنُونٍ (29)

فَذَكِّرْ فاثبت على تذكير الناس وموعظتهم ، ولا يثبطنك قولهم : كاهن أو مجنون ، ولا تبال به فإنه قول باطل متناقض ، لأنّ الكاهن يحتاج في كهانته إلى فطنة ودقة نظر ، والمجنون مغطى على عقله. وما أنت بحمد اللّه وإنعامه عليك بصدق النبوّة ورجاحة العقل أحد هذين.

[سورة الطور (52) : الآيات 30 إلى 43]

أَمْ يَقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ بِهِ رَيْبَ الْمَنُونِ (30) قُلْ تَرَبَّصُوا فَإِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ (31) أَمْ تَأْمُرُهُمْ أَحْلامُهُمْ بِهذا أَمْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ (32) أَمْ يَقُولُونَ تَقَوَّلَهُ بَلْ لا يُؤْمِنُونَ (33) فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كانُوا صادِقِينَ (34) أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخالِقُونَ (35) أَمْ خَلَقُوا السَّماواتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لا يُوقِنُونَ (36) أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ (37) أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ فَلْيَأْتِ مُسْتَمِعُهُمْ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ (38) أَمْ لَهُ الْبَناتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ (39) أَمْ تَسْئَلُهُمْ أَجْراً فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ (40) أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ (41) أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ (42) أَمْ لَهُمْ إِلهٌ غَيْرُ اللَّهِ سُبْحانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ (43)

(1). أخرجه عبد الرزاق أخبرنا معمر عن قتادة به قال فذكره ، وأخرجه الثعلبي من رواية الحسن مرسلا
(2). أخرجه الثعلبي من رواية عمر بن عبد العزيز البصري عن يوسف بن أبى طيبة عن وكيع عن هشام عن أبيه عن عائشة نحوه.

وقرئ : يتربص به ريب المنون ، على البناء للمفعول. وريب المنون. ما يقلق النفوس ويشخص بها من حوادث الدهر. قال : أمن المنون وريبه أتوجّع «1»

وقيل : المنون الموت ، وهو في الأصل فعول ، من منه إذا قطعه ، لأن الموت قطوع ، ولذلك سميت شعوب. قالوا : ننتظر به نوائب الزمان فيهلك كما هلك من قبله من الشعراء : زهير والنابغة مِنَ الْمُتَرَبِّصِينَ أتربص هلاككم كما تتربصون هلاكى أَحْلامُهُمْ عقولهم وألبابهم.

ومنه قولهم : أحلام عاد. والمعنى : أتأمرهم أحلامهم بهذا التناقض في القول ، وهو قولهم : كاهن وشاعر ، مع قولهم مجنون. وكانت قريش يدعون أهل الأحلام والنهى أَمْ هُمْ قَوْمٌ طاغُونَ مجاوزون الحدّ في العناد مع ظهور الحق لهم. فإن قلت : ما معنى كون الأحلام آمرة؟ قلت : هو مجاز لأدائها إلى ذلك ،

(1) أمن المنون وريبه أتوجع والدهر ليس بمعتب من يجزع
لأبى ذويب مطلع مرثية بنيه ، والاستفهام للإنكار. وريب المنون : ما يقلق النفوس ويدهشها من حوادث الدهر.
والمنون : الموت ، كالمنية ، لأنه مقدر ، فهو من منى إذا قدر. وقوله «و الدهر ... الخ» جملة حالية. ويقال :
أعتبه ، إذا قبل عتابه وأزال شكواه ، فشبه الدهر بإنسان مسيء على طريق المكنية ، وإسناد الاعتاب تخييل.
والجزع : شدة الحزن.

كقوله تعالى أَصَلاتُكَ تَأْمُرُكَ أَنْ نَتْرُكَ ما يَعْبُدُ آباؤُنا وقرئ : بل هم قوم طاغون. تَقَوَّلَهُ اختلقه من تلقاء نفسه بَلْ لا يُؤْمِنُونَ فلكفرهم وعنادهم يرمون بهذه المطاعن ، مع علمهم ببطلان قولهم ، وأنه ليس بمتقوّل لعجز العرب عنه ، وما محمد إلا واحد من العرب. وقرئ بحديث مثله على الإضافة ، والضمير لرسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، ومعناه : أن مثل محمد في فصاحته ليس بمعوز في العرب ، فإن قدر محمد على نظمه كان مثله قادرا عليه ، فليأتوا بحديث ذلك المثل : أَمْ خُلِقُوا أم أحدثوا وقدروا التقدير الذي عليه فطرتهم مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ من غير مقدّر أَمْ هُمُ الذين خلقوا أنفسهم حيث لا يعبدون الخالق بَلْ لا يُوقِنُونَ أى : إذا سئلوا من خلقكم وخلق السماوات والأرض؟ قالوا : اللّه ، وهم شاكون فيما يقولون ، لا يوقنون. وقيل : أخلقوا من أجل لا شيء من جزاء ولا حساب؟ وقيل : أخلقوا من غير أب وأم؟ أَمْ عِنْدَهُمْ خَزائِنُ الرزق حتى يرزقوا النبوّة من شاءوا. أو : أعندهم خزائن علمه حتى يختاروا لها من اختياره حكمة ومصلحة؟ أَمْ هُمُ الْمُصَيْطِرُونَ الأربابُ الغالبون ، حتى يدبروا أمر الربوبية ويبنوا الأمور على إرادتهم ومشيئتهم؟ وقرئ : المصيطرون بالصاد أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ منصوب إلى السماء يستمعون صاعدين فيه إلى كلام الملائكة وما يوحى إليهم من علم الغيب حتى يعلموا ما هو كائن من تقدم هلاكه على هلاكهم وظفرهم في العاقبة دونه كما يزعمون؟ بِسُلْطانٍ مُبِينٍ بحجة واضحة تصدق استماع مستمعهم. المغرم : أن يلتزم الإنسان ما ليس عليه ، أى : لزمهم مغرم ثقيل فدحهم «1» فزهدهم ذلك في اتباعك؟ أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ أى اللوح المحفوظ فَهُمْ يَكْتُبُونَ ما فيه حتى يقولوا لا نبعث. وإن بعثنا لم نعذب «2» أَمْ يُرِيدُونَ كَيْداً وهو كيدهم في دار الندوة برسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وبالمؤمنين فَالَّذِينَ كَفَرُوا إشارة اليهم أو أريد بهم كل من كفر باللّه هُمُ الْمَكِيدُونَ هم الذين يعود عليهم وبال كيدهم ويحيق بهم مكرهم. وذلك أنهم قتلوا يوم بدر. أو المغلوبون في الكيد ، من كايدته فكدته.

[سورة الطور (52) : الآيات 44 إلى 47]

وَإِنْ يَرَوْا كِسْفاً مِنَ السَّماءِ ساقِطاً يَقُولُوا سَحابٌ مَرْكُومٌ (44) فَذَرْهُمْ حَتَّى يُلاقُوا يَوْمَهُمُ الَّذِي فِيهِ يُصْعَقُونَ (45) يَوْمَ لا يُغْنِي عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً وَلا هُمْ يُنْصَرُونَ (46) وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا عَذاباً دُونَ ذلِكَ وَلكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لا يَعْلَمُونَ(47)

(1). قوله «فدحهم فزهدهم» أى : أثقلهم وبهظهم. أفاده الصحاح. (ع)
(2). قوله «و إن بعثنا لم نعذب» لعله : لا نعذب. (ع)

الكسف : القطعة ، وهو جواب قولهم أَوْ تُسْقِطَ السَّماءَ كَما زَعَمْتَ عَلَيْنا كِسَفاً يريد : أنهم لشدّة طغيانهم وعنادهم لو أسقطناه عليهم لقالوا : هذا سحاب مركوم بعضه فوق بعض يمطرنا ، ولم يصدقوا أنه كسف ساقط للعذاب. وقرئ : حتى يلقوا ويلقوا يُصْعَقُونَ يموتون. وقرئ : يصعقون. يقال. صعقه فصعق ، وذلك عند النفخة الأولى نفخة الصعق وَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا وإن. لهؤلاء الظلمة عَذاباً دُونَ ذلِكَ دون يوم القيامة : وهو القتل ببدر ، والقحط سبع سنين ، وعذاب القبر. وفي مصحف عبد اللّه : دون ذلك قريبا.

[سورة الطور (52) : الآيات 48 إلى 49]

وَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ حِينَ تَقُومُ (48) وَمِنَ اللَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَإِدْبارَ النُّجُومِ (49)

لِحُكْمِ رَبِّكَ بإمهالهم وما يلحقك فيه من المشقة والكلفة فَإِنَّكَ بِأَعْيُنِنا مثل ، أى : بحيث نراك ونكلؤك. وجمع العين لأنّ الضمير بلفظ ضمير الجماعة. ألا ترى إلى قوله تعالى وَلِتُصْنَعَ عَلى عَيْنِي. وقرئ : وبأعينا ، بالإدغام حِينَ تَقُومُ من أى مكان قمت. وقيل : من منامك وَإِدْبارَ النُّجُومِ وإذا أدبرت النجوم من آخر الليل. وقرئ : وأدبار ، بالفتح بمعنى في أعقاب النجوم وآثارها إذا غربت ، والمراد الأمر بقول : سبحان اللّه وبحمده في هذه الأوقات. وقيل التسبيح : الصلاة إذا قام من نومه ، ومن الليل : صلاة العشاءين ، وأدبار النجوم : صلاة الفجر.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة الطور كان حقا على اللّه أن يؤمنه من عذابه وأن ينعمه في جنته» «1».

(1). أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبى بن كعب رضى اللّه عنه.

سورة النجم

مكية [إلا آية 32 فمدنية] وآياتها 62 وقيل 61 آية [نزلت بعد الإخلاص]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة النجم (53) : الآيات 1 إلى 18]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

وَالنَّجْمِ إِذا هَوى (1) ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ وَما غَوى (2) وَما يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى (3) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحى (4) عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوى (5) ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوى (6) وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلى (7) ثُمَّ دَنا فَتَدَلَّى (8) فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنى(9) فَأَوْحى إِلى عَبْدِهِ ما أَوْحى (10) ما كَذَبَ الْفُؤادُ ما رَأى (11) أَفَتُمارُونَهُ عَلى ما يَرى (12) وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرى (13) عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنْتَهى (14) عِنْدَها جَنَّةُ الْمَأْوى (15) إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى (16) ما زاغَ الْبَصَرُ وَما طَغى (17) لَقَدْ رَأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الْكُبْرى (18)

النجم : الثريا ، وهو اسم غالب لها. قال : إذا طلع النّجم عشاء ابتغى الرّاعى كساء «1»

(1). هذا تقوله العرب عند الشتاء ، وتقول عند الصيف :
طلع النجم غدية وابتغى الراعي شكية
والنجم :
اسم غالب على الثريا ، قيل : إنها تخفى في السنة أربعين يوما يسترها ضوء الشمس ، وتظهر عند دخول الشتاء عشاء ، وعند دخول الصيف صباحا ، والكساء : ثوب سابغ. والغدية : تصغير غدوة : وهي أول النهار. والشكية :
تصغير شكوة ، وهي قربة صغيرة جرداء ، لأنه في الشتاء يطلب كساء بدنية لكثرة البرد ، وفي الصيف يطلب قربة يشرب منها لكثرة الحر ، والأول كناية عن دخول البرد ، والثاني كناية عن دخول الحر.

أو جنس النجوم. قال : فباتت تعد النّجم في مستحيرة «1»

يريد النجوم إذا هَوى إذا غرب أو انتثر يوم القيامة. أو النجم الذي يرجم به إذا هوى : إذا انقض. أو النجم من نجوم القرآن ، وقد نزل منجما في عشرين سنة ، إذا هوى : إذا نزل.

أو النبات إذا هوى : إذا سقط على الأرض. وعن عروة بن الزبير أنّ عتبة بن أبى لهب وكانت تحته بنت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أراد الخروج إلى الشام ، فقال : لآتين محمدا فلأوذينه ، فأتاه فقال : يا محمد ، هو كافر بالنجم إذا هوى ، وبالذي دنا فتدلى ، ثم تفل في وجه رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم وردّ عليه ابنته وطلقها ، فقال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : اللهم سلط عليه كلبا من كلابك ، وكان أبو طالب حاضرا ، فوجم «2» لها وقال : ما كان أغناك يا ابن أخى عن هذه الدعوة! فرجع عتبة إلى أبيه فأخبره ، ثم خرجوا إلى الشام فنزلوا منزلا ، فأشرف عليهم راهب من الدير فقال لهم : إن هذه أرض مسبعة ، فقال أبو لهب لأصحابه : أغيثونا يا معشر قريش هذه الليلة ،

(1) فقد علموا أنى وفيت لربها فراح على عنس بأخرى يقودها
قريت الكلابي الذي يبتغى القرى وأمك إذ يحدى إلينا قعودها
فباتت تعد النجم في مستحيرة سريع بأيدى الآكلين جمودها
فلما سقيناها العكيس تملأت مذاخرها وارفض منها وريدها
ولما قضت من ذى الإناء لبانة أرادت إلينا حاجة لا نريدها
للراعي النميري من بنى قطن بن ربيعة : نزل به أضياف من بنى كلاب وقد غابت إبله ، فنحر لهم ناقة من ركابهم ، فلما أصبح أقبلت عليه إبله ، فأعطى صاحب الناقة مثلها ، وأعطاه ثنية زيادة عليها ، نذمه خنزر بن أرقم من بنى بدر ابن ربيعة على ذبحها ، فأجابه الراعي بقصيدة منها ذلك. والعنس : الناقة الصلبة. وأمك : عطف على الكلابي.
ويحدى : مبنى للمجهول ، أى : يساق بالغناء له. والقعود - كصبور - : البكر من الإبل ، لأنه لا يمكن الراكب من القعود على ظهره.
وروى : إذ يحدى إليك ، بدل إلينا. ولعله بعد الضيافة الآتية أو تحريف ، فباتت أمك تعد النجم ، أى : تحسب صور النجوم ، أو تحسب فقاقع المرق في الجفنة ، فاستعار لها النجم على سبيل التصريحية.
أو تحسب الثريا ، لأن النجم اسم غالب عليها ، وهي سبعة نجوم : ترى صورتها في ليالي الشتاء. وقيل : المراد بالعد هنا : الظن ، أى باتت تظنا فيها. والمستحيرة : المتحيرة بامتلائها من المرق. ويروى : مستجرة لأنها تجر الناس للأكل منها والعكس : المرق الممزوج باللبن الحليب. وتملأت : امتلأت. ويروى : تمدحت ، بالدال المهملة ، أى : اتسعت من الشبع. ويروى بالمعجمة ، أى : اصطكت

وازداد رشحا وريدها. أى : باتت تنظر النجوم في جفنة كثيرة المرق والدسم ، سريع جمود دسمها على أيدى الآكلين من برد الشتاء ، حتى إذا امتلأت بطنها ونفرت عروق عنقها وقضت لبانة ، أى : حاجة من صاحب الإناء وهو المرق واللبن : طلبت منا حاجة لا نريدها ولا نرضاها ، لأنها فاحشة وكأنه ضمن أرادت معنى التضرع أو الميل أو النسبة فعداء بإلى. ويجوز أنها بمعنى من ، كما أوضحناه في آخر حرف الباء.
(2). قوله «فوجم لها» أى اشتد حزنه. أفاده الصحاح. (ع)

فإنى أخاف على ابني دعوة محمد ، فجمعوا جمالهم وأناخوها حولهم ، وأحدقوا بعتبة ، فجاء الأسد يتشمم وجوههم ، حتى ضرب عتبة فقتله «1». وقال حسان : من يرجع العام إلى أهله فما أكيل السّبع بالرّاجع «2»
ما ضَلَّ صاحِبُكُمْ يعنى محمدا صلى اللّه عليه وسلم : والخطاب لقريش ، وهو جواب القسم ، والضلال : نقيض الهدى ، والغى نقيض الرشد ، أى : هو مهتد راشد وليس كما تزعمون من نسبتكم إياه إلى الضلال والغى ، وما أتاكم به من القرآن ليس بمنطق يصدر عن هواه ورأيه ، وإنما هو وحى من عند اللّه يوحى إليه. ويحتج بهذه الآية من لا يرى الاجتهاد للأنبياء ، ويجاب بأنّ اللّه تعالى إذا سوّغ لهم الاجتهاد ، كان الاجتهاد وما يستند إليه كله وحيا لا نطقا عن الهوى شَدِيدُ الْقُوى ملك شديد قواه ، والإضافة غير حقيقية ، لأنها إضافة الصفة المشبهة إلى فاعلها ، وهو جبريل عليه السلام ، ومن قوّته أنه اقتلع قرى قوم لوط من الماء الأسود ، وحملها على جناحه، ورفعها إلى السماء ثم قلبها ، وصاح صيحة بثمود فأصبحوا جاثمين ، وكان هبوطه على الأنبياء وصعوده في أوحى من رجعة الطرف «3» ، ورأى إبليس يكلم عيسى عليه السلام على بعض عقاب الأرض المقدّسة ،

(1). أخرجه أبو نعيم في الدلائل من طريق ابن إسحاق عن عثمان بن عروة عن أبيه فذكر مثله. إلا أنه قال «فضربه الأسد بذنبه ضربة واحدة فمات مكانه» ورواه البيهقي في الدلائل والطبراني من طريق سعيد عن قتادة مطولا نحوه. لكن قال عنبسة : ورواه الحاكم والبيهقي في الدلائل أيضا. من رواية أبى نوفل بن أبى عقرب عن أبيه. قال «كان لهب بن أبى لهب» فذكره مختصرا. وقال البيهقي : هكذا قال عباس بن الفضل الأزرق. وليس بالقوى. وأهل المغازي يقولونه عتبة أو عتيبة. [.....]
(2) لا يرفع الرحمن مصروعكم ولا يوهن قوة الصارع
وكان فيه لكم عبرة السيد المتبوع والتابع
من يرجع العلم إلى أهله فما أكيل السبع بالراجع
من عاد فالليث له عائد أعظم به من خبر شائع
لحسان بن ثابت. روى عن عروة بن الزبير أن عتبة بن أبى لهب كان تحته بنت رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فذهب إليه وقال : إنه كافر بالنجم إذا هوى وبالذي دنا فتدلى ثم تفل في وجهه وطلق ابنته وخرج إلى الشام فقال صلى اللّه عليه وسلم : اللهم سلط عليه كلبا من كلابك ، فبينما هم يحرسونه ذات ليلة في سفر ، إذ جاء أسد يتشمم وجوههم حتى ضرب عتبة فقتله ، فقال حسان ذلك ، والفعلان مجزومان بلا الدعائية. ويوهن بالتشديد ، والمعنى الدعاء على القتيل والدعاء للقاتل. والمصروع : المطروح. والعبرة : الاعتبار أو ما يعتبر به. والتابع عطف على السيد.
من يرجع في هذا العام إلى أهله فلن يوجب رجوع غيره ، لأن من أكله السبع لا يرجع فلا يتمن أهله رجوعه ، لاستحالته وسكون السبع لغة ، ثم قال : من عاد لمثل فعل عتبة فالأسد عائد له ، وأعظم به : صيغة تعجب ، من خبر : تمييز مقترن بمن ، شائع : ذائع منتشر.
(3). قوله «في أوحى من رجعة الطرف» أى : أسرع من الوحى وهو السرعة ، يمد ويقصر ، كذا في الصحاح. وفيه أيضا : نفحت الناقة : ضربت برجلها ، ونفحه بالسيف : تناوله. (ع)

فنفحه بجناحه نفحة فألقاه في أقصى جبل بالهند ذُو مِرَّةٍ ذو حصافة في عقله «1» ورأيه ومتانة في دينه فَاسْتَوى فاستقام على صورة نفسه الحقيقية دون الصورة التي كان يتمثل بها كلما هبط بالوحي ، وكان ينزل في صورة دحية ، وذلك أنّ رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أحب أن يراه في صورته التي جبل عليها ، فاستوى له في الأفق الأعلى وهو أفق الشمس فملأ الأفق «2». وقيل : ما رآه أحد من الأنبياء في صورته الحقيقية غير محمد صلى اللّه عليه وسلم مرتين : مرة في الأرض ، ومرة في السماء «3» ثُمَّ دَنا من رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فَتَدَلَّى فتعلق عليه في الهواء. ومنه : تدلت الثمرة ، ودلى رجليه من السرير.

والدوالي : الثمر المعلق. قال : تدلّى عليها بين سب وخيطة «4»

ويقال : هو مثل القرلى : إن رأى خيرا تدلى ، وإن لم يره تولى قابَ قَوْسَيْنِ مقدار قوسين عربيتين : والقاب والقيب ، والقاد والقيد ، والقيس : المقدار. وقرأ زيد بن على : قاد. وقرئ : قيد ، وقدر. وقد جاء التقدير بالقوس والرمح ، والسوط ، والذراع ، والباع ، والخطوة ، والشبر ، والفتر ، والأصبع. ومنه «لا صلاة إلى أن ترتفع الشمس مقدار رمحين» «5». وفي الحديث «لقاب قوس أحدكم من الجنة وموضع قدّه خير من الدنيا وما فيها «6»» والقدّ : السوط.

ويقال : بينهما خطوات يسيرة. وقال :

(1). قوله «ذو حصافة في عقله» أى : استحكام» أفاده الصحاح. (ع)
(2). لم أجده هكذا. وفي الصحيحين من رواية مسروق عن عائشة «أنا أول من سأل رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ، فقال : إنما هو جبريل لم أره على صورته التي رأيته عليها غير هاتين المرتين : رأيته منهبطا من السماء سادا عظم خلقه ما بين السماء والأرض» وللترمذي وابن حبان «و لكنه رأى جبريل ، لم يره في صورته إلا مرتين :
مرة عند سدرة المنتهى. ومرة في أجياد ، له ستمائة جناح ، وقد سد الأفق».
(3). لم أجده. هكذا. وذكر المرتين ، تقدم في الذي قبله.
(4) تدلى عليها بين سب وخيطة تدلى دلو المائح المنشمر
يروى لأبى ذؤيب بدل الشطر الثاني : بجرداء مثل الوكف يكبو غرابها. والسب - بالكسر - : الحبل ، والخمار ، والعمامة ، والخيطة كذلك الوتد ونحوه : في لغة هذيل. والمائح : مالئ الدلو من أسفل البئر. والمائح - بالتاء - :
المستقى ، يصف جانى العسل بأنه تدلى على النحل أو العسل ، لأنه يؤنث أيضا ، أى : نزل متمسكا بحبل مشدود في وتد ، كتدلى دلو المالئ النشيط. والجرداء : فرس قليلة الشعر. والوكف : النطع. وكبا الجواد يكبو : سقط على وجهه. وغراب الدابة : أعلى ظهرها ، أى : كأن غرابها ينحدر لسرعة سيرها.
(5). أخرجه الحاكم من حديث عمرو بن عبسة في حديث طويل ورواه إسحاق والدارقطني من حديث كعب بن مرة نحوه في حديث ، ورواه الطبراني من حديث عبد الرحمن بن عوف مختصرا.
(6). أخرجه البخاري من طريق حميد عن أنس أتم من هذا.

وقد جعلتني من حزيمة أصبعا «1»

فإن قلت : كيف تقدير قوله فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ؟ قلت : تقديره فكان مقدار مسافة قربه مثل قاب قوسين «2» ، فحذفت هذه المضافات كما قال أبو علي في قوله : وقد جعلتني من حزيمة أصبعا أى : ذا مقدار مسافة أصبع أَوْ أَدْنى أى على تقديركم ، كقوله تعالى أَوْ يَزِيدُونَ. إِلى عَبْدِهِ إلى عبد اللّه ، وإن لم يجر لاسمه عزّ وجل ذكر ، لأنه لا يلبس ، كقوله عَلى ظَهْرِها. ما أَوْحى تفخيم للوحى الذي أوحى «3» إليه : قيل أوحى إليه «إنّ الجنة محرّمة على الأنبياء حتى تدخلها وعلى الأمم حتى تدخلها أمتك» ما كَذَبَ فؤاد محمد صلى اللّه عليه وسلم ما رآه ببصره من صورة جبريل عليه السلام ، أى : ما قال فؤاده لما رآه : لم أعرفك ، ولو قال ذلك لكان كاذبا ، لأنه عرفه ، يعنى : أنه رآه بعينه وعرفه بقلبه ، ولم يشك في أنّ ما رآه حق وقرئ : ما كذب ، أى صدقه ولم يشك أنه جبريل عليه السلام بصورته أَفَتُمارُونَهُ من المراء وهو الملاحاة والمجادلة واشتقاقه من مرى الناقة ، «4» كأن كل واحد من المتجادلين يمرى ما عند صاحبه. وقرئ : أفتمرونه : أفتغلبونه في المراء ، من ماريته فمريته ، ولما فيه من معنى الغلبة عدّى بعلى ، كما تقول : غلبته على كذا : وقيل : أفتمرونه : أفتجحدونه. وأنشدوا : لئن هجوت أخا صدق ومكرمة لقد مريت أخا ما كان يمريكا «5»

(1) فأدرك إبقاء العراوة ظلعها وقد جعلتني من حزيمة أصبعا
للكلحية ، وهو لقب لعبد اللّه بن هبيرة. وقيل : جرير بن هبيرة. وقيل : هبيرة بن عبد مناف. وقيل : هو للأسود بن يعفر. وقيل : لرؤبة وليس بشيء. والإبقاء : ما تبقيه الفرس من الهمة لتبذله قرب بلوغ المقصد.
والعراوة كجرادة. وقيل : بالكسر اسم فرسه. والظلع - بالفتح - : غمز في المشية من وجع الرجل ، أى : أدرك الظلع ما أبقته الفرس فلم تقدر على بذله ، والحال أنها جعلتني قريبا من عدوى حزيمة بمهملة مفتوحة فمعجمة مكسورة :
رجل كان قد أغار على إبل الشاعر فتبعه. وقيل : قبيلته وليس بذاك. ويروى : فأدرك إرقال العراوة. والإرقال :
الاسراع في السير ، أى : أبطل إسراعها العرج ، ولا بد من تأويل قوله : جعلتني أصبعا أى : جعلتني ذا مسافة أصبع. أو جعلت مسافتي مقدار أصبع.
(2). قال محمود : «تقديره : فكان مقدار مسافة قربه مثل قاب قوسين إلى آخره» قال أحمد : وقد قال بعضهم :
إنه كناية عن المعاهدة على لزوم الطاعة ، لأن الحليفين في عرف العرب إذا تحالفا على الوفاء والصفاء ألصقا وترى قوسيهما» قال أحمد : وفيه ميل لقوله أَوْ أَدْنى .
(3). قال محمود : «هذا تفخيم للوحى الذي أوحى اللّه إليه» قال أحمد : التفخيم لما فيه من الإبهام ، كأنه أعظم من أن يحيط به بيان ، وهو كقوله : إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ ما يَغْشى وقوله فَغَشِيَهُمْ مِنَ الْيَمِّ ما غَشِيَهُمْ.
(4). قوله «من مرى الناقة» في الصحاح : مريت الناقة ، إذا مسحت ضرعها لتدر. (ع)
(5). يقول لصاحبه : لئن ذممت أخا صدق ومكرمة ، يعنى : نفسه. ويقال : مرى الناقة ، أى : حلبها. ومنه المماراة. كأن كلا من المتجادلين يمرى ما عند صاحبه. ومنه : فقد مريت أخا صدق ، أى : غلبته في الجدال وأنفذت ما عنده ، لأن من حلب الناقة يتركها يابسة الضرع ، أو جحدت حقه كأنك أخذته منه ، أو تسببت في إخراج ما عنده ، فيذمك كما ذممته. ما كان يمريك ، أى : ما كان يفعل بك كذلك.

وقالوا : يقال مريته حقه إذا جحدته ، وتعديته بعلى لا تصح إلا على مذهب التضمين نَزْلَةً أُخْرى مرة أخرى من النزول ، نصبت النزلة نصب الظرف الذي هو مرة ، لأنّ الفعلة اسم للمرّة من الفعل ، فكانت في حكمها ، أى : نزل عليه جبريل عليه السلام نزلة أخرى في صورة نفسه ، فرآه عليها ، وذلك ليلة المعراج. قيل في سدرة المنتهى : هي شجرة نبق في السماء السابعة عن يمين العرش : ثمرها كقلال هجر ، وورقها كآذان الفيول ، تنبع من أصلها الأنهار التي ذكرها اللّه في كتابه ، يسير الراكب في ظلها سبعين عاما لا يقطعها.

والمنتهى : بمعنى موضع الانتهاء ، أو الانتهاء ، كأنها في منتهى الجنة وآخرها. وقيل : لم يجاوزها أحد ، وإليها ينتهى علم الملائكة وغيرهم ، ولا يعلم أحد ما وراءها. وقيل : تنتهي إليها أرواح الشهداء جَنَّةُ الْمَأْوى الجنة التي يصير إليها المتقون : عن الحسن. وقيل : تأوى إليها أرواح الشهداء.

وقرأ على وابن الزبير وجماعة : جنة المأوى ، أى ستره بظلاله ودخل فيه. وعن عائشة : أنها أنكرته وقالت : من قرأ به فأجنه الله ما يَغْشى تعظيم وتكثير لما يغشاها ، فقد علم بهذه العبارة أن ما يغشاها من الخلائق الدالة على عظمة الله وجلاله : أشياء لا يكتنهها النعت ولا يحيط بها الوصف. وقد قيل : يغشاها الجم الغفير من الملائكة يعبدون الله عندها. وعن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «رأيت على كل ورقة من ورقها ملكا قائما يسبح الله» «1». وعنه عليه السلام : يغشاها رفرف من طير خضر «2». وعن ابن مسعود وغيره : يغشاها فراش من ذهب «3» ما زاغَ بصر رسول الله صلى الله عليه وسلم وَما طَغى أى أثبت ما رآه إثباتا مستيقنا صحيحا ، من غير أن يزيغ بصره عنه أو يتجاوزه ، أو ما عدل عن رؤية العجائب التي أمر برؤيتها ومكن منها ، وما طغى : وما جاوز ما أمر برؤيته لَقَدْ رَأى والله لقد رأى مِنْ آياتِ رَبِّهِ الآيات التي هي كبراها وعظماها «4» ، يعنى : حين رقى ربه إلى السماء فأرى عجائب الملكوت.

(1). أخرجه الطبري من طريق عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قال قيل له : يا رسول الله ، أى شيء رأيت يغشى تلك الشجرة؟ فذكره وأتم منه» وعبد الرحمن ضعيف وهذا معضل. [.....]
(2). لم أجده.
(3). أما حديث ابن مسعود فرواه إسحاق بن راهويه من طريق مرة عنه بهذا وأتم منه وأما غيره فرواه [بياض بالأصل].
(4). قال محمود : «معناه قد رأى من آيات ربه الآيات التي ... الخ» قال أحمد : ويحتمل أن تكون الكبرى صفة آيات ربه ، لا مفعولا به ، ويكون المرئي محذوفا لتفخيم الأمر وتعظيمه ، كأنه قال : لقد رأى من آيات ربه الكبرى أمورا عظاما لا يحيط بها الوصف ، والحذف في مثل هذا أبلغ وأهول ، وهذا - والله أعلم - أولى من الأول ، لأن فيه تفخيما لآيات الله الكبرى ، وأن فيها ما رآه وفيها ما لم يره ، وهو على الوجه الأول يكون مقتضاه أنه رأى جميع الآيات الكبرى على الشمول والعموم ، وفيه بعد ، فان آيات الله تعالى لا يحيط أحد علما بجملتها.
فان قال : عام أريد به خاص ، فقد رجع إلى الوجه الذي ذكرناه والله أعلم.

[سورة النجم (53) : الآيات 19 إلى 23]

أَفَرَأَيْتُمُ اللاَّتَ وَالْعُزَّى (19) وَمَناةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرى (20) أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثى (21) تِلْكَ إِذاً قِسْمَةٌ ضِيزى (22) إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْماءٌ سَمَّيْتُمُوها أَنْتُمْ وَآباؤُكُمْ ما أَنْزَلَ اللَّهُ بِها مِنْ سُلْطانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَما تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدى (23)

اللَّاتَ وَالْعُزَّى وَمَناةَ أصنام كانت لهم ، وهي مؤنثات ، فاللات كانت لثقيف بالطائف.

وقيل : كانت بنخلة تعبدها قريش ، وهي فعلة من لوى ، لأنهم كانوا يلوون عليها ويعكفون للعبادة. أو يلتوون عليها «1» : أى يطوفون. وقرئ : اللات ، بالتشديد. وزعموا أنه سمى برجل كان يلت عنده السمن بالزيت ويطعمه الحاج. وعن مجاهد : كان رجل يلت السويق بالطائف ، وكانوا يعكفون على قبره ، فجعلوه وثنا ، والعزى كانت لغطفان وهي سمرة ، وأصلها تأنيث الأعز ، وبعث إليها رسول الله صلى الله عليه وسلم خالد بن الوليد فقطعها ، فخرجت منها شيطانة ناشرة شعرها داعية ويلها ، واضعة يدها على رأسها ، فجعل يضربها بالسيف حتى قتلها وهو يقول : يا عزّ كفرانك لا سبحانك إنى رأيت الله قد أهانك «2»

(1). قال محمود : «اشتقاق اللات من لوى على كذا إذا قام عليه لأنهم كانوا ... الخ» قال أحمد : الأخرى تأنيث آخر ، ولا شك أنه في الأصل مشتق من التأخير الوجودي ، إلا أن العرب عدلت به عن الاستعمال في التأخير الوجودي إلى الاستعمال حيث يتقدم ذكر مغاير لا غير ، حتى سلبته دلالته على المعنى الأصلى ، بخلاف آخر وآخرة ، على وزن فاعل وفاعلة ، فان إشعارهما بالتأخير الوجودي ثابت لم يغير. ومن ثم عدلوا عن أن يقولوا : ربيع الآخر ، على وزن الأفعل ، وجمادى الأخرى : إلى ربيع الآخر ، على وزن فاعل ، وجمادى الآخرة على وزن فاعلة ، لأنهم أرادوا أن يفهموا التأخير الوجودي ، لأن الأفعل والفعلى من هذا الاشتقاق مسلوب الدلالة على غرضهم ، فعدلوا عنها إلى الآخر والآخرة ، والتزموا ذلك فيهما. وهذا البحث مما كان الشيخ أبو عمرو بن الحاجب رحمه الله تعالى قد حرره آخر مدته ، وهو الحق إن شاء الله تعالى ، وحينئذ يكون المراد الاشعار بتقدم مغاير في الذكر ، مع ما نعتقده في الوفاء بفاصلة رأس الآية ، والله أعلم.
(2). لخالد بن الوليد رضى الله عنه. وعز : مرخم عزى. وترخيمه شاذ ، لأنه ليس رباعيا ولا مؤنثا بالهاء ، وهي شجرة كانت نعبدها الجاهلية ، فضربها بسيفه فخرجت منها جنية صارخة ، فقال لها ذلك البهت. وقيل : ضربها بالفأس حتى قطعها وقتل الجنية. وكفرانك: نصب بمحذوف وجوبا ، كسبحان ، أى : أكفر كفرانا بك ، لا أنزه تنزيها لك ، فهما مصدران مغنيان عن اللفظ بفعليهما. والاهانة : الا ذلال.

ورجع فأخبر رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم فقال عليه السلام تلك العزى ولن تعبد أبدا «1». ومناة : صخرة كانت لهذيل وخزاعة. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : لثقيف. وقرئ : ومناءة ، وكأنها سميت مناة لأنّ دماء النسائك كانت تمنى عندها ، أى : تراق ، ومناءة مفعلة من النوء ، كأنهم كانوا يستمطرون عندها الأنواء تبركا بها. والأخرى ذمّ ، وهي المتأخرة الوضيعة المقدار ، كقوله تعالى قالَتْ أُخْراهُمْ لِأُولاهُمْ أى وضعاؤهم لرؤسائهم وأشرافهم.

ويجوز أن تكون الأوّلية والتقدّم عندهم للات والعزى. كانوا يقولون إنّ الملائكة وهذه الأصنام بنات اللّه ، وكانوا يعبدونهم ويزعمون أنهم شفعاؤهم عند اللّه تعالى مع وأدهم البنات ، فقيل لهم أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنْثى ويجوز أن يراد : أنّ اللات والعزى ومناة إناث ، وقد جعلتموهنّ للّه شركاء ، ومن شأنكم أن تحتقروا الإناث وتستنكفوا من أن يولدن لكم وينسبن إليكم ، فكيف تجعلون هؤلاء الإناث أندادا للّه وتسمونهنّ آلهة قِسْمَةٌ ضِيزى جائرة ، من ضازه يضيزه إذا ضامه ، والأصل : ضوزى «2». ففعل بها ما فعل ببيض ، لتسلم الياء. وقرئ : ضئزى ، من ضأزه بالهمز. وضيز : بفتح الضاد هِيَ ضمير الأصنام ، أى ما هي إِلَّا أَسْماءٌ ليس تحتها في الحقيقة مسميات ، لأنكم تدعون الإلهية لما هو أبعد شيء منها وأشدّه منافاة لها. ونحوه قوله تعالى ما تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا أَسْماءً سَمَّيْتُمُوها أو ضمير الأسماء وهي قولهم ، اللات والعزى ومناة ، وهم يقصدون بهذه الأسماء الآلهة ، يعنى : ما هذه الأسماء إلا أسماء سميتموها بهواكم وشهوتكم ، ليس لكم من اللّه على صحة تسميتها برهان تتعلقون به. ومعنى سَمَّيْتُمُوها سميتم بها ، يقال : سميته زيدا ، وسميته بزيد إِنْ يَتَّبِعُونَ وقرئ بالتاء إِلَّا الظَّنَّ إلا توهم أنّ ما هم عليه حق ، وأنّ آلهتهم شفعاؤهم ، وما تشتهيه أنفسهم ، ويتركون ما جاءهم من الهدى والدليل على أنّ دينهم باطل.

(1). أخرجه ابن مردويه من طريق محمد بن إسحاق عن محمد بن السائب الكلبي عن أبى صالح وعن عكرمة عن ابن عباس أن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بعث خالد بن الوليد إلى العزى ليهدمها. وكانت بنخلة عليها سادن فجاءها خالد فهدمها فذكر نحوه إلى آخره ورواه الواقدي في المغازي والأزرقى في التاريخ من طريقه عن عبد اللّه بن يزيد الهذلي عن سعيد بن عمرو الهذلي قال «قدم رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مكة فذكر القصة وفيها : فبعث خالد ابن الوليد إلى العزى يهدمها فذكر القصة. وكذا ذكره ابن سعد في الطبقات في السرايا وأصل هذه القصة رواها النسائي وأبو يعلى والطبراني وأبو نعيم في الدلائل من حديث أبى الطفيل قال «لما فتح رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم مكة - بعث خالد بن الوليد إلى نخلة - وكانت بها العزى فأتاها خالد ، وكانت على ثلاث شجرات فقطع الشجرات».

(2). قوله «و الأصل قوله ضوزى» لعل صوابه «ضيزى» بكسر الضاد. ويؤيده ما قبله وما بعده اه ملخصا من هامش. (ع)

[سورة النجم (53) : الآيات 24 إلى 25]

أَمْ لِلْإِنْسانِ ما تَمَنَّى (24) فَلِلَّهِ الْآخِرَةُ وَالْأُولى (25)

أَمْ لِلْإِنْسانِ ما تَمَنَّى هي أم المنقطعة ومعنى الهمزة فيها لإنكار ، أى : ليس للإنسان ما تمنى ، والمراد طمعهم في شفاعة الآلهة ، وهو تمنّ على اللّه في غاية البعد ، وقيل : هو قولهم : وَلَئِنْ رُجِعْتُ إِلى رَبِّي إِنَّ لِي عِنْدَهُ لَلْحُسْنى وقيل : هو قول الوليد بن المغيرة «لأوتين مالا وولدا» وقيل هو تمنى بعضهم أن يكون هو النبي صلى اللّه عليه وسلم فللّه الآخرة والأولى أى هو مالكهما.

فهو يعطى منهما من يشاء ويمنع من يشاء ، وليس لأحد أن يتحكم عليه في شيء منهما.

[سورة النجم (53) : آية 26]

وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّماواتِ لا تُغْنِي شَفاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلاَّ مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشاءُ وَيَرْضى (26)

يعنى : أنّ أمر الشفاعة ضيق وذلك أنّ الملائكة مع قربتهم وزلفاهم وكثرتهم واغتصاص السماوات بجموعهم لو شفعوا بأجمعهم لأحد لم تغن شفاعتهم عنه شيئا قط ولم تنفع ، إلا إذا شفعوا من بعد أن بأذن اللّه لهم في الشفاعة لمن يشاء الشفاعة له ويرضاه ويراه أهلا لأن يشفع له ، فكيف تشفع الأصنام إليه بعبدتهم «1».

[سورة النجم (53) : الآيات 27 إلى 30]

إِنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ تَسْمِيَةَ الْأُنْثى (27) وَما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً (28) فَأَعْرِضْ عَنْ مَنْ تَوَلَّى عَنْ ذِكْرِنا وَلَمْ يُرِدْ إِلاَّ الْحَياةَ الدُّنْيا (29) ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدى (30)

لَيُسَمُّونَ الْمَلائِكَةَ أى كل واحد متهم تَسْمِيَةَ الْأُنْثى لأنهم إذا قالوا : الملائكة بنات اللّه ، فقد سموا كل واحد منهم بنتا وهي تسمية الأنثى بِهِ مِنْ عِلْمٍ أى بذلك وبما يقولون «2».

وفي قراءة أبىّ : بها ، أى : بالملائكة. أو التسمية لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئاً يعنى إنما يدرك الحق الذي هو حقيقة الشيء وما هو عليه بالعلم والتيقن لا بالظنّ والتوهم فَأَعْرِضْ عن دعوة من رأيته معرضا عن ذكر اللّه عن الآخرة ولم يرد إلا الدنيا ، ولا تتهالك على إسلامه ، ثم قال إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ

(1). قوله «بعبدتهم» لعله لعبدتهم ، كعبارة النسفي. (ع)
(2). قوله «ربما يقولون» لعله أو بما يقولون. (ع)

أى إنما يعلم اللّه من يجيب ممن لا يجيب ، وأنت لا تعلم ، فخفض على نفسك ولا تتعنها ، فإنك لا تهدى من أحببت ، وما عليك إلا البلاغ. وقوله تعالى ذلِكَ مَبْلَغُهُمْ مِنَ الْعِلْمِ اعتراض أو فأعرض عنه ولا تقابله ، إنّ ربك هو أعلم بالضال والمهتدى ، وهو مجازيهما بما يستحقان من الجزاء.

[سورة النجم (53) : الآيات 31 إلى 32]

وَلِلَّهِ ما فِي السَّماواتِ وَما فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَساؤُا بِما عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى (31) الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَواحِشَ إِلاَّ اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى (32)

قرئ : ليجزي. ويجزى ، بالياء والنون فيهما. ومعناه : أنّ اللّه عز وجل إنما خلق العالم وسوّى هذه الملكوت لهذا الغرض : وهو أن يجازى المحسن من المكلفين والمسيء منهم.

ويجوز أن يتعلق بقوله هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اهْتَدى لأنّ نتيجة العلم بالضال والمهتدى جزاؤهما بِما عَمِلُوا بعقاب ما عملوا من السوء. وبِالْحُسْنَى بالمثوبة الحسنى وهي الجنة. أو بسبب ما عملوا من السوء وبسبب الأعمال الحسنى كَبائِرَ الْإِثْمِ أى الكبائر من الإثم ، لأن الإثم جنس يشتمل على كبائر وصغائر ، والكبائر : الذنوب التي لا يسقط عقابها إلا بالتوبة. وقيل : التي يكبر عقابها بالإضافة إلى ثواب صاحبها وَالْفَواحِشَ ما فحش من الكبائر ، كأنه قال : والفواحش منها خاصة : وقرئ : كبير الإثم ، أى : النوع الكبير منه وقيل : هو الشرك باللّه. واللمم : ما قل وصغر. ومنه : اللمم المس من الجنون ، واللوثة منه.

وألم بالمكان إذا قل فيه لبثه. وألم بالطعام : قل منه أكله : ومنه : لقاء أخلّاء الصّفاء لمام «1»

(1) لقاء أخلاء الصفاء لمام وكل وصال الغانيات ذمام
أى : لقاء الأحباب الذين صفت مودتهم لمام ، أى : قليل فهو مفاعلة من الإلمام وهو الزيادة بلا تلبث ولا تمكث وكل وصال النساء المستغنيات بجمالهن عن التحلي بالحلى أو المخدرات المقيمات في بيوتهن ، من غنى بالمكان كرضى :
أقام به ذمام أى شيء قليل من حقوق الحرمة والذمة ، وإطلاقه على ذلك مجاز ، وحقيقته : الحرمة والذمة والمعاهدة والعهد الذي يتعاهد به المتعاهدان وما يذم الشخص على إضاعته من العهد ، فهو إما مفاعلة من الذمة ، وإما اسم آلة : كالحزام والوثاق ، وقد يستعمل صفة لبئر قليلة الماء ، ويستعمل جمع ذمة. والمعنى أن رؤية الأحباب قليلة إما حقيقة في العادة ، وإما ادعاء واستقلالا لها. ورؤية غيرهم كثيرة. وفيه معنى التحزن. ويجوز أن يقرأ : الدمام بالمهملة ، وهو ما يطلى به الوجه ليحسن ، والمعنى : أن وصالهن مجرد تمويه لا حقيقة له ، والمعنى على التشبيه.

والمراد الصغائر من الذنوب ، ولا يخلو قوله تعالى إِلَّا اللَّمَمَ من أن يكون استثناء منقطعا أو صفة ، كقوله تعالى لَوْ كانَ فِيهِما آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ كأنه قيل : كبائر الإثم غير اللمم ، وآلهة غير اللّه : وعن أبى سعيد الخدري : اللمم هي النظرة ، والغمزة ، والقبلة : وعن السدّى : الخطرة من الذنب : وعن الكلبي : كل ذنب لم يذكر اللّه عليه حدّا ولا عذابا : وعن عطاء : عادة النفس الحين بعد الحين إِنَّ رَبَّكَ واسِعُ الْمَغْفِرَةِ حيث يكفر الصغائر باجتناب الكبائر ، «1» والكبائر بالتوبة فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ فلا تنسبوها إلى زكاء العمل وزيادة الخير وعمل الطاعات : أو إلى

[سورة النجم (53) : الآيات 33 إلى 54]

أَفَرَأَيْتَ الَّذِي تَوَلَّى (33) وَأَعْطى قَلِيلاً وَأَكْدى (34) أَعِنْدَهُ عِلْمُ الْغَيْبِ فَهُوَ يَرى (35) أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِما فِي صُحُفِ مُوسى (36) وَإِبْراهِيمَ الَّذِي وَفَّى (37) أَلاَّ تَزِرُ وازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرى (38) وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلاَّ ما سَعى (39) وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرى (40) ثُمَّ يُجْزاهُ الْجَزاءَ الْأَوْفى (41) وَأَنَّ إِلى رَبِّكَ الْمُنْتَهى (42) وَأَنَّهُ هُوَ أَضْحَكَ وَأَبْكى (43) وَأَنَّهُ هُوَ أَماتَ وَأَحْيا (44) وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثى (45) مِنْ نُطْفَةٍ إِذا تُمْنى (46) وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرى (47) وَأَنَّهُ هُوَ أَغْنى وَأَقْنى (48) وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشِّعْرى (49) وَأَنَّهُ أَهْلَكَ عاداً الْأُولى (50) وَثَمُودَ فَما أَبْقى (51) وَقَوْمَ نُوحٍ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا هُمْ أَظْلَمَ وَأَطْغى (52) وَالْمُؤْتَفِكَةَ أَهْوى (53) فَغَشَّاها ما غَشَّى (54)

(1). قوله «يكفر الصغائر باجتناب الكبائر» هذا عند المعتزلة ، وعند أهل السنة بذلك. أو بمجرد الفضل ، وكذا ما بعده. (ع)

أَكْدى قطع عطيته وأمسك ، وأصله : إكداء الحافر ، وهو أن تلقاه كدية : وهي صلابة كالصخرة فيمسك عن الحفر ، ونحوه : أجبل الحافر ، ثم استعير فقيل : أجبل الشاعر إذا أفحم. روى أن عثمان رضى اللّه عنه كان يعطى ما له في الخير ، فقال له عبد اللّه بن سعد بن أبى سرح وهو أخوه من الرضاعة : يوشك أن لا يبقى لك شيء ، فقال عثمان : إن لي ذنوبا وخطايا ، وإنى أطلب بما أصنع رضا اللّه تعالى وأرجو عفوه ، فقال عبد اللّه : أعطنى ناقتك برحلها وأنا أتحمل عنك ذنوبك كلها ، فأعطاه وأشهد عليه وأمسك عن العطاء. فنزلت. ومعنى تَوَلَّى ترك المركز يوم أحد ، فعاد عثمان إلى أحسن من ذلك وأجمل فَهُوَ يَرى فهو يعلم أن ما قال له أخوه من احتمال أوزاره حق وَفَّى قرئ مخففا ومشدّدا ، والتشديد مبالغة في الوفاء. أو بمعنى : وفر وأتم ، كقوله تعالى فَأَتَمَّهُنَّ وإطلاقه ليتناول كل وفاء وتوفية ، من ذلك : تبليغه الرسالة ، واستقلاله بأعباء النبوّة ، والصبر على ذبح ولده وعلى نار نمروذ ، وقيامه بأضيافه وخدمته إياهم بنفسه ، وأنه كان يخرج كل يوم فيمشى فرسخا يرتاد ضيفا ، فإن وافقه أكرمه ، وإلا نوى الصوم. وعن الحسن : ما أمره اللّه بشيء إلا وفي به. وعن الهزيل بن شرحبيل «1» : كان بين نوح وبين إبراهيم يؤخذ الرجل بجريرة غيره ، ويقتل بأبيه وابنه وعمه وخاله ، والزوج بامرأته ، والعبد بسيده ، فأوّل من خالفهم إبراهيم. وعن عطاء بن السائب : عهد أن لا يسأل مخلوقا ، فلما قذف في النار قال له جبريل وميكائيل : ألك حاجة؟ فقال. أمّا إليكما فلا. وعن النبي صلى اللّه عليه وسلم : وفي عمله كل يوم بأربع ركعات في صدر «2» النهار ، وهي : صلاة الضحى.

وروى : ألا أخبركم لم سمى اللّه خليله الَّذِي وَفَّى؟ كان يقول إذا أصبح وأمسى : فَسُبْحانَ اللَّهِ حِينَ تُمْسُونَ ... إلى... حِينَ تُظْهِرُونَ «3» وقيل : وفي سهام الإسلام : وهي ثلاثون : عشرة في التوبة التَّائِبُونَ ... وعشرة في الأحزاب : إِنَّ الْمُسْلِمِينَ ... وعشرة في المؤمنين قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ ... وقرئ : في صحف ، بالتخفيف أَلَّا تَزِرُ أن مخففة من الثقيلة. والمعنى : أنه لا تزر ،

(1). قوله «و عن الهزيل بن شرحبيل» لعله : الهذيل. (ع)
(2). أخرجه الطبري وابن أبى حاتم وغيرهما من رواية جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبى أمامة مرفوعا به وأتم منه.
(3). أخرجه أحمد والطبراني وابن السنى والطبري وابن أبى حاتم من رواية ابن لهيعة عن زياد عن زيان عن ابن فائد عن سهل بن معاذ عن أبيه به. [.....]

والضمير ضمير الشأن ، ومحل أن وما بعدها : الجر بدلا من ما في صحف موسى. أو الرفع على : هو أن لا تزر ، كأن قائلا قال : وما في صحف موسى وإبراهيم ، فقيل : أن لا تزر إِلَّا ما سَعى إلا سعيه. فإن قلت : أما صح في الأخبار : الصدقة عن الميت ، والحج عنه ، وبه الإضعاف؟ قلت : فيه جوابان ، أحدهما : أن سعى غيره لما لم ينفعه إلا مبنيا على سعى نفسه.

وهو أن يكون مؤمنا صالحا وكذلك الإضعاف - كأن سعى غيره كأنه سعى نفسه ، لكونه تابعا له وقائما بقيامه. والثاني ، أن سعى غيره لا ينفعه إذا عمله لنفسه ، ولكن إذا نواه به فهو بحكم الشرع كالنائب عنه والوكيل القائم مقامه ثُمَّ يُجْزاهُ ثم يجزى العبد سعيه ، يقال : جزاه اللّه عمله وجزاه على عمله ، بحذف الجار وإيصال الفعل.

(1). قال محمود : «أى خلق قوتي الضحك والبكاء» قال أحمد : وخلق أيضا فعلى الضحك والبكاء على قواعد السنة ، وعليه دلت الآية غير مثابرة لتحريفه ، والله الموفق.
(2). قال محمود : «إنما قال عليه لأنها واجبة عليه ... الخ» قال أحمد : هذا من فساد اعتقاد المعتزلة الذي يسمونه مراعاة الصلاح والحكمة ، وأى فساد أعظم مما يؤدى إلى اعتقاد المعتزلة الإيجاب على رب الأرباب ، تعالى الله عن ذلك. ومثل هذه القاعدة التي عفت البراهين القاطعة رسمها وأبطلت حكمها لا يكفى فيها كلمة محتملة : هي لو كانت ظاهرة لوجب تنزيلها على ما يوفق بينها وبين القواطع ، والذي حملت عليه لفظة عليه غير هذا المعنى : وهو أن المراد أن أمر النشأة الأخرى يدور على قدرته عز وجل وإرادته ، كما يقال : دارت قضية فلان على يدي.
وقول المحدثين. على يدي دار الحديث ، أى هو الأصل فيه والسند ، والله أعلم.
(3). قوله «لأنها واجبة عليه في الحكمة» هذا عند المعتزلة لا عند أهل السنة. (ع)
(4). قوله «مرزم الجوزاء» في الصحاح «المرزمان» مرزما الشعريين ، وهما نجمان : أحدهما في الشعرى ، والآخر في الذراع اه. (ع)

وكانت قريش تقول لرسول الله صلى الله عليه وسلم : أبو كبشة ، تشبيها له به لمخالفته إياهم في دينهم «1» ، يريد : أنه رب معبودهم هذا. عاد الأولى : قوم هود ، وعاد الأخرى : إرم. وقيل : الأولى القدماء ، لأنهم أوّل الأمم هلاكا بعد قوم نوح ، أو المتقدمون في الدنيا الأشراف. وقرئ : عادا لولى. وعاد لولى ، بإدغام التنوين في اللام وطرح همزة أولى ونقل ضمتها إلى لام التعريف وَثَمُودَ وقرئ : وثمود أَظْلَمَ وَأَطْغى «2» لأنهم كانوا يؤذونه ويضربونه حتى لا يكون به حراك ، وينفرون عنه حتى كانوا يحذرون صبيانهم أن يسمعوا منه ، وما أثر فيهم دعاؤه «3» قريبا من ألف سنة وَالْمُؤْتَفِكَةَ والقرى التي ائتفكت بأهلها ، أى : انقلبت ، وهم قوم لوط ، يقال : أفكه فأتفك : وقرئ : والمؤتفكات أَهْوى رفعها إلى السماء على جناح جبريل ، ثم أهواها إلى الأرض أى: أسقطها ما غَشَّى تهويل وتعظيم لما صب عليها من العذاب وأمطر عليها من الصخر المنضود.

[سورة النجم (53) : الآيات 55 إلى 58]

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمارى (55) هذا نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولى (56) أَزِفَتِ الْآزِفَةُ (57) لَيْسَ لَها مِنْ دُونِ اللَّهِ كاشِفَةٌ(58)

فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكَ تَتَمارى تتشكك ، والخطاب لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو للإنسان على الإطلاق ، وقد عدد نعما ونقما وسماها كلها آلاء من قبل ما في نقمه من المزاجر والمواعظ للمعتبرين هذا القرآن نَذِيرٌ مِنَ النُّذُرِ الْأُولى أى إنذار من جنس الإنذارات الأولى التي أنذر بها من قبلكم. أو هذا الرسول منذر من المنذرين الأولين ، وقال : الأولى على تأويل الجماعة أَزِفَتِ الْآزِفَةُ قربت الموصوفة بالقرب في قوله تعالى اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ ، لَيْسَ لَها نفس كاشِفَةٌ أى مبينة متى تقوم ، كقوله تعالى لا يُجَلِّيها لِوَقْتِها إِلَّا هُوَ أو ليس لها نفس كاشفة ، أى : قادرة على كشفها إذا وقعت إلا الله ، غير أنه لا يكشفها. أو ليس لها الآن نفس كاشفة بالتأخير ، وقيل الكاشفة مصدر بمعنى الكشف : كالعافية. وقرأ طلحة : ليس لها مما يدعون من دون الله كاشفة ، وهي على الظالمين ساءت الغاشية.

[سورة النجم (53) : الآيات 59 إلى 62]

أَفَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ تَعْجَبُونَ (59) وَتَضْحَكُونَ وَلا تَبْكُونَ (60) وَأَنْتُمْ سامِدُونَ (61) فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا (62)

(1). هذا وهم ، والمعروف أنهم كانوا يقولون له : ابن أبى كبشة ، كما في حديث أبى سفيان الطويل في الصحيحين حيث قال : لقد أمر أمر ابن أبى كبشة أن يخافه ملك بنى الأصفر. يعنى هرقل.
(2). قوله «و قرئ وثمود أظلم وأطغى» يفيد أن قراءة التنوين أشهر. (ع)
(3). قوله «و ما أثر فيهم دعاؤه» أى دعاؤه إياهم إلى الإسلام. (ع)

أَفَمِنْ هذَا الْحَدِيثِ وهو القرآن تَعْجَبُونَ إنكارا وَتَضْحَكُونَ استهزاء وَلا تَبْكُونَ والبكاء والخشوع حق عليكم. وعن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : أنه لم ير ضاحكا بعد نزولها «1». وقرئ : تعجبون تضحكون ، بغير واو وَأَنْتُمْ سامِدُونَ شامخون مبرطمون «2».

وقيل : لاهون لاعبون. وقال بعضهم لجاريته : اسمدى لنا ، أى غنى لنا فَاسْجُدُوا لِلَّهِ وَاعْبُدُوا ولا تعبدوا الآلهة.

عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «من قرأ سورة النجم أعطاه اللّه عشر حسنات بعدد من صدق بمحمد وجحد به بمكة» «3»

سورة القمر

مكية [إلا الآيات 44 و45 و46 فمدنية] وآياتها 55 [نزلت بعد الطارق]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة القمر (54) : الآيات 1 إلى 3]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ (1) وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ (2) وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ (3)

انشقاق القمر من آيات رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم ومعجزاته النيرة. عن أنس بن مالك رضى اللّه عنه أن الكفار سألوا رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم آية فانشق القمر مرتين «4».

(1). أخرجه أحمد في الزهد والثعلبي من حديث صالح بن أبى الخليل. ورواه ابن مردويه من طريق سعيد ابن جبير عن ابن عباس بإسناد ضعيف.
(2). قوله «شامخون مبرطمون» في الصحاح «البرطمة» الانتفاخ من الغضب اه. وفيه «السامد» : رافع رأسه تكبرا ، واللاهي ، والمعنى ، والقائم ، والساكت ، والحزين الخاشع ، واسمأد الرجل بالهمز اسمئدادا : أى ورم غضبا. (ع)
(3). أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي من حديث أبى بن كعب رضى اللّه عنه.
(4). متفق عليه من رواية قتادة عن أنس رضى اللّه عنه.

وكذا عن ابن عباس وابن مسعود رضى اللّه عنهما ، قال ابن عباس : انفلق فلقتين فلقة ذهبت وفلقة بقيت «1». وقال ابن مسعود : رأيت حراء بين فلقتى القمر «2». وعن بعض الناس : أن معناه ينشق يوم القيامة ، وقوله وَإِنْ يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُسْتَمِرٌّ يردّه ، وكفى به رادّا ، وفي قراءة حذيفة : وقد انشق القمر ، أى : اقتربت الساعة وقد حصل من آيات اقترابها أن القمر قد انشق ، كما تقول : أقبل الأمير وقد جاء المبشر بقدومه. وعن حذيفة أنه خطب بالمدائن ثم قال : ألا إن الساعة قد اقتربت وإن القمر قد انشق على عهد نبيكم «3».

مستمر : دائم مطرد ، وكل شيء قد انقادت طريقته ودامت حاله ، قيل فيه : قد استمرّ. لما رأوا تتابع المعجزات وترادف الآيات : قالوا : هذا سحر مستمرّ. وقيل : مستمرّ قوى محكم ، من قولهم : استمر مريره «4». وقيل : هو من استمر الشيء إذا اشتدّت مرارته ، أى : مستبشع عندنا ، مرّ على لهواتنا ، لا نقدر أن نسيغه كما لا يساغ المر الممقر «5». وقيل : مستمر مارّ ، ذاهب يزول ولا يبقى ، تمنية لأنفسهم وتعليلا. وقرئ : وإن يروا وَاتَّبَعُوا أَهْواءَهُمْ وما زين لهم الشيطان من دفع الحق بعد ظهوره وَكُلُّ أَمْرٍ مُسْتَقِرٌّ أى كل أمر لا بد أن يصير إلى غاية يستقرّ عليها ، وإن أمر محمد سيصير إلى غاية يتبين عندها أنه حق ، أو باطل وسيظهر لهم عاقبته. أو وكل أمر من أمرهم وأمره مستقر ، أى : سيثبت ويستقر على حالة خذلان أو نصرة في الدنيا ، وشقاوة أو سعادة في الآخرة. وقرئ بفتح القاف ، يعنى : كل أمر ذو مستقرّ ، أى : ذو استقرار. أو ذو موضع استقرار أو زمان استقرار. وعن أبى جعفر : مستقر ، بكسر القاف والجرّ عطفا على الساعة ، أى : اقتربت الساعة واقترب كل أمر مستقر يستقر ويتبين حاله.

[سورة القمر (54) : الآيات 4 إلى 7]

وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنَ الْأَنْباءِ ما فِيهِ مُزْدَجَرٌ (4) حِكْمَةٌ بالِغَةٌ فَما تُغْنِ النُّذُرُ (5) فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلى شَيْءٍ نُكُرٍ (6) خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْداثِ كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ (7)

(1). أخرجه أبو نعيم في الدلائل ، من رواية الكلبي عن أبى صالح عنه ، وفي الصحيحين عنه : «انشق القمر على زمان رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم».
(2). أخرجه ابن مردويه من رواية منصور عن زيد بن وهب عن ابن مسعود قال : «و لقد رأيت واللّه حراء بين الشقتين» وفي الصحيحين عن أبى معمر عنه «بينما نحن مع رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم بمنى إذا انفلق القمر فلقتين وكان فلقة وراء الجبل وفلقة دونه. فقال : اشهدوا» وفي الباب عن ابن عمر في مسلم. وعن جبير بن مطعم عن الحاكم في المستدرك ، وعن أحمد أيضا.
(3). أخرجه الحاكم والطيراني وأبو نعيم منى رواية ابن علية عن عطاء بن السائب عن ابن عبد الرحمن بهذا وأتم. ورواه عبد الرزاق من وجه آخر عن عطاء ، وكذا أخرجه أحمد من رواية شعبة عن عطاء. [.....]

(4). قوله «استمر مريره» في الصحاح «المرير» : الغريمة وما لطف وطال واشتد فتله من الحبال. (ع)
(5). قوله «كما يساغ المر الممقر» في الصحاح. مقر الشيء وأمقر ، أى : صار مرا. (ع)

مِنَ الْأَنْباءِ من القرآن المودع أنباء القرون الخالية أو أنباء الآخرة ، وما وصف من عذاب الكفار مُزْدَجَرٌ ازدجار أو موضع ازدجار. والمعنى : هو في نفسه موضع الازدجار ومظنة له ، كقوله تعالى لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ أى هو أسوة. وقرئ مزدجر بقلب تاء الافتعال زايا وإدغام الزاى فيها حِكْمَةٌ بالِغَةٌ بدل من ما. أو على : هو حكمة.

وقرئ بالنصب حالا من ما. فإن قلت : إن كانت ما موصولة ساغ لك أن تنصب حكمة حالا ، فكيف تعمل إن كانت موصوفة؟ وهو الظاهر. قلت : تخصصها الصفة : فيحسن نصب الحال عنها فَما تُغْنِ النُّذُرُ نفى أو إنكار. وما منصوبة ، أى : فأى غناء تغنى النذر فَتَوَلَّ عَنْهُمْ لعلمك أن الإنذار لا يغنى فيهم. نصب يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ بيخرجون ، أو بإضمار اذكر.

وقرئ بإسقاط الياء اكتفاء بالكسرة عنها ، والداعي إسرافيل أو جبريل ، كقوله تعالى يَوْمَ يُنادِ الْمُنادِ. إِلى شَيْءٍ نُكُرٍ منكر فظيع تنكره النفوس لأنها لم تعهد بمثله وهو هول يوم القيامة. وقرئ : نكر بالتخفيف ، ونكر بمعنى أنكر خُشَّعاً أَبْصارُهُمْ حال من الخارجين فعل للأبصار وذكر ، كما تقول : يخشع أبصارهم. وقرئ : خاشعة ، على : تخشع أبصارهم.
وخشعا ، على : يخشعن أبصارهم ، وهي لغة من يقول : أكلونى البراغيث ، وهم طيئ. ويجوز أن يكون في خُشَّعاً ضميرهم ، وتقع أَبْصارُهُمْ بدلا عنه. وقرئ. خشع أبصارهم ، على الابتداء والخبر ، ومحل الجملة النصب على الحال. كقوله : وجدته حاضراه الجود والكرم «1» وخشوع الأبصار : كناية عن الذلة والانخزال، لأن ذلة الذليل وعزة العزيز تظهران في عيونهما. وقرئ : يخرجون من الأجداث : من القبور كَأَنَّهُمْ جَرادٌ مُنْتَشِرٌ الجراد مثل في الكثرة والتموّج. يقال في الجيش الكثير المائج بعضه في بعض : جاءوا كالجراد ، وكالدبا «2» منتشر في كل مكان لكثرته مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ مسرعين مادّى أعناقهم إليه. وقيل : ناظرين إليه لا يقلعون بأبصارهم. قال : تعبّدتى نمر بن سعد وقد أرى ونمر بن سعد لي مطيع ومهطع «1»

(1) إن الذي كنت أرجو فضل نائله وجدته حاضراه الجود والكرم
يقول : إن الذي كنت أرجو بقية عطائه أو زيادة عطائه : وجدته مصاحبا الجود والكرم. وهما مبتدأ خبره حاضراه ، والجملة محلها نصب مفعول ثان ، وحضورهما : كناية عن قيامهما به.
(2). قوله «كالجراد وكالدبا» في الصحاح «الدبا» الجراد قبل أن يطير ، والواحدة دباة. (ع)

[سورة القمر (54) : الآيات 9 إلى 17]

كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا عَبْدَنا وَقالُوا مَجْنُونٌ وَازْدُجِرَ (9) فَدَعا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ (10) فَفَتَحْنا أَبْوابَ السَّماءِ بِماءٍ مُنْهَمِرٍ (11) وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً فَالْتَقَى الْماءُ عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (12) وَحَمَلْناهُ عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَدُسُرٍ (13) تَجْرِي بِأَعْيُنِنا جَزاءً لِمَنْ كانَ كُفِرَ (14) وَلَقَدْ تَرَكْناها آيَةً فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (15) فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ (16) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (17)

قَبْلَهُمْ قبل أهل مكة فَكَذَّبُوا عَبْدَنا يعنى نوحا. فإن قلت : ما معنى قوله تعالى فَكَذَّبُوا بعد قوله كَذَّبَتْ «2»؟ قلت : معناه : كذبوا فكذبوا عبدنا أى : كذبوه تكذيبا على عقب تكذيب ، كلما مضى منهم قرن مكذب تبعه قرن مكذب. أو كذبت قوم نوح الرسل فكذبوا عبدنا ، أى : لما كانوا مكذبين بالرسل جاحدين للنبوّة رأسا : كذبوا نوحا ، لأنه من جملة الرسل مَجْنُونٌ هو مجنون وَازْدُجِرَ وانتهروه بالشتم والضرب والوعيد بالرجم في قولهم لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ وقيل : هو من جملة قيلهم ، أى : قالوا هو مجنون ، وقد ازدجرته الجن وتخبطته وذهبت بلبه وطارت بقلبه. قرئ : أنى ، بمعنى : فدعا بأنى مغلوب.

(1). الكلام على حذف حرف الاستفهام الإنكاري ، أى : أيتخذني عبدا هذا الرجل ، وحذف مفعول أرى لدلالة الحال عليه ، وهو قوله : ونمر بن سعد مطيع لي ومهطع ، أى : منتظر أمرى ليمتثله. أو مسرع إلى امتثاله ، وأظهر في مقام الإضمار تعجبا منه واستخفافا بشأنه ، ونمر : بسكون الميم.
(2). قال محمود : «إن قلت : ما فائدة كذبوا بعد قوله كذبت قبلهم قوم نوح ... الخ؟ قال أحمد : قد تقدم كلامه على قوله تعالى وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَما بَلَغُوا مِعْشارَ ما آتَيْناهُمْ فَكَذَّبُوا رُسُلِي وأجاب عنه بجوابين ، أحدهما متعذر هاهنا ، والآخر : ممكن وهو أن ذلك كقول القائل : أقدم فلان على الكفر فكفر بمحمد عليه الصلاة والسلام ، وقد مضى لي جوابان ، أحدهما : يمكن إجراؤه هنا ، وحاصله منع ورود السؤال ، لأن الأول مطلق والثاني مقيد ، فليس تكرارا. وهو كقوله في هذه السورة فَتَعاطى فَعَقَرَ فان تعاطيه هو نفس عقره، ولكن ذكره من جهة عمومه ، ثم من ناحية خصوصه إسهابا ، وهو بمثابة ذكره مرتين ، وجواب آخر هنا : وهو أن المكذب

وإنى : على إرادة القول ، فدعا فقال : إنى مغلوب «1» غلبني قومي ، فلم يسمعوا منى واستحكم اليأس من إجابتهم لي فَانْتَصِرْ فانتقم منهم بعذاب تبعثه عليهم ، وإنما دعا بذلك بعد ما طم عليه الأمر وبلغ السيل الربا «2» ، فقد روى : أنّ الواحد من أمّته كان يلقاه فيخنقه حتى يخر مغشيا عليه. فيفيق وهو يقول : اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون. وقرئ : ففتحنا مخففا ومشدّدا ، وكذلك وفجرنا مُنْهَمِرٍ منصب في كثرة وتتابع لم ينقطع أربعين يوما وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُوناً وجعلنا الأرض كلها كأنها عيون تتفجر ، وهو أبلغ من قولك : وفجرنا عيون الأرض ونظيره في النظم وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْباً. فَالْتَقَى الْماءُ يعنى مياه السماء والأرض. وقرئ : الماءان ، أى : النوعان من الماء السماوي والأرضى. ونحوه قولك : عندي تمران ، تريد : ضربان من التمر : برني ومعقلي. قال : لنا إبلان فيهما ما علمتم «3».

وقرأ الحسن : الماوان ، بقلب الهمزة واوا ، كقولهم : علباوان عَلى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ على حال قدرها اللّه كيف شاء. وقيل : على حال جاءت مقدّرة مستوية : وهي أن قدر ما أنزل من السماء كقدر ما أخرج من الأرض سواء بسواء. وقيل : على أمر قد قدر في اللوح أنه يكون ، وهو هلاك قوم نوح بالطوفان عَلى ذاتِ أَلْواحٍ وَدُسُرٍ أراد السفينة ، وهي من الصفات التي تقوم مقام الموصوفات فتنوب منابها وتودى مؤداها. بحيث لا يفصل بينها وبينها. ونحوه : ..... ولكن قميصي مسرودة من حديد «4»

(1). قوله «فدعا فقال إنى مغلوب» لعله : أى فدعا فقال. (ع)
(2). قوله «و بلغ السيل الربا» لعله جمع ربوة وهي ما ارتفع من الأرض كالرابية. أفاده الصحاح ، لكن فيه في حرف الزاى : والزبية الرابية لا يعلوها الماء. وفي المثل : قد بلغ السيل الزبى. والزبية : حفرة تحفر للأسد في موضع عال لأجل صيده. اه ملخصا. (ع)
(3) لنا إبلان فيهما ما علمتم فعن أيهما ما شئتم فتنكبوا
يقول : لنا قطيعان من الإبل فيهما قرى الأضياف وصلة الفقراء ، فاحملوا ما شئتم منهما على مناكبكم ، أى : خذوه وافصلوه عن الباقي. أو المعنى : اعدلوا عنهما وانصرفوا عما أردتموه منهما في مناكب الأرض ، فاننا حماته.
وأيهما : بالسكون لغة في أى المشددة. وما شئتم : بدل منه. ويجوز أن «ما» زائدة ، أى : ففي أيهما شئتم فانصرفوا في مناكب الأرض وطرقها مبعدين عنهما. ويجوز أن «ما شئتم» مفعول به ، أو مفعول مطلق مقدم على عامله ، والفاء الثانية تكرير للأولى. ويجوز أنها إشارة إلى ما في المعمول من معنى الشرط ، أى : فاما عن أيهما. أو فاما ما شئتم فتنكبوا ، أى : تجنبوا.
(4) مفرشى صهوة الحصان ولكن قميصي مسرودة من حديد
الصهوة : مقعد الفارس من ظهر الفرس. يقول : مفرشى ظهر حصانى. وقميصي : درع من حديد متتابعة النسج ، يعنى أنه ليس من أهل التنعم ، بل من أهل البدو والغزو. والاستدراك من باب استتباع المدح بما يشبه الذم ، مبالغة في المدح.

أراد : ولكن قميصي درع ، وكذلك : ولو في عيون النّازيات بأكرع «1»

أراد : ولو في عيون الجراد. ألا ترى أنك لو جمعت بين السفينة وبين هذه الصفة ، أو بين الدرع والجراد وهاتين الصفتين : لم يصح ، وهذا من فصيح الكلام وبديعه. والدسر : جمع دسار : وهو المسمار ، فعال من دسره إذا دفعه ، لأنه يدسر به منفذه جَزاءً مفعول له لما قدم من فتح أبواب السماء وما بعده ، أى فعلنا ذلك جزاء لِمَنْ كانَ كُفِرَ وهو نوح عليه السلام ، وجعله مكفورا لأنّ النبي نعمة من اللّه ورحمة. قال اللّه تعالى وَما أَرْسَلْناكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعالَمِينَ فكان نوح عليه السلام نعمة مكفورة ، ومن هذا المعنى ما يحكى أنّ رجلا قال للرشيد : اَلحمد للّه عليك ، فقال : ما معنى هذا الكلام؟ قال : أنت نعمة حمدت اللّه عليها. ويجوز أن يكون على تقدير حذف الجار وإيصال الفعل. وقرأ قتادة : كفر ، أى جزاء للكافرين. وقرأ الحسن : جزاء ، بالكسر : أى مجازاة. الضمير في تَرَكْناها للسفينة. أو للفعلة ، أى : جعلناها آية يعتبر بها. وعن قتادة : أبقاها اللّه بأرض الجزيرة. وقيل : على الجودي دهرا طويلا ، حتى نظر إليها أوائل هذه الأمة. والمدكر : المعتبر. وقرئ : مذتكر ، على الأصل. ومذكر ، بقلب التاء ذالا وإدغام الذال فيها. وهذا نحو : مذجر. والنذر : جمع نذير وهو الإنذار وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ أى سهلناه للادكار والاتعاظ ، بأن شحناه بالمواعظ الشافية وصرفنا فيه من الوعد والوعيد فَهَلْ مِنْ متعظ. وقيل : ولقد سهلناه للحفظ وأعنا عليه من أراد حفظه ، فهل من طالب لحفظه ليعان عليه. ويجوز أن يكون المعنى : ولقد هيأناه للذكر ، من يسر ناقته للسفر : إذا رحلها ، ويسر فرسه للغزو، إذا أسرجه وألجمه. قال : وقمت إليه باللجام ميسرا هنالك يجزيني الّذى كنت أصنع «2»

(1) وإنى لأستوفى حقوقي جاهدا ولو في عيون النازيات بأكرع
يقول : ولا بد من الاجتهاد في تخليص حقوقي وأخذها ، ولو كانت في أخفى مكان وأبعده كعيون الجراد النازيات الواثبات بأكرع ، أى أرجل دقيقة جمع كراع : فحذف الموصوف وكنى عنه بالنازيات صفته لجريانها مجرى الاسم. وقيل :
المعنى لا بد من أخذ إبلى ولو كانت هزالا جدا بحيث ترى في عيون الجراد لصغرها ، أى : ولو كانت كأنها كذلك

(2) أرى أم سهل لا تزال نفجع تلوم وما أدرى علام توجع
تلوم على أن أمنح الورد لقحة وما تستوي والورد ساعة تفزع
إذا هي قامت حاسرا مشمعلة نخيب الفؤاد رأسها ما يقنع
وقمت إليه باللجام مبسرا هنالك يجزيني الذي كنت أصنع
للأعرج المعنى الخارجي. وتفجع وتوجع : أصلها بتاءين حذفت إحداهما تخفيفا. وعلام : استفهام عن علة التوجع.
وأسنح : أعطى والورد : اسم فرسه. واللقحة : اللبن الحليب. والحاسر : العريانة الوجه. والمشمعلة : السريعة الجري. والنخيب : الخالية المجوفة. والمراد : التي ذهب عقلها ورأسها ، ما يقنع : أى ما يستر بالقناع لدهشتها وخجلتها. وقوله «الورد الأول» مفعول به، والثاني مفعول معه : هذا حال أم سهل. وأما حال مهره ، فبينها في قوله : وقمت إليه مهيئا ومعدا له باللجام. أو مسهلا له به ، دلالة على أنه كان صعبا لولا اللجام. وهنالك إشارة إلى مكان الحرب ، أو إلى زمانها ، يجزيني : أى يعطيني جزاء صنعي معه ، وشبهه بمن تصح منه المجازاة على طريق المكنية ، وصنعه : هو سقيه اللبن.

ويروى : أن كتب أهل الأديان نحو التوراة والإنجيل لا يتلوها أهلها إلا نظرا ولا يحفظونها ظاهرا كما القرآن.

[سورة القمر (54) : الآيات 18 إلى 22]

كَذَّبَتْ عادٌ فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ (18) إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ رِيحاً صَرْصَراً فِي يَوْمِ نَحْسٍ مُسْتَمِرٍّ (19) تَنْزِعُ النَّاسَ كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ (20) فَكَيْفَكانَ عَذابِي وَنُذُرِ (21) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (22)
وَنُذُرِ وإنذارى لهم بالعذاب قبلَ نزوله. أو إنذار أتى في تعذيبهم لمن بعدهم فِي يَوْمِ نَحْسٍ في يوم شؤم. وقرئ : في يوم نحس ، كقوله فِي أَيَّامٍ نَحِساتٍ. مُسْتَمِرٍّ قد استمر عليهم ودام حتى أهلكهم. أو استمر عليهم جميعا كبيرهم وصغيرهم ، حتى لم يبق منهم نسمة ، وكان في أربعاء في آخر الشهر لا تدور. ويجوز أن يريد بالمستمر : الشديد المرارة والبشاعة تَنْزِعُ النَّاسَ تقلعهم عن أماكنهم ، وكانوا يصطفون آخذين أيديهم بأيدى بعض «1».

ويتدخلون في الشعاب ، ويحفرون الحفر فيندسون فيها فتنزعهم وتكبهم وتدق رقابهم كَأَنَّهُمْ أَعْجازُ نَخْلٍ مُنْقَعِرٍ يعنى أنهم كانوا يتساقطون على الأرض أمواتا وهم جثث طوال عظام ، كأنهم أعجاز نخل وهي أصولها بلا فروع ، منقعر : منقلع : عن مغارسه. وقيل : شبهوا بأعجاز النخل ، لأنّ الريح كانت تقطع رؤوسهم فتبقى أجسادا بلا رؤوس. وذكر صفة نَخْلٍ على اللفظ ، ولو حملها على المعنى لأنث ، كما قال أَعْجازُ نَخْلٍ خاوِيَةٍ.

(1). قوله «آخذين أيديهم بأيدى بعض» عبارة النسفي : آخذين بعضهم بأيدى بعض. (ع)

[سورة القمر (54) : الآيات 23 إلى 32]

كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (23) فَقالُوا أَبَشَراً مِنَّا واحِداً نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذاً لَفِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ (24) أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا بَلْ هُوَ كَذَّابٌ أَشِرٌ (25) سَيَعْلَمُونَ غَداً مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ (26) إِنَّا مُرْسِلُوا النَّاقَةِ فِتْنَةً لَهُمْ فَارْتَقِبْهُمْ وَاصْطَبِرْ (27) وَنَبِّئْهُمْ أَنَّ الْماءَ قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ كُلُّ شِرْبٍ مُحْتَضَرٌ (28) فَنادَوْا صاحِبَهُمْ فَتَعاطى فَعَقَرَ (29) فَكَيْفَ كانَ عَذابِي وَنُذُرِ (30) إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ صَيْحَةً واحِدَةً فَكانُوا كَهَشِيمِ الْمُحْتَظِرِ (31) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (32)

أَبَشَراً مِنَّا واحِداً نصب بفعل مضمر يفسره نَتَّبِعُهُ وقرئ : أبشر منا واحد ، على الابتداء. ونتبعه : خبره ، والأوّل أوجه للاستفهام. كان يقول : إن لم تتبعوني كنتم في ضلال عن الحق ، وسعر : ونيران ، جمع سعير ، فعكسوا عليه فقالوا : إن اتبعناك كنا إذن كما تقول. وقيل : الضلال : الخطأ والبعد عن الصواب. والسعر : الجنون. يقال : ناقة مسعورة. قال : كأنّ بها سعرا إذا العيس هزّها ذميل وإرخا من السّير متعب «1»

فإن قلت : كيف أنكروا أن يتبعوا بشرا منهم واحدا؟ قلت : قالوا أبشرا : إنكارا لأن يتبعوا مثلهم في الجنسية ، وطلبوا أن يكون من جنس أعلى من جنس البشر وهم الملائكة «2» ، وقالوا مِنَّا لأنه إذا كان منهم كانت المماثلة أقوى ، وقالوا واحِداً إنكارا لأن تتبع الأمّة رجلا واحدا. أو أرادوا واحدا من أفنائهم «3» ليس بأشرفهم وأفضلهم ، ويدل عليه قولهم أَأُلْقِيَ الذِّكْرُ عَلَيْهِ مِنْ بَيْنِنا أى أأنزل عليه الوحى من بيننا وفينا من هو أحق منه بالاختيار للنبوّة أَشِرٌ بطر متكبر ، حمله بطره وشطارته وطلبه التعظم علينا على ادعاء ذلك سَيَعْلَمُونَ غَداً عند نزول العذاب بهم أو يوم القيامة مَنِ الْكَذَّابُ الْأَشِرُ أصالح أم من كذبه. وقرئ : ستعلمون بالتاء على حكاية ما قال لهم صالح مجيبا لهم. أو هو كلام الله تعالى على سبيل الالتفات.

(1). السعر : الجنون ، والمسعور : المجنون والذي ضربته السموم. يقول : كأن بناقتي جنون لقوة سيرها ، فالعيس : جمع عيساء وهي النوق البيض ، حركها ذميل وإرخاء : وهما نوعان من السير متعب كل منهما. وإسناد الهز إليهما مجاز عقلى من باب الاسناد للسبب ، وإن أريد بالهز التسيير فيكون من الاسناد للمصدر ، كجد جده ، لكن المسند هنا من المتعدي ، والمسند إليه من اللازم. [.....]
(2). قوله «أعلى من جنس البشر وهم الملائكة» تفضيل الملك على البشر مذهب المعتزلة. وأهل السنة يفضلون البشر على الملك. (ع)
(3). قوله «واحدا من أفنائهم» وفي الصحاح : يقال هو من أفناء الناس ، إذا لم يعلم ممن هو. اه ، ولم يذكر له واحدا. (ع)

وقرئ : الأشر ، بضم الشين ، كقولهم حدث وحدث. وحذر وحذر ، وأخوات لها. وقرئ : الأشر ، وهو الأبلغ في الشرارة. والأخير والأشر : أصل قولهم : هو خير منه وشر منه ، وهو أصل مرفوض ، وقد حكى ابن الأنبارى قول العرب : هو أخير وأشر ، وما أخيره وما أشره مُرْسِلُوا النَّاقَةِ باعثوها ومخرجوها من الهضبة «1» كما سألوا فِتْنَةً لَهُمْ امتحانا لهم وابتلاء فَارْتَقِبْهُمْ فانتظرهم وتبصر ما هم صانعون وَاصْطَبِرْ على أذاهم ولا تعجل حتى يأتيك أمرى قِسْمَةٌ بَيْنَهُمْ مقسوم بينهم : لها شرب يوم ولهم شرب يوم. وإنما قال : بينهم ، تغليبا للعقلاء مُحْتَضَرٌ محضور لهم أو للناقة. وقيل : يحضرون الماء في نوبتهم واللبن في نوبتها صاحِبَهُمْ قدار بن سالف أحيمر ثمود فَتَعاطى فاجترأ على تعاطى الأمر العظيم غير مكترث له ، فأحدث العقر بالناقة. وقيل فتعاطى الناقة فعقرها ، أو فتعاطى السيف صَيْحَةً واحِدَةً صيحة جبريل. والهشيم ، الشجر اليابس المتهشم المتكسر. والمحتظر : الذي يعمل الحظيرة وما يحتظر به ييبس بطول الزمان وتتوطؤه البهائم فيتحطم ويتهشم. وقرأ الحسن بفتح الظاء وهو موضع الاحتظار ، أى : الحظيرة.

[سورة القمر (54) : الآيات 33 إلى 40]

كَذَّبَتْ قَوْمُ لُوطٍ بِالنُّذُرِ (33) إِنَّا أَرْسَلْنا عَلَيْهِمْ حاصِباً إِلاَّ آلَ لُوطٍ نَجَّيْناهُمْ بِسَحَرٍ (34) نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنا كَذلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ (35) وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنا فَتَمارَوْا بِالنُّذُرِ (36) وَلَقَدْ راوَدُوهُ عَنْ ضَيْفِهِ فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ فَذُوقُوا عَذابِي وَنُذُرِ (37) وَلَقَدْ صَبَّحَهُمْ بُكْرَةً عَذابٌ مُسْتَقِرٌّ (38) فَذُوقُوا عَذابِي وَنُذُرِ (39) وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (40)

حاصِباً ريحا تحصبهم بالحجارة ، أى : ترميهم بِسَحَرٍ بقطع من الليل ، وهو السدس الأخير منه. وقيل : هما سحران ، فالسحر الأعلى قبل انصداع الفجر ، والآخر عند انصداعه. وأنشد :

مرّت بأعلى السّحرين تذأل «2»

(1). قوله «و مخرجوها من الهضبة» في الصحاح «الهضبة» الجبل المنبسط على وجه الأرض. (ع)
(2) يا سائلي إن كنت عنها تسأل مرت بأعلى السحرين تذأل
يقول : يا من تسألنى إن كنت تسألنى عن الحمر الوحشية لا غير ، فقد مرت بأعلى السحرين وهو السحر الذي قبل انصداع الفجر. والأدنى : هو الذي عند انصداعه ، أى مرت في السحر الأول تذأل بالهمز ، أى : تسرع في المشي من ذأل كمنع : إذا مشى في خفة. ومنه : ذؤالة الذئب ، وبين تسأل وتذأل الجناس المضارع.

وصرف لأنه نكرة. ويقال : لقيته سحر : إذا لقيته في سحر يومه نِعْمَةً إنعاما ، مفعول له مَنْ شَكَرَ نعمة اللّه بإيمانه وطاعته وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ لوط عليه السلام بَطْشَتَنا أخذتنا بالعذاب فَتَمارَوْا فكذبوا بِالنُّذُرِ متشاكين فَطَمَسْنا أَعْيُنَهُمْ فمسحناها وجعلناها كسائر الوجه لا يرى لها شق. روى أنهم لما عالجوا باب لوط عليه السلام ليدخلوا قالت الملائكة خلهم يدخلوا ، إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَنْ يَصِلُوا إِلَيْكَ فصفقهم جبريل عليه السلام بجناحه صفقه فتركهم يتردّدون لا يهتدون إلى الباب حتى أخرجهم لوط فَذُوقُوا فقلت لهم : ذوقوا على ألسنة الملائكة بُكْرَةً أوّل النهار وباكره ، كقوله : مشرقين ، ومصبحين.

وقرأ زيد بن على رضى اللّه عنهما : بكرة ، غير منصرفة ، تقول : أتيته بكرة وغدوة بالتنوين.

إذا أردت التنكير ، وبغيره إذا عرّفت وقصدت بكرة نهارك وغدوته عَذابٌ مُسْتَقِرٌّ ثابت قد استقرّ عليهم إلى أن يفضى بهم إلى عذاب الآخرة. فإن قلت : ما فائدة تكرير قوله فَذُوقُوا عَذابِي وَنُذُرِ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ؟ قلت : فائدته أن يجدّدوا عند استماع كل نبا من أنباء الأوّلين ادكاراً واتعاظا ، وأن يستأنفوا تنبها واستيقاظًا ، إذا سمعوا الحث على ذلك والبعث عليه ، وأن يقرع لهم العصا مرات ، ويقعقع لهم الشن «1» تارات ، لئلا يغلبهم السهو ولا تستولى عليهم الغفلة ، وهكذا حكم التكرير ، كقوله فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ عند كل نعمة عدّها في سورة الرحمن ، وقوله فَوَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ عند كل آية أوردها في سورة والمرسلات ،

[سورة القمر (54) : الآيات 41 إلى 42]

وَلَقَدْ جاءَ آلَ فِرْعَوْنَ النُّذُرُ (41) كَذَّبُوا بِآياتِنا كُلِّها فَأَخَذْناهُمْ أَخْذَ عَزِيزٍ مُقْتَدِرٍ (42)

النُّذُرُ موسى وهرون وغيرهما من الأنبياء ، لأنهما عرضا عليهم ما أنذر به المرسلون.

أو جمع نذير وهو الإنذار بِآياتِنا كُلِّها بالآيات التسع أَخْذَ عَزِيزٍ لا يغالب مُقْتَدِرٍ لا يعجزه شيء.

[سورة القمر (54) : الآيات 43 إلى 46]

أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَراءَةٌ فِي الزُّبُرِ (43) أَمْ يَقُولُونَ نَحْنُ جَمِيعٌ مُنْتَصِرٌ (44) سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ (45) بَلِ السَّاعَةُ مَوْعِدُهُمْ وَالسَّاعَةُ أَدْهى وَأَمَرُّ (46)

(1). قوله «و يقعقع لهم الشن» القربة الخلق ، كذا في الصحاح. (ع)

أَكُفَّارُكُمْ يا أهل مكة خَيْرٌ مِنْ أُولئِكُمْ الكفار المعدودين : قوم نوح وهود وصالح ولوط وآل فرعون ، أى أهم خير قوّة وآلة ومكانة في الدنيا ، أو أقل كفرا وعنادا يعنى : أنّ كفاركم مثل أولئك بل شر منهم أَمْ أنزلت عليكم يا أهل مكة بَراءَةٌ في الكتب المتقدّمة.

أنّ من كفر منكم وكذب الرسل كان آمنا من عذاب اللّه ، فأمنتم بتلك البراءة نَحْنُ جَمِيعٌ جماعة أمرنا مجتمع مُنْتَصِرٌ ممتنع لا نرام ولا نضام. وعن أبى جهل أنه ضرب فرسه يوم بدر ، فتقدّم في الصف وقال : نحن ننتصر اليوم من محمد وأصحابه ، فنزلت سَيُهْزَمُ الْجَمْعُ عن عكرمة : لما نزلت هذه الآية قال عمر : أى جمع يهزم ، فلما رأى رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم يثب في الدرع ويقول : «سيهزم الجمع» عرف تأويلها «1» وَيُوَلُّونَ الدُّبُرَ أى الأدبار كما قال : كلوا في بعض بطنكم تعفوا «2»

وقرئ : الأدبار أَدْهى أشدّ وأفظع. والداهية : الأمر المنكر لذي لا يهتدى لدوائه وَأَمَرُّ من الهزيمة والقتل والأسر. وقرئ : سنهزم الجمع.

[سورة القمر (54) : الآيات 47 إلى 50]

إِنَّ الْمُجْرِمِينَ فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ (47) يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلى وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ (48) إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْناهُ بِقَدَرٍ (49) وَما أَمْرُنا إِلاَّ واحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ (50)

فِي ضَلالٍ وَسُعُرٍ في هلاك ونيران. أو في ضلال عن الحق في الدنيا ، ونيران في الآخرة مَسَّ سَقَرَ كقولك : وجد مس الحمى وذاق طعم الضرب ، لأنّ النار إذا أصابتهم بحرها ولفحتهم بإيلامها ، فكأنها تمسهم مسا بذلك ، كما يمس الحيوان ويباشر بما يؤذى ويؤلم. وذوقوا : على إرادة القول. وسقر : علم لجهنم. من سقرته النار وصقرته إذا لوحته. قال ذو الرمّة :

(1). أخرجه عبد الرزاق عن معمر عن قتادة ، وعن أيوب عن عكرمة «أن عمر - فذكره» وأتم منه ، ورواه من هذا الوجه إسحاق والطبري وابن أبى حاتم ، ورواه الطبري في الأوسط من رواية عبد المجيد بن أبى رواد عن معمر عن قتادة عن أنس عن عمر موصولا.
(2). تقدم شرح هذا الشاهد بالجزء الأول صفحة 479 فراجعه إن شئت اه مصححه.

إذا ذابت الشّمس اتّقى صقراتها بأفنان مربوع الصّريمة معبل «1»

وعدم صرفها للتعريف والتأنيث كُلَّ شَيْءٍ منصوب بفعل مضمر يفسره الظاهر «2».

وقرئ : كل شيء بالرفع. والقدر والقدر : التقدير. وقرئ بهما ، أى : خلقنا كل شيء مقدّرا محكما مرتبا على حسب ما اقتضته الحكمة. أو مقدّرا مكتوبا في اللوح.

معلوما قبل كونه ، قد علمنا حاله وزمانه وَما أَمْرُنا إِلَّا واحِدَةٌ إلا كلمة واحدة سريعة التكوين كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ أراد قوله كن ، يعنى أنه إذا أراد تكوين شيء لم يلبث كونه.

[سورة القمر (54) : الآيات 51 إلى 53]

وَلَقَدْ أَهْلَكْنا أَشْياعَكُمْ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ (51) وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ (52) وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ (53)
أَشْياعَكُمْ أشباهكم في الكفر من الأمم فِي الزُّبُرِ في دواوين الحفظة وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ من الأعمال ومن كل ما هو كائن مُسْتَطَرٌ مسطور في اللوح.

(1). لذي الرمة يصف بقر الوحش ، يقال : ذابت الشمس إذا اشتد حرها حتى يتساقط من شعاعها مثل اللعاب ، وصقر الصخرة بالمصقر : ضربها بالمعول ليكسرها. وصقرته الشمس : إذا ضربته فغيرت لونه. وصقرة الشمس : اشتداد وقعها على الأرض. والأفنان ، جمع فنن وهو مجتمع الورق الملتف المتكاثف في الغصن.
والمربوع : الذي أصابه مطر الربيع. والصريمة : الرملة المتصرمة من الرمال. والمعبل : كثير الورق مفتوله.
يقول : إذا اشتد حر الشمس توقى شدائده بأغصان شجر سقاه الربيع في هذا الموضع من الرمال. والمعبل : كثير الورق. ومعبل : بدل من مربوع ، كأنه جامد. ويجوز أنه نعت له ، على أن إضافته من إضافة الوصف إلى الظرف ، فلا تفيده التعريف ، فيصح وصفه بالنكرة.
(2). قال محمود : «منصوب بمضمر يفسره الظاهر» قال أحمد : كان قياس ما مهده النحاة : اختيار رفع كُلُّ لكن لم يقرأ بها واحد من السبعة ، وإنما كان كذلك ، لأن الكلام مع الرفع جملة واحدة ، ومع النصب جملتان ، فالرفع أخصر ، مع أنه لا مقتضى النصب هاهنا من أحد الأصناف الستة ، أعنى : الأمر ، والنهى ...
إلى آخرها ، ولا أجد هنا مناسب عطف ولا غيره مما يعدونه من محال اختيارهم للنصب ، فإذا تبين ذلك فاعلم أنه إنما عدل عن الرفع إجماعا لسر لطيف يعين اختيار النصب : وهو أنه لو رفع لوقعت الجملة التي هي خَلَقْناهُ صفة لشيء ، ورفع قوله بِقَدَرٍ خيرا عن كل شيء المقيد بالصفة ، ويحصل الكلام على تقدير : إنا كل شيء مخلوق لنا بقدر ، فأفهم ذلك أن مخلوقا ما يضاف إلى غير الله تعالى ليس بقدر ، وعلى النصب يصير الكلام : إنا خلقنا كل شيء بقدر ، فيفيد عموم نسبة كل مخلوق إلى الله تعالى ، فلما كانت هذه الفائدة لا توازيها الفائدة اللفظية على قراءة الرفع مع ما في الرفع من نقصان المعنى ومع ما في هذه القراءة المستفيضة من مجيء المعنى تاما واضحا كفلق الصبح ، لا جرم أجمعوا على العدول عن الرفع إلى النصب ، لكن الزمخشري لما كان من قاعدة أصحابه تقسيم المخلوقات إلى مخلوق الله ومخلوق لغير الله ، فيقولون : هذا لله بزعمهم ، هذا لنا : فغرت هذه الآية فاه ، وقام إجماع القراء حجة عليه، فأخذ يستروح إلى الشقاء ، وينقل قراءتها بالرفع ، فليراجع له ويعرض عليه إعراض القراء السبعة عن هذه الرواية ، مع أنها هي الأولى في العربية ، لولا ما ذكرناه ، أيجوز في حكمه حينئذ الإجماع على خلاف الأولى لفظا ومعنى من غير معنى اقتضى ذلك أم لا؟ وهو المخير فيما يحكم به ، فالى الله ترجع الأمور.

[سورة القمر (54) : الآيات 54 إلى 55]

إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ (54) فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ (55)

وَنَهَرٍ وأنهار ، اكتفى باسم الجنس. وقيل : هو السعة والضياء من النهار. وقرئ بسكون الهاء. ونهر : جمع نهر، كأسد وأسد فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ في مكان مرضىّ. وقرئ : في مقاعد صدق عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ مقرّبين عند مليك مبهم أمره في الملك والاقتدار ، فلا شيء إلا وهو تحت ملكه وقدرته ، فأى منزلة أكرم من تلك المنزلة وأجمع للغبطة كلها والسعادة بأسرها.

عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «من قرأ سورة القمر في كل غب «1» بعثه الله يوم القيامة ووجهه مثل القمر ليلة البدر» «2»

سورة الرحمن

مدنية وآياتها 78 [نزلت بعد الرعد]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

[سورة الرحمن (55) : الآيات 1 إلى 13]

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمنِ الرَّحِيمِ

الرَّحْمنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيانَ (4) الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ (5) وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ (6) وَالسَّماءَ رَفَعَها وَوَضَعَ الْمِيزانَ (7) أَلاَّ تَطْغَوْا فِي الْمِيزانِ (8) وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ (9) وَالْأَرْضَ وَضَعَها لِلْأَنامِ (10) فِيها فاكِهَةٌ وَالنَّخْلُ ذاتُ الْأَكْمامِ (11) وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحانُ (12) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (13)

(1). قوله «في كل غب بعثه الله» في الصحاح «الغب» : أن ترد الإبل الماء يوما وتدعه يوما. والغب في الزيارة : قال الحسن : في كل أسبوع. (ع)
(2). أخرجه الثعلبي وابن مردويه والواحدي بأسانيدهم إلى أبى بن كعب.

عدّد الله عز وعلا آلاءه ، فأراد أن يقدّم أوّل شيء ما هو أسبق قد ما من ضروب آلائه «1» وأصناف نعمائه ، وهي نعمة الدين ، فقدّم من نعمة الدين ما هو في أعلى مراتبها وأقصى مراقيها : وهو إنعامه بالقرآن وتنزيله وتعليمه ، لأنه أعظم وحى الله رتبة ، وأعلاه منزلة ، وأحسنه في أبواب الدين أثرا ، وهو سنام الكتب السماوية ومصداقها والعيار عليها ، وأخر ذكر خلق الإنسان عن ذكره ، ثم أتبعه إياه : ليعلم أنه إنما خلقه الدين ، وليحيط علما بوحيه وكتبه وما خلق الإنسان من أجله ، وكأن الغرض في إنشائه كان مقدّما عليه وسابقا له ، ثم ذكر ما تميز به من سائر الحيوان من البيان ، وهو المنطق الفصيح «2» المعرب عما في الضمير والرَّحْمنُ مبتدأ ، وهذه الأفعال مع ضمائرها أخبار مترادفة ، وإخلاؤها من العاطف لمجيئها على نمط التعديد ، كما تقول : زيد أغناك بعد فقر ، أعزك بعد ذل ، كثرك بعد قلة ، فعل بك ما لم يفعل أحد بأحد ، فما تنكر من إحسانه؟ بِحُسْبانٍ بحساب معلوم وتقدير سوىّ تَجْرِيانِ في بروجهما ومنازلهما. وفي ذلك منافع للناس عظيمة : منها علم السنين والحساب وَالنَّجْمُ والنبات الذي ينجم من الأرض لا ساق له كالبقول وَالشَّجَرُ الذي له ساق. وسجودهما : انقيادهما لله فيما خلقا له ، وأنهما لا يمتنعان ، تشبيها بالساجد من المكلفين في انقياده. فإن قلت : كيف اتصلت هاتان الجملتان بالرحمن؟ قلت : استغنى فيهما عن الوصل اللفظي بالوصل المعنوي ، لما علم أن الحسبان حسبانه ، والسجود له لا لغيره ، كأنه قيل : الشمس والقمر بحسبانه ، والنجم والشجر يسجدان له. فإن قلت : كيف أخل بالعاطف في الجمل الأول ، ثم جيء به بعد؟ قلت : بكت بتلك الجمل الأول واردة على سنن التهديد ، ليكون كل واحدة من الجمل مستقلة في تقريع الذين أنكروا الرحمن وآلاءه ، كما يبكت منكر أيادى المنعم عليه من الناس بتعديدها عليه في المثال الذي قدّمته ، ثم ردّ الكلام إلى منهاجه بعد التبكيت في وصل ما يجب وصله للتناسب والتقارب

(1). قال محمود : «عدد الله عز وجل آلاءه فأراد أن يقدم أول شيء ما هو أسبق قد ما في ضروب آلائه ... الخ» قال أحمد : نغير من هذا الكلام قوله : أن خلق الإنسان كان الغرض فيه. أى المراد منه : أن يحيط علما بالكتب والوحى ، ويعوض بأن المراد بخلقه : أن يدعى إلى ذلك ، لا أن يقع ذلك منه ، فهذا هو المراد العام ، ثم منهم من أراد الله منه أن يحيط علما بالدين فيسر له ذلك ، ومنهم من أراد ضلالته وجهالته فبعد عنه ولم يوفق ، والله الموفق الصواب.
(2). قال محمود : «ثم ذكر ما تميز به عن سائر الحيوان من البيان ، وهو المنطق الفصيح المعرب ... الخ» قال أحمد : وإنما خص الجمل الأول بذكرها تبكيتا للإنسان لأجل التصاق معانيها به ، ألا ترى أنه مذكور فيها نطقا وإضمارا وحذفا مدلولا عليه في الكلام ، فهو منطوق به مظهرا في قوله خَلَقَ الْإِنْسانَ ومضمرا في قوله عَلَّمَهُ الْبَيانَ ومدلولا على حذفه في قوله عَلَّمَ الْقُرْآنَ فانه المفعول الثاني، أما قوله الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبانٍ وَالنَّجْمُ وَالشَّجَرُ يَسْجُدانِ فليس للإنسان فيهما ذكر البتة ، وجل المقصود من سياقهما التنبيه على عظمة الله تعالى.

بالعاطف. فإن قلت : أى تناسب بين هاتين الجملتين حتى وسط بينهما العاطف؟ قلت : إنّ الشمس والقمر سماويان ، والنجم والشجر أرضيان ، فبين القبيلين تناسب من حيث التقابل ، وأنّ السماء والأرض لا تزالان تذكران قرينتين ، وأن جرى الشمس والقمر بحسبان من جنس الانقياد لأمر الله ، فهو مناسب لسجود النجم والشجر وقيل : عَلَّمَ الْقُرْآنَ جعله علامة وآية.

وعن ابن عباس رضى اللّه عنه : الإنسان آدم. وعنه أيضا : محمد رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم.

وعن مجاهد النجم : نجوم السماء وَالسَّماءَ رَفَعَها خلقها مرفوعة مسموكة ، حيث جعلها منشأ أحكامه ، ومصدر قضاياه ، ومتنزل أوامره ونواهيه ، ومسكن ملائكته الذين يهبطون بالوحي على أنبيائه ، ونبه بذلك على كبرياء شأنه وملكه وسلطانه وَوَضَعَ الْمِيزانَ وفي قراءة عبد اللّه : وخفض الميزان ، وأراد به كل ما توزن به الأشياء وتعرف مقاديرها من ميزان وقرسطون ومكيال ومقياس ، أى خلقه موضوعا مخفوضا على الأرض : حيث علق به أحكام عباده وقضاياهم وما تعبدهم به من التسوية والتعديل في أخذهم وإعطائهم أَلَّا تَطْغَوْا لئلا تطغوا. أو هي أن المفسرة. وقرأ عبد اللّه : لا تطغوا بغير أن ، على إرادة القول وَأَقِيمُوا الْوَزْنَ بِالْقِسْطِ وقوّموا وزنكم بالعدل وَلا تُخْسِرُوا الْمِيزانَ ولا تنقصوه : أمر بالتسوية ونهى عن الطغيان الذي هو اعتداء وزيادة ، وعن الخسران الذي هو تطفيف ونقصان.

وكرّر لفظ الميزان : تشديدا للتوصية به ، وتقوية للأمر باستعماله والحث عليه. وقرئ.

والسماء. بالرفع. ولا تخسروا بفتح التاء وضم السين وكسرها وفتحها. يقال : خسر الميزان يخسره ويخسره ، وأمّا الفتح فعلى أن الأصل : ولا تخسروا في الميزان ، فحذف الجار وأوصل الفعل. ووَضَعَها خفضها مدحوّة على الماء لِلْأَنامِ للخلق ، وهو كل ما على ظهر الأرض من دابة. وعن الحسن : الإنس والجنّ ، فهي كالمهاد لهم يتصرفون فوقها فاكِهَةٌ ضروب مما يتفكه به ، وَالْأَكْمامِ كل ما يكم أى يغطى من ليفة وسعفة وكفرّاة «1» وكله منتفع به كما ينتفع بالمكموم من ثمره وجماره وجذوعه. وقيل الأكمام أوعية التمر : الواحد كم. بكسر الكاف. وَالْعَصْفِ ورق الزرع ، وقيل التبن وَالرَّيْحانُ الرزق وهو اللب : أراد فيها ما يتلذذ به من الفواكه والجامع بين التلذذ والتغرى وهو ثمر النخل ، وما يتغذى به وهو الحب.

وقرئ : والريحان ، بالكسر. ومعناه : والحب ذو العصف الذي هو علف الأنعام ، والريحان الذي هو مطعم الناس. وبالضم على : وذو الريحان. فحذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

(1). قوله «و سعقة وكفراة» الذي في الصحاح «الكفرى بلا تاء ، وأنها وعاء الطلع اه ، فلعل عبارة المفسر من ليفه وسعفه وكفراه باضافة كل إلى ضمير النخل ، كما سيأتى في ثمره وجماره وجذوعه ، والناسخ توهم أنها هاء التأنيث فتقطها فوق. (ع) [.....]

وقيل : معناه وفيها الريحان الذي يشم ، وفي مصاحف أهل الشأم : والحب ذو العصف والريحان ، أى : وخلق الحب والريحان : أو وأخص الحب والريحان. ويجوز أن يراد : وذا الريحان ، فيحذف المضاف ويقام المضاف إليه مقامه ، والخطاب في رَبِّكُما تُكَذِّبانِ للثقلين بدلالة الأنام عليهما. وقوله سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ.

[سورة الرحمن (55) : الآيات 14 إلى 16]

خَلَقَ الْإِنْسانَ مِنْ صَلْصالٍ كَالْفَخَّارِ (14) وَخَلَقَ الْجَانَّ مِنْ مارِجٍ مِنْ نارٍ (15) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (16)
الصلصال : الطين اليابس له صلصلة. والفخار : الطين المطبوخ بالنار وهو الخزف. فإن قلت : قد اختلف التنزيل في هذا ، وذلك قوله عزّ وجل مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ، مِنْ طِينٍ لازِبٍ ، «من تراب». قلت : هو متفق في المعنى ، ومفيد أنه خلقه من تراب : جعله طيناً ، ثم حمأ مسنونا ، ثم صلصالا. وَالْجَانَّ أبو الجن. وقيل : هو إبليس. والمارج : اللهب الصافي الذي لا دخان فيه. وقيل : المختلط بسواد النار ، من مرج الشيء إذا اضطرب واختلط.

فإن قلت : فما معنى قوله مِنْ نارٍ؟ قلت : هو بيان لمارج ، كأنه قيل : من صاف من نار.

أو مختلط من نار أو أراد من نار مخصوصة ، كقوله تعالى فَأَنْذَرْتُكُمْ ناراً تَلَظَّى.

[سورة الرحمن (55) : الآيات 17 إلى 18]

رَبُّ الْمَشْرِقَيْنِ وَرَبُّ الْمَغْرِبَيْنِ (17) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (18)

قرئ : رب المشرقين ورب المغربين ، بالجر بدلا من رَبِّكُما وأراد : مشرقى الصيف والشتاء ومغربيهما.

[سورة الرحمن (55) : الآيات 19 إلى 23]

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيانِ (19) بَيْنَهُما بَرْزَخٌ لا يَبْغِيانِ (20) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (21) يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجانُ (22) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (23)

مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ أرسل البحر الملح والبحر العذب متجاورين متلاقيين ، لا فصل بين الماءين في مرأى العين بَيْنَهُما بَرْزَخٌ حاجز من قدرة اللّه تعالى لا يَبْغِيانِ لا يتجاوزان حدّيهما ولا يبغى أحدهما على الآخر بالممازجة. قرئ يخرج ويخرج من أخرج. وخرج. ويخرج : أى اللّه عز وجل اللؤلؤ والمرجان بالنصب. ونخرج ، بالنون. واللؤلؤ : الدرّ. والمرجان : هذا الخرز الأحمر وهو البسذ. وقيل : اللؤلؤ كبار الدرّ. والمرجان : صغاره. فإن قلت : لم قال مِنْهُمَا وإنما يخرجان من الملح «1»؟ قلت : لما التقيا وصارا كالشيء الواحد : جاز أن يقال : يخرجان منهما ، كما يقال يخرجان من البحر ، ولا يخرجان من جميع البحر ولكن من بعضه.

وتقول : خرجت من البلد وإنما خرجت من محلة من محاله ، بل من دار واحدة من دوره.

وقيل : لا يخرجان إلا من ملتقى الملح والعذب.

[سورة الرحمن (55) : الآيات 24 إلى 25]

وَلَهُ الْجَوارِ الْمُنْشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَعْلامِ (24) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (25)

الْجَوارِ السفن. وقرئ : الجوار بحذف الياء ورفع الراء ، ونحوه :

لها ثنايا أربع حسان وأربع فكلها ثمان «2»

والْمُنْشَآتُ المرفوعات الشرع «3». وقرئ بكسر الشين : وهي الرافعات الشرع أو اللاتي ينشئن الأمواج بجريهنّ. والأعلام : جمع علم ، وهو الجبل الطويل.

[سورة الرحمن (55) : الآيات 26 إلى 28]

كُلُّ مَنْ عَلَيْها فانٍ (26) وَيَبْقى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ (27) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (28)

عَلَيْها على الأرض وَجْهُ رَبِّكَ ذاته ، والوجه يعبر به عن الجملة والذات «4» ، ومساكين مكة يقولون : أين وجه عربى كريم ينقذني من الهوان. وذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرامِ صفة الوجه.

وقرأ عبد اللّه : ذى ، على : صفة ربك. ومعناه : الذي يجله الموحدون عن التشبيه بخلقه وعن أفعالهم «5».

---

(1). قال محمود : «إن قلت لم قال منهما وإنما يخرجان من الملح ... الخ» قال أحمد : هذا القول الثاني مردود بالمشاهدة ، والصواب هو الأول ، ومثله لَوْلا نُزِّلَ هذَا الْقُرْآنُ عَلى رَجُلٍ مِنَ الْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ وإنما أريد إحدى القريتين ، هذا هو الصحيح الظاهر ، وكما تقول: فلان من أهل ديار مصر ، وإنما بلده محلة واحدة منها.

(2). الثنايا : مقدم الأسنان ، وظاهر البيت أنها أربع من فوق وأربع من تحت ، فكل ثناياها ثمان.

وروى : فثغرها ثمان ، وهذه الرواية تناسب ما اشتهر من أن الثنايا اثنان من فوق واثنان من تحت فهي أربع ، ويليها مثلها رباعيات ، ويليها مثلها أنياب ، ويليها مثلها ضواحك ، وما بقي أضراس. ثم نواجذ. وعامل المنقوص معاملة الصحيح ، فرفع ثمان خبرا للمبتدإ ، وصارت الياء المحذوفة نسيا منسيا.

(3). قوله «و المنشآت المرفوعات الشرع» في الصحاح «الشراع» : شراع السفينة اه ، فالشرع جمعه ، ككتاب وكتب. (ع)

(4). قال محمود : «الوجه يعبر به عن الذات ومساكين مكة يقولون ... الخ» قال أحمد : المعتزلة ينكرون الصفات الالهية التي دل عليها العقل ، فكيف بالصفات السمعية ، على أن من الأشعرية من حمل الوجه واليدين والعينين على نحو ما ذكر ، ولم ير بيانها صفات سمعية.

(5). قوله «عن التشبيه بخلقه وعن أفعالهم» إجلاله عن أفعال الخلق مبنى على مذهب المعتزلة : أنه لا يخلق أفعال العباد. ومذهب أهل السنة : أنه هو الخالق لها. (ع)

أو الذي يقال له : ما أجلك وأكرمك. أو من عنده الجلال والإكرام للمخلصين من عباده ، وهذه الصفة من عظيم صفات اللّه ، ولقد قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم : «ألظوا «1» بياذا الجلال والإكرام» «2» وعنه عليه

[سورة الرحمن (55) : الآيات 29 إلى 30]

يَسْئَلُهُ مَنْ فِي السَّماواتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ (29) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (30)

كل من أهل السماوات والأرض مفتقرون إليه ، فيسأله أهل السماوات ما يتعلق بدينهم ، وأهل الأرض ما يتعلق بدينهم ودنياهم كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ أى كل وقت وحين يحدث أمورا ويجدد أحوالا ، كما روى عن رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم أنه تلاها فقيل له : وما ذلك الشأن؟ فقال : «من شأنه أن يغفر ذنبا ويفرج كربا ، ويرفع قوما ويضع آخرين» «4» وعن ابن عيينة : الدهر عند اللّه تعالى يومان ، أحدهما : اليوم الذي هو مدّة عمر الدنيا فشأنه فيه الأمر والنهى والإماتة والإحياء والإعطاء والمنع. والآخر : يوم القيامة ، فشأنه فيه الجزاء والحساب. وقيل : نزلت في اليهود حين قالوا : إنّ اللّه لا يقضى يوم السبت شيئا. وسأل بعض الملوك وزيره عنها فاستمهله إلى الغد وذهب كئيبا يفكر فيها ، فقال غلام له أسود : يا مولاي ، أخبرنى ما أصابك لعل اللّه يسهل لك على يدي ، فأخبره فقال له : أنا أفسرها للملك فأعلمه ، فقال : أيها الملك شأن اللّه أن يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل ، ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ،

(1). قوله «ألظوا بياذا الجلال» أى : الزموا ذلك. اه صحاح. (ع)
(2). أخرجه الترمذي من رواية يزيد الرقاشي. عن أنس ويزيد ضعيف ، ومن رواية مؤمل عن حماد بن حميد عن أنس مرفوعا ، وقال غيره مخفوضا وإنما هو عن حماد عن حميد عن الحسن مرسلا وهو أصح ، وأخرجه من رواية مؤمل إسحاق وابن أبى شيبة ، وبالثاني أبو يعلى والبزار قال ابن أبى حاتم عن أبيه : أخطأ فيه مؤمل ، والصحيح ما رواه أبو سلمة عن حماد عن ثابت. وحميد عن الحسن مرسلا ورواه ابن مردويه من رواية روح بن عبادة عن حماد عن حميد عن أنس موصولا أيضا ، وهذه متابعة قوية لمؤمل ، وفي الباب عن ربيعة بن عامر بن نجاد أخرجه الحاكم ، وفيه رشيد بن سعد ، وهو ضعيف وعن ابن عمر أخرجه ابن مردويه وإسناده ضعيف
(3). أخرجه الترمذي والبخاري في الأدب المفرد وأحمد والبزار والطبراني من طريق أبى الدرداء عن اللجلاج عن معاذ بن جبل فذكره.
(4). أخرجه ابن ماجة وابن حبان والطبراني والبزار وأبو يعلى من حديث أبى الدرداء ، وفي الباب عن ابن عمر أخرجه البزار بإسناد ضعيف. وعن عبد اللّه بن حبيب الأزدى. أخرجه البزار والطبراني وابن أبى حاتم قال البزار : لا أعلم أسند عبد اللّه بن حبيب إلا هذا الحديث.

ويشفى سقيما ويسقم سليما ، ويبتلى معافا ويعافى مبتلى ، ويعز ذليلا ويذل عزيزا ويفقر غنيا ويغنى فقيرا ، فقال الأمير : أحسنت وأمر الوزير أن يخلع عليه ثياب الوزارة فقال : يا مولاي هذا من شأن اللّه. وعن عبد اللّه بن طاهر أنه دعا الحسين ابن الفضل وقال له : أشكلت على ثلاث آيات ، دعوتك لتكشفها لي : قوله تعالى فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ وقد صحّ أنّ الندم توبة وقوله تعالى كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ وقد صح أنّ القلم قد جف بما هو كائن إلى يوم القيامة. وقوله تعالى وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى فما بال الأضعاف؟

فقال الحسين : يجوز أن لا يكون الندم توبة في تلك الأمّة. ويكون توبة في هذه الأمّة ، لأنّ اللّه تعالى خص هذه الأمّة بخصائص لم يشاركهم فيها الأمم ، وقيل إن ندم قابيل لم يكن على قتل هابيل ، ولكن على حمله ، وأما قوله وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسانِ إِلَّا ما سَعى فمعناه : ليس له إلا ما سعى عدلا ، ولى أن أجزيه بواحدة ألفا فضلا ، وأما قوله كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ فإنها شئون يبديها لا شئون يبتدئها : فقام عبد اللّه وقبل رأسه وسوّغ خراجه ،

[سورة الرحمن (55) : الآيات 31 إلى 32]

سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَ الثَّقَلانِ (31) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (32)

سَنَفْرُغُ لَكُمْ مستعار من قول الرجل لمن يتهدده : سأفرغ لك ، يريد : سأتحرّد للإيقاع بك من كل ما يشغلني عنك، حتى لا يكون لي شغل سواه ، والمراد : التوفر على النكاية فيه والانتقام منه ، ويجوز أن يراد : ستنتهى الدنيا وتبلغ آخرها ، وتنتهي عند ذلك شئون الخلق التي أرادها بقوله كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ فلا يبقى إلا شأن واحد وهو جزاؤكم ، فجعل ذلك فراغا لهم على طريق المثل ، وقرئ : سيفرغ لكم ، أى : اللّه تعالى ، وسأفرغ لكم ، وسنغفر بالنون مفتوحا ومكسورا وفتح الراء ، وسيفرغ بالياء مفتوحا ومضموما مع فتح الراء ، وفي قراءة أبىّ، سنفرغ إليكم ، بمعنى : سنقصد إليكم ، والثقلان : الإنس والجن ، سميا بذلك لأنهما ثقلا الأرض ،

[سورة الرحمن (55) : الآيات 33 إلى 36]

يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطارِ السَّماواتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطانٍ (33) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (34) يُرْسَلُ عَلَيْكُما شُواظٌ مِنْ نارٍ وَنُحاسٌ فَلا تَنْتَصِرانِ (35) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ(36)

يا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ كالترجمة لقوله : أيها الثقلان إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أن تهربوا من قضائي وتخرجوا من ملكوتي ومن سمائي وأرضى ، فافعلوا ، ثم قال : لا تقدرون على

النفوذ إِلَّا بِسُلْطانٍ يعنى بقوّة وقهر وغلبة ، وأنى لكم ذلك ، ونحوه وَما أَنْتُمْ بِمُعْجِزِينَ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّماءِ وروى : أنّ الملائكة عليهم السلام تنزل فتحيط بجميع الخلائق ، فإذا رآهم الجن والإنس هربوا ، فلا يأتون وجها إلا وجدوا الملائكة أحاطت به. قرئ : شواظ ونحاس ، كلاهما بالضم والكسر ، والشواظ : اللهب الخالص.

والنحاس : الدخان ، وأنشد : تضيء كضوء سراج السّليط لم يجعل الله فيه نحاسا «1»

وقيل : الصفر المذاب يصب على رءوسهم. وعن ابن عباس رضى اللّه عنهما : إذا خرجوا من قبورهم ساقهم شواظ إلى المحشر. وقرئ : ونحاس ، مرفوعا عطفا على شواظ. ومجرورا عطفا على نار. وقرئ : ونحس : جمع نحاس ، وهو الدخان ، نحو لحاف ولحف. وقرئ : ونحس أى : ونقتل بالعذاب. وقرئ : نرسل عليكما شواظا من نار ونحاسا فَلا تَنْتَصِرانِ فلا تمتنعان.

[سورة الرحمن (55) : الآيات 37 إلى 40]

فَإِذَا انْشَقَّتِ السَّماءُ فَكانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهانِ (37) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (38) فَيَوْمَئِذٍ لا يُسْئَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلا جَانٌّ (39) فَبِأَيِّ آلاءِ رَبِّكُما تُكَذِّبانِ (40)

وَرْدَةً حمراء كَالدِّهانِ كدهن الزيت ، كما قال : كالمهل ، وهو دردىّ الزيت ، وهو جمع دهن. أو اسم ما يدهن به كالحزام والإدام. قال : كأنّهما مزادتا متعجل فريّان لمّا تدهنا بدهان «2»

(1). النابغة الجعدي. والسليط : الشيرج ، ولم يجعل : جملة حالية من السراج. والنحاس : الدخان. وشرط مجيء الحال من المضاف إليه موجود ، لأن الضوء مثل جزئه ، ولعله يصف وجه محبوبته التي قال فيها :
إذا ما الضجيع ثنى عطفها ... البيت : شبهه بالسراج في الاضاءة ، بقيد أن لا يكون فيه دخان ، لأن ضوء وجهها كذلك.
فهو من التشهيه المقيد.
(2). لامرئ القيس. والمزادة : قربة صغيرة يتزود فيها الماء للسفر. والفرى - وزن فعيل بمعنى مفعول ، من فريت الجلد إذا شققته. ولما : حرف جزم ونفى كلم ، إلا أنه يختص بتوقع منفية. ويروى : لما تلقا ، أى : تدهنا ، من سلقت الجلد إذا دهنته. والدهان : ما يدهن به ، كالإدام ما يؤتدم به : شبه عينيه من كثرة البكاء بقربتى رجل متعجل ، وهو من يأتى أهله بالاعجالة : وهي ما يعجله الراعي إلى أهله من اللبن قبل وقت الحلب.
ويمكن أن المعنى أنه مستعجل لم يصبر حتى يدبغهما ويدهنهما ، فريان : مشقوقتان ، أى على حالة سلخهما لم يدهنا بدهن قط. وقيل : معنى التعجل أنه لم يحكم ربطهما. فهما يذرفان ماء من فميهما لا من ثقويهما.